لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

لتقىّ الدين أحمـــد بن على المقريزى

قام بنشره

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)

مدرّس بقسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجـزء الأوّل ـ القسم الثانى

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٦

تصـــــدير

للقسم الثـانى من الجزء الأوّل من كتاب السلوك للقريزى

يشمل هـذا القسم بقية ماكتب المقريزى فى الدولة الأيوبية بمصر، وشطرا من تاريخ دولة المماليك الأولى حتى آخر عهد السلطان سلامش ثانى أولاد السلطان الظاهر بيبرس . وهذا يقابل ماكان قد بقى مما ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك فى (Blochet : Histoire d'Egypte de Makrizi)، والجزء الأوّل مما ترجمه منه (Quatremère : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 Volumes)[1] .

* * *

ولقد أتى على ظهور القسم الأوّل من الجزء الأوّل من هذا المؤلف الطويل نحو سنتين، عثرتُ فى أثنائها ، بالبحث فى المتحف البريطانى بلندن صيف ١٩٣٤ ، على بعض معلومات مكملة لما قد كنت ناقشته فى تصدير القسم الأوّل المذكور من حيث النسخ الخطية المعروفة من كتاب السلوك، وما طبع منها بلغته أو مترجما أو ملخصا، ومن حيث الرسم الإملائى الذى نحاه المقريزى فى الكتابة . ولما كان غرضى فى تصدير هذا القسم الثانى لايعدو ماكان من غرضى عند تصدير القسم الأوّل، وهو مجرّد التعريف بكتاب السلوك ومؤلفه، وبالنحو الذى سرتُ عليه فى نشره وتحريره ووضع حواشيه، فإنى لهذا مقتصر هنا على إضافة تلك المعلومات التكميلية المشار إليها ، على أنْ أرجئ كتابة مقدّمة شاملة وافية للجزء الأوّل كلّه عند تمامه .

ولذا فإنى أضيف هنا الى قائمة النسـخ الخطية المذكورة فى تصدير القسم الأوّل نسخة موجودة فى مكتبة الجامعة بكامبردج بإنجلترة ، تحت رقمى ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، وهى مكوّنة من الجزءين الأوّل والرابع . انظر (Browne : A Handlist of the Muhammadan Manuscripts in the library of the University of Cambridge p. 97. Cambridge University Press,1900). وهناك نسخة أخرى يملكها (Mr. A. G. Ellis)،

---

(١) انظر هنا ص ٣٦٨ (حاشية ١) .

الأمين المساعد للقسم الشرقى بالمتحف البريطانى سابقا ، وقد تفضّـل حين وجودى بلندن فى الصيف المذكور فسمح لى بالاطلاع عليها،وهى مكوّنة من الجزء الثالث فقط . وهاتان النسختان ، وغيرهما ممـا هو مقطوع بوجوده فى شتّى المكاتب والمتاحف من كتاب السلوك كما تقدّم بتصدير القسم الأوّل ، ستكون كلها موضع مقارنة ومفاضلة، لابدّ منها قبل اختيار أحسن النسخ من الناحية العلمية، لتهيئة الأجزاء الباقية للطبع .

* * *

أما ما طبع من كتاب الســلوك بلغته العربيــة الأصلية ، أو مترجما أو ملخصا ، فيوجد فى (W. D. Tiesenhausen : Recueil de Materiaux Relatifs à l'Histoire de la Horde d'Or, Tome I. pp. 417-442). كل ما أورده المقريزى فى كتابه خاصـا بمغول القفجاق المعروفين باسم القبيلة الذهبية ، من سنة ٦٥٢ ﻫ الى ســنة ٨١٩ ﻫ ، مجموعا على هيئــة متن متّصل مرتّب على حسب السنين . وتوجد أيضا فى مجموعة المستشرق (Sylvestre de Sacy) المعروفة باسم كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور (ج ١، ص ١٧٠ — ١٧٦)، قطعة من الســلوك خاصة بسنة ٧٩٦ ﻫ، وهى مترجمة إلى الفرنسية فى نفس المرجع المسمى فى تلك اللغة باسم : (Sylvestre de Sacy Chrestomathie Arabe, 3 Tomes, Paris, 1824-1826) ، حيث توجـد القطعــة المشار إليها فى (Tome 1. pp. 484-498) . ويوجد أيضا فى (Petitots: Collection des Mémoires sur l'Histoire de France, Série I, Tome III. pp. 3-37, Paris 1824) تلخيص لمـا جاء فى كتاب السلوك من حكم العادل الثانى إلى سنة ٦٤٨ ﻫ[1] .

* * *

أما عن الرسم الإملائى فقد أشرت فى تصدير القسم الأوّل إلى طريقة المقريزى فى نسخته التى كتبها بيده، وهى المسماة هنا س، إذ دأب على إهمال الهمزات بأنواعها إهمالا تاما فى سائر المخطوطة، وتهاون فى النقط حتى إن كثيرا من الألفاظ وارد بغير نقط البتة ، ووقع فى بعض أخطاء نحوية ، كما ضبط بعض الألفاظ ضبطا خطأ . ولا عيب فى شىء من هــذا كله على المقريزى، فإنه سار على أنماط الكتابة والإنشاء الشائعة فى عصره ؛ ومخطوطته هذه فى الواقع

(١) انظر هنا ص ٢٦٧ — ٢٨٢

ذخيرة لدراسـةِ دور من أدوار تطوّر الكتابة العربيـة ، فضلا عن أن غلطاته النحوية نفسها دليل على حال اللغة فى العصر الذى عاش فيه .

ذلك أن الخط العربى ، كما نعرفه فى العصر الحاضر ، نتيجة سلسلة طبيعية من التطوّرات والتغيّر ، وخاصّة فى مسألة نقط الحروف . وقد كان الكتّاب فى عصر المقريزى ، وما سبقه من العصور أيضا ، يكرهون كثرة النقط ، ويعتبرونها إما تنطّعا أو جهلا من الكاتب ، أو سوء ظن بالمكتوب إليه . وقد أوضح ذلك القلقشندى (صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ١٥٤) ، وهو من معاصرى المقريزى ومن كتّاب ديوان الإنشاء ، فى العبارة التاليـة : "النقط مطلوب عند خوف اللّبس [فقط] ، لأنه إنما وُضع لذلك ؛ أما مع أمْنِ اللّبس فالأَوْلى تركه ، لئلا يُظْلِم الخط من غير فائدة ... . أما كتّاب الأموال فإنهـم لا يرون النقط بحال ، بل تعاطيه عنـدهم عيب فى الكتّابة " .

* * *

وبعـد فأريد أن أختم هذا التصدير القصير بكلمات شكرٍ قمينةٍ بمن عاونني فى إخراج هذا القسم الثانى من الجزء الأوّل من كتاب السلوك . وأوّلهم الأستاذ أحمد أمين ، الأسـتاذ بكلية الآداب ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فقد أولانى بمثل ما أولانى به أثناء إخراج القسم الأوّل من دائب العناية والتشجيع ، وقرأ جميع هذه الصفحات قبل أن أعتمدها نهائيا للطبع ، وإنى أشكره مرة أخرى لتفضّله بكتابة حاشية رقم ١ فى صفحة ٥٥٧ . وأبدى شكرى أيضا لصديق محمد نديم افندى ، ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فقد تعهّد إخراج هذا القسم بفنّه وإتقانه ، فجاء فى مستوى المطبوعات الكبرى التى اشتهرت مطبعة تلك الدار بإخراجها . وآخر قولى هنـا أن أقـدم شكرى لمن تولّانى من أصدقائى ، داخل كلية الآداب وخارجها ، بالنقد العلمى وبالتشجيع والتمنيات الطيبة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة ، فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥
٢٩ أغسطس سـنة ١٩٣٦

اسماء المراجع المذكورة فى حواشى القسم الثانى

تحتوى القائمة التالية على أسماء المراجع الإضافية التى استلزمها هذا القسم
من الجزء الأوّل من كتاب السلوك

مراجع عربية مخطوطة ومطبوعة

ابن أبى الفضائل (مفضل ...) : كتاب النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.

(Texte Arabe publié et traduit en français par E. Blochet. Patrologia Orientalis T. XII. Fasc. 3, T. XIV. Fasc. 3. Firmin Didot, Paris. 1911, 1920).

ابن شاكر (فخر الدين محمد ... بن أحمد الكتبى) : فوات الوفيات . (بولاق، ١٢٩٩هـ) .

ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم) : مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جزءان . صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩ تاريخ ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة . (إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥١ هـ) .

النويرى (1) (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب، ٣٢ جزءا . صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

---

(١) تطبع دار الكتب المصرية هذا المؤلف الكبير ، وقد أنجزت منه أحد عشر جزءا .

مراجـــع أوربيـــة

BOUQUET (MARTIN): Recueil des Historiens des Gaules et de la France. Tome 20. (Imprimerie Royale, Paris 1840).

BROWNE (E. G.): A Literary History of Persia. 4 vols. (Cambridge University Press, 1909-1930).

D'OHSSON (LE BARON C.): Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan etc. 4 Tomes. (Les Frères Van Cleef, La Haye, 1834-1835).

G. - DEMOMBYNES: Masālik el-Abṣar fi Mamālik el-Amṣār, d'Ibn Faḍl Allah al-Omari. Tome I. L'Afrique, Moins L'Egypte. Traduit et annoté avec une Introduction et 5 cartes. (Bibliothèque des Geographes Arabes T. II. Geutner, Paris, 1927).

JOINVILLE (SIRE DE): Saint Louis, King of France. Translated by James Hutton. 7th ed. (Sampson Low, London, 1910).

MAYER (L. A.): Saracenic Heraldry. (Clarendon Press, Oxford, 1933).

OMAN (SIR CHARLES): A History of the Art of War in the Middle Ages; 2 vols. (Methuen, London, 1924).

ZETTERSTÉEN (K. V.): Beiträge zur Geschichte der Mamlūkensultane. (Brill, Leiden, 1919).

تصـــحيحات

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٢٨٨	١٤	المخـامر
٢٨٩	٢٢	يوجـد
٢٩٤	٢٥	بإقطاع
٣٠٧	٢٣	؛ ومثل ذلك عند الفرس،
٣٢٣	١٨	آخــر
٣٣٣	٨	طنّـاح
٣٣٦	٢١	فإنــه
٣٣٩	١١	بـديار
٣٤٧	٤	العـلائى
٣٤٨	١٥	فإنــه
٣٥٠	١٩	لفــظ
٣٥٦	٢٠	غيرهـا
٣٥٨	١٢	عُـــدَّة
٣٦٥	١	وجماعة أخر من ملوك النصارى
٣٨٩	١٦	(انظر ص٣٩٣، سطر١٠، ومايليه)

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٣٩٤	١٤	السعيديه
٤٠٢	٢٢	تحبس
٤٠٣	١٧	الأحمــر (٤)
٤٠٨	١٠	الأمـــر
٤٠٨	١٧	عز الدين
٤٤٧	٢٢	الصقلى
٤٤٨	٢١	وترجمه إلى
٤٥٣	٢١	والأقلام
٤٦١	١٠	(ص ٤٣٩، حاشية ٣)
٥٠٢	٢٣	Op. Cit. I. 1.
٥١٠	١٦	رتّب
٥١٦	٢٠	Quatremère
٥٣١	٢٢	وتجمع
٥٦٧	٢٢	Quatremère

المقـــــريزى

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

الجزء الأول ـ القسم الثانى

السلطان الملك العادل [الثانى] (١)

سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب . أمه الست السوداء، المعروفة ببنت الفقيه نصر ، ومولده فى سنة سبع عشرة وستمائة . استقر الأمر له بسلطنة مصر ودمشق، فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، الموافق لسادس عشر برمهات . وخُطِب له بالقاهرة ومصر فى رابع شعبان ، وهو السلطان السابع من بنى أيوب بديار مصر . فقدمت عليه القصاد من دمشق بوفاة أبيه واستقراره من بعده ؛ فشرع الأمير سيف الدين قلج (٢) فى تحليف الأمراء للملك العادل فى داره . وحط [الملك العادل] (٣) المكوس (٤)، ووسع فى العطاء وفى الأرزاق على كل أحد .

---

(١) أضيف الوصف للتمييز بين هذا السلطان وجدّه الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

(٢) لما توفى الملك الكامل بدمشق ، واتفق الأمراء وأرباب الدولة الذين كانوا برفقته على سلطنة ابنه الملك العادل بعده ، وتولية ابن عمه الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن أيوب نائبا للسلطنة بدمشق ، رجع معظم الأمراء والجيوش المصرية إلى القاهرة ، لإقامة سلطنة العادل بها ، وبقى بعضهم بدمشق لمؤازرة الجواد فى نيابة السلطنة هناك . (انظر ص ٢٦١) . وكان من الراجعين إلى القاهرة ، حسبما جاء فى ابن واصل (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ص ٣١٤ أ) الأمير سيف الدين قلج ، وثلاثة من أولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ، وهم مجير الدين وكمال الدين ومعين الدين . وكان من الباقين بدمشق عماد الدين عمر رابع أولاد شيخ الشيوخ ، وكذلك الأمير عز الدين قلج أخو الأمير سيف الدين قلج المذكور هنا ، وقد سماه المقريزى (ص ٢٦١ ، سطر ٩) باسم عماد الدين .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب) .

(٤) المكوس جمع مكس ، ومن معانيه فى اللغة الضريبة التى "كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق فى الجاهلية" . (محيط المحيط) . والمكوس فى مصطلح مؤرخى مصر الإسلامية كل ماتحصل من الأموال لديوان السلطان ، أو لأصحاب الإقطاعات ، أو لموظفى الدولة ، خارجا عن الخراج الشرعى ؛ وتسمى أيضا المال الهلالى ، (انظر ص ٨٥ ، حاشية ٣) ، وقد عرفت هذه الأموال فى مصر باسم المكوس ، منذ الدولة الفاطمية . ومن أنواعها ما كان يؤخذ فى الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ، وما كان مقررا بالقاهرة والفسطاط على مختلف المحاصيل والمصنوعات والأماكن ، مثل مكس القوافل ، ومكس البهار ، ومكس فندق القطن ، ومكس معدية الجسر بالجيزة ، وغيرها . وكانت المكوس السلطانية تبلغ فى زمن المقريزى بضعا وسبعين ألف دينار . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ — ١١١ ج ٢ ، ص ١٢١ — ١٢٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ — ٤٧١) .

وفى رابع شعبان خُطب له بمصر، وأعلن بموت الملك الكامل . وفى رابع عشر شعبان ضُربت السكة باسمه .

وفى ثامن عشر رمضان نقش الدينار والدرهم باسمه . وفى عشريه قرئ توقيعه على المنبر، بإبطال جميع المكوس .

وفى سابع عشرى شوال وصل محيي الدين [أبو محمد] يوسف بن الجوزى (١)، رسولا من بغداد، بتعزية الملك العادل ، وهنأه بالملك من قبل الخليفة . وكان [العادل] قد بعث إلى دمشق بالخلع والسنجق ، فركب الجواد بالخلع فى تاسع عشر رمضان . وفيها أنفق العادل على العساكر .

وفى ثانى ذى القعدة استحلف ابن الجوزى الملك العادل للخليفة المستنصر . وفيه ورد الخبر بأن الناصر داود تحالف هو والجواد ، وقد اتفقا وخرجا عن طاعة العادل . ووصل الناصر [داود] إلى غزة، وخطب بها لنفسه. ثم وقع بينه وبين الجواد خلف، فأظهر الجواد أنه عاد إلى طاعة الملك العادل .

ولما قربت العساكر الواردة من دمشق إلى القاهرة ركب العادل إلى لقائهم وأكرمهم، وسير إليهم فى منازلهم الأموال والخلع والخيول، فجددوا له الأيمان والعهود، فاستقر أمره . وأخرج [العادل] الأموال ، وبذلها فى الأجناد ، وأكثر من العطاء والبذل، حتى بدد فى مدة يسيرة ما جمعه أبوه فى مدد متطاولة . وأخذ فى إبعاد أمراء الدولة عنه، وقطع رواتب أرباب

---

(١) تقدم ذكر محيي الدين أبي محمد يوسف بن الجوزى رسولا من الخليفة العباسى ببغداد إلى بنى أيوب أكثر من مرة، (انظر ص ٢١٩، ٢٥٧) . وهو ابن أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الفقيه الحنبلى المؤرخ، صاحب كتاب المنتظم والملتقط الملتزم فى التاريخ، وخال شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزوغلو، المعروف بسبط ابن الجوزى، صاحب كتاب مرآة الزمان . وولد محيي الدين هذا ببغداد سنة ٥٨٠ هـ ، وتقلب فى عدة وظائف بها، فولى الحسبة، ودرس بالمدرسة المستنصرية لطائفة الحنابلة؛ وسفر للخليفة العباسى فى الرسائل الى الملوك، ثم صار أستادارا ببغداد . وكانت وفاته بها، قتيلا فى وقعة التتر، سنة ٦٥٣هـ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان (Wüstenfeld)، ج ٤، ص ٦٧ — ٦٩) . انظر أيضا (ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٣٢٤ ب) .

الدولة ، واختص بمن أنشأه . فنفرت قلوب الأكابر منه ، واشتغل [هو] عنهم بالانهماك فى شرب الخمر، وكثرة اللهو والفساد .

وسار[1] الناصر داود من الكرك ، واستولى على غزة والسواحل . واستجد عسكرا كبيرا ، وبرز عن غزة . وبعث إلى الملك العادل يريد منه المساعدة على أخذ دمشق[2] .

وقوى المجاهد [أسد الدين][3] صاحب حمص بعد موت الكامل، وأغار على حماة وحصرها. واستعدّ أهل حلب ، واستجدوا عسكرا من الخوارزمية، وعسكرا من التركمان؛ و[كان قد] صار اليهم عدّة من أصحاب الملك [الكامل][4] ، فأكرموهم؛ و بعثوا إلى السلطان غياث الدين [كيخسرو بن كيقباد][5] ، ملك الروم، يسألونه إرسال نجدة، فأمدّهم بخيار عسكره؛ وخرجوا فملكوا المعرّة، ونازلوا حماة، وقاتلوا المظفر صاحبها، فثبت لهم، وامتنع عليهم وقاتلهم .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على الرّحبة[6]، منازلا لها؛ فلما بلغه موت

(١) و (٢) العبارة الواردة بين الرقمين مشطوبة فى س ، و يظهر أن المقريزى عمد الى شطبها لسبق ذكر بعض أخبار الناصر داود (ص ٢٦٨ سطر ٩)، وقد أثبتت هنا لعدم تعارضها مع تلك الأخبار . وفى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٣١٤ ب) أن الملك العادل لم يجب الناصر داود الى ما أراد ، "فأرسل الناصر اليه ثانيا : إن أباك السلطان الملك الكامل كان قد التزم أن يعيد الىّ مملكة والدى (انظر ص ٢٥٦ ، سطر ١٤)، و[أما] أنا فقد وليت على البلاد الساحلية لأنها من جملتها ، فتساعدنى على تسليم دمشق و باقى البلاد ، وأكون من قبلك، ومن طاعتك، كما كنت مع أبيك . وترددت بينه و بين الملك العادل الرسائل فى هذا المعنى" .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب — ٣١٥ أ)، حيث توجد معلومات أوفى عن حركات المجاهد صاحب حمص ، بعد وفاة الملك الكامل .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ أ) .

(٥) انظر ص ١٥٤ ، سطر ١٠ ، وابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ أ) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وتقع الرحبة على شاطىء نهر الفرات ، جنوبى قرقيسيا ، وهى على مسافة مائة فرسخ من بغداد، ونيف وعشرين فرسخا من الرقة . وتسمى رحبة مالك بن طوق ، نسبة الى مالك بن طوق بن عتاب التغلبى ، الذى أسسها فى خلافة المأمون . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤ — ٧٦٧) . وكانت الرحبة من أملاك المجاهد صاحب حمص، وحاصرها الصالح نجم الدين أيوب تنفيذا لتعليمات أبيه الملك الكامل إليه . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣١٥ ب) .

أبيه الملك (٧١ب) الكامل رحل عنها، فطمع فيها من معه من الخوارزمية[١]، وخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه؛ فقصد سنجار، وامتنع بها مدة، وترك خزائنه وأثقاله، فانتهبها الخوارزمية، وتحكموا فى البلاد الجزرية . وطمع فيه السلطان غياث الدين [كيخسرو بن كيقباد]، ملك الرومية، وبعث إلى الناصر [صلاح الدين أبى المظفر يوسف][٢]، صاحب حلب، توقيعا بالرها وسروج، وكانا مع الصالح [نجم الدين أيوب][٣]؛ وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقى، صاحب ماردين، مدينة سنجار ومدينة نصيبين، [وهما] من بلاد الصالح [أيضا][٤]؛ وأقطع المجاهد [أسد الدين شيركوه][٦]، صاحب حمص [بلدة][٥] عانة وغيرها من بلاد الخابور؛ وعزم السلطان غياث الدين كيخسرو على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضا آمد وسميساط[٧] .

وصار [الملك الصالح] محصورا بسنجار، فطمع فيه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل —، وحصره بسنجار فى ذى القعدة، وأراد حمله إلى بغداد فى قفص حديد، كراهة فيه، لما كان عنده من التجبر والظلم والتكبر . فلما أشرف [بدر الدين لؤلؤ] على أخذ سنجار بعث الصالح [إليه] القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزارى[٨] قاضى سنجار، بعد ما حلق لحيته، ودلاه من السور . [وكان القاضى الزرزارى] متقدما فى الدولة الأشرفية، ولاه [الملك الأشرف [موسى][٩]] — لما ملك دمشق — قضاء بعلبك . ثم [بعد موت الملك الأشرف][١٠]،

(١) انظر ص ٢٥٥، سطر ٨ . (٢) انظر ص ٢٥٣، سطر ١٢ . (٣) انظر ص ٢٥٧، سطر ١٣ .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٧ ب)، انظر أيضا ص ٢٢٣ . سطر ١٤ .

(٥) بلدة على نهر الفرات، وموقعها بين الرقة وهيت . وإلى هذه البلدة لجأ الخليفة العباسى القائم بأمر الله، هاربا من بغداد، حينما ثار عليه أرسلان البساسيرى، سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) . انظر (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٩٤ — ٥٩٥؛ و .Muir : The Caliphate, p. 580 et seq) .

(٦) و (٧) عبارة السلوك هنا مقتضبة، وضع بدلها الجملة الواردة بين الرقمين، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٧ ب) . ونص عبارة السلوك كالآتى : "وعزم على ان ياخذ منه ايضا امد وسميساط" .

(٨) بغير ضبط فى س، انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ أ) . (٩) انظر ص ٢٥٦، سطر ٠ .

(١٠) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ أ) . ويلاحظ أن عبارة السلوك فى سائر ترجمة القاضى الزرزارى، وما يليها من أخبار سفارته، وما وقع للملك الصالح نجم الدين أيوب، تشبه كثيرا فى أسلوبها وألفاظها ما يقابلها فى ابن واصل، ومنه أضيف ما بين الأقواس فيما يلى بصدد هذه الأخبار .

ولاه الصالح نجم الدين [أيوب] قضاء سنجار . وكان كثير التجمّل[1] جدا واسع البر والمعروف؛ وله مماليك وغلمان وحواشى، لهم من التجمل ما ليس لغيرهم . فصار كأحد الأمراء الأكابر، وصار يقعد لسائر من يرد عليه من أهل العلم وذوى البيوتات .

فتوجه [القاضى] فى خفية الى الخوارزمية، واستمالهم وطيب خواطرهم، بكثرة ما وعدهم به . فمــالوا إليه، بعد ما كانوا قد اتفقوا مع صاحب ماردين، وقصدوا بلاد [الملك] الصالح [نجم الدين أيوب]، واستولوا على الأعمال، ونازلوا حران . — [وكان الملك الصالح قد ترك بها [ولده] المغيث فتح الدين عمر بن الصالح،[فخاف من الخوارزمية، وسار مختفيا] حتى فرّ الى قلعة جعبر . فساروا خلفه، ونهبوا ما كان معه، وأفلت منهم فى شرذمة يسيرة الى منبج . فاستجار بعمة[2] [أبيه، الصاحبة ضيفة خاتون]، أم الملك العزيز، صاحب حلب، فلم تقبله . فردّ الى حران ، وفيها أتاه كتاب أبيــه يأمره بموافقة الخوارزمية ، والوصول بهم إليه، لدفع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فاجتمع [المغيث عمر، والقاضى بدر الدين قاضى سنجار،] بالخوارزمية، والتزم لهم القاضى أن يقطعوا سنجار وحران والرها . فطابت قلوبهــم، وحلفوا للملك الصالح، وقاموا فى خدمة ابنه الملك المغيث، وساروا معه الى سنجار، فأفرج[3] عنها عسكر الموصــل، يريدون بلادهم . وأدركهم الخوارزمية، وأوقعوا بهــم وقعة عظيمة ، فرّ فيهــا بدر الدين لؤلؤ بمفرده على فرس سابق، ثم تلاحق به عسكره . واحتوت الخوارزمية على سائر ما كان معه، فاستغنوا بذلك . — وقوى الملك الصالح [بالخوارزمية وبهذا الفتح] قوة زائدة، وعظم شأنه ؛ وسير الخوارزمية الى آمد، وعليها عسكر [السلطانـ غياث الدين كيخسرو]،

(١) فى س التحمل ، وهى مكررة بالحاء فى سياق العبارة نفسها . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ أ) .

(٢) فى س "عمته"، وهــذا خطأ، يدل عليه ما سبق ذكره بالقسم الأوّل من الجزء الأوّل من السلوك، (انظر ص ١٧٤ سطر ٩ ؛ ص ١٧٦ سطر ٦ ؛ ص ٢٥٣ ، سـطر ١٤) ؛ راجع أيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ ب) . هذا وقد سبق ورود اسم الصاحبة ضيفة مصحفا بلفظ "صفية"، بالصفحات المشار إليها من السلوك، ويريد الناشر أن يتدارك هنا ذلك الخطأ الذى وقع فيه سابقا . أما أصل تسميتها بهذا الاسم فهو أنه كان عند أبيها الملك العــادل بن أيوب يوم مولدها بحلب ضيف، فأسماها ضيفة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I) .

(٣) أفرج الناس عن الطريق أى انكشفوا عنه ؛ وأفرج الجند عن المكان أى تركوه . (محيط المحيط) .

صاحب الروم، وبها (٧٢ ا) المعظم غياث الدين تورانشاه بن الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، وهو محصور منهم ، فأوقعوا بهم ورحّلوهم عن آمد ؛ فخرج الصالح من سنجار الى حصن كيفا .

وبعث الملك العادل من مصر الى أهل حلب يريد منهم أن يجْرُوا معه على ما كانوا عليه مع أبيه الملك الكامل — من إقامة الخطبة له على منابر حلب ، وأن تضرب له السكة — فلم يُجَب الى ذلك .

وقدم رسول [غياث الدين كيخسرو] ملك الروم، فزوج غازية خاتون ابنة العزيز للسلطان (١) غياث الدين ، وأنكح الملك الناصر — صاحب حلب — أختَ السلطان غياث الدين ؛ وتولى العقد الصاحب كمال الدين [بن أبى جرادة] بن العديم (٢) ، وخرج فى الرسالة الى بلاد الروم ، وعقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة (٣) خاتون أخت السلطان غياث الدين . فبعث غياث الدين رسولا الى حلب، فأقيمت له بها الخطبة .

وخرج الملك الجواد من دمشق فى أول ذى الحجة، يريد محاربة الناصر داود صاحب كرك (٤)،

(١) أصل هاتين الزيجتين، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ ب — ٣١٧ ب) أن غياث الدين كيخسرو بعث الى حلب ، بعد إنفاذ النجدة العسكرية التى طلبتها منه الصاحبة ضيفة خاتون ، يطلب من الصاحبة أن تزوجه بنت ابنها الملك العزيز، وأن يتزوج السلطان الملك الناصر، صاحب حلب، أخت غياث الدين .

(٢) اشتهر ابن العديم فى عالم التأليف بكتابه المسمى بغية الطلب فى تاريخ حلب، و بمختصر لهذا الكتاب اسمه زبدة الحلب فى تاريخ حلب . وكان مولده بحلب، سنة ٥٨٨ ﻫ ، (١١٩٢ م)، ومارس التدريس وتولى القضاء بها . وقد وزر أيضا للملك العزيز صاحب حلب، ولابنه الملك الناصر بعده، وسفر بأمرهما عدة مرات الى بغداد والقاهرة . ولما انثال التيار التترى الى حلب، سنة ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٠ م)، هرب ابن العديم مع الملك الناصر الى القاهرة . ثم استدعاه اليه هولاكو التترى، ليوليه منصب قاضى قضاة الشام، لكنه مات بالقاهرة سنة ٦٦٠ ﻫ (١٢٦٢ م) . انظر (Enc. Isl. Art. Kamal Al-Dīn) .

(٣) فى س "ابنه"، انظر سطر ٨ .

(٤) كذا فى س .

فالتقيا بالقــرب من نَابُلُس[1] . فانكسر الناصر كسرة قبيحة ، فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة ، وانهزم الى الكرك . فغنم الجواد ما كان معه ، وعاد الى دمشق ، وفرّق ستمائة ألف دينار وخمسة آلاف خلعة ، وأبطل المكوس والخمور ، ونفى المغانى . وعاد من كان فى دمشق من عسكر مصر — ومعهم الأمير عماد الدين بن شـيخ الشيوخ — الى القــاهرة ، بسناجق النــاصر ، فى سادس عشرى ذى الحجــة . فلم يعجب الملك العادل ذلك ، وخاف من تمكن الملك الجواد .

و[فيهـا] قصد التتار بغــداد ، فبعث اليهم الخليفة جيشا ، قُتل كثير منه ، وفرّ من بقى .

وفيها مات قاضى القضاة بدمشق ، [وهو] شمس الدين أبو البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن ابن سنى الدولة الشافعى[2] ، فى خامس ذى القعدة . فأعيد فى سابعه قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّى[3] ، ورتب مراكز الشهود — وكانوا أولا بدمشق ورّاقين يورقون المكاتيب وغيرها ، فإذا فرغوا من الوراقة مشوا الى بيوت العدول ، فيشهدونهم على ما يريدون ؛ واقتدى بعد ذلك أهل القاهرة ومصر بهم .

وفيها تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى قضاء العسكر ونقابة الأشراف بديار مصر ، وقرئ سجله بجامع مصر ، بحضرة الأمير جمال الدين [موسى] بن يَغْمُور[4] والفلك

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بأرض فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ . وهى بلدة رومانية الأصل ، بنيت لذكرى الإمبراطـور (Vespasian) ، وأطلق عليهـا اسم (Flavia Neapolis) ، ومنــه اشتقت التسمية العربية (Enc. Isl. Art. Nablus) . وفى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٢٣ — ٧٢٤) قصة لطيفة فى أصل اسم نابلس ، ونصها : "(ص ٧٢٣) وسئل شيخ من أهل المعرفة ، من أهل نابلس ، لم سميت بذلك ، فقال إنه كان هاهنا واد فيه حية ، قد امتنعت فيه ، وكانت عظيمة جدا ، وكانوا يسمونها بلغتهم لس . فاحتالوا عليها حتى (ص ٧٢٤) قتلوها وانتزعوا نابها ، وجاءوا بهـا فعلقوها على باب هــذه المدينة ، فقيل هــذا ناب لس ، أى ناب الحية . ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة ، نابلس هكذا ، وغلب هذا الاسم عليها ... " .

(٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . وقد ترجم هذا الاسم فى (Blochet : Op. cit. p. 431) الى (Sani) .

(٣) كذا فى س ، بضم الخاء وفتح الواو فقط ، ولعل النسبة الى خوى ، وهى بلد من أعمال آذربيجان ، ينسب اليه الثياب الخوية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ، ومابعدها) .

(٤) ضبط هــذا الاسم ، وأضيف ما بين القوسين ، بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، ص ٢١١ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ؛ وأبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٩٥ ، فى Rec. Hist. Or. V.)

المسيرى(١) . وفيها بطلت الفلوس . وفيها سار الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن يريد مكة ؛ فأحرق الأمير أسد الدين جغريل(٢) ما كان معه من الأثقال ، وخرج هو ومن معه من مكة فى سابع شهر رجب ، قبل وصول ملك اليمن بيومين . فالتقوا بين مكة والسرين ، فانهزم العرب أصحاب الشريف راجح ، وأسر الأمير شهاب الدين بن عَبْدَان(٣) من أمراء اليمن . فقيده الأمير جغريل ، وبعث به الى القاهرة ؛ وسار هو الى المدينة النبوية . فبلغه موت السلطان الملك الكامل ، فسار بمن معه الى القاهرة ، فدخلوها فى أثناء شهر شعبان متفرقين . وأقام عسكر اليمن بمكة .

* * *

سنة ست وثلاثين وستمائة . فيها قبض الملك الجواد على صفى الدين بن مرزوق ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار ، وسجنه بقلعة حمص ، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء . وأقام الجواد بدمشق خادما لزوجته يقال له الناصح(٤) ؛ فصادر الناس ، وأخذ منهم مالا كبيرا .

وقبض [الملك الجواد] على عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ(٥) ، ثم خاف من أخيه فخر الدين . وقلق من ملك دمشق ، وقال : " إيش أعمل بالملك؟ باز وكلب أحب الىّ من هذا " . ثم خرج الى الصيد ، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، على أن يعوضه عن دمشق بحصن كيفا وسنجار . فسر الصالح بذلك وتحرك للسير الى دمشق .

---

(١) كان الفلك هذا وزيرا للملك العادل ، واسمه فلك الدين عبد الرحمن المسيرى ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥١) ، وقد تقدم ذكر هذا الوزير بالقسم الأول من هذا الجزء . انظر الفهرس .

(٢) فى س "جغريل" ، هنا وفى سطر ٥ أيضا . (انظر ص ٢٥٠ ، حاشية ٢) .

(٣) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 432) .

(٤) فى س "لزوجه" .

(٥) كان عماد الدين بن الشيخ قد رجع من دمشق إلى القاهرة (انظر ص ٢٧٣ ، سطر ٤) ؛ ويتضح مما هو وارد هنا ، ومما جاء فى ص ٢٧٦ ، سطر ٧ ، أنه ظل متنقلا بين العاصمتين الشامية والمصرية ، ثم سافر أخيرا الى دمشق ، وبقى بها حتى وفاته . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٩ ب) .

وفيها قدم رسول ملك الروم الى القاهرة بالعزاء للملك العـادل . وفيها أفرج أهل حلب عن حصار حماة، بعـد ما ضاق الأمر على المظفر صاحب حماة ؛ فلما رحلوا عنـه هدم قلعة بارين وكانت حصينة .

وفيها استوحش الأمراء الأكابر من الملك العادل، لتقريبه الشباب والترابى[١]، وإعطائهم الأموال والإقطاعات، والاقتداء (٧٢ب) بآرائهم، ولكثرة[٢] تحجبه، واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة . فطمع النـاصر داود صاحب الكرك فى ملك مصر، فسار اليها ومعـه تقادم فاخرة: ما بين جوارى جُنْكِيَّات[٣]، وعوديات ورقاصات، وأوانى للشرب بديعـة . فخرج العادل الى لقائه فى ثامن شوّال، وأكرمه . وقدّم له الناصر ما انتخبه له من الجوارى والأوانى وغيرها، فصادف منه[٤] الغرض، وعوّضه عنه بأمثاله . ولازم الناصر القيام بخدمة العادل والإقامة فى بابه: فتارة يعمـل حاجب الباب، وتارة أستادارا، وتارة دوادارا، ليدخل فى كل وقت عليـه، ويتوصل متى شاء اليـه، وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العادل الى جهته . فلمـا تمكن [الناصر داود] منه أوهمه من الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، بأنه قد اتفق مع الملك المعز

---

(١) أطلق هـذا اللفظ أيام الدولة الفاطمية بمصر على الأطفال من أسرى الحروب، إذ كان يدفع بهم "الى الأستاذين فيربونهم، ويتعلمون الكتابة والرماية، ويقال لهم الترابى، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة...". (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩٤) .

(٢) فى س "وكثره" .

(٣) فى س "خنكات"، وبغير ضبط . والجنكيات الجوارى اللاتى يلعبن على الجنك، وهو من آلات الطرب، وأصـل اللفظ فارسى معرب . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 433) لفظ الجنكيات وما يتلوه بالآتى : "des jeunes esclaves joueuses de harpe et de luth, et des danseuses". والجنكى بكسر الجيم، لاعب آلة الجنك أو غيرها من آلات الموسيق ؛ وقد أطلق لفظ الجنكى أيضا، فى عصر المماليك بمصر، على رقاص المنتديات والأفراح، وجمعه جنك . وكان أولئك الرقاصون من غلمان وشبان الأرمن، واليهود واليونان والترك، وبعض ثيابهم من لبوس الرجال، وبعضها من لبس النساء ؛ وكانوا يرسلون شعورهم ويضفرونها . وفى عصر الحملة الفرنسـية على مصر كان لفظ الجنك يطلق على بنـات اليهود اللاتى احترفن تعليم الرقص، وكن يخرجن فى زفات العرس أحيانا، راكبات ظهور الحمير، ويلعبن على الرباب والدف . (Dozy. Supp. Dict. Ar.) .

(٤) الهاء هنا عائدة على الملك العادل .

مجير الدين [يعقوب](١)، وأمال اليه عدّة من الأمراء . وحسّن له القبض عليه ، فانخدع له [الملك العادل]، وقبض على فخر الدين واعتقله بقلعة الجبل(٢) ، وأخرج عمه الملك المعز من أرض مصر، ومعه أخوه الأمجد تقى الدين عباس .

فلما تم للناصر ما أراد خيّل(٣) العادلَ من الملك الجواد نائبه على دمشق ، بأن الأمراء قد مالت اليه، وقام بأمره الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ . فبلغ ذلك العماد ، فخاف أن يتفق عليه ما اتفق على أخيه؛ واجتمع بالملك العادل، والتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر . فسيره [العادل] من القاهرة، ليحضر الملك الجواد من دمشق؛ فأكرمه الجواد . وأخذ العماد فى التحدث معه فى المسير إلى الملك العادل، فسوّف به وماطله، حتى فطن العماد بامتناعه ؛ فأحضر حينئذ الولاة والمشدين والنوّاب والدواوين(٤) بدمشق وأعمالها ، وقال لهم : " قد عزل السلطانُ الملك العادل الجوادَ عن نيابة دمشق ، فلا تدفعوا إليه مالا ، ولا تقبلوا له قولا " . فعز ذلك على الملك الجواد ، ووكل بعماد الدين ، وسجنه بقلعة دمشق . وتقرر الأمر بين الملك الجواد وبين المجاهد ، صاحب حمص(٥)، أن يكونا يدا واحدة؛ ووافقهما الأمير عماد الدين بن قلج، نائب الملك الجواد بدمشق . فرأوا أن أمرهم لا يتم إلا بقتل العماد

---

(١) كان المعز مجير الدين يعقوب ، وهو أحد أخوة الملك الكامل ، وعم الملك العادل ، مقيما بمصر منذ قدم اليها ، هو وأخوه تقى الدين عباس سنة ٦٢٨ هـ ، فى عهد الملك الكامل . (انظر ص ١٩١ ، سطر ١٩ ؛ ص ١٩٢ ، سطر ١ ؛ ص ٢٤١ ، سطر ٧ ؛ وما يلى هنا أيضا ، سطر ٣) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٤ ب) إن العادل قبض على مجير الدين بن شيخ الشيوخ ، لا فخر الدين ، وأن جريمته كانت حسبما أخبر بها الناصر داود ، مكاتبة الصالح نجم الدين أيوب ، واستحثاثه إياه على سرعة القدوم بعساكره الى الديار المصرية .

(٣) بغير ضبط فى س . وفى محيط المحيط خيل فلان عن القوم ، أى كعّ عنهم ، ومعناه جبن وتخوّف .

(٤) الدواوين جمع ديوان ، وكان يطلق على موظفى الدواوين الحكومية عامة ، من باب إطلاق اسم المكان على القائم بأعماله ، انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أن استعمال المقريزى لهذا اللفظ هنا يدل على أن "الدواوين" كانوا من كبار الموظفين ، كالولاة والنوّاب والمشدّين .

(٥) فى س "دمشق" ، وخطأ المقريزى هنا ظاهر .

ابن شيخ الشيوخ : فبعثوا إلى توّاب الإسماعيلية[1] فى ذلك، ودفعوا إليهم مالا وقرية[2] ؛ فسيروا فدائيين[3] قتلاه على باب الجامع، فى سادس عشرى جمادى الأولى . وأشيع أنهما غلطا فى قتله، وإنما كانا يريدان قتل الملك الجواد ، فإنه كان كثير الشبه به . فبلغ ذلك الملك العادل فشق عليه[4] .

---

(١) الإسماعيلية فى الأصل فرقة من الشيعة ، سميت بذلك الاسم كما عرفت أيضا بالسبعية ، لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عند الإمام السابع ، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق ، المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ ، فى حياة أبيه . نال أتباع تلك الفرقة الدينية السياسية ، كما نال أتباع نظائرها من فرق الشيعة ، كثير من الضر والأذى ، على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية . فاستعانوا بالتقية ، وتلمسوا فى الجهات البعيدة عن مركز الخلافة ملجأ ، مثل ذلك لجوء أصغر ولدى الإمام إسماعيل ، واسمه على ، الى الشام ثم بلاد المغرب . وكان أكبر ولدى الإمام إسماعيل ، واسمه محمد ، قد لجأ أيضا الى جهة دماوند قرب الرى ، وتنقلت سلالته وأتباعهم بين بلاد خراسان ، ثم كندهار ، ثم الهند ، حيث توجد حتى الآن بقايا إسماعيلية ، يرأسها الزعيم الهندى أغا خان .

ومن النابهين فى تاريخ الإسماعيلية الأول عبدالله بن ميمون القدّاح الأهوازى ، المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وهو الذى من سلالته مؤسسو الدولة الفاطمية بالمغرب ، ثم بمصر . ومن المشهورين أيضا حسن بن الصباح ، المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، وهو مؤسس شعبة الإسماعيلية ، المعروف أتباعها باسم الحشيشيين (Assassins) . وقد تفرع عن هذه الشعبة ، التى أسسها ابن الصباح فى قلعة ألَمُوت (Alamut) ، فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، فرع بالشام مركزه الأول حلب ، وهذا الفرع الشامى هو الذى يقصد المقريزى هنا . وتختلف شعبة ابن الصباح عن الإسماعيلية الأولى فى نظامها وأساليبها ، فقد كانت تلك الشعبة الجديدة عبارة عن جمعية سرية ، على أعضائها الطاعة العمياء للرئيس الأكبر ، والاغتيال والقتل أهم أساليبها . راجع (Enc. Isl. Arts. Assassins & Ismailiya) .

(٢) كذا فى س ، بنقط كاملة ، وبغير ضبط .

(٣) فى س "فداوين" ، والفداوى فى نظام جماعة الحشيشيين هو الشخص الذى يناط به اغتيال من تقرر الجماعة قتله من أعدائها (Enc. Isl. Art. Fida'ī) . هذا والمفهوم من عبارة المقريزى هنا أن تلك الجماعة كانت تؤجر أحيانا للقتل ، فى مقابل مبلغ من المال ، دون أن تكون لها مصلحة أخرى .

(٤) تختلف عبارة المقريزى هنا ، بصدد ماحدث لعماد الدين بن شيخ الشيوخ ، عما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٠ ب ، وما بعدها) ، فى كثير من التفاصيل . وهذا ما جاء فى ابن واصل ، للمقابلة بين الروايتين ، والمقارنة بين المرجعين ، ونصه مصححا : "(٣٢٠ ب) ... ولما تحقق الملك العادل بن الملك الكامل ، صاحب مصر ، استقلال ابن عمه الملك الجواد بن مودود بملك دمشق ، وعصيانه بها ، أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة ، وهم مجير الدين وعماد الدين ومعين الدين وكمال الدين ، وقال [لهم] : أنتم ضيعتم على ملك دمشق ، فان أبى الملك الكامل فتحها ، وتوفى وهو مالكها . فسلمتم دمشق وخزائنها الى الملك الجواد ، فتغلب على (٣٢١ أ) دمشق ، وضيع =

وفى العشرين من شوال ورد الخبر بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر، إلى جِينِين [(١)] . فجمع الملك العادل والملك الناصر الأمراء وتحالفوا على قتال الصالح : وخرج الناصر داود من القاهرة، فى تاسع ذى القعدة، لقتال الصالح؛ وجهز العادل جماعة من الأمراء، وعدّة من العساكر بديار مصر، لتأخذ دمشق . وقدّم [الملك العادل] إلى الملك الجواد رسولا بكتاب فيه أنه (٧٣ ا) يعطيه قلعة الشوبك و بلادها ، وثغر الإسكندرية، وأعمال البحيرة وقليوب، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر، لينزل عن نيابة السلطنة بدمشق، ويحضر إلى قلعة الجبل، ليعمل برأيه فى أمور الدولة . فلما ورد

= الخزائن ، وما أعرف عود دمشق الىّ، وانتزاعها من يد الملك الجواد، إلا منكم ... فضمن عماد الدين بن شيخ الشيوخ رجوعها للملك العادل ... فسير الملك العادل عماد الدين بن شيخ الشيوخ لهذا الأمر اليهم (كذا) ... ولما وصل عماد الدين الى دمشق، التقاه الملك الجواد، فأنزله عنده فى القلعة . فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق الى السلطان الملك العادل، وأعلمه أنه إن لم يسلم دمشق اليه، نزلت العساكر المصرية اليه، وملكوها منه عنوة، وقبض عليه واعتقل . و إن سلمها قبل أن تنزل العساكر اليه أعطى عوضا عنها خبزا جيدا كثيرا، بالديار المصرية، وأحسن اليه . فأجابه الملك الجواد بجواب مغلط (كذا) . وكانت المماليك الأشرفية ، ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر، قد رحلوا من دمشق على حية ، بعد رجوع الملك الجواد الى دمشق، وساروا الى الملك العادل، وخدموا عنده . ولما علم الملك الجواد تصميم الملك العادل على انتزاع دمشق منه، وعلم أنه لا طاقة له بقتاله ، وأنه إن سلم دمشق الى الملك العادل لم يعطه إلا خبزا بالديار المصرية ... فعند ذلك سير [الملك الجواد] الشيخ كمال الدين بن طلحة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، يطلب منه أن يعوضه عن مدينة دمشق بسنجار والرقة وعانة، ويسلم هو دمشق اليه ... فمضى كمال الدين بن طلحة بذلك الى الملك الصالح، فأجاب الملك الصالح الى ذلك ، وحلف لابن عمه الملك الجواد على العوض المذكور؛ وزاده الحديثة (انظر الصفحة التالية، سطر ٧)، وجعلها باسم مملوك من مماليك الملك الجواد، يقال له رزيق (فى الأصل رريق)، وكان أخص مماليكه به . ولما وقع الاتفاق بينهما على ذلك، توجه الملك الصالح الى دمشق . فلما علم الملك الجواد تقربه (كذا) منه ، خاف الملك الجواد من عماد الدين بن الشيخ أن يفسد ما بينه و بين الملك الصالح، فلا يحصل على ما وقع التقرير (٣٢١ ب) عليه، من العوض الذى طلبه منه . فدس [الملك الجواد] على عماد الدين رجلا وقف (فى الأصل وفق) له بقصة متظلما ، فمدّ يده عماد الدين الى القصة ليأخذها من ذلك الرجل ، فضربه ذلك الرجل بسكين فقتله . ثم قبض [الملك الجواد] على ذلك الرجل، واعتقله مدة، ثم أطلقه . وأظهر الملك الجواد الحزن الكثير على قتل عماد الدين ... وجهز الملك الجواد عماد الدين، وحملت جنازته الى الجامع بدمشق، وصلى عليه فيه . وتأسف الناس وحزنوا لقتله، رحمه الله" .

(١) تقع هذه البليدة بين نابلس و بيسان، وهى من أرض الأردن . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٠) .

عليه ذلك أوهمــه نائبه عماد الدين قلج من أنه متى دخل مصر ، قبض عليه الملك العـادل، وطالبه أولاد عماد الدين ابن شيخ الشيوخ بدمه؛ فامتنع من تسليم دمشق .

فبرز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق، يوم الثلاثاء سـلخ ذى الحجة، ونزل ببلبيس . فخاف الجواد، وعلم عجزه عن مقاومة العادل؛ فبعث كمال الدين عمر بن أحمد بن هبةالله بن طلحة (١) خطيب جامع دمشق، إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، صـاحب حصن كيفا وديار بكر وغيرها من بلاد الشرق، يطلب منه أن يتسلم دمشق ، ويعوضه عنهـا سنجار والرقة وعانة . فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع ، وأجابه إليه، وزاده الحُدَيدَة (٢)، وحلف له على الوفاء .

ورتب [الملك الصالح] ابنــه الملك المعظم توران شاه على بلاد الشرق، وألزمه الإقامـة بحصن كيفا ؛ وأقام نوابا بآمد وديار بكر؛ وسلم حران والرها وجميع البلاد الجزرية للخوارزمية، الذين فى خدمتــه ؛ وطلب نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصـل — وكان قد صالحه — ، فبعث إليه [بدر الدين] نجدة .

وسار [الملك الصالح] من الشرق يريد دمشق، فقطع الجوادُ اسمَ الملك العادل من الخطبة، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وضرب السكة باسمه . ودخل الصالح إلى دمشق، فى مستهل جمادى الأولى، ومعه الجواد بين يديه بالغاشية . وقد ندم [الجواد] على ما كان منه ، وأراد أن يستدرك الفائت فلم يقدر؛ وخرج من دمشق والناس تلعنه فى وجهه، لسوء أثره فيهم . وبعث الصالح إليه برد أموال الناس اليهم، فأبى وسار . و[كان قد] وصـل مع

---

(١) بغير ضبط أو نقط فى س، وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 43f) هذا اللفظ الى (Talaha) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى اسم لقلعة فى كورة بين النهرين ، التى بين نصيبين والموصل ، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٤٢) . هذا وفى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢١ ا) أن البلدة التى زادها الملك الصالح أيوب هى الحديثة ، وهى واردة هناك بغير نقط البتة . والحديثة اسم يطلق على مواضع عدة : منها حديثة الموصل ، وتقع على نهر دجلة ، قرب الزاب الأعلى؛ وحديثة الفرات ، وتعرف بحديثة النورة ، وهى على بضعة فراسخ من الأنبار؛ والحديثة أيضا من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديثة جرش . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ — ٢٣٦) .

الصالح أيضا الملك المظفر صاحب حماة ، وقد تلقاه الجواد ، فكان دخوله يوما مشهودا ، فاستقر بقلعة دمشق .

وخرج الجواد إلى بلاده، فكانت مدة نيابته دمشق عشرة أشهر وستة عشر يوما، صرف فيها الأموال التى كانت فى خزائن الملك الكامل كلها، وكانت تزيد على ستمائة ألف دينار مصرية، سوى القماش وغيره، وسوى ما ظلم فيه الناس من التجار والكتاب، وسوى ما أخذه من صفى الدين بن مرزوق لما صادره، وكان ينيف على خمسمائة ألف دينار .

فلما استقر الملك الصالح بدمشق سار المظفر إلى حماة ؛ وقدمت الخوارزمية، فنازلوا مدينة حمص [1] — وهو معهم — مدة، ثم فارقوها بغير طائل ؛ وعادوا إلى بلادهم بالشرق . وقد زوج الملك الصالح أخته من أمه، وأبوها الفارس قُلَيْب [2] مملوك أبيه الملك الكامل، لمقدم الخوارزمية (٧٣ ب) الأمير حسام الدين بركه خان .

وفى أثناء ذلك تواترت رسل المظفر صاحب حماة إلى الملك الصالح يستحثه على قصد حمص؛ وكتب الأمراء من مصر تستدعيه الى القاهرة، وتعده بالقيام بنصرته . فبرز [الملك الصالح] من دمشق الى البَثَنِيَّة [3] .

وكانت الخوارزمية، وصاحب حماة ، على حصار حمص؛ فأرسل [المجاهد أسد الدين] [4] شيركوه مالا كثيرا فرقه فى الخوارزمية ، فرحلوا عنه الى الشرق ؛ ورحل صاحب حماة الى حماة .

(١) الضمير عائد على الملك المظفر، صاحب حماة . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٢ ب)؛ وأيضا سطر ١٤ هنا .

(٢) فى س "قلب" ، وبغير ضبط ؛ انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٠ ب) ، و (Blochet: Op. cit. p. 437) .

(٣) بغير ضبط فى س، واسمها أيضا البثنة ، وهى إحدى نواحى دمشق، بينها وبين أذرعات . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص، ٤٩٣) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٢ ب) .

وعاد الملك الصالح الى دمشق طالبا مصر، وخرج منها الى الخَرِبَة (١) وعيَّد بها عيد الفطر، وعسكر تحت ثَنِيَّـة العُقاب (٢)؛ وقد تحير فلا يدرى أيذهب الى حمص أم الى مصر، وما زال بمعسكره الى أول شهر رمضان. فعاد الى دمشق، وتقدم الى الأمير حسام الدين أبى على ابن محمد بن أبى على [الهذبانى] (٣)، أستاداره بدمشق، أن يرحل بطائفة من العسكر الى جينين، فرحل؛ ولم يزل [هو] تحت عقبة الكرسى، على بحيرة طبرية، الى آخر رمضان.

فلما وردت الأخبار بحركة الملك الصالح الى القاهرة، خرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرا — منهم الأمير نور الدين على بن فخر الدين عثمان الأستادار، والأمير علاء الدين بن الشهاب أحمد، والأمير عز الدين أيبك الكريدى العادلى، والأمير عز الدين بلبان المجاهدى، والأمير حسام الدين لؤلؤ السعودى، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمى، والأمير عز الدين قضيب البان العادلى، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسرى (٤) — فى عدّة كثيرة من أتباعهم وأجنادهم، وخلق من مقدّمى الحلقـة (٥) والممـاليك السلطانية (٥). وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق.

(١) بغير ضبط فى س، و يقصد المقريزى هنا خربة اللصوص (انظر ما يلى، ص ٢٨٢، سطر ١١)، وهى واقعة على الطريق بين دمشق و بيسان. (أبو شامة : كتاب الروضتين، ص ١٦٢، فى Rec. Hist. Or. V.).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى ممر فى طريق المسافر من دمشق الى حمص. (ياقوت : معجم البلدان، ج١، ص٩٣٦).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٣ أ). وكان الملك الصالح قد عين هذا الأمير أتابكا لولده الملك المعظم توران شاه، فلما عزم على الذهاب الى الديار المصرية، استدعاه اليه بدمشق، وأعاده الى أستاداريته، كما كان من قبل، ووثق به فى كل الأمور. هذا وكان من رجال الملك الصالح فى ذلك الوقت أيضا جمال الدين بن واصل، صاحب كتاب مفرج الكروب، وقد رافق العسكر الصلاحى الى مصر؛ وكذلك بهاء الدين زهير، الشاعر المشهور، وكان يتقلد عند الملك الصالح منصب كاتب الإنشاء. (ابن واصل : نفس المرجع والصفحة، وأيضا ص ٣٢٣ ب).

(٤) صححت هذه الأسماء، وكل نقط بعضها، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٣ ب)، وكذلك (Blochet : Op. cit. pp. 438-439). و يلاحظ أن الأسماء الواردة هنا تزيد بكثير عما ورد فى ابن واصل، وربما استق المقريزى هنا من كتاب سير الآباء البطارقة. راجع (Blochet : Op. cit. p. 438. N. 5.).

(٥) كانت الجنود السلطانية، زمن الأيوبيين والمماليك بمصر، مكوّنة من طبقتين: وهما المماليك السلطانية وأجناد الحلقة. وقد وصفهما القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥ — ١٦)، فقال إن المماليك السلطانية كانت عند السلطان "أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدّهم الى السلطان قربا، وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة". =

وذلك أن الملك العادل تقدّم بتوجه العسكر الى الساحل، وقدّم عليهم الركن الهيجاوى، وأنفق فيهم . فلما نزلوا بلبيس اختلفوا، وخامر جماعة من الأمراء على العادل، وعزموا على المسير الى الملك الصالح. فبعث العادل إليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وبهاء الدين مَلكيشو(١)، ليطيب خواطرهم، فلم يجيبوا . وخرج من القاهرة عدّة من الحلقة، ومعهم طائفة، ومنعوا من غلق باب النصر، وساروا طائفة بعد طائفة على حَمِيّة .

فَبَطَّق(٢) العادل الى من بقى معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر عليه ببلبيس، قبل قدوم هؤلاء عليهم . فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس، [و] انكسر الأتراك المخامرون(٣)، وأُخذ منهم أمير، وانهزم باقيهم وهم فى طلبهم الى ناحية سُنَيْكَة(٤) . فلحق بهم من خرج من الحلقة ومضوا جميعا إلى تل العجول، وعادت الخزانة التى كانت معهم سالمة إلى القاهرة . ثم بعثوا يطلبون من العادل العفو، فأمّنهم وحلف لهم، فلم يرجعوا، وساروا إلى الملك الصالح . فلما بلغوا غزة أمر الملك الصالح أستاداره بالعود إلى خربة اللصوص، وخرج [هو] ببقية عسكره من دمشق، لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

= أما أجناد الحلقة فهم "عدد جم، وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند، من المتعممين وغيرهم، بواسطة النزول عن الإقطاعات ... ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر [فى الحرب]، كانت مواقفه معهم، وترتيبهم فى موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة، يقال لهم البحرية، يبيتون بالقلعة، وحول دهاليز السلطان فى السفر، كالحرس . وأول من رتبهم، وسماهم بهذا الاسم، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب..." .

(١) كذا فى س، بفتحة على الميم فقط . وقد ترجم (Blochet : *Op. cit.* p. 440) هذا الاسم الى (**Malkishou**) .

(٢) فى س "فبطق"، والمقصود أن العادل أرسل بطاقة — أى رسالة، الى الأمراء . ولفظ بطاقة، وجمعه بطائق، معرب الكلمة اليونانية بتاكيون . (محيط المحيط) . انظر أيضا القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٣١، وما بعدها) .

(٣) فى س "المخامرين" .

(٤) بغير ضبط فى س، أو فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧١) . وهى قرية بالشرقية، بين بلبيس والعباسة، على الشاطئ القبلى لترعة بحطيط، واليها ينسب شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، قاضى قضاة الشافعية فى دولة السلطان الأشرف قايتباى، ومؤلف كتاب المنهج وشرح المناهج فى مذهب الإمام الشافعى . (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٢، ص ٦٢ — ٦٣) .

ونزل [الملك الصالح] الخوبة، ووصل الأمير نور الدين بن فخر الدين بمن معه، فسربهم سرورا كثيرا. وأخذوا فى تقوية عزمه على قصد مصر، فرحل واستولى على نابلس والأغوار، وأعمال القدس والسواحل؛ وبعث ابنـه الملك المغيث فتح الدين عمـر إلى دمشق؛ وأقطع من قدم عليه من أمراء مصر نابلس وأعمالها، ليتقووا بِمَغَلِّها (١). فخرج الناصر داود من مصر، وصار إلى الكرك.

فانزعج الملك العادل وأمه لقـدوم الصالح انزعاجا عظيما، وخافاه (٢) خوفا كبيرا، واضطربت مصر اضطرابا زائدا. وخرج فخر القضاة نجم الدين بن بصاقة (٣) فى الرسالة إلى الملك الصالح من الكرك عن الناصر داود: بأنه فى نصرة الملك الصالح ومعاونته، ويسأله دمشق وجميع ما كان لأبيـه. فلم تقع موافقة على ذلك، فسار [الناصر] إلى الملك العادل، ونزل بدار الوزارة من القاهرة، ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح.

فقدم فى ذى الحجـة الصاحب محيى الدين بن الجوزى، برسالة الخليفة إلى الملك الصالح، ليصالح أخاه الملك العـادل؛ فأَجَلَّ [الملك الصالح] قدومه إجلالا (١٧٤ أ) كثيرا. ومع ذلك فإن كتب الأمراء — وغيرهم — ترد فى كل قليل على الملك الصالح من مصر، تعـده بالقيام معه، وأن البلاد فى يده، لاتفاق الكلمة على سلطنته.

وفيها مات المنصور ناصر الدين أرتق بن أرسلان التركمانى الأرتقى، صاحب ماردين، — قتله ابنه وهو سكران، واستولى بعده على ماردين.

وفيها وقعت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية حروب قُتِل فيها كثير منهم، وقتل شيخهم شمخ بن نجم (٤). فجرد الملك العـادل إليهم الأمير بهاء الدين بن ملكيشو، ليصلح بينهم. وكان السلطان فى بلبيس، قد خرج فى سلخ ذى الحجة من قلعة الجبل، بعساكر مصر.

(١) ليس فيما سبق هنا، أو فى ابن واصل، أو غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى، مايدل على أن الناصر داود ذهب الى القاهرة، قبل مفاوضة الملك الصالح أولا، كما يستنتج مما يلى، سطر ٩. (٢) فى س "وخافوه".

(٣) بغير ضبط فى س، واسمه فى ابن واصل (نفس المرجع، س ٣٢٣ أ) فخر الدين نصر الله بن بزاقة.

(٤) فى س "شمخ بن نحم"، وبغير ضبط. وقد أحصى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٧، وما بعدها) القبائل العربية بنواحى الديار المصرية، غير أنه ليس بين أسماء أمراء القبائل التى أوردها ما يساعد على ضبط هـذا الاسم، أو تعيين القبيلة التى كان منها.

\+ + +

سنة سبع وثلاثين وستمائة . أهلت والملك العادل على بلبيس بعساكره يريد الشام، لمحاربة أخيه الملك الصالح . فأقام على بلبيس[١]، فقصد الأمراء القبض عليه، وعمل بعضهم دعوة ، وحضر إليه العادل . ففطن بما هم عليه ، فقام [و] دخل الخَرْكُشْته[٢] لقضاء الحاجة ، وخرج من ظهر الخرپشته ، وركب فرسا وساق إلى القلعة . فبعث إليه الأمراء يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل القاهرة إلا لكسرة الخليج[٣]، وأنه سيعود إليهم[٤] . ثم ألجأته الضرورة حتى خرج إلى العباسة، فى رابع عشرى المحرم، وقبض على جماعة من الأمراء .

وفى نصف صفر توجه الناصر داود من العباسة إلى الكرك، وصحبته [الأمير[٥] سيف الدين على] بن قلج، و جماعة من أمراء مصر . فبلغ العادل عن فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أنه يكاتب الصالح ، فقبض عليه واعتقله . هـذا ومحيي الدين أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى آخذ فى الإصلاح بين الملوك، على أن تكون دمشق للصالح [نجم الدين أيوب]، ومصر للعادل، وأن يُرَدَّ إلى الناصر داود ما أُخذ من بلاده . وكان [محيي الدين[٦] بن الجوزى] مقيما عند الصالح، وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر فى السفارة، حتى تقارب الأمر . ثم قدم [محيي الدين] إلى مصر، ومعه جمال الدين يحيى بن مطروح، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح، فأديا الرسالة، وأقاما عند الملك العادل .

---

(١) يلى هذا فى س عبارة مشطوبة بخط مستقيم، ونصها : "وقدم طايفه الى طرف الرمل ، ومعه الناصر داود" . و يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٥ ب) ما يقابل هذه العبارة، غير أنها لم تثبت هنا فى المتن، احتراما لإرادة المقريزى .

(٢) فى س "الخرشت" بغير ضبط، وهو لفظ فارسى، ومعناه هنا الخيمة . (Steingass: Pers.-Eng. Dict.).

(٣) كتب المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٩) . (انظر أيضا المقريزى نفس المرجع والجزء، ص ٤٩٣ ؛ ج ٢ ، ص ١٨٥) فصلا مطولا ذكر فيه ما كان يعمل بالقاهرة ومصر يوم كسر الخليج أيام الفاطميين .

(٤) فى س "و يعود اليهم" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٠ ب) .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٥ ب) .

وكان قد أخذ الصالح يكاتب عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى الوصول إليه بنابلس، وبعث إليه الطبيب سـعد الدين الدمشقى ، ومعه حمام ليسرح إليـه بالبطائق على جناحها ما يتجدّد. فاتفق أمر عجيب : وهو أنه لمـا وصل [سعد الدين] إلى قلعة بعلبك أنزله الصالح عماد الدين إسماعيل بدار، و بدّل عوض الحمام [الذى فى[1] قفص سعد الدين] بحمام آخر، من حمام القلعة ببعلبك. وأخذ [الصالح عماد الدين] فى التدبير على أخذ دمشق، وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ وأرسل جواسيسه سرا إلى ابن أخيه الملك العادل، بمـا عزم عليه من أخذ دمشق، وأنه منتم إليه وفى طاعته، وإذا ملك دمشق خطب له على منابرها ، وضرب السكة باسمـه . وكتب [الصالح عماد الدين إسماعيل] أيضا إلى المجـاهد — صاحب حمص — فى معاونته؛ وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين، يعـده بالوصول الى نصرته . وشرع [الصـالح عماد الدين] فى جمـع الرجال ، ففطن بذلك الطبيب سـعد الدين ، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهـذا الأمر إلى الملك الصالح نجم الدين . فكان كلما سرح [سـعد الدين] منها طائرا وقع فى برجه بقلعة بعلبك ، فيأتى به الـبرّاج إلى الملك الصالح عمـاد الدين . ثم إن الصالح عمـاد الدين زوّر بطاقة عن الطبيب سعد الدين : فيها "إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الاهتمام للسير إلى المعسكر المنصور، وإنه باق على الطاعة"؛ وسرح هذه البطاقة (٧٤ ب) المزوّرة على جناح طائر من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين . فلما وقف عليها الملك الصالح نجم الدين، ظن أنها من عند رسوله، فطاب قلبه . ووالى الصالح عماد الدين إرسال البطائق المزوّرة ؛ وكلما سرح الطبيب طائرا ببطاقة وقع فى قلعة بعلبك، فيصل إلى الصالح عماد الدين .

واتفق مع ذلك أمر آخر من عجيب ما يجـرى : وهو أن المظفـر صاحب حمـاة كان متميا الى الصـالح نجم الدين، ومهتما بنصرته، ويخطب له فى بلاده ؛ [وكان] الحلبيـون

(١) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٦ أ)، هذا وعبارة السلوك هنا تشبه ما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ٣٢٥ ب — ٣٢٦ أ) ، فى ترتيب الحقائق والتفاصيل . والراجح أن المقريزى استق هنا من ابن واصل ، غير أنه تعمل تغيير بعض الألفاظ ، وتعديل بعض الجمل .

والمجاهد صاحب حمص معاندين له ، ومساعدين عليه (١) . فعلم المظفر صاحب حماة ما عليه خاله الصالح عماد الدين صاحب بعلبك، من قصد دمشق ، وموافقة المجاهد صاحب حمص له . وكانت عساكر دمشق مع الصالح نجم الدين [أيوب] على نابلس ، وهم خمسة آلاف ، وليس بدمشق من يحفظها ؛ فخاف الملك المظفر صاحب حماة على دمشق، وباطن الأمير سيف الدين [علي] بن أبي علي [الهذباني] (٢) على أنه يظهر الحرد (٣) [عليه] ويفارقه، ويوهم أكابر البلد بأن المظفر قد عزم على تسليم حماة إلى الفرنج، لما حصل عنده من الغبن من المجاورين له ، وأخذ بلاده منه (٤) . وقصد المظفر بهذه الحيلة مكيدة صاحب حمص، وأن الأمير سيف الدين إذا ذهب بالعسكر وأكابر الرعية إلى دمشق أقاموا بها وحفظوها ، حتى يتوجه الملك الصالح الى مصر ، أو يعود الى دمشق (٥) . فأظهر سيف الدين

(١) فى س "معاندون له ومساعدون" ، وإنما تطلب التغيير الوارد بالمتن ، إضافة فعل "كان" بين القوسين ، بالصفحة التالية سطر ٣ ، وذلك لانسجام العبارة كلها .

(٢) فى س "بو علي" ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ أ) ، وأضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والصفحة . وهذا الأمير سيف الدين هو أخو الأمير حسام الدين بن أبي علي ، أو ابنه ؛ وقد تقدم ذكره هنا . (انظر ص ٢٨١ سطر ٤ ؛ وكذلك ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٢٨ أ) .

(٣) معنى الحرد هنا الغضب ، والفعل حرد ، وهو لازم ويتعدى بحرف الجر "على" . (محيط المحيط) .

(٤) فى س "الصالح" انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ أ) .

(٥) عبارة المقريزي هنا ليست واضحة تماما ، وهذا لأنه قصد اختصار ما جاء فى الأصل الذى يرجح أنه نقل منه ، وهو ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٦ ب — ٣٢٧ أ) ، فغير المعنى قليلا . وهذا نص ما ورد فى مفرج الكروب ، مصححا : " قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ : ومن الغرائب التى وقعت فى هذه السنة ما نذكره الآن ، وهو أنا كنا قد ذكرنا انتماء الملك المظفر ، صاحب حماة ، الى ابن خاله السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنه عادى جيرانه كلهم بسبب الانتماء اليه ، والى والده من قبله . وبلغه أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك ، قد اتفق هو والملك المجاهد صاحب حمص ، على قصد دمشق وأخذها من الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتحقق [المظفر] أن الملك الصالح مقيم بنابلس فى العساكر كلها ، وأنه لم يترك بدمشق مع ولده الملك المغيث [عمر] عسكرا يحفظها ، وأنه متى قصدها صاحب حمص وصاحب بعلبك (٣٢٧ أ) أخذت لا محالة ، فرأى [المظفر] من المصلحة أن يسير جماعة من عسكره وأهل بلده يحفظونها . وكان الأمير سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني غالبا على أمره كله ... فاتفق الملك المظفر مع سيف الدين علي بن أبي علي ، أن يظهر سيف الدين الحرد على الملك المظفر =

الغضب على المظفر، وأخذ قطعة من العسكر، ومن أكابر حماة؛ وخرج فسار حتى نزل على حمص، عند بحيرة قدس . فلم يخف على المجاهد صاحب حمص ما دبره المظفر من مكيدته، وخرج من حمص، وبعث الى الأمير سيف الدين يريد الاجتماع به. فأتاه [سيف الدين] منفردا، وأعلمه بأنه كره مجاورة المظفر، لما هو عليه من الميل للفرنج، والعزم على تسليمهم حماة . فأظهر له [الملك المجاهد] البشر ولاطفه، واستدعاه الى ضيافته بداخل حمص . فلما صار به إلى القلعة، استدعى أصحابه لينزلوا فى البلد، فدخل بعضهم وامتنع بعضهم من الدخول إلى حمص . فلما تمكن المجاهد من الأمير سيف الدين قبض عليه، واعتقله هو ومن دخل من أصحابه، وفر الباقون . فعاقب [المجاهد] من صار فى قبضته أشد العقوبة، واستصفى أموالهم، وما زال بسيف الدين حتى هلك(1) . فضعف المظفر لتلف(2) رجال عسكره .

وسار الصالح عماد الدين — ومعه المجاهد — الى دمشق فى جمع كبير، وأخذاها وأظهرا طاعة الملك العادل (١٧٥) صاحب مصر، وكان ذلك فى سابع عشرى صفر . ثم ملكا قلعة دمشق، واعتقلا المغيث بن الصالح نجم الدين .

فبلغ ذلك الملك الصالح وهو بنابلس، فكتم الخبر، وقدم الأمير حسام الدين محمد بن أبى على(3) الهذبانى(4) أستاداره فى جماعة، وسار بعده يريد دمشق . فلما وصل ابن أبى على الى الكسوة علم بأخذ دمشق من يدهم(5)، فرجع الى الصالح — وقد نزل بيسان — فأعلمه الخبر،

= ومفارقته، ويوهم سيف الدين أكابر حماة بأن الملك المظفر قدعزم على تسليم حماة للفرنج، لما قد حصل عنده من الغبن من إساءة المجاورين له، وقصدهم أخذ بلده منه . وقصد الملك المظفر وسيف الدين، بهذا الذى اتفقا عليه، أن تم هذه الحيلة على الملك المجاهد صاحب حمص، فلا يتعرض لسيف الدين، ولا للعسكر الذى معه، ولا لأكابر حماة، الذى (كذا) معه أيضا، حتى يمضوا إلى دمشق، فيحفظوها للملك الصالح نجم الدين أيوب الى أن يملك الديار المصرية، ويرجع الى دمشق" .

(١) كان ممن وقع فى قبضة الملك المجاهد أيضا الحكيم زين الدين سعد الله بن سعد الله بن واصل، وهو ابن عم مؤلف مفرج الكروب . (انظر ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٢٨ أ) .

(٢) فى س "تلاف" . (٣) و (٤) فى س "بوعلى" .

(٥) كذا فى س، وعبارة "من يدهم"، غير لازمة، على أنها أبقيت محافظة على المتن .

وسار معه حتى وصل القصير المعيني[١] من الغور . فاشتهر عند العسكر أخذ دمشق ، لورود مكاتبات الصالح عماد الدين إليهم ، باستمالتهم إليه . ففسدت نياتهم ، وطمعوا فى الملك الصالح نجم الدين ، لتلاشى أمره ، وفارقوه . فبقى [الصالح نجم الدين] فى دون المائة من أمرائه وأجناده ؛ وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه ؛ وتركه أيضا بدر الدين قاضى سنجار — وكان أخص أصحابه . وصاروا كلهم الى دمشق ، وقد أيسوا[٢] من أن يقوم بعدها للصالح [نجم الدين] قائمة . وثبت معه الأمير حسام الدين بن أبى على[٣] أستاداره ، وزين الدين أمير جانداره ، وشهاب الدين بن سعد الدين كُوجبا[٤] — وكان أبوه سعد الدين ابن عمة الملك الكامل — ، والأمير شهاب الدين البَوَاشِق[٥] ، ونحو الثمانين من مماليكه ؛ وثبت معه أيضا كاتبه بهاء الدين زهير . وهرب الطواشى شهاب الدين فاخر ، وأخذ معه شيئا كثيرا من قماش الصالح ، وعدّة من مماليكه الصغار وغلمانه ، وصار مع من لحق بدمشق .

ففتّ فى عضد الصالح مفارقة العسكر له ، وأيقن بزوال أمره . ورحل فى الليل ، فلقيه طائفة من العربان يريدون أخذه ، فحاربهم بمن معه ، حتى خلص منهم الى نابلس ، فنزل بظاهرها .

ولما وصل العسكر المحاصر على الصالح [نجم الدين] الى دمشق ، قبض الملك الصالح عماد الدين على أخويه [الملك المعز] مجير الدين [يعقوب] ، و [الملك الأمجد] تقى الدين

---

(١) القصير المعينى هو قصر معين الدين ، راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ أ) .

(٢) كان ابن واصل ، مولف كتاب مفرج الكروب ، (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) ممن فارقوا الى دمشق مع عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد أشار الى هذا بعبارة لطيفة نصها : "وكنت أنا مع العسكر الذين دخلوا الى دمشق ، فتواريت ، ولم أظهر خوفا من صاحب حمص" .

(٣) فى س "بوعلى" .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449) ، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) شهاب الدين بن سعد الدين بن كى (؟)" .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449) ، ويظهر أن النسبة الى البواشق ، وهو جمع باشق ، والباشق طائر حسن الصورة صغير الجثة ، تصطاد به العصافير ، وهو معرب اللفظ الفارسى باشه . (محيط المحيط) .

[عباس][1]]؛ واعتقل الأمراء المصريين [أيضا] : وهم عز الدين أيبـك الكردى[2]، وعز الدين قضيب البـان، وسنقر الدنيسرى ، و بلبان المجاهدى ؛ وتوجه نور الدين بن فخر الدين عثمان إلى بغداد .

واتفق تغير الملك العـادل على الناصر داود ، ففارقه من بلبيس — وصحبتـه الأمير [سيف الدين] على بن قلج — ، وسار الى الكرك، وكاتب الصالح نجم الدين ووعده النصرة ، [وكان[3] ذلك خدعة منه] . ثم سار [الناصر] الى نابلس بعساكره ، وقبض على الملك الصالح نجم الدين، ويقال بل بعث إليه من أخذه، بعـد ما صار وحده، وأركبه على بغلة فى إهانة[4] ، بغير مهماز ولا مقرعة، فى ليلة السبت ثانى عشر ربيع الأول .

وبعث [النـاصر] به الى الكرك ، ولم يترك معـه غير مملوك واحد ، يقال له ركن الدين بيبرس ؛ وبعث معه جاريته شجر الدر، أم ولده خليل؛ وأنزله بالقلعة ، وقام له بجميع ما يحتاج اليه، بحيث لم يختل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط[5] .

وأقام بهاء الدين زهير عنـد الناصر داود، هو وجماعة المماليك، بعد ما خيّرهم فاختاروا (٧٥ ب) الإقامة عنده . وطلب الأمير حسام الدين بن أبى على[6] ، وزين الدين أمير جاندار، [من الناصر] المسير الى دمشق فسيّرهما ؛ وعند ما قدما دمشق اعتقلهما الصالح عماد الدين .

وفى سابع عشر ربيع الأول عاد الملك العادل الى القاهرة ، بعـد ما بعث الركن ... ...[7] الهيجاوى على جماعة، لحفظ الساحل . فلما بلغ الملك العادل ماجرى على أخيه — من أخذه

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٩ أ)؛ وكان الملكان من فارق الصالح نجم الدين أيوب الى دمشق . (٢) تقدم اسم هذا الأمير، فى ص ٢٨١ ، سطر ٨ ، حيث كتبه المقريزى "الكريدى" .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٠ ب — ٣٣١ أ).

(٤) فى س "اهنه" .

(٥) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة بهامش الصفحة ، وليس ثمت ما تدل عليه هذه الإشارة سوى كلمة "الناصر"، وهى مشطوبة .

(٦) فى س "بوعلى" . (٧) بياض فى س .

ذليلا، ونهب أمواله، وسجنه بالكرك — سَرَّه ذلك سرورا كثيرا، وظن أنه قد أمن . ونودى بزينة القاهرة ومصر فزينتا؛ وعَمِل سماطا عظيما فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل؛ وعمل قصورا من حلوى، وأحواضا من سكر وليمون، وألفا وخمسمائة رأس شواء، ومثلها طعاما؛ فكان ما عمل من السكر ألف وخمسمائة أبلوجة . ونادى [الملك العادل] فى العامة بالحضور إلى السماط، فحضر الجليل والحقير . وبلغ ذلك الصالح نجم الدين، وهو معتقل بالكرك[(1)] .

ولم يقنع الملك العادل بسجن أخيه، حتى [أنه] بعث الأمير علاء الدين بن النابلسى إلى الناصر داود، يطلب منه أن يبعث إليه بأخيه الصالح فى قفص حديد تحت الاحتفاظ، ويبذل له فى مقابلة إرساله أربعمائة ألف دينار ودمشق؛ وحلف على ذلك أيمانا عظيمة . فلما وصل الكتاب إلى الناصر أوقف عليه الملك الصالح، وأدخل إليه بالقاصد الذى أحضره . ثم كتب [الناصر] إلى الملك العادل : " وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده فى قفص حديد، وأنك تعطينى أربعمائة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هى بيده، وتعطينى إياها . فأما الذهب فهو عندك كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هى معه، وسلمتها إلىّ، سلمت[(2)] أخاك إليك . وهذا جوابى والسلام[(3)]" .

فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر، ليخرج إلى الشام؛ وخرج محيي الدين بن الجوزى من القاهرة، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم الدين، و[كان] قد استجار به[(4)]، بعد ما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك .

وكتب الناصر داود إلى ابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو محبوس عنده بالكرك :

(١) ليس فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ أ) شىء من تفاصيل هذا التفريج؛ ويستدل من أمثال هذه الزيادات، التى انفرد بها السلوك عن مفرج الكروب، أن المقريزى — بفرض اعتماده على كتاب ابن واصل أحيانا — لم يكتف بذلك المرجع وحده .

(٢) فى س " سملت " .

(٣) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ أ) شىء من نص هذا الجواب، أو أى إشارة الى ارساله من عند الناصر، وهذا مثل آخر للقارنة بين محتويات السلوك ومفرج الكروب .

(٤) ضمير الهاء هنا عائد على محيي الدين بن الجوزى . راجع ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ ب) .

وإذا مسّـك الزمان بضر عظمت عنده الخطوب وجلّتْ
وتوالت منــهُ نوائبُ أخرى سئمت عنـدها النفوس وملّتْ
فاصطبر وانتـظر بلوغ الأمانى فالرزايا إذا توالت تولّتْ

وهذه الأبيات لغيره . فكتب إليه الصالح [نجم الدين أيوب] يشكره، وكتب فيما كتب إليه أبيات شمس المعالى قابوس وشمكير[1] :

قل للـــذى بصروف الدهر عيّرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقــه جيف ويســـتقر بأقصى قعره الدرر
وإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا وما لنا من تمـادى بؤســـه ضرر
ففى السماء نجـــوم لا عداد لهـا وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وزاد فيها الرشيد النابلسى :

وكم على الأرض من خضراء مورقة وليس يرجـــم إلا ما لـــه ثمـــر

وفى أثناء هذا الاختلاف بين الملوك عمّر الفرنج فى القدس قلعة، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرِك لما خرّب الملك المعظم أسوار القدس . فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها، بعد أحد وعشرين يوما — فى يوم تاسع جمادى الأولى — عنوة، بمن معه من عسكر مصر . وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشره، فأُخذ [من الفرنج][2] صلحا على أنفسهم دون أموالهم . وهـدم [الناصر] برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج، فساروا إلى بلادهم .

واتفق يوم فتح القـدس وصول محيى الدين بن الجوزى إلى [الملك الناصر داود][3]، ومعه جمال الدين [بن] مطروح . فقال [جمال الدين بن مطروح، يمدح الملك الناصر داود، ويذكر

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ ب) .

(٣) فى س "اليه"، وقد حذف الضمير وأثبت عائده للتوضيح، وذلك بعد مراجعة ابن واصـل (نفس المرجع والصفحة) .

مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فى فتح القدس، مع اشتراكهما فى اللقب والفعل، وهو معنى لطيف مليح] (١) :

المسـجد الأقصى له عادة   سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطَنا   أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهّره أوّلا   وناصر طهّره آخرا

وفى يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول، وقع بين الفرنج و بين العسكر المصرى المقيم بالساحل حرب، انكسر فيها الفرنج؛ وأُخذ [من الفرنج] ملوكهم (٢) وأكادهم (٣)، وثمانون فارسا، ومائتان وخمسون راجلا — وصلوا الى القاهرة؛ وقُتل منهم ألف وثمانمائة، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة.

ثم سار ابن الجوزى الى دمشق، وحاول إصلاح الحال بين الصالح عماد الدين، وبين الناصر داود، وبين الملك العادل. فلم يتأتّ له ذلك، فعاد الى القاهرة فى رمضان، وقد وصل الملك ابن سنقر بخلعة الملك العادل وابنه، وأمه وامرأته وكاتبه.

ونزل ابن مطروح عند المظفر بحماة، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق، يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، واستصحب معه أيضا رسالة الناصر داود، [ومنها]: "إنى (٤) لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفا عليه من أخيه الملك العادل، ومن

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ب — ٣٣٣ ا) وقد قوبلت الأبيات التالية على نصها فى مفرج الكروب أيضا. (٢) فى س "ملوكهم". (٣) لا يوجد فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى، مايدل على أسماء الملوك والأكاد (جمع كند، وهو معرب لفظ comte)، الذين يخبر المقريزى هنا عنهم. أما أصل هذا النشاط الحربى فهو أن المدنة بين المسلمين والصليبيين، منذ أيام السلطان الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى، كانت قد انتهت. وقد وصلت حملة صليبية الى الشام، سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩ م)، وكان أهم قوادها Theobald Count of Champagne and King of Navarre) راجع (Stevenson : Crusaders In The East, p. 713). هـذا وفى (Blochet : Op. cit. p. 453-454) أخبار مطولة عن حركات الفرنج تلك السنة، وعما وقع لأسراهم بالقاهرة، وهى مترجمة من كتاب سير الآباء البطارقة.

(٤) فى س "بانى".

عمه الملك الصالح عمـاد الدين ؛ وسأخرجه وأملّكه البلاد ، فتحركوا على بلاد حلب ، وبلاد حمص" . فسار إليهم [ابن مطروح](١) وقضى الأمر معهم ، وعاد الى حماة .

فاتفق موت الملك المجاهد أسـد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه ، صاحب حمص ، يوم التاسع عشر من شهر رجب ، فكانت مدّة ملكه بحمص نحوا من ست وخمسين سنة . وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ، واتفق مع الصالح عمـاد الدين على المعاضدة .

فصار الناصر داود مواحشا للملك العادل ، بسبب أنه لم يوافقه على أخذ دمشق ؛ والملك العادل مواحشه ، لأنه لم يسلمه الملك الصالح نجم الدين ؛ والناصر أيضا مواحش للصالح عماد الدين ، ويهدّده بأنه يطلق الملك الصالح نجم الدين ، ويقوم معه فى أخذ البلاد ؛ والمظفر صاحب حماة لا يخطب للعادل من حين قطع الخطبة للصالح نجم الدين ، لميـله الى الصالح نجم الدين .

فلما دخل شهر رمضان ، سير المظفرُ القاضىَ شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن أبى الدم — قاضى حماة — رسولا إلى الملك العادل بمصر ، وحمله فى الباطن رسالة إلى الناصر داود بالكرك ، أن يطلق الصالح نجم الدين ، ويساعده على أخذ البلاد . فبلغ [القاضى شهاب الدين(٢) الملك] الناصر ذلك ، وتوجه إلى مصر .

فأفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين ، فى سابع عشر من رمضان ، واستدعاه إليه ، وهو بنابلس . فلمـا قدم عليه التقاه وأجله ، وضرب له دهليز السلطنة ، واجتمع عليه ممـاليكه وأصحابه ، الذين كانوا عند النـاصر : منهم الأمير شهاب الدين بن كوجبا ، وشهاب الدين بن الغرس(٣) ، وكاتبه بهاء الدين زهير . وتقدم الناصر للخطيب بنابلس فى يوم عيد الفطر ، فدعا للملك الصالح ، وأشاع (٧٦ ب) ذكره . وسار(٤) [الناصر داود والصالح نجم الدين](٥) إلى القدس ،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٣ب) .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٤ أ) .

(٣) فى س "العرس" ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٦ أ) . (٤) فى س "وساروا" .

(٥) كان الغرض من ذهاب الصالح والناصر الى القدس ، أن يحلف كل منهما لصاحبه على الصخرة المقدسـة . ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٦ أ) .

وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح، والشام والشرق للناصر، وأن يعطيه[1] مائتى ألف دينار . فكانت مدّة اعتقال الملك الصالح سبعة أشهر وأياما .

ثم سارا إلى غزة، فورد الخبر بذلك على الملك العادل بمصر، فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطانى والعساكر، وبرز إلى بلبيس فى نصف ذى القعدة، وكتب الى الصالح عماد الدين أن يخرج بعساكر دمشق؛ فخرج الصالح عماد الدين بعساكره إلى القوّار . فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما ، ورجعا من غزة الى نابلس، ليتحصنا بالكرك .

وكان الملك العادل قد شره فى اللعب، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر[2] وأهل اللهو، حتّى حسبت نفقاته فى هذا الوجه خاصة ، فكانت ستة آلاف ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم؛ وأعطى [العادل] عبدا أسود، عمله طشت[3] داره، يعرف بابن كرسون[4]، منشورا[5]

(١) لم يرد هذا الشرط الأخير فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٦ أ)؛ والراجح أن الصالح هو الذى وعد الناصر بمائتى ألف دينار .

(٢) جمع مسخرة، وهو الشخص الذى تسخر الناس منه ، أو البهلول الذى يلعب لإضحاك النظارة (personne dont on ce moque, dont on se joue, marmouset, petit garçon, petit homme mal fait, .. buffon, baladin) انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) كانت وظيفة الطشت دار من الوظائف الصغرى، وصاحبها تابع للطشت خاناه السلطانية، وهى حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ — ١١) "بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدى ، والطشت الذى يغسل فيه القماش [السلطانى] ... وفى الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان، من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب ، والسيف والخف والسرموزة ، وغير ذلك . وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان، من المقاعد والمخاد والسجادات التى يصلى عليها ، وما شاكل ذلك . ولها أيضا مهتار من كبار المهتارية ، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدة غلمان، بعضهم يعرفون بالطشت دارية ، وبعضهم يعرف بالرختوانية" . انظر أيضا (نفس المرجع، ج ٥، ص ٤٦٩) . هذا والطشت لفظ عامى، وصوابه الطست، أو الطس، وكلاهما معرب اللفظ الفارسى تست، وهو إناء غسل اليد . (محيط المحيط) .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 458) .

(٥) المنشور فى مصطلح الدولتين الأيوبية والمماليك بمصر، عبارة عن أمر سلطانى مكتوب باقطاع من أرض أو مال، أو غير ذلك . وكانت المناشير على أربعة أصناف، يكتب كل صنف منها فى قطع معين من الورق، يختلف باختلاف طوائف رجال الدولة . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣ ، ص ١٥٨ ، وما بعدها) .

بخمسين فارسا ؛ فلما خرج به من باب القلّة[1] بقلعة الجبل وجده الأمير ركن الدين الهيجاوى ، أحد الأمراء الأكابر ؛ فأراه المنشور، فخنق وصكه فى وجهه، وأخذ منــه المنشور . وصار بين الأمراء و بين الملك العادل وحشة شديدة، ونفرة عظيمة .

واتفق ما تقدّم ذكره إلى أن نزل [العادل] ببلبيس، فقام الأمير عز الدين أيبك الأسمر — مقــدّم الأشرفية، و باطن عدّة من الأمراء والمماليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه . ووافقهم على هــذا جوهر النوبى وشمس الخواص[2] — وهما من الخدام الكاملية، وجماعة أخر من الكاملية : وهم مسرور الكاملى ، وكافور الفائزى . وركبوا ليــلا وأحاطوا بدهليز الملك العــادل ، ورموه وقبضوا عليــه ، ووكلوا به من يحفظه فى خيمة . فلم يتحرك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد اهتموا بالقيام له ، فمــال عليهم الأتراك والخدّام ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القــاهرة . ويقال إنه بلغ أيبك الأسمر أن الملك العادل سكر مع شبابه وخواصه، وقال لهم : "عن قليل تشربون[3] من دم أيبك الأسمر، وهؤلاء العبيد السوء[4] فـلان وفلان، وسمّاهم" . فاجتمعوا على خلعه، لا سيما لمــا طلب ابن كرسون منه أن يسلمه الأمير شجاع الدين بن بزغش[5] — والى قوص، فأمكنه منــه وعاقبه أشد عقوبة، وتنوّع فى عذابه، ولم يقبل فيــه شفاعة أحد من الأمراء . وكان الملك العادل قد قرّبه تقريبا زائدا، حتى كان يقضى عنده الحوائج الجليلة، فأنفت الأنفس من ذلك .

وخلع [العادل] فى يوم الجمعة تاسع شوّال، فكانت مدّة ملكه سنتين وشهرين وثمــانية

(١) كان هذا الباب أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعــة الجبل ، ويتوصل إليه من الباب المدرج ، وهو أعظم أبواب القلعة ، وموقعه فى أوّل الجانب الشرقى منهــا تجاه القاهرة . وكان بين هذين البابين ساحة مستطيلة ، ينتهى منها الى دركاه واسعة ، يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وقد سمى باب القلة بهذا الاسم فى زمن المماليك ، وذلك أنه كانت هنــاك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ ، وما بعــدها ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، وما بعدها) .

(٢) كذا فى س ، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٧ أ) الخواص ، بفتحة على الواو .

(٣) فى س "شربوا" . (٤) فى س "السو" .

(٥) كذا فى س ، وبغير ضبط . وقد ترجمه (Blochet : Op. cit. p. 459) الى (Barghash) .

عشر يوما ، أولها يوم الخميس، وآخرها يوم الخميس تاسع شوّال سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أسرف فيها إسرافا أفرط فيه ، (٧٧ ا) بحيث أن أباه الملك الكامل ترك ما ينيف على ستة آلاف ألف دينار مصرية، وعشرين ألف ألف درهم، فرّقها كلها . وكان [العادل] يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمالين، ولم يبق أحد فى دولته إلا وشمله إنعامه . فكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات ، للين جانبه ، وكثرة إحسانه . قال الأديب أبو الحسين الجزار فى الملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب : —

هو الليث يخشى بأسه كل مجتر ... هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى
لقد شاد ملكا أسسته جدوده ... فأصبح ذا ملك أثيل مشيد
وصح به الإسلام حتى لقد غدت ... بسلطانه أهل الحقائق تقتدى
فقل للذى قد شك فى الحق إنما ... أطعنا أبا بكر بأمر محمد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فإن أباهما الكامل محمدا أقام العادل هذا بمصر، وبعث الصالح أيوب إلى الشرق .

وقال البرهان بن الفقيه نصر، لما استقرّ العادل فى السلطنة بعد أبيه : —

قل للذى خاف من مصر وقد أمنت ... ماذا يؤمله منها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمدها ... فقد أقام أبا بكر خليفته

السلطان الملك الصالح

أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

لما قُبض على أخيه الملك العادل ، كان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، صاحب دمشق ؛ وكانت الخدام والمماليك الكاملية تميل إلى الملك الصالح نجم الدين، وهم الأكثر . فلم يطق [عز الدين][1] مخالفتهم، فاتفقوا كلهم، وكتبوا إلى

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٧ ا) .

الملك الصالح نجم الدين يستدعونه[١] . فأتتـه كتبهم ، وقد بلغ هو والناصر داود الغـاية من الخوف، وزُلزلا زلزالا شديدا، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام . فأتاهما من الفرج[٢] مالم يسمع بمثله ، وقاما لوقتهما، وسارا إلى مصر . فلما دخلا الرَّمل[٣] لم ينزلا منزلة إلا وقدم عليهما من أمراء مصر طائفة ، حتى نزلا ببلبيس، يوم الاثنين تاسع ......[٤] ، بعد ما خطب له بالقاهرة ومصر يوم الجمعة خامس عشره .

ومنذ فارقا غزة تغير الناصر داود على الملك الصالح [نجم الدين أيوب]،وتحدث فى قتله . فلما نزلا[٥] ببلبيس، سكر الملك الناصر،ومضى إلى العادل، وقال له : "كيف رأيت ما أشرت به عليك، ولم تقبل منى ؟" فقال له [العادل]: "ياخوند ! التوبة" . فقال [الناصر] : "طيِّب قلبـك ، الساعة أطلقك" . ثم جاء [الناصر] ، ودخل على الملك الصالح، ووقف . فقال له الصالح : "بسم الله اجلس" . قال : "ما أجلس حتى تطلق العادل" . فقال له : "اقعد"، وهو يكرر الحديث، فما زال به حتى نام. فقام من فوره الملك الصالح، وسار فى الليـل ومعه العادل فى محفة ، ودخل به إلى القاهرة ، واستولى على قلعة الجبل، يوم الجمعة ثالث عشرى شوّال، بغير تعب .

وجلس [الملك الصالح نجم الدين أيوب] على سرير الملك ، واعتقل أخاه العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة؛ وسر الناس به سرورا كثيرا ، لنجابته وشهامته . ونزل الناصر داود بدار الوزارة[٦] من القاهرة؛ ولم يركب الملك الصالح يوم عيد النحر، لما بلغه من خلف العسكر .

(١) فى س "يستدعوه" . (٢) فى س "الفرح" .

(٣) أطلق هذا الاسم على الجهة الواقعة بين العريش والعباسة ، وساحل البحر الأبيض المتوسط . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣) . (٤) بياض فى س، به آثار كتابة ممحوّة .

(٥) فى س "نزل" .

(٦) كانت هـذه الدار بقلعة الجبـل ، وقد عرفت أيضا بقاعة الصاحب ، لإطلاق لقب الصاحب أحيانا على الوزير بمصر، أيام الأيوبيين والمماليك . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٥ ، ٢٢٣) .

وفى ذى الحجة أحضر الملكُ الصالح إليه الملكَ العادل، وسأله عن أشياء، ثم كشف بيت المـال والخزانة السلطانية، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم. وقيل له عما أتلفه أخوه، فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا فى القبض على أخيه، وقال لهم: "لأى شىء قبضتم على (٧٧ ب) سلطانكم ؟" فقالوا: "لأنه كان سفيها". فقال: "يا قضاة! السفيه يجوز تصرفه فى بيت مال المسلمين ؟" قالوا: "لا". قال: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المـال، كانت أرواحكم عوضه". فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينـار، وألفى ألف وثلاثمـائة ألف درهم. ثم أمهلهـم قليلا (١)، وقبض عليهـم واحدا بعد واحد.

واستدعى [الملك الصالح] بالقاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن على ابن محمـد، المعروف بابن أبى الدم — وكان بمصر منذ قدم من عنـد المظفر صاحب حماة، وبعث به مكرما إلى حماة، وخلع على ابن الجوزى رسول الخليفة، وكتب معه إلى الديوان العزيز يشكرونه. وكانت الخلع الخليفتية قـد وصلت إلى القاهرة، فلبسها الملك الصالح، ونصب منبرا صعد عليه ابن الجوزى، وقرأ تقليد الملك الصالح، والملك الصالح قائم بين يدى المنبر على قدميـه، حتى فرغ من قراءته. وشيع [الملك الصالح] أيضا الصاحب (٢) كمال الدين بن العديم رسول حلب.

وتخوف السلطان من الناصر داود، لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سرا، ولأنه

---

(١) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٧ ب) شىء من أخبار ذلك المجلس.

(٢) كان الصاحب كمال الدين بن أبى جرادة، المعروف بابن العديم، قد حضر إلى القاهرة رسـولا إلى الملك العادل، من عند الصاحبة ضيفة خاتون، والدة الملك العزيز، صاحب حلب. (انظر ص ٢٧١، سطر ٩). وكانت الصاحبة قد أرسلته، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٨ أ، وما بعدها)، ليطلب من العادل أن يسير إليها عماته، بنات الملك العادل الأول، فأجابها إلى ذلك. ثم حدث أن صار الملك الصالح أيوب سلطانا على مصر، قبل رحيل ابن العديم من القاهرة، فاستحضره الصالح وأكرمه، وزوده برسالة إلى الصاحبة ضيفة خاتون، منها "يقبل [الملك الصالح أيوب] الأرض بين يدى الستر العـالى، ويعرفها أنى مملوكها، وأنى عبـد بمحل الملك الكامل، وأنا أعرض نفسى لخدمتها (ص ٣٣٨ ب) وامتثال ما ترسم به ... ...".

سأله أن يعطيه قلعــة الشوبك، فامتنع السلطان من ذلك . واستوحش [النــاصر] فطلب الإذن بالرحيل الى الكرك، فخرج من القاهرة وهو متغيظ، وقد بلغه أن الصالح إسماعيل خرج من دمشق، ووافق الفــرنج على أن يســلمهم الساحل؛ ووصل الفرنج إلى نابلس . وتأول السلطان أنه ما حلف للناصر بالقدس إلا مكرها(١)، لأنه كان إذ ذاك تحت حكمه وفى طاعته . فلما وصل الناصر إلى الكرك طلب من السلطان ما التزم له به من المــال، فحمله إليه، وماطله بتجريد العساكر معه لفتح دمشق، مستندا لمــا تأوله .

وفى أثنــاء ذلك تحدّث الأشرفيــة بالوثوب على السلطان، فخافهم وامتنع من الركوب فى الموكب مدّة . واستوزر [السلطانُ] الصاحبَ معين الدين الحسن بن الشيخ، وسلم إليه أمور المملكة كلها، وهو ببركة الحاج، فى يوم الخميس حادى عشر ذى القعدة قبل الظهر . فشرع [الصاحب معين الدين] فى تدبير المملكة، والنظر فى مصالح البلاد . وولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدا سمــاه خليــلا(٢)، ولقبــه بالملك المنصور . وعنــد ما نزل الملك الصالح العباسة، فى يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة، قبض على الركن الهيجاوى [العــادلى](٣) فى يوم الاثنين ثامن عشره، وبعثه إلى القاهــرة .

وفيها ولى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبــد السلام بن أبى القاسم خطابة دمشق، فى يوم الأربعاء ثالث ربيــع الآخر، ولاه الصالح عمــاد الدين إسماعيل بن العادل، وخطب لصاحب الروم .

وفيها قتل عثمان بن عبد الحق بن مَحْيُو(٤) بن أبى بكر بن حمامة، أمير بنى مرين، وهو أول من عظم أمره منهم، وغلب على ريف المغرب، ووضع على أهله المغارم، فبايعه أكثر القبائل .

---

(١) انظر ص ٢٩٣، سطر ١٥، وما يليه .

(٢) فى س " خليل " .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٨ أ) .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

وامتدت يده إلى أمصار المغرب، مثل فاس وتازا[1] ومكناسة[2]، وفرض عليها ضرائب تحمل إليه . وقام بعد عثمان أخوه محمد بن عبد الحق .

وفيها قدم الشريف شيحة[3] بن قاسم أمير المدينة إلى مكة ، فى ألف فارس من عسكر مصر ؛ فبعث ابن رسول ملك اليمن بالشريف راجح وعسكرٍ، ففر شيحة[4] من مكة، وملكها عسكر اليمن .

* * *

سنة ثمان وثلاثين وستمائة . فيها شرع السلطان الملك الصالح [أيوب] فى النظر فى مصالح دولته، وتمهيد قواعد مملكته؛ ونظر فى عمارة أرض مصر، وبعث زين الدين بن أبى زكرى على عسكر إلى الصعيد، لقتال العرب . وتتبع من قام فى قبض أخيه الملك العادل، فقبض عليهم، واستصفى أموالهم وقتل عدة منهم . وفرّ عدّة من الأشرفية، وقبض على الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفى بالإسكندرية، ونودى بالقاهرة وظواهرها من أخفى أحدا من الأشرفية نهب ماله؛ وأغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام، ماخلا باب زويلة، حرصا على أخذ الأشرفية؛ (٧٨ أ) فأخذوا وأودعوا السجون . وقبض على جوهر النوبى، وشمس الخواص مسرور، بدمياط — وكانا من الخدام الكاملية، وممن أعان على خلع العادل . وقبض على شبل الدولة كافور الفائزى بالشرقية، وسجن بقلعة الجبل . وقبض على جماعة من الأتراك، ومن أجناد الحلقة، وعلى عدّة من الأمراء الكاملية . وصار [السلطان الملك الصالح أيوب] كلما قبض على أمير أعطى خبزه لمملوك من مماليكه وقدّمه، فبقى معظم أمراء الدولة مماليكه، لثقته بهم، واعتماده عليهم؛ فتمكن أمره وقوى جأشه .

---

(١) فى س "تازى"، وبغير ضبط . وهى بلدة بشرق المغرب الأقصى . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٥٢؛ Al-'Omari: Masalik el-Absar, pp. 141, 164, 165, 171, 220, et carte III.).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى مدينة بالمغرب الأقصى أيضا، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة، وتبعد عن فاس مرحلة واحدة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦١٥) .

(٣) كذا فى س، وبغير ضبط، وهو وارد فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٦٤) "سنجة" .

(٤) بغير نقط البتة فى س .

وفى تاسع ربيع الآخر، وهو يوم السبت، ولد للملك الصالح نجم الدين أيوب من حظيته ولد ذكر. وأحب [الصالح] أن يبقى له ذِكرا، فأمر ببناء قلعة الجزيرة — المعروفة بالروضة — قبالة مصر الفسطاط. وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان، وابتدئ ببنائها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره. وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضـة، وتحوّل الناس من مساكنهم التى كانت بها. وبنى [الملك الصالح] فيها الدور السلطانية، وشيد أسوارها، وأنفق فيها أموالا تتجاوز الوصف. فلما تكامل بناؤها تحوّل السلطان من قلعة الجبل إليها، وسكنها بأهله وحرمه ومماليكه، وكان مغرى بالعمائر.(١)

وفيها عاد العسكر الذى قصد المسـير إلى اليمن فى رمضان، خوفا من المماليك الأشرفية وأتباعهم، وذلك أنهم [كانوا قد] عزموا على الخروج من القـاهرة، ونهب العسكر بركة

(١) يقـول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٤٠ أ) إن الملك الصالح أيوب ابتنى قلعـة جزيرة الروضـة لتكون مركزا لمماليكه وأمرائه، وإن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين. وقد أفاض المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٧٧ — ١٨٥) فى وصف هذه الجزيرة وأبنيتها، من أوّل الإسلام إلى زمنه، وخلاصته أن اسم الروضة كان يطلق فى زمنـه على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينـة الجيزة، وقد عرفت فى أول الإسـلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر. ثم قيل لهـا جزيرة الحصن، بعد ما بنى بها أحمد بن طولون حصنا، سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م)، ليحرز فيه حرمه وماله. ولم يزل هذا الحصن عامرا أيام بنى طولون، وأقيمت به دار الصناعة، التى تنشأ فيها المراكب الحربية. واستمرّ الحصن دارا للصناعة حتى تولى محمد بن طغج الأخشيد مصر، ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ (٩٣٤ — ٩٤٥ م)، فنقل دار الصناعة إلى ساحل النيل بمصر، وجعـل موضعها بالجزيرة بستانا سماه المختار. وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ، وظل هذا البستان متنزه الأخشيدين. وفى زمن الفاطميين بمصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ، ٩٦٩ — ١١٧١ م) صارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس، لها وال وقاض. وأنشأ الأفضـل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالى بساحلها البحرى مكانا نزها سماه الروضة، وتردّد اليه كثيرا، ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة. ومن مخلفات الفاطميين بتلك الجزيرة أيضا قصر الهودج، الذى بناه الخليفة المستعلى بالله لمحبوبته البدوية، بجوار البستان المختار. وما برحت جزيرة الروضـة متنزها ملكيا، وسكنا للنـاس، إلى أن ولى الديار المصرية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وبقلعة الروضة، وبقلعة الجزيرة، وبالقلعة الصالحية. انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٩، فى Rec. Hist. Or. I.)، إذ يسميها قلعة الجيزة؛ وقد سماها أيضا المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٧) قلعة جزيرة الفسطاط.

الجب . فبطل سفرهم ، وبعث السلطان منهم ثلاثمائة مملوك إلى مكة ، لأخذها من أهل اليمن ، وعليهم [الأمير مجد الدين] أحمد بن التركمانى و[الأمير مبارز الدين على بن الحسين] بن بُرطاس .[1] وذلك أن الخبر ورد بأن ملك اليمن بعث جيشا لأخذ مكة ، فساروا آخر شهر رمضان ، ودخلوا مكة فى أثناء ذى القعدة ، ففر من كان بها من أهل اليمن .

وفيها عاد القاضى بدر الدين قاضى سنجار من بلاد الروم ، وكان قد توجه إليها برسالة الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق . فبلغه أن الملك الصالح نجم الدين ملك مصر ، فخرج من بلاد الروم ، وقد عزم ألا يدخل دمشق ، فمضى الى مَصْيَاف[3] من بلاد الإسماعيلية ، وأخذ يتحيَّل فى الوصول إلى مصر . فبلغ ذلك الصالح إسماعيل ، فأرسل إليه ليحضر ، فامتنع من الحضور . واستجار بالإسماعيلية ، فأجاروه ومنعوا الصالح [إسماعيل] منه ، وأوصلوه إلى حماة ، فأكرمه المظفر ، وأنزله عنده . وكان قد نزل عنده أيضا جمال الدين بن مطروح ، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى للسلطان الملك الصالح نجم الدين ، ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام والشرق .

وفيها أيس (٧٨ ب) الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم الدين له دمشق ، فانحرف عنه ، ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص ، واتفقوا جميعا على الصالح نجم الدين .

وفيها أغار الخوارزمية على بلاد قلعة جعبر وبَالِس[4] ونهبوها ، وقتلوا كثيرا من الناس ؛ ففر من بقى إلى حلب ومنبج . واستولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار ، وأخرج

---

(١) بغير ضبط فى س ، انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٩٩ ، من الترجمة الإنجليزية) . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس مما يلى ص ٣١٣ سطر ١ ، ومن المتن العربى فى الخزرجى (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٨) .

(٢) فى س " ابن " .

(٣) بغير ضبط فى س ، ومصياف — أو مصياب — (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام ، وهى واقعة على الساحل ، قرب طرابلس ، وعلى مسيرة يوم من حمص ، وفرسخ من بارين . (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 507.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالشام ، بين حلب والرقة . وكانت أصلا على ضفة الفرات الغربية ، ثم تحول عنها مجرى النهر ، حتى صار بينهما فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٧ — ٤٧٩) مسافة أربعة أميال .

منها الملك الجواد يونس بن مودود بن العـادل نجم الدين أيوب[1] . فسار [الجواد] إلى الشام، حتى صار فى يد الناصر داود ، فقبض عليه بغزّة يوم الأحد ثامن عشر ذى الحجة ، وبعث به إلى الكرك . وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل ، فصاروا نحو الاثنى عشر ألفـا ، وقصدوا حلب . فخرج إليهم العسكر من حلب ، فانكسر وقتل أكثره ، وغنم الخوارزمية ما معهم . فامتنع الناس بمدينة حلب ، وانتهبت أعمال حلب ، وفعل فيها كل قبيح من السبى والقتل والتخريب . ووضعوا السيف فى أهل منبج ، وقتلوا فيها مالا يحصى عدده من الناس ، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء فى الجـامع علانية ، وقتلوا الأطفال . وعادوا وقد خرب ما حول حلب .

وكان الخوارزمية يظهرون للنـاس أنهم يفعلون ما يفعلون خدمة لصاحب مصر ، فإن أهل حلب وحمـص ودمشق كانوا حزبا على الصالح صاحب مصر . فسار المنصور [إبراهيم[2] ابن الملك المجاهد] صاحب حمص ، بعساكره وعساكر حلب ودمشـق ، وقطع الفرات إلى سروج والرها ، وأوقع بالخوارزميـة ، وكسرهم واسـتولى على ما معهـم ؛ ومضوا هاربين إلى عانة .

وفيها خاف الصالح عماد الدين من الملك الصالح نجم الدين ؛ فكاتب الفرنج ، واتفق معهم على معاضـدته ومساعدته ، ومحاربة صاحب مصر ؛ وأعطاهم قلعة صـفد وبلادها ، وقلعة الشقيف[3] وبلادها ، ومناصفة صـيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عاملة[4] وسائر بلاد الساحل . وعزم [الصالح عمـاد الدين] على قصد مصر ، لمـا بلغه من القبض على المماليك الأشرفية والخدام ومقدمى الحلقة وبعض الأمراء ، وأن من بقى من أمراء مصر خائف على نفسه من

(١) كذا فى س ، والراجح أن المقريزى هفا هنا ، فخلط بين اسم الملك الجواد يونس بن مودود بن العـادل ، واسم أخيه الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل ، وقد مات الثانى فى حياة أبيه . انظر ص ١٩١ ، سطر ٩ .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ب) .

(٣) فى س "السقيف" .

(٤) يطلق هـــذا الاسم على جهة جبليـــة قرب السـاحل ، فى إقليم صـــفد ، ويوجد بهـا حصن الشقيف .
(Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 75-76).

السلطان . فتجهز و بعث الى المنصور صاحب حمص، والى الحلبيين، و إلى الفرنج، يطلب منهم النجدات .

وأذن [الصالح إسماعيل] للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق . فأنكر المسلمون ذلك ، ومشى أهل الدين منهم الى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ، وقطع من الخطبة بجامع (٧٩ ا) دمشق الدعاء للصالح إسماعيل ، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه : " اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، و يعمل فيه بطاعتك، و ينهى فيه عن معصيتك"؛ والناس يضجون بالدعاء .

وكان الصالح غائبا عن دمشق، فكوتب بذلك ، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة، واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب ، لأنه كان قد أنكر، فاعتقلا . ثم لما قدم الصالح أفرج عنهما ، وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وألا يفتى، ولا يجتمع بأحد ألبتة . فاستأذنه فى صلاة الجمعة ، وأن يعبر اليه طبيب أو مزين، إذا احتاج اليهما، وأن يعبر الحمام، فأذن له فى ذلك . وولى خطابة دمشق، بعد عز الدين بن عبد السلام ، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار[1] .

وبرز الصالح من دمشق، ومعه عساكر حمص وحلب وغيرها ، وسار حتى نزل بنهر العوجاء . فبلغه أن الناصر داود قد خيم على البلقاء، فسار إليه، وأوقع به . فانكسر الناصر، وانهزم إلى الكرك . وأخذ الصالح أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه، وعاد الى العوجاء، وقد قوى ساعده، واشتدت شوكته . فبعث يطلب نجدات الفرنج، على أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف . و رحل من العوجاء، ونزل تل العجول فأقام أياما، ولم يستطع عبور مصر، فعاد إلى دمشق .

---

(١) يطلق هذا الاسم على جهة من غوطة دمشق، و بها عدة قرى، إسم إحداها بيت الآبار أيضا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٧٧٥) .

وذلك أن الملك الصالح نجم الدين ، لمـا بلغه حركة الصالح إسماعيـل من دمشق ومعـه الفرنج ، جرد العساكر إلى لقائه ، فالتقاهم . وعنـد ما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعا على الفرنج ، فهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون . وبهؤلاء الأسرى عمر السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعـة الروضة ، والمدارس الصالحيـة بالقاهرة .

وفيهـا[1] تم الصلح مع الفرنج ، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الكنود والفرسان والرجالة . وفى ذى القعدة كانت وقعـة بين أمراء الملك الصالح أيوب المقيمين بغزة ، وبين الجواد والناصر، وكسر[2] أصحاب الملك الصالح ، وكسر[3] كمال الدين بن الشيخ . وفيها استقر الصلح بين الملك الصالح والناصر، ورحل [الناصر][4] عن غزة بعد قبضه على الجواد . وفى ذى القعدة وصـل الجواد إلى العباسة ، ومعه [الصالح][5] ابن صاحب حمص؛ فأنعم عليهما الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم يمكنهما من دخول القاهرة . فعاد [الجواد ؟] ، ولجأ إلى الناصر ، فقبض عليه[6] .

وفيها عزل القاضى عبد المهيمن عن حسبة القاهرة ، فى تاسع المحرم ؛ واستقر فيهـا القاضى شرف الدين محمد بن الفقيه عباس ، خطيب القلعـة . وفى رابع عشره شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين فى بنـاء القنطرة التى على الخليج الكبير ، المجـاور لبستان الخشاب ، التى تعرف اليوم بقنطرة السد ، خارج مدينة مصر .

---

(١) انظر حاشية ٦ .

(٢) ، (٣) فى س "كسروا" . راجع (Blochet : Op. cit. p. 472) .

(٤) انظر ص ٣٠٣ ، سطر ٢ .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤١ أ ، ب) .

(٦) العبارة التى تنتهى هنا ، وتبتدئ عنـد حاشية ١ ، واردة بهامش الصفحة فى س ، وليس بالمتن إشارة الى مكانها المناسب ، وقد أدرجت هنا على ترتيب ورودها فى ب (ص ١٩٦ أ) . هـذا ويوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٢٠ ، فى Rec. Hist. Or. I.) أنه لما أيس الملك الجواد من السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سار مباشرة الى عكا ، وأقام مع الفرنج . فأرسل الملك الصالح إسماعيل الى عكا ، وبذل للفرنج مالا حتى سلموه الجواد ، فاعتقله ثم خنقه . انظر ما يلى ص ٣١٠ سطر ٩ .

وفى سادس عشره أمر [السلطان الملك الصالح أيوب] بتجهيز زَرْدخاناه (١) (٧٩ ب) وشَوانى (٢) وحَرَاريق (٣) إلى بحر القلزم لقصد اليمن، وجرد جماعة من الأمراء والأجناد بسبب ذلك .

وفى خامس عشريه نزل خمس نفر فى الليـل من الطاقات الزجاج إلى المشهد النفيسى ، وأخذوا من فوق القبر ستة عشر قنديلا من فضة ؛ فقبض عليهم من الفيوم ، وأحضروا فى رابع صفر . فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقات القبة الزجاج وأخذ القناديل ، وبرأ بقية أصحابه ؛ فشنق تجاه المشهد فى عاشره ، وترك مدّة متطاولة على الخشب ، حتى صار عظاما .

وفى سابع عشرى ربيع الأوّل ولىّ الملك الصـالح الأمير بدر الدين باخل الإسكندرية ، نقله إليها من ولاية مصر .

وفى شهر ربيع الآخر رتب السلطان نوابا عنه بدار العدل ، يجلسون لإزالة المظالم. فجلس لذلك افتخار الدين ياقوت الجمالى ، وشاهدان عدلان ، وجماعة من الفقهاء : منهم الشريف

---

(١) الزردخاناه دار السـلاح ، وهى كلمة فارسية مركبة ، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه . ومن معانى الزردخاناه أيضا ، السجن المخصص للجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) جمع شينى — أوشينية — وهى نوع من السفن الحربية فى مصر ، يقابلها فى اللغة الفرنسية لفظ "galère" (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربيـة فى مصر ، وأكثرها استعمالا . راجع المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) .

(٣) جمع حراقة ، وهى نوع من السفن الحربية ، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الأغريقية ، وكان بهـا مرام تلق منها النيران على العـدو . (محيط المحيط) . وكان فى مصر نوع آخر من الحراقات ، استخدم فى النيل لحمـل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية ، والحفـلات الرسمية . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) ما يدل على أن معظم الحراريق كانت لتلك الأغراض المحليـة : من ذلك أنه لمـا شرع السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء البحرية المصرية ، بعد إهمالها فى عهد سلفه من المماليك ، "استدعى برجال الأسطول ، وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها ... ... واستدعى بشوانى الثغور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد ، فانها كانت عدة كثيرة ، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة ... ". وفى المقريزى أيضا (نفس المرجع والجزء ، ص ١٩٥) أنه فى سـنة ٧٠٢ هـ ، أعد السلطان الناصر محمد بن قلاون حملة بحرية لغزو جزيرة أرواد (رودس) ، وجهزت الشوانى بالعدد والسلاح والغطية والأزودة ، "وزينت الشوانى أحسن زينة ، فخرج معظم الناس لرؤيتها ... ... وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة ". انظر أيضا ابن إياس (بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٢) ؛ وكذلك (Quatremère : Maml. I. 1. p. 143, N. 17) .

شمس الدين الأرموى، نقيب الأشراف وقاضى العسكر ومدرس المدرسة الناصرية بمصر، والقاضى فخر الدين بن السكرى،(١) والفقيه عز الدين عباس . فهرع الناس لدار العدل من كل جانب، ورفعوا ظلاماتهم، فكشفت . واستراح السلطان من وقوف الناس إليه، واستمر هذا بمصر.

وفى ذى الحجة سار القاضى بدر الدين [أبو المحاسن يوسف](٢) السنجارى على الساحل إلى مصر، فلما قدم على السلطان أكرمه غاية الإكرام . وكان قضاء ديار مصر بيد القاضى شرف الدين ابن عين الدولة الإسكندرى، فصرفه السلطان عن قضاء مصر والوجه القبلى، وفوض ذلك للقاضى بدر الدين السنجارى، وأبقى مع ابن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحرى .

وفيها ظهر ببلاد الروم رجل ادّعى النبوّة، يقـال له البابا من التركمان . وصار له أتباع، وحمل أتباعه على أن يقولوا: "لا إله إلا الله، البابا رسول الله" . فخرج إليه جيش صاحب الروم، فقاتلهم، وقتل بينه وبينهم أربعة آلاف نفس، ثم قتل البابا، فانحل أمره(٣) .

وفيها وصل رســول التتار من ملكهم خاقان(٤) إلى [الملك المظفر شهـاب الدين(٥) غازى بن

---

(١) كذا فى س، وبغير ضبط؛ وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 473) هذا الاسم إلى (Ibn as-Sakri).

(٢) انظر ما يلى ص ٣٠٩، سطر ٣ .

(٣) اسم هذا المتنبى التركمانى، حسبما ورد فى (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I) بابا إسحاق، وكان يدعو إلى الزهـد والتقشف، ويقدح فى السلطان غياث الدين كيخسرو وحاشيته، لانغماسهم فى الترف . وقد انتشر مذهبه فى أنحـاء بلاد السلاجقة الروم، وتطلبت مناهضته مجهودا حربيا طويلا، حتى بعـد مقتل صاحبه . هـذا ويرى (Blochet : Op. cit. p. 474, N. 3)، أن البابا إسحاق كان من بقايا أتباع القرامطة والفاطميين .

(٤) هـذا اللفظ هو الصورة العربيـة للقب التركى قاغان (Kaghan)، الذى كان يطلق على رؤساء الترك فى القرن السابع الميلادى، ومعناه رئيس الرؤساء . وقد استعمل أولئك الترك المتقدمون لقب قان — أو خان — أيضا بمعنى قاغان، وربمـا كان اختصارا له . ولبث هذا الاستعمال شائعا بين الترك حتى أيام ملوك المغول، فصارت كلمـة قاغان — أو قان — تطلق على ملك المغول الأعظم، وقصر لفظ خان على المـلوك الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية . ومثل ذلك التمييز موجود فى الاستعمال الاصطلاحى لكلمتى سلطان وملك: فالسلطان هو الملك الأعظم، كالسلطان صـلاح الدين الأيوبى؛ والملك هو أحد ولاة السلطان من أبناء بيتـه، كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق، من قبل أخيه صلاح الدين ومثل ذلك عند الفرس، فإن لقب شاهنشاه مختص بملك الملوك عندهم، تمييزا له عن لقب شاه فقط، وهو الملك الصغير. انظر (Enc. Isl. Arts. Khākān, Khān). هذا والراجح أن الخاقان المقصود هنا هو أوغطاى بن جنكزخان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 215).

(٥) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I)، وأيضا ص ١٩١، سطر ١٨ .

العادل، صاحب] ميافارقين، ومعه كتاب إليه، وإلى ملوك الإسلام، عنوانه : " من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب، قاقان" . فقال الرسول لشهاب الدين صاحب ميا فارقين : " قد جعلك قاقانُ سلاحَ داره ، وأمرك أن تخرب أســوار بلدك" . فقال له [شهاب الدين]: "أنا من جملة الملوك (٨٠ ا)، وبلادى حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم، وما فعلوه فعلتُه" .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة رسم الصالح إسماعيل أن يُخْطَب على منبر دمشق للسلطان غيــاث الدين كيخسرو بن كيقُباذ(١) بن كيخسرو ، ملك الروم ؛ فخطب له ، ونثر على ذلك الدنانير والدراهم ، وكان يوما مشهودا . وحضر رسل الروم وأعيــان الدولة ، وخطب بذلك فى جوامع البلد، وأنعم على الرسول وخلع عليه .

* * *

ســــنة تسع وثلاثين وستمائة(٢) . فيها شرع الملك الصالح فى عمارة المدارس الصالحية بين القصرين . وفيها غلت الأسعار بمصر، وأبيع القمح كل أردب بدينارين ونصف . وقدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس — فى البحر — إلى القــاهرة . وكثرت قصاد المظفر صاحب حماة إلى مصر .

وفى يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول كسف جميع جرم الشمس، وأظلم الجو، وظهرت الكواكب، وشعل الناس السرج بالنهار .

وفيها قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر ، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق . فأكرمه الملك الصالح نجم الدين، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى — يوم عرفة، عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة، بعــد ما كتب السلطان بخطه إلى ابن عين الدولة، فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر [مانصه :]

---

(١) فى س "كيقباذ" .

(٢) ليس فى مخطوطة مفرج الكروب لابن واصل المستعملة هنا، ذكر لهذه السنة أو التى تليها، حتى سنة ٦٤٤ هـ .

" إن القاهرة لمـا كانت دار المملكة، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها، وحاكمها مختص بحضور دار العدل، تقدمنا أن يتوفر القاضى على القاهرة وعملها لا غير" . وفوض السلطان قضاء القضاة بمصر وعملها — وهو الوجه القبلى — لبدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى، المعروف بقاضى سنجار . فلما مات ابن عين الدولة استقر البدر السنجارى فى قضاء القاهرة، وفُوض قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام .

وفيها كثر تردد الناس إلى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن . فكره السلطان ذلك، وأمره أن يلازم داره .

وفيها بلغ السلطان أن الناصر داود صاحب الكرك ، قد وافق الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم صاحب حمص ، وأهل حلب ، على محاربته . فسير [السلطان] كمال الدين بن شيخ الشيوخ على عسكر [إلى الشام]، فخرج إليه الناصر وقاتله ببلاد القدس ، وأسره فى عدة من أصحابه؛ ثم أطلقهم ، وعادوا إلى القاهرة . وكان من خبر ذلك أنه[1] فى يوم الأربعاء ثانى عشر صفر، وقع عسكر الناصر داود على الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد، وقد نزل على الفوار، فكسره وأخذ الأثقال . وكان معه الأمير شمس الدين شرف — المعروف بالسبع مجانين[2] ، وشمس الدين أبو العلاء الكرديانى[3] ، وشرف الدين بن الصارم صاحب تبنين . وكان مقدّم عسكر الناصر سيفُ الدين بن قلج، وجماعة من الأيوبية من عسكر مصر .

وفيها سار الخوارزمية إلى الموصل، فسالمهم [صاحبها بدر الدين] لؤلؤ، وسلمهم نصيبين؛ ووافقهم المظفر [شهاب الدين] غازى بن العادل، صاحب ميافارقين. ثم ساروا إلى آمد، فخرج إليهم عسكر حلب، عليه (٨٠ ب) المعظم فخر الدين توران شاه[4] بن صلاح الدين، فدفعوهم عنها،

(١) فى س "ان" .

(٢) فى ب (٩٧ ا) "شمس الدين شروه المعروف بالسبع محاسن" .

(٣) كذا فى س، وهو فى ب (٩٧ ا) "الكرديانى"، ومترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 477) إلى (Kirdiani).

(٤) فى س "تورنشاه" .

ونهبوا بلاد ميافارقين، وجرت بينهم وبين الخوارزمية وقائع . ثم عاد العسكر إلى حلب، فغار[(١)] الخوارزمية على رساتيق[(٢)] الموصل .

وفيها فلج المظفر صاحب حماة فى شعبان ، وهو جالس بغتة، فأقام أياما ملقى لا يتحرك ولا يتكلم، ثم أفاق، وبطل شقه الأيمن . فسير إليه الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من مصر بطبيب يعرف بالنفيس بن طليب النصرانى ، فلم ينجع فيه دواء ، واستمر كذلك سنين وشهورا حتى مات .

وفى خامس عشر ذى القعدة قدم الأمير ركن الدين الطونبا[(٣)] الهيجاوى، من القاهرة الى دمشق، وكان الملك الصالح نجم الدين قد بعثه فى شهر رمضان الى الناصر داود ، ليصلح بينه وبين الملك الجواد، حتى يبقى على طاعة الملك الصالح نجم الدين[(٤)] . فلما وصل الى غزة هرب الى دمشق، وأخذ معه جماعة من العسكر، ولحق الجواد بالفرنج، وأقام عندهم[(٥)] .

وفيها وصل الملك المنصور [نور الدين عمر[(٦)] بن على رسول] من اليمن فى عسكر كبير الى مكة، فى شهر رمضان، ففر المصريون بعد ما أحرقوا دار الإمارة بمكة ، حتى تلف ما كان بها من سلاح وغيره .

* * *

سنة أربعين وستمائة . فى ربيع الأول أبطلت خطبة ملك الروم من دمشق ، وخطب للملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وفى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل الفرنج

---

(١) فى س " غار " .

(٢) جمع رستاق ، وهو لفظ فارسى، معناه القرية أو محلة العسكر ، أو البلد التجارى ، ومنه الكلمة العربية الرزداق، وجمعها الرزداقات والرزاديق . (محيط المحيط؛ و Steingass. Pers.—Eng. Dict.) .

(٣) كذا فى س، بغير ضبط . وفى (Blochet : Op. cit. p. 478. N. 4) أن إيراد هذا الاسم هكذا خطأ ، وأنه يجب أن يكتب الطون بغا ، (Altoun bogha) . انظر ص ١٧٥ ، سطر ٦ ، وحاشية ٢ بنفس الصفحة .

(٤) ، (٥) العبارة الواردة بين الرقمين ليست واضحة تماما ، وقد لاحظ (Blochet : Op. cit. p. 478, N. 5) نفس الملاحظة .

(٦) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١ ، ص ٤٤) .

من عكا الى نابلس، ونهبوا وقتلوا وأسروا، وأخذوا منبر الخطيب؛ وخرجوا يوم الأحد بعد ما أفسدوا أموالا كثيرة . وفى يوم السبت ثامن عشر المحرم وصل الى القاهرة الشريف علاء الدين هاشم بن أمير سيد، من الدِّيوان[1] . وفى عاشر ربيع الآخر مات الشريف علاء الدين هاشم بن أمير سيد .

وفيها وصل التتار إلى أرزن الروم ، وأوقع [الملك][2] المظفر غازى ، [صاحب ميافارقين]، بالخوارزمية . وفيها ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبى بكر بن أيوب ، ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى . فاستبد ابن ابنها الناصر يوسف بن الظاهر غازى[3] بمملكة حلب بعدها ، وقام بتدبيره بعد جدته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك، والأمير جمال الدين إقبال [الأسود الخصى][4] الخاتونى ، والوزير الأكرم جمال الدين بن القفطى . وخرج إقبال من حلب بعسكر، وحارب الخوارزمية، ثم عاد .

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد ابن الناصر لدين الله أحمد العباسى أمير المؤمنين، بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة؛ وكان سبب موته أنه فصد بمبضع مسموم . فكانت خلافته سبع عشرة سنة غير شهر ، وقيل مات فى ثانى عشريه . وكانت مدّته خمس عشرة سنة، وأحد عشر شهرا وخمسة أيام ؛ وله

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى سكة بمرو . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٧١٥) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I.) . ويلاحظ أنه يوجد خلاف جوهرى بين ما هو وارد هنا، فى الخوارزمية والمظفر غازى، وبين ما جاء عنهما فى أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة)، ونصه : "وفى هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، مصاف قريب الخابور.. فولى المظفر غازى والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ... ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم ... ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب ... مؤيدين منصورين ..." .

(٣) يوجد هنا أيضا فرق جوهرى بين رواية المقريزى، وما يقابلها فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I.)، فهناك أن الملك العزيز، وليس الظاهر غازى، هو أبو الملك الناصر يوسف .

(٤) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة) .

من العمر إحدى وخمسون[1] سنة، وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكان حازما عادلا ، وفى أيامه عمرت بغداد عمارة عظيمة، و بنى بها المدرسة المستنصرية . وفى أيامه قصد التتار بغداد، فاستخدم العساكر حتى قيل إنها زادت عدتها على مائة ألف إنسان. فقام من بعده فى الخلافة ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله، وقام بأمره أهل الدولة ، وحسنوا له جمع الأموال، وإسقاط أكثر الأجناد . فقطع كثيرا من العساكر، وسالم التتر، وحمل إليهم المال .

وفيها بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، وزير الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، بناءً بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر، وجعل فيه طبلخاناه عماد الدين [ابن شيخ الشيوخ] . فأنكر ذلك قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام، ومضى بنفسه وأولاده، حتى هدم البناء، ونقل ما على السطح . ثم أشهد [قاضى القضاة] على نفسه (٨١ أ) أنه قد أسقط شهادة الوزير معين الدين، وأنه قد عزل نفسه من القضاء . فلما فعل ذلك ولى الملك الصالح عوضه قضاء مصر صدر الدين أبا منصور موهوب بن عمر بن موهوب ابن إبراهيم الجزرى، الفقيه الشافعى — وكان ينوب عن ابن عبد السلام فى الحكم، فى ثالث عشرى ذى القعدة .

وفيها قدم مكة الحاج من بغداد، بعد ما انقطع ركب العراق سبع سنين عن مكة[2] . وكان من خبر مكة، شرفها الله تعالى، أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعث ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم أمير المدينة ، فى سنة سبع وثلاثين . فبعث الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن بابن النصيرى، و[معه] الشريف راجح، إلى مكة فى عسكر كبير . ففر الشريف شيحة بمن معه، وقدم القاهرة . فجهز السلطان الملك الصالح معه عسكرا قدم بهم مكة، فى سنة ثمان وثلاثين، وحجوا بالناس . فبعث ابن رسول من اليمن عسكرا كبيرا ، فطلب عسكر مصر من السلطان الملك الصالح نجدة ، فبعث إليهم بالأمير

(١) فى س "خمسين" .

(٢) ما يلى هذا الى آخر الوارد تحت هذه السنة ، مكتوب على ورقة منفصلة فى س ، بين صفحتى ٨٠ ب ، ٨١ أ ، وليس من إشارة إلى الموضع الذى أراد المقريزى وصله به ، وليست العبارة مذكورة فى ب (٩٨ أ) البتة .

مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس، والأمير مجد الدين أحمد بن التركمانى، فى مائة وخمسين فارسا . فلما بلغ ذلك عسكر اليمن أقاموا على السرين ، وكتبوا إلى ابن رســول بذلك، فخرج بنفسه فى جمع كبير يريد مكة، ففر المصريون على وجوههم، وأحرقوا ما فى دار السلطان بمكة من سلاح وغيره . فقدم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مكة، وصام بها شهر رمضان، سنة تسع وثلاثين، واستناب بمكة مملوكه فخر الدين الشلاح (١) .

* * *

سنة إحدى وأربعين وستمائة . فيها قــدم التتر بلاد الروم ، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرســلان ، وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمــد . فدخل غيــاث الدين فى طاعتهم، على مال يحمــله إليهم . وملكوا أيضــا سِــيوَاس (٢) وقَيْسَارِيَة (٣) بالسيف، وقرروا على صاحبهما (٤) فى كل ســنة أربعمائة ألف دينار . ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية، وقام من بعده ركن الدين ابنه — وهو صغير — إلى أن قُتِــــل (٥) .

---

(١) كذا فى س، وبغير ضبط . واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٦٩، ٧٧) فخر الدين السلاخ .

(٢) بغــير ضبط فى س، وسيواس بلد بآسيا الصغرى، يمر بواديها نهر قزل إرمك، وهى واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية، وعلى مسيرة يومين من توقات . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٩٥؛ ج ٢، ص ٨٦٥؛ ج ٥، ص ٢٢؛ وأيضا (Blochet: Op. Cit. p. 483, N. 1. .

(٣) بغير ضبط فى س، وقيسارية — أو قيصرية — اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد إمبراطوريتهم بالشرق، وبشمالى إفريقية وإســبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين، الواقعة على الشاطىء، على مسافة أربعــة وعشرين ميلا جنوبى حيفا . ومنها قيصرية الروم، وهى المقصودة هنا بالمتن، وتقع على نهير قاراصو، إحدى فروع نهر قزل إرمك . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٤)، وأيضا (Enc. Isl. Art. Kaisariya) .

(٤) فى س " صاحبها " . والمعــروف أن ســيواس وقيسارية، وملطية أيضا، كانت قد آلت ثلاثتها منــذ ســنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) إلى سلطان السلاجقة الروم، بعــد وفاة صاحبها ذى النون بن دانشمند . راجع (Lane-Poole: Muh. Dyns. p. 156 ; Enc. Isl. Arts. Kaisariya & Danishinandiya) .

(٥) يوجد خلاف جوهرى بين الوارد هنا، عن غياث الدين كيخسرو، وبين ما يقابله فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١ – ١٢٢، فى Rec. Hist. Or. I.) ونصه : " ... وهرب غياث الدين كيخسرو الى بعض المعاقل . ثم أرسل الى التتر، وطلب الأمان، ودخل فى طاعتهم، ثم توفى ... سنة ٦٥٤ ... وخلف [ولدين] =

وفيها تكررت المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب، وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وبين المنصور صاحب حمص: على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وكل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه؛ وأن تكون الخطبة والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب، وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال، و[أن] يخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبى على بن باشاك (١) الهذبانى، المعروف بابن أبى على، من اعتقاله ببعلبك، وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود.

فلما تقرر هذا خرج من القاهرة الخطيب أصيل الدين الإسْعِردِى (٢) — إمام السلطان — فى جماعة، وسار إلى دمشق. فخُطِب للسلطان [الملك الصالح نجم الدين أيوب] بجامع دمشق وبحمص؛ وأُفرِج عن المغيث ابن السلطان، وأركب ثم أعيد إلى القلعة، حتى يتم بينهما الحلف؛ وأُفرِج عن الأمير حسام الدين، وكان قد ضيق عليه وجعل فى جب مظلم. فلما وصل [حسام الدين] إلى دمشق خلع عليه الصالح إسماعيل؛ وسار إلى مصر، ومعه رسول الصالح إسماعيل، ورسول صاحب حمص — وهو القاضى عماد الدين بن القطب قاضى حماة، ورسول صاحب حلب. فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، ولم يقع اتفاق، وعادت الفتنة بين الملوك.

فاتفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين. وعاد رسول حلب، وتأخر ابن القطب بالقاهرة. فبعث الناصر داود

= صغيرين، وهما ركن الدين وعز الدين. ثم هرب عز الدين الى قسطنطينية، وبقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان. والبرواناه لقبه، (١٢٢) وهو اسم الحاجب بالعجمى. ثم إن البرواناه قتل ركن الدين، وأقام فى الملك ولدا له صغيرا ...". هذا وفى (Enc.Isl. Art. Kaikhusraw II.) أن غياث الدين حاول الهرب فعلا الى بلاد الإغريق، وسيأتى كل ذلك مفصلا بالمتن هنا.

(١) فى س "ما شاك"، انظر (Blochet: Op. cit, p. 484).

(٢) بغير ضبط فى س، والإسعردى نسبة الى إسعرد، وهى بلدة بين دجلة وميا فارقين. انظر (Rec. Hist. Or. I. Index.).

والصالح إسماعيل ، ووافقا الفرنج على أنهم يكونون[1] عونا لهم على الملك الصالح نجم الدين ، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس . وسلماهم (٨١ ب) طبرية وعسقلان [أيضا]، فعمّر الفرنج قلعتيهما وحصونهما ، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقــدس ، وجلسوا فوقها بالخمــر ، وعلّقوا الجرس[2] على المسجد الأقصى .

فبرز الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من القاهرة ، ونزل بركة الجب وأقام عليهـا . وكتب إلى الخوارزمية يسـتدعيهم إلى ديار مصر ، لمحاربة أهـل الشام ؛ فخرجوا من بلاد الشـــرق .

وفى يوم عيــد النحر صرف الملك الصالح نجم الدين قاضى القضاة صــدر الدين موهوب الجزرى ، وقلد الأفضــل الخُوَنْجى[3] قضاء مصر والوجه القبــلى . وفيها هرب الصارم ...[4] المسعودى من قلعة الجبــل ، وقد صبغ نفسه حتى صار أسود ، على صورة عبد كان يدخل إليه بالطعام ؛ فأُخذ من بلبيس ، وأعيد إلى معتقله . وفيها أنشأ شهاب الدين ريحان ــ خادم الخليفة ــ رباط الشرابى بمكة ، وعمر بعرفة أيضا .

* * *

سـنة اثنتين وأربعين وستّمائة . فيها ورد إلى دمشــق كتاب بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصــل ، [وفيه يقول] : " إنى قد قرّرت على أهــل الشام قطيعة للتتر فى كل سنة ، من الغنى عشرة دراهم ، ومن المتوسط خمسة دراهم ، ومن الفقير درهم " . فقرأ القاضى محيي الدين بن زكى الدين الكتّاب على الناس ، ووقع الشروع فى جباية المــال .

---

(١) فى س " يكونوا " .

(٢) شاهد جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، ما أحدثه الفرنج ببيت المقدس . انظر (العينى : عقد الجمان ، ص ١٩٧ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) فى س " الحونجى " ، وبغير ضبط ، والنسبة الى خونج ــ أوخونا ، وهى بلدة من أعمال آذربيجان ، بين مراغة وزنجان ، فى طريق الرى ، وسميت فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ ــ ٥٠٠) كاغدكنان ، أى بلد صناع الكاغد .

(٤) بياض فى س .

وفيها قطع الخوارزمية الفرات، ومقدموهم الأمير حسام الدين بركه خان[١]، وخان بردى، وصاروخان، وكشلوخان، وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل. فسارت [منهم] فرقة على بقاع بعلبك، وفرقة على غوطة دمشق، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون. فانجفل الناس من بين أيديهم، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضم عساكره إليه، بعد ما كانت قد وصلت غزة. وهجم الخوارزمية [على] القدس، وبذلوا السيف فى من كان به من النصارى، حتى أفنوا الرجال، وسبوا النساء والأولاد، وهدموا المبانى التى فى قمامة، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا رممهم. وساروا إلى غزة فنزلوها، وسيروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب — فى صفر — يخبرونه[٢] بقدومهم. فأمرهم بالإقامة فى غزة، ووعدهم ببلاد الشام، بعد ما خلع على رسلهم، وسير إليهم الخلع والخيل والأموال. وتوجه فى الرسالة إليهم جمال الدين أقوش النَّجِيبِى[٣]، وجمال الدين بن مطروح.

وجهز [الملك الصالح نجم الدين أيوب] عسكرا من القاهرة عليه الأمير ركن الدين بيبرس، أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك. فسار إلى غزة، وانضم إلى الخوارزمية جماعةٌ من القَيْمَرِيَّة[٤]، [كانوا قد] قدموا معهم من الشرق. ثم خرج الأمير حسام الدين أبو على[٥] بن محمد بن أبى على الهذبانى بعسكر، ليقيم على نابلس.

---

(١) روجعت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 487). راجع أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٤، فى Rec. Hist. Or. I).

(٢) فى س "يخبروه".

(٣) فى س "النجبى"، وقد ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Blochet : Op. Cit. P. 488).

(٤) بغير ضبط فى س، والقيمرية نسبة الى قيمر، وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط، كان أهلها فى زمن ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٨) من الأكراد. انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٣٠، فى Rec. Hist. Or. I).

(٥) فى س "بوعلى".

وجهز الصالح إسماعيـل عسكرا من دمشق، عليه الملك المنصور صاحب حمص . فسار المنصور جريدة إلى عكا، وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر؛ وساروا إلى نحو غزة، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك (١٨٢) مع الظهير بن سنقر الحلبي والوزيري .

فالتقى القوم مع الخوارزمية بظاهر غزة ، وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص؛ والأقسة[1] تُصَلِّب، وبأيديهم أوانى الخمر تسقى الفرسان. وكان فى الميمنة الفرنج، وفى الميسرة عسكر الكرك، وفى القلب المنصور صاحب حماة . فساق الخوارزمية وعساكر مصر، ودارت بين الفريقين حرب شـديدة . فانكسر الملك المنصور، وفرّ الوزيرى، وقُبض على الظهير وجُرح . وأحاط الخوارزميـة بالفرنج ، ووضـعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسرا ، ولم يفلت منهم إلا من شرد . فكان عدّة من أسر منهم ثمـانمائة رجل، وقتـل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفا . وحاز الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه[2]، ولحق المنصور بدمشق فى نفر يسير .

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك فى خامس عشر جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتى الجبل والروضة . فبالغ الناس فى الزينة، وضربت البشـائر عدّة أيام . وقدمت أسرى الفرنج ورءوس القتلى ، ومعهـم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان ؛ وقد أُرْكب الفرنج الجمـال، ومن معهـم من المقدمين على الخيول. وشقوا القاهرة، فكان دخولهم يوما مشهودا . وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة، وملئت الحبوس بالأسرى .

(١) فى س " الاقسا " بغير ضبط ، والأقسة إحدى صيغ جمع لفظ قس – أو قسيس ، ويجمع أيضا على قسان وقساوسة، وقسيسين وقسوس . (محيط المحيط) .

(٢) لم يذكر المقريزى هنا أقصى ما أحدث الخوارزمية فى تلك الحرب ، وهو حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ١٩٨ ، فى .Rec. Hist. Or. II. 1) أنهم تعقبوا فلول الفرنج إلى القدس ، وهاجموهم به " .. ... وبذلوا فى أهله السيف ، وسـبوا ذراريهم ونساءهم ، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة ، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام ... ... " .

وسار الأمير بيبرس، والأمير ابن أبي[1] على بعساكرهما إلى عسقلان ، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها . فسار ابن أبي[2] على إلى نابلس، وأقام بيبرس على عسقلان. واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل، والقدس والخليل، و بيت جبريل والأغوار؛ ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء، والصلت وعجلون .

فورد الخبر بموت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة، في يوم السبت ثامن جمادى الأولى ؛ فاشتد حزن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] عليه[3] ، ثم ورد الخبر بموت ابنه[4] الملك المغيث عمر بقلعة دمشق، فزاد حزنه ، وقوى غضبه على عمه الصالح إسماعيل . وقدم إلى القاهرة الخطيب زين الدين أبو البركات عبد الرحمن بن موهوب من حماة ، بسيف الملك المظفر، ومعه تقدمة من عند ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ، لتسع مضين من شوال .

وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على (٨٢ ب) العساكر من القاهرة، ومعه الدهليز السلطاني والخزائن . وأقامه السلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على رأس

(١) في س "ابو" . (٢) في س "بو" .

(٣) الملك المظفر هذا جد المؤرخ أبي الفداء إسماعيل ، صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر . وقد ترجم له أبو الفداء في مؤلفه هذا (ص ١٢٢ — ١٢٣ ، في Rec. Hist. Or. I.)، وذكر ما حدث في حماة بعده ، ونصه : "وفي هذه السنة توفي جدي الملك المظفر تقي الدين محمود ... وكانت مدة مملكته بحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام ... وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة ... وكان شهما شجاعا ، فطنا ذكيا . وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، واستخدم الشيخ علم (١٢٣) الدين قيصر، المعروف بتعاسيف ، وكان مهندسا فاضلا في العلوم الرياضية ، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة ، وطاحونا على النهر العاصي ؛ وعمل كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة ، وعملت هذه الكرة بحماة . قال القاضي جمال الدين بن واصل ، وساعدت الشيخ علم الدين على عملها ، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ، ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها . ولما مات الملك المظفر ... ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ... وعمره حينئذ عشر سنين وشهر ... والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر، وشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ ، والطواشي مرشد ، والوزير بهاء الدين بن التاج ؛ ومرجع الجميع الى والدة المنصور غازية خاتون ، بنت الملك الكامل" .

(٤) ضمير الهاء هنا عائد على الملك الصالح نجم الدين أيوب .

السماط[1]، ويركب كما هى عادة الملوك، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه، كعادتهم فى خدمة السلطان؛ وكتب إلى الخوارزميــة أن يسيروا فى خدمته. فسار [الصاحب معين الدين] من القاهرة بالعساكر إلى غزة، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر. وسار إلى بيسان، فأقام بها مدة، ثم سار إلى دمشق فنازلهـا، وقد امتنع بها الصالح إسماعيـل والمنصور إبراهيم صاحب حمص. وعاثت الخوارزمية فى أعمال دمشق، فبعث الصالح إسماعيـل إلى ابن شيخ الشيوخ بسجادة وإبريق وعكاز، وقال له: "اشتغالك بهـذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك". فلما وصل ذلك إليه جهز إلى الصالح إسماعيل جَنكا وزَمْرا وغِلالة حرير، وقال: "السجادة والإبريق والعكاز يليقون بى، وأنت أولى بالجنك والزمر والغـلالة"؛ واستمر [الصاحب معين الدين] على محاصرة دمشق. فبعث الخليفة المستعصم بمحيي الدين بن الجوزى إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خلعة: وهى عمامة سوداء، وفَرَجية مذهبة، وثوبان ذهب، وسيف[2] بذهب، وطوق ذهب، وعلمان حرير، وحصان وترس ذهب؛ فلبس [الملك الصالح نجم الدين] الخلعة على العادة. وكانت الأقاويل بمصر قد كثرت لمجيئه[3]، وتأخر قدومه. فقال الصـلاح ... [4] ... بن شعبان الإربلى: —

---

(١) السماط هنا المائدة السلطانية، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين. (محيط المحيط؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.). وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٠ — ٢١١) وصف للأسمطة السلطانية، زمن الأيوبيين والمماليك، ونصه: "وكانت العادة أن يمد بالقصر، فى طرفى النهار من كل يوم، أسمطة جليلة لعامة الأمراء، خلا البرانيين وقليل ماهم. فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان؛ ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل؛ ثم ثالث بعده، ويسمى الطارئ، ومنه مأكول السلطان. وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان، الأول والثانى [وهو] المسمى بالخاص ... وفى كل هذه الأسمطة، يؤكل ما عليها ويفرق نوالات (كذا)؛ ثم يسق بعدها الأقسماء المعمولة من السكر، والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة ... وبلغ مصروف السماط فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم، عنها (لعله منها) نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة ...".

(٢) فى س "سيق".

(٣) ضمير الهاء هنا عائد على محيي الدين بن الجوزى، ويريد المقريزى بهذه العبارة أن يشير الى إبطاء الخليفة المستعصم بالله، فى الاعتراف بسلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى هذه السنة. راجع (Blochet: Op. cit. p. 492).

(٤) بياض فى س.

قالوا الرســـول أتى وقالوا إنه   ما رام يوما عن دمشـــق تزوحا
ذهب الزمان وما ظفرت بمسلم   يروى الحديث عن الرسول صحيحا

وفيها قُتل أمير بنى مَرِين محمد بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة، فى حربه مع عسكر الموحدين[1] . وولى بعده أخوه أبو يحيى بن عبد الحق .

و[فيها] ورد كتاب [بدر الدين] لؤلؤ من الموصـل بجباية قطيعة[2] التتر من دمشق، فقرأ كتابَه القاضى محيى الدين بن الزكى على العادة .

وفيها استوزر الخليفة أسـتاداره مؤيد الدين محمد بن العلقمى، فى ثامن ربيـع الأول، عوضا عن نصـير الدين أبى الأزهر أحمـد بن محمد بن على بن الناقد . وفيها استولى التتر على شَهْرَزُور[3] . وفيها بلغ الأردب القمح بمصر أربعمائة درهم نُقْرَة .

+ + +

سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فيها كثرت محاربة ابن شيخ الشيوخ لأهل دمشق، ومضايقته للبلد، إلى أن أحرق قَصْر حَجَّاج[4] فى ثانى محـرم، ورَمَى بالمجـانيق وألح بالقتال . فأحرق الصالح إسماعيل فى ثالثه عدّة مواضع؛ ونُهبت أموال الناس، وجرت شدائد، إلى أن

(١) مؤسس دولة الموحدين بالمغرب هو أبو عبد الله محمد بن تومرت، المتوفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وقد دال المغرب كله، وإسبانيا الإسلامية أيضا، لملوك تلك الدولة منذ سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) . ثم حدث فى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) أن أوقعت الدول المسيحية باسبانيا هزيمة منكرة بجيوش الموحدين، فى وقعـة (Las Navas) . وبهذه الوقعة يبتدئ انكماش دولة الموحدين، وتألب أعدائها من المسلمين والمسيحيين باسبانيا والمغرب، ومن أولئك أمراء بنى مرين بمراكش . وانقضت دولة الموحدين سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٥ م)، بعد وفاة آخر ملوكها أبى العلاء الواثق . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 45-47; Enc. Isl. Art. Almohades) .

(٢) القطيعة هنا ما يفرض من المـال على بلد أو إقليم، للاتفاق على الاستعدادات الحربية الدفاعيـة . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى كورة واسعة فى الجبال الواقعة بين إربل وهمذان، وتبعد عن ديلمستان سبعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٤٠ — ٣٤٢) .

(٤) بغير ضبط فى س، وهو محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابيـة من مدينة دمشق، وترجع نسبتها الى حجاج ابن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٠) .

أهلّ شهر ربيع الأول . ففيه خرج المنصور صاحب حمص من دمشق، وتحدّث مع بركه خان مقدم الخوارزمية فى الصلح، وعاد إلى دمشـق . فأرسـل الوزير أمين الدولة كمال الدين أبو الحسن ......[1] بن غزال المعروف بالسامرى إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، يسأله الأمان ليجتمع به ، فبعث إليه بقميص وفرجية وعمامة ومنديل ، فلبس ذلك وخرج ليلا، لأيام مضت من جمادى الأولى؛ (١٨٣ ا) فتحادثا ورجع إلى دمشق . ثم خرج فى ليـلة أخرى ، وقُرِّرَ أن الصالح إسماعيل يسـلم دمشق، على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم، ولا يُعترض لأحد من أصحابهم ولا لشيء ممـا معهم؛ وأن يُعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وجميع بلاد السواد ؛ وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة . فأجاب [أمين الدولة] الى ذلك، وحلف الصاحب معين الدين لهم؛ فخرج الصالح اسماعيل والمنصور من دمشق .

ودخل الصاحب معين الدين فى يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى، ومنع الخوارزمية من دخول دمشـق . ودبّر الأمر أحسن تدبير، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشـير كتبها لهم، ونزل فى البلد . وتسلم الطواشى شهاب الدين رشيد القلعة، وخطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين؛ وسلم أيضا الأمير سيف الدين على بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح، وقدم إلى دمشق .

فلما وردت الأخبار بذلك على السلطان أنكر على الطواشى شهاب الدين والأمراء كيف مكنوا الصالح إسماعيل من بعلبك، وقال: "إن معين الدين حلف له، و[أما] أنتم فما حلفتم". وأمر [الملك الصـالح نجم الدين] أن يسير الركن الهيجاوى ، والوزير أمين الدولة السامرى، تحت الحوطة الى قلعة الروضة؛ فَسُيِّرا من دمشـق إلى مصر، واعتقلا بقلعة الجبل . فاتفق مرض الصاحب معين الدين ووفاته بدمشق، فى ثانى عشرى شهر رمضان، فكتب السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى، وهو بنابلس، أن يسـير إلى دمشق ويتسلمها؛

(١) بياض فى س .

فسار إليها وصار نائبا بدمشق، والطواشى رشيد بالقلعة . وأفرج السلطان عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ — وكان قد لزم بيته — وخلع عليه وأمّره وقدّمه، وبالغ فى الإحسان اليه، و[كان] لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره .

وأما الخوارزمية ، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد؛ فلما مُنعوا من دمشق، وصاروا فى الساحل وغيره من بلاد الشام، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان . وساروا إلى داريّا[1] وانتهبوها ، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يدا واحدة ويزوّجوه منهم، فمال إليهم؛ وكاتبوا (٨٣ ب) الناصر داود صاحب الكرك، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبى على، من نابلس والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار .

وخاف الصالح إسماعيل، فكاتب الخوارزمية وقدم إليهم؛ فحلفوا له على القيام بنصرته، ونازلوا دمشق . فقام الأمير حسام الدين بن أبى على بحفظ البلد أحسن قيام، وألح الخوارزمية — ومعهم الصالح إسماعيل — فى القتال ونهب الأعمال ، وضايقوا دمشق، وقطعوا عنها الميرة . فاشتد الغلاء بها ، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة، ومات كثير من الناس جوعا؛ وباع شخص دارا قيمتها عشرة آلاف درهم، بألف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة قمح، فقامت عليه فى الحقيقة بعشرة آلاف درهم؛ وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم، واللحم كل رطل بسبعة دراهم . ثم عدمت الأقوات بالجملة ، وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات؛ ومات شخص بالسجن، فأكله أهل السجن . وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر . وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى، لعجز الناس عن مواراة موتاهم؛ ولم تنقطع مع هذا الخمور والفسوق من بين الناس .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة بالغوطة من قرى دمشق ، والنسبة اليها دارانى ، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٣٦) .

و[أخذ] الملك الصالح نجم الدين مع ذلك فى إعمال الحيـل والتدبير، وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليـه، واتفق [أيضا] مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية.

فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة بعساكر مصر، ونزل العباسة؛ فوافاه بها رسل الخليفة، وهما الملك ...... [(1)] ابن وجه السبع، وجمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين [أبى محمد يوسف] [(2)] ابن الجوزى فى آخر شوّال، ومعهما التقليد والتشريف الأسـود: وهو عمامة سوداء، وجبة وطوق ذهب، وفرس بمركوب بحليـة ذهب. فنُصِب المنبر، وصعـد عليه [جمـال الدين عبد الرحمن بن] محيي الدين بن الجوزى الرسول، وقرأ التقليـد بالدهليز السلطانى، والسلطان قائم على قدميه، حتى فرغ من القراءة. ثم ركب السـلطان بالتشريف الخليفتى، فكان يوما مشهودا. وكان قد حضر أيضا من [عند] الخليفة تشريف باسم الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، فوجد [أنه] قد مات؛ فأمر السلطان أن يفاض على أخيه الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، فلبسه.

فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر، ومسير [الملك] المنصور [إبراهيم] صاحب حمص [(3)] بعساكر حلب، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور. فوجد (٨٤ أ) أهل دمشق برحيلهم فَرَجا، ووصلت إليهم الميرة، وانحل السعر.

* * *

سنة أربع وأربعين وستمائة. فيها أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب القاضى نجم الدين محمد بن سالم النابلسى، المعروف بابن قاضى نابلس — وكان متقدّما عنده — إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس. فما زال يخدعه ويُمَنِّيه، حتى فارق الخوارزمية؛ وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

(١) بياض فى س. (٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س. (انظر ص ٢٦٨، سطر ٥).

(٣) فى س "حماه"، وقـد غيرت إلى "حمص" بعـد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٥ ب، ٣٤٦ أ-ب، ٣٤٩ أ). هذا ولا عبرة بوجود ملك اسمه المنصور محمد بحماة تلك السنة، فإنه كان إبان تلك الحوادث لا يعدو إحدى عشرة سنة، وليس من المحتمل أن يقود مثله جيشا ضد الخوارزمية. انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٣، ١٢٤، فى Rec. Hist. Or. I)؛ راجع أيضا ما يلى، ص ٣٢٤، سطر ١٧.

وفيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات. والتقوا مع [الملك] المنصور [إبراهيم صاحب حمص] وعساكر حلب[1]، وقد انضم إليهم عرب كثير وتركمان، نصرة للملك الصالح نجم الدين؛ وذلك بظاهر حمص أول يوم من المحرم، وقيل ثامنه. فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة، تبدد منها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة. وقُتل مقدمهم بركه خان وهو سكران، وأُسر كثير منهم. واتصل من فرّ منهم بالتتار؛ وفيهم من مضى إلى البلقاء، وخدم الملك الناصر داود صاحب الكرك؛ فتزوج [الناصر] منهم، واختص بهم، وقويت شوكته. وسار بعضهم إلى نابلس، فاستولوا عليها؛ ووصل بعض من كان معهم ممن انهزم إلى حران؛ ولحق أيبك المعظمى بقلعة صرخد، وامتنع بها. وسار الصالح إسماعيل إلى حلب فى عدّة من الخوارزمية، فأنزله الملك الناصر صاحب حلب وأكرمه، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية. ووردت البشرى بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى المحرم، فزينت القاهرة ومصر والقلعتان.

وسار الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى من دمشق، واستولى على بعلبك بغير حرب فى رجب؛ وحُمل منها الملك المنصور نور الدين محمود بن الصالح إسماعيل، وأخوه الملك السعيد عبد الملك، إلى الديار المصرية تحت الاحتياط، فاعتقلوا. وزينت القاهرة لفتح بعلبك زينة عظيمة، هى ومصر. وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن موقعا من أخذه لدمشق، حنقا منه على عمه الصالح إسماعيل.

وانصلحت الحال بين السلطان وبين المنصور صاحب حمص والناصر صاحب حلب[2]، واتفقت الكلمة. وبعث السلطان إلى حلب يطلب تسليم الصالح إسماعيل، فلم يُجَب إلى تسليمه[3]. وأخرج السلطان عسكرا كبيرا، قدّم عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ،

(١) الضمير هنا عائد على المنصور ابراهيم وعساكر حلب.

(٢) فى س "الناصر داود صاحب الكرك"، وخطأ المقريزى واضح من السطور التالية، ومن ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٤٦ ب).

(٣) كان بهاء الدين زهير الكاتب الشاعر المشهور، هو الذى سار بتلك الرسالة إلى الناصر صاحب حلب. =

وسـيره لمحاربة الكرك . فسار (٨٤ ب) إلى غزة، وأوقع بالخوارزمية، ومعهـم الناصر داود صاحب الكرك فى ناحيـة الصلت ، وكسرهم وبدّد شملهم، وفرّ الناصر إلى الكرك فى عدّة .

وكانت الكسرة على الصلت فى سابع عشرى ربيع الآخر، وسار [فخر الدين] عنها بعـد ما حرقها، واحتاط على سائر بلاد الناصر، وولى عليها النوّاب . ونازل [فخر الدين] الكرك، وخرب ماحولها، واستولى على البلقاء، وأضعف الناصرَ حتى سأله الأمان . فبعث [فخر الدين] يطلب منـه من عنـده من الخوارزمية ، فسـيرهم [الناصر] إليه ، فسار عن الكرك وهم فى خدمتـه . ثم نازل[1] [فخر الدين] بصرى ، حتى أشرف على أخذها ، فنزل به مرض أشفى منه على الموت، وحمل فى محفة إلى القاهرة، وبقى العسكر حتى استولوا عليها .

وقدم المنصور [إبراهيم] صاحب حمص إلى دمشـق متميا إلى السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، فنزل به مرض مات به فى[2] صفر . فحزن عليه السلطان حزنا كثيرا، لأنه كان يتوقع وصوله إليه . فقام من بعده بحمص ابنه الأشرف مظفر الدين موسى .

= وقد امتنع الناصر من تسليم الصالح إسماعيل ، لاستجارته به . وهذا نص ماجاء فى ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٣٤٦ب) عما حدث : "وأما الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فانه بعد الكسرة سار الى حلب ، فأقام بها ملتجئا الى الملك الناصر بن الملك العزيز . وأرسل بعـد ذلك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك الناصر كاتبه بهاء الدين زهيرا ، يطلب منه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . فلما ذكر بهاء الدين زهـير للملك الناصر صاحب حلب ذلك شق عليه، وقال كيف يحسن أن يلتجىء الىّ خال أبى ، وهو كبير البيت ، وأسيره الى من يقتله . وليس من المروءة إذا استجار [إنسان] بانسان أن يخفر ذمته ويسلمه الى عدوه ، هـذا شىء لا يكون أبدا . فرجع بهاء الدين زهير الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بهذا الجواب ، فتألم لذلك وسكت عنه ، وكان فى غاية الحنق عليه" .

(١) فى س "فناول" .

(٢) كان الملك المنصور إبراهيم مسلولا ، واشتد به ذلك المرض بدمشق ، فمات منـه . وقد ترجم له ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤٩ ب) بالآتى : "كان الملك المنصـور صاحب حمص ملكا جليلا شجاعا ، مقداما ذا همة عالية . وكان له أمر عظيم فى عسكر السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، فى سـنة سبع وعشرين وستمائة ، مع الملك الأشرف ، فان والده كان سيره نجدة له . وكسر الخوارزمية مرتين فى الشرق ، وأضعف ركنهم ؛ ثم كسرهم الكسرة العظمى بعيون القصب ، وقتـل ملكهم وفرق جمعهم . وكان على خلاف طريقة أبيه فى سياسة الرعية ، فان أباه كان عنده حيف كثير وعسف ، فخرب بذلك حمص و بلادها ، وتفرق أهلها فى البلاد . فلما ولى المنصور إبراهيم أحسن =

وفيها تسلم الملك الصالح نجم الدين عجلون، بوصية صاحبها سيف الدين بن قلج عند موته. وفيها سيز الصاحب جمال الدين أبو الحسن [يحيى][١] بن عيسى [بن][٢] إبراهيم بن مطروح إلى دمشق وزيرا وأميرا، وأنعم عليه بسبعين فارسا بدمشق. وصرف الأمير حسام الدين بن أبي على الهذبانى عن نيابة دمشق، وولى مكانه الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وأقر الطواشى شهاب الدين رشيد بالقلعة على حاله. فلما دخل ابن مطروح إلى دمشق خرج منها الأمير حسام الدين، وسار إلى القاهرة. فلما قدم على السلطان، وهو بقلعة الجبل، أقره فى نيابة السلطنة بديار مصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

وخرج السلطان بالعساكر فى شوال يريد دمشق من قلعة الجبل، واستناب بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبي على. فدخل إلى دمشق فى سابع عشر ذى القعدة، وكان دخوله يوما مشهودا. فأحسن إلى الناس، وخلع على الأعيان، وتصدق على أهل المدارس والرُّبُط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم. وسار بعد خمسة عشر يوما إلى بعلبك، فرتب أحوالها، وأعطى لأهل المدارس والربط وأرباب البيوت عشرين ألف درهم. وسار إلى بصرى، وقد تسلمها نواب السلطان من الأمير شهاب الدين غازى، نائب الملك الصالح إسماعيل، فتصدق على مدارس بصرى وربطها وأرباب البيوت بعشرين ألف درهم. وجهز [السلطانُ] الأميرَ ناصر الدين القيمرى، والصاحب جمال الدين بن مطروح، إلى صَلْخَد[٣] — وبها الأمير عز الدين أيبك المعظمى، فما زالا به حتى سلم صلخد، وسار (٨٥ ا) إلى مصر. وتصدق السلطان

= الى الرعية، ولطف بهم. وكانت عنده سماحة كف وحسن تأنى، فعمرت حمص فى أيامه، وتراجع اليها من أهلها من كان برح عنها، وبث فيهم العدل، وأطلق كثيرا ممن كان حبسه أبوه وأطال سجنه. وكان له أخ يقال له الملك المسعود، فخاف منه وحبسه بقلعة الرحبة، فلم يزل فى حبسه الى أن مات. وكان الملك المسعود رحمه الله ذا حزم ورأى، إلا [أنه] كان قليل السعادة".

(١) ، (٢) ليس لما بين الأقواس وجود ظاهر فى س، وذلك لورود الاسم كله بطرف الهامش، عند ملتق صفحتى ٨٤ ب، ٨٥ ا، ولكنه وارد فى ب (١٠٢ ا).

(٣) كذا فى س بغير ضبط، وهى صرخد المتقدم ذكرها مرارا، وكتابتها باللام أقرب الى اسمها الأصلى (Salchah). انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 529).

فى القـــدس بألفى دينار مصرية؛ وأمر بذَرْع سور القـــدس، فكان ذرعه ستة آلاف ذراع بالهاشمى، فأمر بصرف مغل القدس فى عمارته، و إن احتاج إلى زيادة حملت من مصر (١) .

و [فيها] سار الأمير فخر الدين بن شيخ الشـــيوخ بعسكر إلى طبرية، فنازلها حتى أخذها من يد الفرنج، وهدم ما استجده الفرنج من القلاع . وسار [أيضا] إلى عسقلان، فحاصرها حتى أخذها من الفرنج، وهدم الحصون .

وفيها مات الملك العادل أبو بكر بن الكامل محمد خنقا ، بقلعة الجبل . وقيل كان خنقه قبل هذه السنة، وقيل بل كان فى ســـنة خمس وأربعين، [والقولُ الثـــانى] (٢) أثبت . وسبب قتله أنه كان معتقلا فى برج العافية من قلعة الجبل، فلما عزم السلطان على المسير إلى الشام، بعث يأمره أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ليعتقل بهـــا، فامتنع من ذلك . فبعث [السلطان] إليـــه من خنقه ، وأشاع أنه مات ، ثم ظهر أمره . وأُخرج ابنه المغيث عمر إلى الشوبك، فاعتقل بها . ولـــا مات العادل دفن خارج باب النصر، ولم يجسر أحد يبكى عليه ولا يذكره. وترك [العادل] ولدا يقال له الملك المغيث عمر، أُنزل إلى القاهرة عنـــد عماته، ثم أخرج إلى الشوبك (٣) . وكان عمر [العادل] (٤) يوم مات نحو ثلاثين سنة، وأقام مسجونا نحو ثمانى سنين .

وفيها وقع الاختلاف بين الفرنج (٥) .

---

(١) فى س "حل" .

(٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س، وقد أضيف ما بينهما بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Adil. II)، وما بذيل تلك المقالة من المراجع، وأيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب — ٣٥٢ أ) .

(٣) كان للمغيث عمر هذا شأن كبير فيما بعد . (انظر تحت سنة ٦٤٨) .

(٤) فى س "عمره"، وقد حذف الضمير وأثبت عائده بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب — ٣٥٢ أ). و يوجد فى نفس المرجع (ص ٣٥٢ أ) ترجمة قصيرة للملك العادل نصها : "كان جوادا كثير البذل، وأنفق الخزائن الذى (كذا) جمعها والده الملك الكامل فى المدة اليسيرة، وكان قد جمعها [الكامل] فى المدة الطويلة . وكانت أيامه زاهية زاهرة ، والأسعار فى غاية الرخص . إلا أنه لم يكن فيه صرامة وحسن سياســـة يضبط بها الجند ، وقدم الأرذال وأخر الأكابر، ولم يكن له سعادة مع تقدير الله تعالى، فجرى عليه ما جرى" .

(٥) الراجح أن المقريزى يشير هنـــا إلى ما وقع إبانـــ تلك السنة (١٢٤٦ م) من أدوار النزاع بين البابا (Innocent IV) والإمبراطور (Frederic II)، والذى انتهى بوفاة الإمبراطور سنة ١٢٥٠ م . و يقوى هذا =

* * *

سنة خمس وأربعين وستمائة . فيها عاد [السلطان] الملك الصالح من دمشق إلى ديار مصر، بعد ما أخذ عسقلان وخربها فى جمادى الآخرة، و[بعد أن] تسلم أيضا قلعة بارِزِين[1] من عمل حماة، فى رمضان . وفى عوده إلى مصر عرض له — وهو بالرمل — وجع فى حلقه، أشفى منه على الموت؛ ثم عوفى ودخل إلى قلعته سالما، وزينت البلدان والقلعتان[2] فرحا به . وكتب [السلطان] إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يسير من بلاد الفرنج بالساحل إلى دمشق، فسار إليها بمن معه من العسكر، وأنعم على من بها من الأمراء وغيرهم، وخلع عليهم . وأخذت عسقلان عنوة، يوم الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة، بعساكر السلطان .

= الترجيح أنه لم يقع اختلاف ظاهر بين الفرنج، بالشام أو فلسطين، تلك السنة . انظر (Stevenson: Crusaders In The East. pp. 322-324) . هـذا وقد أفاض العيـنى (عقـد الجمان، ص ١٩٩ — ٢٠٠، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) فى وصف ما حدث بين الإمبراطور والبابا، وذكر حقائق ثابتة من تاريخ أوربا فى القرون الوسطى، ومثل ذلك قليل نادر فى المراجع العربية . انظر (Camb. Med. Hist. VI. pp. I57-165)؛ وهذا نص ما جاء فى العينى : "ومنها، وهى سنة أربع وأربعين وستمائة، أنه وصلت الأخبار من البحر، صحبة مركب وصل من صقلية الى الإسكندرية، أن البابا غضب على الأنبرور، وعامل خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة، وقال [لهم] قد خرج الأنبرور عن دين النصرانية، ومال الى المسلمين، فاقتلوه وخذوا بلاده لكم . وأقطع [البابا] كل واحد مملكة : فأعطى واحدا صقلية، والآخر تصقانة (Tuscany)، والآخر بولية (Apulia)، وهذه ممالك الأنبرور . وكتب أصحاب الأخبار الى الأنبرور بذلك، فعمد الى مملوك له فجعله فى مكانه على التخت، وأظهر أنه قد شرب دواء . وأرسل الى الثلاثة، فجاءوا والمملوك نائم على التخت، فظنوه الأنبرور؛ وقد اختفى الأنبرور فى مجلس ومعه ماية فارس . فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه، فخرج عليهم الأنبرور فذبحهم فى يده، وسلخهم وحشا جلودهم تبنا، وعلقهم على باب القصر . وبلغ البابا، فبعث الى قتاله جيشا، والخلف واقع بينهم . وهـذا الانبرور هو الذى أعطاه الملك الكامل القدس . قال السبط، ذكر ألقابه الملك الكبير الأجل، الخطير الأعز الأثير، قيصر المعظم، انبرطور المقتدر بقدرة الله، المتعلى بعزته، مالك الـمانية (Allemania) والانبردية (Lombardy) وصقلية، وحافظ بيت (ص ٢٠٠) المقدس، معز إمام رومية، مالك ملوك النصرانية، حامى الممالك الفرنجية، قايد الجيوش الصليبية" .

(١) بغير ضبط فى س، وكانت تلك البلدة وكفرطاب أيضا فى يد عز الدين بن المقدم، سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م). انظر أبا شامة (كتاب الروضتين، ص ٤٦١، فى Rec. Hist. Or. IV.) .

(٢) فى س "البلدين والقلعتين" .

وفيها تسلّم نواب السلطان قلعة الصُّبَيْبَة (١) . وحضر إلى حلب من حماة الطواشى شجاع الدين مرشد المنصورى ، والأمير مجاهد الدين أمير جاندار ، لإحضار سـيدة الخواتين عصمة الدنيا والدين عائشة خاتون ، ابنـة الملك العزيز محمـد بن الظاهر غازى بن صـلاح الدين يوسف ابن أيوب . فسارت ومعها أمها الستر الرفيع فاطمة خاتون ، ابنة الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى رمضان — ، وهى فى تجمل زائد ، ومحفتها ملبسة ثوب حرير بذهب مكلل بالجواهر . فتلقاها زوجها الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها حكر الناس البستان (٢) الكافورى بالقاهرة ، وعمروا فيه الدور . وفيها قبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمى بدمشق ، وحمل إلى القـاهرة تحت الحوطة ، فاعتقل بهـا فى دار صـواب . ورافعه ولده بأن ماله الذى حمله من صلخد ، كان مبلغ ثمانين خُرْجًا (٣) أودعها ؛ فلما بلغه ذلك سقط إلى الأرض ، وقال : "هذا آخر العهد بالدنيا" (٨٥ ب) ، ولم يتكلم بعدها حتى مات . وفيها سار السلطان من قلعة الجبل ، ونزل بقصره فى أشموم طناح (٤) . وفيها خُنق الملك العادل أبو بكر بن محمد الكامل ، فى ثانى عشر شوّال (٥) .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بانياس .(Le Strange : Palest. Under Moslems, p. 419) انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 503, N. 3.) .

(٢) كان هذا البستان مطلا على الخليج ، وقد أنشأه محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر ، واعتنى به وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام . واهتم بشأن هذا البستان من بعد الإخشيد ابناه ، أبو القاسم أونوجور وأبو الحسن على ، فى أيام إمارتهما على مصر بعد أبيهما . فلما استبدّ بعدهما أبو المسك كافور الإخشيدى بامارة مصر ، كان كثيرا ما يتنزه به ، ويواصـل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . فلما قدم جوهر الصـقلى بجيوش الفاطميين لأخذ مصر ، أناخ بجوار هـذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة ، فصار متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم . وكانوا يتوصلون إليه من سراديب وأقباء مبنيـة تحت الأرض ، ينزلون إليها من القصر الكبير الشرق ، ويسيرون فيها بالدواب . وما زال هذا البستان عامرا الى أن زالت الدولة ، فحكر وبنى فيـه كما هو مذكور بالمتن هنا ، وعملت السراديب والأقباء أسربة ومجار تصب فى الخليج ، وبقيت كذلك إلى أيام المقريزى ، أى القرن التاسع الهجرى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٥٧) .

(٣) الخرج كيس مـن الجلد أو الشـعر ، ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة ، وجمعه خرجة وأخراج وخراج . (محيط المحيط) .

(٤) ليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يفسر سبب خروج الملك الصالح نجم الدين الى أشموم طناح تلك السنة ، والراجح أنه خرج اليها للاستشفاء والترويح من مرضه السابق . (انظر ص ٣٢٨ ، سطر ٣) .

(٥) فى هذا الشهر من تلك السنة ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٢ أ — ب) ، "توفى بقلعة =

* * *

سـنة ست وأربعين وستمائة . فيها كتب السلطان من أشموم طناح إلى نائبه بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبى على ، أن يرحل بالحلقة السلطانيـة والدهليز السلطانى إلى دمشق؛ وأقام [السلطان] بدله فى نيابة السلطنة بالقـاهرة الأمير الجـواد جمال الدين، وأبا الفتح موسى بن يغمور[1] بن جلدك . فسار [الأمير حسام الدين]، ونزل بالقصور التى أنشأها[2] السلطان الملك الصالح [أيوب]، وجعلها مدينـة بالسانح فى أول الرمل ، [وجعل فيها سوقا جامعا، ليكون مركز العساكر عند خروجهم من الرمل][3]، وسماها الصالحية . وأقام [حسام الدين بالصالحية] مقام السلطان، [وطال مقامه بها نحو أربعة أشهر. ثم سار] ليدرك الملك الأشرف صاحب حمص، فإن الأخبار وردت بمسير عساكر حلب مع الأمير شمس الدين لؤلؤ [الأمينى]، والملك الصالح إسماعيل ، لأخذ حمص . فلم يدركه [حسام الدين]، وسلّم الأشرفُ حمص، وصارت للناصر صاحب حلب، وتعوض [الأشرفُ] عن حمص تل باشر[4] .

فلما بلغ السلطان ذلك عاد من أشموم طناح إلى القـاهرة ، وخرج منها إلى عسكره

= الجبل أيضا بدر الدين سليمان بن داود بن العاضد ، الذى كان آخر الخلفاء المصريين . وكان [رئيس] بيت الشيعة الإسماعيلية ببغداد، وعادتهم يعتقدون الإمامة بعد موت العـاضد فى ابنه داود بن العاضد . و[كان هو] وإخوته محبوسين بقلعة الجبل ، وقد منعوا من النساء لينقطع نسلهم . فدس بعض الشيعة جارية الى داود بن العاضد ، فوطئها فولدت له سليمان ، بعد أن أخرجها الشيعة من القلعة سرا ، وتركوا ولدها فى بعض النواحى . فظفر الملك الكامل به ، فاعتقله فى القلعة وبقى فيها معتقلا ، والشيعة ودعاتهم يجتمعون به ، ويعتقدون الإمامة فيـه بعـد أبيه داود . ولـما توفى فى هـذه السنة ، ما بقى لهم من يعتقدون إمامته ، (٣٥٢ ب) إلا أنه بلغنى أن فيهم من يعتقدون أن لسليمان هذا ولدا (فى الأصل بهذا ولد) مختفيا بالصعيد، والله أعلم" .

(١) كان الأمير جمال الدين بن يغمور، قبل تعيينه لنيابة السـلطنة بالقاهرة، متوليا لدار الصناعة بها ، فأصبح متوليا الوظيفتين . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٥٢ ب، ٣٥٥ أ) .

(٢) فى س "انشا" .

(٣) فى س " قام "، وقد عدل هذا الفعل، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هـذه الفقرة، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب، ٣٥٢ب ، ٣٥٣ ب) .

(٤) أطلق هذا الاسم على قلعة حصينة ، وكورة واسعة أيضا ، فى شمالى حلب ، بينها وبين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان، ج١ ، ص ٧٦٤) .

بالصالحية، وسار فى محفة لما به من المرض ، بسبب ورم مأبضه[١] . [وكان قد] اشتدّ [به] حتى حصل منه ناصور، وحدث معه قرحة فى الصدر؛ إلا أن همته كانت قوية ، فلم يُلْقِ نفسه[٢] . وسار [السلطان] إلى دمشق، ونزل بقلعتها .

وبعث [السلطان] بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ومعه الأمراء والعساكر ، وفيهم الأمير ابن أبى على الهذبانى، إلى حمص . فنازلها ورمى عليها بمنجنيق زنة حجره مائة وأربعون رطلا، ومعه ثلاثة عشر منجنيقا أخر . وسخر النـاس فى حمل هذه المجانيق من دمشق، حتى كان يحمل كل عود ثمنه نحو عشرين درهما بألف درهم، فإن الوقت كان شتاء صعبا . وألح [الأمير فخر الدين] فى الحصار ، إلى أن قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائى ، رسولا من الخليفة [المستعصم بالله]، بالصلح بين الحلبيين وبين السلطان . فتقرر الصلح، ورحل العسكر عن حمص، بعد ما أشرف على أخذها[٣] .

(١) المأبض — أو الأبض، باطن الركبة أو المرفق ، وجمعهما مآبض وآباض . (محيط المحيط) .

(٢) ألم كل ذلك بالسلطان الملك الصالح أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٣ أ)، وهو مقيم بأشموم طناح . وهذا نص عبارة ابن واصل : "وكان الملك الصالح نجم الدين وهو بأشموون طناح (كذا) قد عرض له ورم فى مخاصيه ، ثم فتح وحصل له منه تعسر بول . وبعد ذلك حصلت له قرحة ، تيقنت الأطباء أنه لاخلاص له منها ؛ لكنه لم يشعر بذلك . وكان من كبر نفسه يحمل ذلك ، وكان له همة عالية تحمله على النهضة والحركة ، ومرضه وضعفه يوجب (كذا) تراخيه على الإنجاد للملك الأشرف ..." .

(٣) أجاب السلطان الملك الصالح الى الصلح ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٤ ب)، "لأمرين : أحدهما ما كان به من المرض ، والثانى أنه بلغه حركة الفرنج وقصدهم الديار المصرية ، فى جموع عظيمة من داخل البحر" . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٥٦ أ)، و (Stevenson: Crusaders In The East. p. 325) . هذا وقد كانت أخبار الفرنج ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. II.I.) تتواتر إلى الملك الصالح ... من جهة الانبرور ... فانه كان مصافيا للملك الكامل أبيه ، وكذلك له ..." . ويشير ابن واصل هنا الى فزع بعض ملوك أوربا ، وأولهم (Lonis IX) ملك فرنسا ، من هزيمة الصليبيين عند غزة (انظر ص ٣١٧ ، سطر ٤) ، وتسليمهم بيت المقدس (انظر ص ٣١٨ ، سطر ٣) . وقد قام ملك فرنسا على رأس حملة معظم جنودها من الفرنسيين ، وهي المعروفة فى تاريخ الحروب الصليبية بالسابعة . ووصلت تلك الحملة جزيرة قبرص فى سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (رجب سنة ٦٤٦ هـ) ، وقصدت مصر بعد انقضاء شتاء تلك السنة ، وأخبارها واردة هنا فيما يلى . راجع أيضا (Stevenson: Op. cit. pp. 324-326) .

وقدم من حلب الشيخ شمس الدين الخُسْرُوشاهى[1]، فسأل السلطانَ على لسان الملك الناصر داود صاحب الكرك، أن يسلم الكرك إلى السلطان، ويعتاض عنها بالشوبك . فأجيب [الناصر دواود] إلى ذلك، وتوجه من يتسلم منه الكرك . ثم رجع [الناصر] عن ذلك، لما بلغه من شدّة مرض السلطان، وتحرك الفرنج[2] لأخذ ديار مصر . فخرج السلطان من دمشق فى محفة، وسار إلى الغور؛ وقدم الأمير حسام الدين بن أبى على[3] إلى القاهرة، لينوب عنه بها؛ واستُدعى بالأمير جمال الدين بن (١٨٦) يغمور من القاهرة، لينوب بدمشق؛ وعُزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق، وعزل الطواشى شهاب الدين رشيد عن قلعة دمشق، وفوّض ما كان بيدهما للأمير جمال الدين بن يغمور .

وفيها احترق المشهد الحسينى بالقاهرة، واحترقت المنارة الشرقية بجامع دمشق . [وفيها] مات قاضى القضاة أفضل الدين الخونجى، فى شهر رمضان؛ فولى من بعده ابنه قاضى القضاة جمال الدين يحيى .

وفيها مات الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب، صاحب الرها؛ وقام من بعده ابنه الكامل محمد فى سلطنة الرها وميافارقين .

وفيها عزل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن الأمير فخر الدين ابن الشلاح عن مكة وأعمالها؛ وولى عوضه محمد بن أحمد بن المسيب[4]، على مال يقوم به، وقَوْد [عدده] مائة فرس، كل سنة . فقدم [ابن المسيب] مكة، وخرج الأمير فخر الدين .

(١) بغير ضبط فى س، والنسبة الى خسروشاه، وهى قرية بينها وبين مرو فرسخان . وخسروشاه أيضا بليدة فى فارس، بينها وبين تبريز ستة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤٣) .

(٢) فى س "فرنجع" .

(٣) فى س "بو على"، وقد جمع الأمير حسام الدين بين وظيفتى نيابة السلطنة وتولية دار الصناعة، كما اتفق قبلا لابن يغمور . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥٥ أ) .

(٤) كذا فى س بغير ضبط، واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٧٧) ابن المسيب . ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة فى لفظها وترتيبها لما يقابلها فى الخزرجى، ويظهر أن المقريزى اعتمد هنا على ذلك المرجع . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من نفس المرجع والصفحة .

فساءت سيرة ابن المسيب، وأعاد الجبايات والمكوس بمكة، وأخذ الصدقة الواردة من اليمن، وأخذ ما كان بمكة من مال السلطان، وبنى حصنا بنخلة [يسمى العطشان] ، وحلّف هذيلا[1] لنفسه، ومنع الجند النفقة . فوثب عليه الشريف أبو سـعد بن على بن قتادة، وقيّده وأخذ ماله، وقال لأهـل الحرم : " إنمـا فعلت به هذا لأنى تحققت أنه يريد الفرار بالمـال إلى العراق . وأنا غلام مولانا السلطان، والمـال عندى محفوظ والخيل والعـدد، إلى أن يصل مرسومه " . فلم يكن غير أيام، وورد الخبر بموت السلطان نور الدين عمر بن رسول .

* * *

سـنة سبع وأربعين وستمـائة . فيهـا قدم السلطان من دمشق، وهو مريض فى محفة، لمـا بلغه من حركة الفرنج . فنزل بأشمـوم طناح فى المحرم ، وجمـع فى دمياط من الأقوات والأسلحة شيئا كثيرا ، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة، أن يجهز الشوانى من صناعة مصر؛ فشرع فى تجهيزها، وسيرها شيئا بعد شىء . وأمر [السلطان] الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة[2] دمياط بالعساكر، ليصير فى مقابلة الفرنج إذا قدموا . فتحول [الأمير فخر الدين] بالعساكر، فنزل بالجيزه تجاه دمياط، وصار النيل بينه وبينها . ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ، ونودى فى مصر : " من كان له على السلطان أو عنده [له] شىء، فليحضر ليأخذ حقه " ؛ فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم .

وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر، وصلت مراكب الفرنج البحرية، وفيهـا جموعهم العظيمة صحبة ريدَافْرنس — ويقال له الفرنسيس، واسمه لُوَيْس بن لُوَيْس، وريدَافْرنس لقب بلغة الفرنج، معناه ملك اَفْرنس[3] — وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله، فأرسوا

(١) كانت هـذيل هذه قبيلة صغيرة ، مساكنها شرق مكة . (الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ج ٣ من الترجمة الإنجليزية ، ص ٦٤ ، حاشية رقم ٣٧٤) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٠٦ أ) إن الأمير فخر الدين نزل على "بحيرة دمياط" ، وفى العينى (عقد الجمان، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) "جزيرة دمياط" .

(٣) ضـبط المقريزى بعض ألفاظ هذه العبارة على النحو المثبوت هنا ، وقد رؤى عدم إضافة علامات ضـبط أخرى، لبيان مدى حاجة عصر المقريزى لضبط الألفاظ الأجنبية ، ولوضوح العبارة نفسها . وفى ابن واصل (نفس =

فى البحر بإزاء المسلمين . وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابا، نصه بعد كلمة كفرهم : " أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . و إنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون[1] إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر،ونقتل منهم الرجال،ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية،و بذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتالك (٨٦ ب) فى أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لى، فيا هدية حصلت فى يدى؛ و إن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلىّ . وقد عرفتك وحذرتك، من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا . "

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع[2]. فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين : " أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأت عيناك — أيها المغرور ! — حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل،

= المرجع ، ص ٣٥٥ ب) عدا الأسماء والألقاب الواردة هنا، حقائق عن الملك الفرنسى (Louis IX)، تشهد بسعة دراية المؤرخين المسلمين بأحوال الدول المجاورة، ونصها : " وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجية ، وأشدهم بأسا . وافرنس هى أمة من الفرنج، ومعنى ريد افرنس ملك افرنس ، فان ريد فى لغتهم معناها الملك . وكان متدينا بدين النصرانية مرتبطا به ، فحدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرنج ، إذ هو بيت معبودهم على مايزعمون ، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية . وذكر أن جمعه كان ما بين فارس وراجل خمسين ألفا وأكثر ، وكان خروجه وحركته فى السنة الماضية ، وقصد أولا جزيرة قبرص" .

(١) فى س : " يحملوا " .

(٢) معنى استرجع هنا أنه قال، " إنا لله و إنا إليه راجعون " . (محيط المحيط) .

لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزِلّ بك القـدم، فى يوم أوله لنـا وآخره عليـك . فهنالك تسىء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، وكن على آخر سورة ص : " وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ . ونعود الى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : كَمْ مِنْ فِئَـةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَـةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ؛ و[إلى] قول الحكماء : إن الباغى له مصرع؛ و بغيك يصرعك، و إلى البلاء يقلبك، والسلام " .

وفى يوم السبت نزل الفرنج فى البر الذى عساكر المسلمين فيـه ، وضُربت للملك رِيدا[1] فرنس خيمة حمراء . فناوشهم المسلمون الحرب، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين[2] ... بن شيخ الإسلام — وكان رجلا صالحا، ورتبه الملك الناصر داود مع الملك الصالح نجم الدين، لما سجن بالكرك، لمؤانسـته . وممن استشهد أيضا الأمير صارم الدين إزبك الوزيرى . فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معـه من عساكر المسلمين ، وقطع بهـم الجسر إلى الجانب الشرقى ، الذى فيـه مدينة دمياط . وخلا البر الغربى للفرنج، وسار [فخر الدين] بالعسكر يريد أشموم طناح .

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنمـا يسحبون على وجوههم طول الليل، ولم يبق بالمدينة أحد ألبتة، وصارت [دمياط] فارغة من الناس جملة . وفروا (٨٧ ا) الى أشموم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع فقراء ، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء . وساروا إلى القاهرة، فنهبهم الناس فى الطريق، ولم يبق لهم ما يعيشون به . فعُدَّت هـذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به . وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل ، لما نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعددا منها فى هذه النوبة ؛ ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فنى أهلها بالوباء والجوع ، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة ، فلم يغن ذلك شيئا .

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) بياض فى س .

وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط . فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحدَ يحميها، خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها . فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفوًا عفوًا .

وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر، لتملك الفرنج مدينة دمياط، وهزيمة العساكر، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة، والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوة، — مع شدّة مرض السلطان، وعدم حركته .

وعند ما وصلت العساكر إلى أشموم [طناح]، ومعهم أهل دمياط، اشتدّ حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم، فقالوا : "وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، وأحرقوا الزردخاناه، فأى شيء نعمل نحن؟ " فشنقوا لكونهم[1] خرجوا من المدينة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدّة من شنق زيادة على خمسين أميرا من الكنانية . [وكان] فيهم أمير حَشِيم، وله ابن جميل الصورة، فقال أبوه : "بالله اشنقونى قبل ابنى" . فقال السلطان : "لا ! بل اشنقوه قبل أبيه" . فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم .

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال : "أما قدرتم تقفون[2] ساعة بين يدى الفرنج؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين". وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى، (٨٧ ب) وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله . فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبين أمر السلطان : "فإنه على خُطَّة[1]، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم" .

(١) فى س "كونهم" . (٢) فى س "تقفوا" .

(١) معنى "على خطة" أنه قد برح به المرض ، وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل لهذا المعنى، وهو " أمك على خطة "، وترجمته الى الفرنسية "ta mère est dangereusement malade" .

ولمـا وقع ما ذُكر أَمَر السلطان بالرحيل إلى المنصورة، وحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيـل ، فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر . فشرع كل أحد من العسكر فى تجديد الأبنيـة للسكنى بالمنصورة، ونصبت بها الأسواق، وأصلح السور الذى على البحر وستر بالستائر . وقدمت الشوانى المصرية بالعـدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام النـاس الذين يريدون الجهاد ، من كل النـواحى ؛ ووصلت عربان كثيرة جدا ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم. وحصن الفرنج أسوار دمياط، وشحنوها بالمقاتلة .

فلما كان يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأوّل، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب سـتة وثلاثون أسـيرا، منهم فارسان . وفى خامس شهر ربيع الآخر وصـل سبعة وثلاثون أسـيرا ؛ وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسـيرا ؛ وفى سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيرا، منهم ثلاثة من الخيالة .

ولمـا بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها، وأخذوا صيداء من الفرنج، بعد حصار وقتال . فورد الخبر بذلك لخمس بقين من شهر ربيع الآخر، فسر الناس بذلك .

هذا والأسرى من الفرنج تصـل فى كل قليل إلى القاهرة ، ووصل فى ثامن عشر جمادى الأولى خمسون أسيرا . ومع ذلك والمرض يتزايد بالسلطان، وقواه تنحط، حتى وقع يأس الأطباء من برئه وعافيته، لاجتماع مرضين عظيمين، هما الجراحة الناصورية فى مأبضه والسـل .

وأما الناصر داود صاحب الكرك، فإنه لمـا ضاقت به الأمور استخلف[1] ابنه الملك المعظم [شرف الدين][2] عيسى، وأخذ معه جواهره، وسار فى البر إلى حلب، مستجيرا بالملك الناصر يوسف بن الملك العزيز؛ فأنزله وأكرمه . وسيَّر الناصرُ بجواهره إلى الخليفة المستعصم بالله، لتكون عنده وديعة؛ فقبض [الخليفة] ذلك، وسـير إليه الخط بقبضه . وأراد الناصر بذلك

(١) فى س "استحلف" .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥٧ ب) .

أن يكون الجوهر فى مأمن ، فإذا احتاج إليه طلبه ؛ وكانت (٨٨ أ) قيمته ما ينيف على مائة ألف دينار[1] . فخنق ولدا الناصر — [وهما الملك الظاهر شادى[2]، والملك الأمجد حسن] — ، على أبيهما ، لكونه قدم عليهما المعظم ، وقبضا على المعظم ، واستوليا على الكرك . وأقام الملك الظاهر شادى — وهو أسنّ إخوته — بالكرك . وسار الملك الأمجد حسن إلى الملك الصالح نجم الدين ، فوصل إلى المعسكر بالمنصورة ، يوم السبت لتسع مضين من جمادى الآخرة ، وبشّره بأنه هو وأخوه الظاهر أخذا الكرك له ، وسأله فى خبز بديار مصر يقوم بهما . فأكرمه السلطان ، وأعطاه مالا كثيرا ؛ وسير الطواشى بدر الدين الصوابى إلى الكرك نائبا بها وبالشوبك . فتسلمها [بدر الدين] ، وسير أولاد الناصر داود جميعهم ، وأخويه الملك [الملك] القاهر [عبد الملك] ، والملك المغيث [عبد العزيز][3] ، ونساءهم وعيالاتهم كلها ، إلى المعسكر [بالمنصورة] . فأقطعهم السلطان إقطاعا جليلا ، ورتب لهم الرواتب ، وأنزل أولاد الناصر فى الجانب الغربى قبالة المنصورة . وكان استيلاء نائب السلطان على الكرك يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة بقيت من جمادى الآخرة ؛ وسر السلطان بأخذ الكرك سرورا عظيما ، وأمر فزينت القاهرة ومصر ، وضربت البشائر بالقلعتين . وجهز [السلطان] إلى الكرك ألف ألف دينار مصرية ، وجواهر وذخائر وأسلحة ، وشيئا كثيرا مما يعز عليه .

وفى ثالث عشر شهر رجب وصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا من الفرنج ، وأحد

---

(١) لم تقع عين الناصر على تلك الجواهر بعد إيداعها عند الخليفة ، ذلك أن التتر استولوا عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، عند ما أخذوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٥٧ أ) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ أ) . وفى نفس المرجع والصفحة أن الملك الناصر داود فضل ولده المعظم شرف الدين عيسى على سائر إخوته ، وأقامه مقام نفسه بالكرك ، لأن والدته أم ولد تركية ، كان يميل اليها الملك الناصر داود ميلا كثيرا ، ويحب ابنها أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان للناصر ولدان من ابنة عمه الملك الأمجد ابن الملك العادل ، وهما الملك الظاهر شادى ، والملك الأمجد حسن . وكان الملك الظاهر أكبر أولاده ، وقد ولد بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان الملك الأمجد نبيها فاضلا ، مشاركا فى علوم شتى . هذا وقد كان للناصر أولاد عدا هؤلاء ، من أمهات أخرى .

(٣) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ ب) .

عشر فارسا منهم ؛ وظفر المسلمون بعد أيام بمُسَطَّح[١] للفرنج فى البحر، فيه مقاتلة ، بالقرب من نَسْـــتَرَاوَة[٢] .

فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة ، [وهو] فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين ســـنة ، بعد ما عهـــد لولده [الملك المعظم] توران‌شاه ، وحلَّف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى ، ومن يثق به ؛ وبعـــد ما علَّم قبل موته عشرةَ آلاف علامة ، يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته ، حتى يقدم ابنه توران‌شاه من حصن كيفا . وكانت أم[٣] [الســـلطان الملك الصالح] أم ولد ، اسمها ورد المنى ؛ وكانت مدة ملكه بمصر عشر سنين إلا خمسين يوما[٤] . فغســـله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه ، لكى يخفى موته . وحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة ، وأخفى موته ، فلم يشتهر إلى ثانى عشرى رمضان ؛ ثم نقل بعـــد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة .

والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر : وذلك أنه لَمَّـا مَرَّ به ما تقدم ذكره ، فى الليلة التى زال عنه ملكه ، بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه ، حتى لم يثبت معـــه سوى مماليكه ، رعى لهم ذلك . فلمـــا استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك ،

---

(١) نوع من السفن ، جمعـــه مسطحات ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح . وقد وصـــفه Dozy (Supp. Dict.Ar.) بالآتى : "sorte de navire, peut-être un navire qui a un pont, un tillac."

(٢) بغير ضبط فى س ، وتسمى أيضا نسترو ، وكانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية ، وعلى بحيرة البرلس أيضا . وكانت بلدة نستراوة إذ ذاك ، حسبما جاء فى ياقوت (معجم البـــلدان ، ج ٤ ، ص ٧٨٠ ؛ انظر أيضا ج ١ ، ص ٥٩٣) ، جزيرة يصاد فيها السمك ، وعلى أهلها ضمان خمسين ألف دينار . ولم يكن عنـــدهم ماء عذب ، وإنما يأتيهم فى المراكب ، فاذا لاحت لهم مراكب المـــاء ضربوا بوق البشارة سرورا ، ثم يأتى كل رجل بجرته يأخذ فيها المـــاء ، ويحملها إلى بيته . راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Burullus) .

(٣) فى س "أمه" .

(٤) كانت وفاة الســـلطان الملك الصالح أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٩ أ) "ليلة الأحد لأربع عشر ليلة مضت من شـــعبان ... ... فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما . وكان عمره نحو أربعين سنة ، لأن مولده سنة ثمان (ثمانية فى الأصل) وستمائة" .

وجعلهم معظم عسكره ؛ وقبض على الأمراء [الذين (١) كانوا عند أبيه وأخيه ، واعتقلهم وقطع أخبازهم] ؛ وأعطى [مماليكه] (٢) الإمريات ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه (٨٨ ب) ، وسماهم بالبحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل .

وكان ملكا شجاعا حازما مهيبا (١) ، لشدة سطوته ونخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدة الوقار ولزوم الصمت ، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه ، أخذتهم الرعدة عند مايشاهدونه — خوفا منه — ، ولا يبقى أحد منهم مع أحد . و [كان] إذا جلس مع ندمائه كان صامتا ، لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ، وجلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا تكلم مع أحد من خواصه ، كان ما يقوله كلمات نزرة وهو فى غاية الوقار ، وتلك الكلمات لا تكون إلا فى مهم عظيم ، من استشارة أو تقدم بأمر من الأمور المهمة ؛ لا يعدو حديثه قط هذا النحو ، ولا يجسر أحد يتكلم بين يديه إلا جوابا . وما عُرف أبدا عن أحد من خواصه أن تكلم فى مجلسه ابتداء البتة ، ولا أنه جسر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة ، ما لم يكن ذلك بابتداء من السلطان ؛ فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد . وكانت القصص ترد اليه مع الخدام فيوقع عليها ، ويخرج بها الخدام إلى كاتب الإنشاء ؛ ولا يستقل أحد من أرباب الدولة بانفراد بأمر ، بل يراجع بالقصص مع الخدام . ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه ، حياء منه وخفرا ؛ ولم يُسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدا : "متخلف" ، لا يزيد على هذه الكلمة ؛ ولا عَرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه .

وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة والطرق سابلة ، إلا أنه كان عظيم الكبر زائد الترفع ، بلغ من كبره وترفعه أن ابنه الملك المغيث عمر ، لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده ،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٩ أ) .

(٢) فى ص "اعطام" .

(١) من ص "مهابا" .

لم يسأله فيه ولا طلبه منه، حتى مات فى حبسه . وكان يحب جمع المـال، بحيث أنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل ، إلى أن أخذ منها مالا عظيما وجواهر نفيسة .

وقتَلَ [السلطان الملك الصـالح أيوب] أخاه الملك العادل، ومن حين قتـله ما انتفع بالحياة ولا تهنَّى بها : فنزل به المرض، وطرقه الفرنج، وقبض على جميع أمراء الدولة، وأخذ أموالهم وذخائرهم . ومات فى حبوسـه ما ينيف على خمسة آلاف نفس، سـوى من قتل وغرق من الأشرفيـة فى البحر . ولم يكن له مع (١٨٩) ذلك ميل إلى العـلم ولا مطالعـة الكتب، إلا أنه كان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات، من غير أن يخالطهم. ولم[(١)] يخالط غيرهـم، لمحبته فى العزلة ورغبته فى الانفـراد ، وملازمتـه للصمت ومداومته على الوقار والسكون .

وكان يحب العمارة و يباشر الأبنية بنفسه، وعمر بمصر مالم يعمره أحد من ملوك بنى أيوب : فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينـة فسطاط مصر، وأنفق فيها أموالا جمـة، وهدم كنيسة كانت هناك لليعاقبة من النصارى . وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك — وقيل ثمانمائة — سماهم البحرية . وكان المـاء حينئذ لا يحيط بهـا ، فلم يزل يُغَرِّقُ السفن ، ويرمى الحجارة فيما بين الجيزة والروضة ، إلى أن صار المـاء فى طول السـنة محيطا بالروضة . وأقام جسرا من مصر الى الروضة ، يمرّ عليه الأمراء وغيرهم إذا جاءوا الى الخدمة؛ ولم يكن أحد يمرّ على هذا الجسر راكبا، احتراما للسلطان . فجاءت هـذه القلعة من أجلّ مبـانى الملوك . وبنى أيضا على النيـل بناحية اللوق[(٢)] قصورا بلغت الغـاية فى الحسن ، جعلها الى جانب ميـدانه الذى يلعب فيـه بالكرة، وكان مغرى بلعبها . وبنى قصرا عظيما فيما بين القاهرة ومصر، سمـاه

(١) فى س "ولا" .

(٢) أطلق اسم ناحية اللوق فى الأصل — ومعنى اللوق الأرض الينة — على الجهة التى انحسر عنها ماء النيل، من ساحل المقس الى منشأة المهـرانى بالقاهرة . وعرفت تلك الناحية باسم باب اللوق، وهو باب الميدان الصالحى المذكور هنا؛ وقد بقى ذلك الباب الى مابعد سنة ٧٤٠ هـ . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١١٧ — ١١٨، ١٩٨) .

الكبش ، على الجبل بجوار جامع ابن طولون . و بنى قصرا بالقرب من العَلَاقِـة(١) فى أرض السانح ، وجعل حوله مدينة سماها الصالحية ، فيها جامع وسوق ، لتكون مركزا للعساكر بأول الرمل الذى بين الشام ومصر .

وكان له من الأولاد الملك المغيث [فتح الدين(٢)] عمر ، وهو أكبر أولاده ، مات فى سجن قلعة دمشق ؛ والملك المعظم [غياث الدين] تورانشاه ، وملك مصر بعده ؛ والملك القاهر ، ومات فى حياته أيضا . وولد له أيضا من شجر الدر ولد سماه خليلا(٣) ، مات صغيرا .

ولما طال مرضه من الجراحة الناصورية — وفسد مخرجه ، وامتد الجرح الى فخذه اليمين ، وأكل جسمه — اجتهد فى مداواتها ، وحدث له مرض السل من غير أن يفطن به . فورد كتابه الى الأمير حسام الدين بن أبى على بالقاهرة : "إنّ(٤) الجراحة قد صلحت وجفت رطوباتها ، [ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصولجة] ، فتأخذ حظّك من هذه البشرى " . وفى الحقيقة لم تجف الجراحة إلا لفراغ المواد ، وتزايد عليه بعد ذلك المرض حتى مات .

وقيل إنه لم يعهد الى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين بن أبى على : "إذا مت لا تسلم (٨٩ ب) البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه" ؛ فإنه كان يعرف ما فى ولده [المعظم توران(٥) شاه] من الهوج . فلما مات السلطان أحضرت زوجته شجرُ الدر الأميرَ فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن — وكان أقرب الناس الى السلطان ،

(١) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٠) . وهى "بليدة ... ... دون بلبيس ، فيها أسواق وبازار (كذا) يقوم للعرب" . وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٣ — ٥٤) ، أن هذه البلدة كانت فى زمنه إحدى مراكز مديرية الشرقية .

(٢) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) .

(٣) فى س " خليل " .

(٤) فى س " ان الحراحه قد صلحت وحعب رطو ناتها فاحد حطك من هذه النشرى " ، وقد أصلحت العبارة ، وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦١ أ — ب) .

(٥) كان الملك المعظم ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) "عنده هوج واضطراب ، وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك " .

و إليه القيام بأمر ممـاليكه وحاشيته — وأعلمتهما بموت السلطان ، ووصتهما بكتمان موته، خوفا من الفرنج . وكان الأمير فخر الدين عاقلا مدبرا، خليقا بالملك، جوادا محبوبا الى الناس . فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة، الى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه . فأحضرت [شجر الدر] الأمراء الذين بالمعسكر، وقالت لهم : "إن السلطان قـد رسم بأن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا بعده، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة" . فقالوا كلهم سمعا وطاعة، ظنا منهم أن السلطان حى، وحلَفوا بأسرهم، وحلّفوا سائر الأجناد والممـاليك السلطانية .

وكُتب على لسـان السلطان الى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بالقاهرة ، أن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة . فحضر الى دار الوزارة(1) قاضى القضـاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى سنجار ، والقاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء — وكان الملك الصالح قد أبعده لأمر نقمه عليه — ، وحلّفا من حضر من الأعيان على ما تقدّم ذكره؛ وكان ذلك فى يوم الخميس ثامن عشر شعبان . واستدعى القاضى بهاء الدين زهير من القاهرة الى المعسكر بالمنصورة .

وقام الأمير فخر الدين بتـدبير المملكة ، وأقطع البلاد بمناشيره ، وأعاد البهـاء زهيرا(2) الى

---

(1) تقدّم ذكر موضع هـذه الدار فى ص ٢٩٧ (حاشية ٦)، وفى ص ٣٢٦ أيضا (سـطر ٧) ، والراجح أن المقريزى قصـد دار الوزارة الكبرى بالقاهرة الفاطمية ، وليس دار الوزارة التى كانت بالقلعة فى عهـد الأيوبيين والممـاليك . (انظر الحاشية رقم ٦، المشار اليها) . وكانت دار الوزارة الكبرى من منشآت العهد الفاطمى ، بنـاها الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمـالى ، بجوار القصر الكبير الشرقى ، لتكون مسكنا لمن يلى إمرة الجيوش . واستمرت تلك الدار الكبرى كذلك سكنا زمن الفاطميين ، ثم سكنها سلاطين الأيوبيين أنفسهم ، من عهد السلطان صلاح الدين الى زمن السلطان الملك الكامل ، وصارت تسمى بالدار السلطانية . وأول من انتقل عنها من الملوك الأيوبيين السلطان الملك الكامل نفسه ، فإنه سكن قلعـة الجبل ، وجعل هذه الدار منزلا لمن يرد الى مصر من الملوك والرسـل ، وبقيت لذلك الغرض زمنا طويلا . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٣٨ — ٤٣٩) .

(2) فى س "زهير" .

منصبه . فكانت الكتب ترد من المعسكر وعليها علامة[(١)] السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، فقيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل[(٢)] ، لا يشك من رآه أنه خط السلطان . ومشى هذا على الأمير حسام الدين نائب السلطنة مدة ، إلى أن أوقفه بعض أصحابه على اضطراب فى العلامة ، يخالف علامة السلطان[(٣)] . ففحص عن خبر السلطان من بعض خواصه الذين بالمعسكر ، حتى عرف موته . فاشتد خوفه من الأمير فخر الدين ، وخشى أن يتغلب على الملك ، فاحتاط لنفسه .

وأخذ الأمير فخر الدين يطلق المسجونين (١٩٠) ، ويتصرف فى إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان الى الشام . فعلم الناس بموت السلطان من حينئذ ، غير أن أحدا لا يجسر أن يتفوه به .

---

(١) العلامة السلطانية هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكانت صورة علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ أ – ب) "أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب". وكان لكل سلطان علامة وتوقيع ، وقد ذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١١) صور كل منهما من عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (٦٩٣ — ٧٠٩ هـ ، ١٢٩٣ — ١٣٠٩ م) الى زمنه ، ونصه : " قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به ، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع ، فانه يكتب عليه علامته . وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاون " الله أملى " ، وعمل ذلك الملوك بعده الى اليوم . وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات ، فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا ؛ فيكتب مثلا محمد بن قلاون ، أو شعبان بن حسين ، أو فرج بن برقوق . وإن لم يكن أبوه ممن تسلطن ، كبرقوق أو شيخ ، فانه يكتب اسمه فقط ، ومثاله برقوق أو شيخ . وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كرّم المكتوب اليه ، فكتب اليه : أخوه فلان ، أو والده فلان" ، وأخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب . والذى يعلم عليه السلطان إما إقطاع ، فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف ؛ وإما وظائف ورواتب وإطلاقات ، فالرسم فى ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف . وأعلى ما يعلم عليه [السلطان] ما افتتح بخطبة أولها الحمد لله ، ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله ... ... وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطغر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغرا فى وقتنا هذا " .

(٢) اسم هذا الخادم "السهيلى" ، فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ ب) .

(٣) كان جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب (انظر ص ٣٦٣ أ) هو الذى نبه الأمير حسام الدين الى اختلاف العلامة السلطانية .

وسار من المعسكر الفارس أَقْطَاى[1]، وهو يومئذ[2] رأس المماليك البحرية، لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا . وبعث الأمير حسام الدين [محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالقاهرة، من عنده] قاصدا من قبله أيضا[3] . فلما كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان، أمر [الأميرُ حسام الدين] الخطباءَ بأن يدعوا يوم الجمعة للملك المعظم، بعد الدعاء لأبيه؛ وأن ينقش اسمه على السكة ، بعد اسم أبيه . وتوهم الأمير حسام الدين من الأمير فخر الدين أن يقيم الملك المغيث[4] عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل، ويستولى على الأمر ؛ فنقله من عند عمات أبيه بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب، من القاهرة الى قلعة الجبل؛ ووكل به من يحتاط عليه، ولا يسلمه لأحد .

هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين، وعنوانها " من فخر الدين الخادم يوسف " ؛ فيجيب عنها الأمير حسام الدين، ويجعل العنوان "المملوك أبو على" ، فيتجاملان فى ظاهر الأمر . وأما فى الباطن فإن الأمير فخر الدين أخذ فى الاستبداد والاستقلال بالمملكة، واختص بالصاحب جمال بن مطروح، وبالقاضى بهاء الدين زهير؛ وصار يركب فى موكب عظيم ، وجميع الأمراء فى خدمته، ويترجلون له عند النزول، ويحضرون سماطه[5] .

ووصل قاصد الأمير حسام الدين إلى حصن كيفا ، وطالع الملك المعظم بأن المصلحة فى السرعة، ومتى تأخر فات الفوت، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد؛ ثم وصل إليه بعد

(١) مضبوط على منطوقه فى (Biochet : Op. cit. p. 521, N. 4)، وهذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب) " اقطايا " .

(٢) هذا اللفظ محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، ولكنه فى ب (١٠٨ أ) .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب)، وكان القاصد الذى أرسله الأمير حسام الدين أحد مماليكه الخواص، يعرف بزين الدين العاشق .

(٤) كان الملك المغيث هذا عند عماته منذ وفاة أبيه، (انظر ص ٣٢٧، سطر ١٠، وما يليه)، وكان عمره لما اعتقل بالقلعة حوالى أربع عشرة سنة . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب) .

(٥) يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدثت نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فانه حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٦ أ)، "كان قد انتهى الى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت همته تترقى الى الملك ... ... " .

ذلك قُصَّادُ فخر الدين وشجر الدر . فخرج [المعظم] من حصن كيفا ليلة السبت لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان ، فى خمسين فارسا من ألزامه . وقصد عانة ليعدى الفرات ، وقد أقام له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جماعة ، وأقام له الحلبيون أيضا جماعة ، يقبضون عليه . فنجاه الله منهم وعدى الفرات من عانة ، وسلك البرية ، فخاطر بنفسه وكاد يهلك من العطش .

هـذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شيء ، وصـار الدهليز السـلطانى على حاله ، والسماط فى كل [يوم][1] يمـد ، والأمراء تحضر الخـدمة ، وهى تقول : "السلطان مريض ، ما يصل إليه أحد" .

وأما الفرنج فمـا هو إلا أن فهموا أن السلطان قـد مات [حتى] خرجوا من دمياط ، فارسهم وراجلهم ؛ ونزلوا على فارس كور[2] ، وشـوانيهم فى بحر النيل تحـاذيهم ؛ ورحلوا من فارس كور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان . فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب ، فيـه حضّ (٩٠ ب) الناس على الجهـاد ، أوله : انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا فِي سَـبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وكان كتابا بليغا فيـه مواعظ جمـة[3] ، فقرئ على الناس فوق منبر جامع[4] القاهرة ، وحصـل عند قراءته من البكاء

(١) ليس هذا اللفظ وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٠٨ أ) .

(٢) كذا فى س ، وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) ، و يسميها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٣٨) "الفارسكر" ، وكانت فى زمنه قرية من كورة الدقهلية - وهى الآن من مراكز مديرية الدقهلية ، وكانت كذلك أيام مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٣) يرجح ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير .

(٤) لعـل المقريزى يريد هنا الجامع الأزهر ، ويميل الى هذا الرأى (Blochet : Op. cit. p. 525) ، إذ ترجم العبارة الى (la grande mosquée du Caire) . على أنه لا يوجد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٢) ، أو فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، وما بعدها) ، أو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) ما يساعد على تعيين الجامع المقصود هنا ، ونص المرجع الثالث كالآتى : " فقـرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة " .

والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف . وارتجت القـاهرة ومصر، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للسير؛ فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأَخْذِهم البلاد، مع موت السلطان .

فلمـا كان يوم الثلاثاء أول يوم من شهر رمضان واقع الفرنج المسلمين، فاستشهد العلائى أمير مجلس ، وجمـاعة [من الأجناد](١) ؛ وقتـل من الفرنج عدّة . ونزل الفرنج(٢) بشارمساح ، وفى يوم الاثنين سابعـه نزلوا البَرَمُّون ؛ فاشتدّ الكرب وعظم الخطب ، لدنوهم وقربهـم من المعسكر . وفى يوم الأحد ثالث عشره وصلوا إلى طرف بر دمياط ، ونزلوا تجاه المنصـورة ، وصار بينهـم و بين المسـلمين بحر أشموم . [وكان معظم عسكر المسـلمين فى المنصـورة بالبر الشرقى](٣) ، وفى البر الغربى أولاد الملك النـاصر داود صاحب الكرك : [وهم الملك الأمجد ، والملك الناصر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد] ، فى عدّة من العسكر — [وكان أولاد الملك الناصر داود ، الأكابر منهـم والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، اثنى عشر ولدا ذكرا . وكان بالبر الغربى أيضا أخوا الملك الناصر داود : وهمـا الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز] . فاستقر الفرنج بمنزلتهم هـذه ، وخندقوا عليهم خندقا ، وأداروا سورا وستروه بالستائر ، ونصبوا المجـانيق(٤) ليرموا بهـا على معسكر المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل ، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ووقع القتال بين الفريقين برا وبحرا .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره قفز إلى عند المسلمين ستـة خيالة ، وأخبروا بضائقـة

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) .

(٢) فى س "وتزلوا" ، راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) . ومـا تجب ملاحظته هنا أن الفرنج زحفوا تلك المرة على نفس الطريق الذى اتبعوه سنة ٦١٥ هـ (انظر ص ١٨٨ ، ١٩٤ — ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ — ٢٠٩) ، وحوادث هذه الحملة مشابهة فى كثير من التفصيلات لسابقتها . راجع (Joinville : St. Louis. pp. 40 et seq.).

(٣) أضيف ما بين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب — ٣٦٥ أ ، وكذلك ص ٣٣٨ ، سطر ٢ ، وما يليه .

(٤) فى س "المناجنيق" .

الفرنج . وفى يوم عيد الفطر أسر كُنْدٌ[1] كبير من الفرنج، له قرابة من الملك ريدا فرنس . واستمر القتال، وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر، [وقد] لقوا من عامة المسلمين وسوّالهم[2] نكاية عظيمة، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا . وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء، وسبحوا الى أن يصيروا فى بر المسلمين . و[كانوا] يتحيلون[3] فى خطفهم بكل حيلة : حتى أن شخصا أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل [أحدهم] فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . وفى يوم الأربعاء سابع شوال، أخذ المسلمون شينيا[4]، فيه نحو مائتى رجل من الفرنج وكند كبير . وفى يوم الخميس النصف منه (٩١ ا) ركب الفرنج [والمسلمون][5]، فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه، وقاتلوهم قتالا شديدا، قتل فيه من الفرنج أربعون فارسا، وقتلت خيولهم . وفى يوم الجمعة تاليه وصل إلى القاهرة سبعة وستون أسيرا من الفرنج، منهم ثلاثة من أكابر الداوية . وفى يوم الخميس ثانى عشريه أحرقت للفرنج مَرَمّة[6] عظيمة فى البحر، واستظهر المسلمون عليهم استظهارا عظيما .

---

(١) لا يوجد فى (Joinville : Op. cit. p. 50 et seq.)، أو فى غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى، ما يدل على اسم هذا الكند الذى أسر ذاك اليوم . على أنه من الراجح أن المقريزى يقصد هنا (Count of Anjou)، أحد إخوة ملك فرنسا الذين كانوا معه فى تلك الحملة، وإنه كاد يقع فى أيدى المسلمين مرة، حوالى التاريخ الوارد هنا . انظر (Joinville : Op. cit. p. 50) .

(٢) يقابل هذا اللفظ كلمة " الحرافشة " فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٥ ا)، وكذلك فى العينى (عقد الجمان، ص ٢٠٨، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، وهم أتباع المعسكرات، الذين لا ينتمون لفرقة معينة أو لقائد خاص .

(٣) فى س " يحيلوا " .

(٤) فى س " شينى "، وفوق يائها المتوسطة علامة السكون .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٥ ب) .

(٦) يشير المقريزى هنا إلى البرجين المتحركين اللذين ابتناهما ملك فرنسا حين ذاك على الضفة الشمالية لبحر أشموم، لوقاية الجنود والعمال المستخدمين فى إقامة جسر هناك عبر المجرى . وقد سلط المسلمون عليهما النار الإغريقية، وألحوا فى الرمى حتى أحرقوهما . (Joinville : Op. cit. pp. 47, 52) .

[ومازال الأمر على ذلك]، إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة، دَلّ بعض منافقى أهل الإسلام الفرنج على مخائض[١] فى بحر أشمون، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر. وكان الأمير فخر الدين فى الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر، فخرج مدهوشا وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده. فلقيه طُلُبُ[٢] الفرنج الداوية وحملوا عليه، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح فى جنبه، واعتورته[٣] السيوف من كل ناحية، فمات رحمه الله. ونزل الفرنج على جَدِيلَة[٤]، وكانوا ألفا وأربعمائة فارس، ومقدمهم أخو[٥] الملك ريد افرنس.

---

(١) المراجع العربية مختلفة فى تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض، ففى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٦ أ) أن بعض المسلمين دلوا الفرنج على مخاضة بسلمون؛ وفى العينى (عقد الجمان، ص ٢٠٨، فى .Rec. Hist. Or. II. 1)، أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم يقال لها مخاضة سلمون، دلهم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين. هذا وفى (Joinville: Op. cit. p. 53)، أن بدويا عرض أن يدل الفرنج على مخاضة، فى مقابل خمسين قطعة من نقودهم (500 bezants).

(٢) كان ملك فرنسا قد رتب الجيوش على أن تكون فئة الداوية طليعة، وأن تليها الفرقة التى يقودها أخوه (Count of Artois). انظر (Oman : Art of War In The Middle Ages. Vol. I. p. 345).

(٣) فى س " اعترونه ".

(٤) بغير ضبط فى س، وهى تل مطل على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم، كان المسلمون قد نصبوا مجانيقهم وأبراجهم عليه، قبالة معسكر الفرنج والبرجين المتحركين على الشاطئ الآخر. انظر (Rec. Hist. Or. II. I, Index)، وكذلك (Oman : Op. Cit. I. p. 347).

(٥) يقصد المقريزى (Count of Artois) المتقدم ذكره فى الحاشية رقم ٢، وكان قد غلبت عليه الحماسة وحب السبق، فاندفع بمجرد عبوره المخاضة بفرقته نحو كوكبة مقاربة من خيالة المسلمين، فطاردها وتعقبها الى المعسكر؛ وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التى لحقته، كان حتف الأمير فخر الدين. ثم تقدم (Count of Artois) الى معسكر المسلمين، واستولى على الجهة التى كانت بها آلاتهم الحربية (انظر الحاشية السابقة). ويظهر أنه كان قد تمنى الانفراد بظفر ذاك اليوم، من دون بقية الجيوش الفرنجية، فلم يقف منتظرا وصولهم الى حيث وصل، بل تقدم مسرعا نحو المنصورة ودخلها منصورا، كما هو مذكور فيما يلى. انظر (Joinville : Op. cit. pp. 54 et seq. ; Oman : Op. cit. I. pp. 346 et seq.).

وما هو إلا أن قتـل الأمير فخر الدين ، وإذا بالفـرنج اقتحموا على المنصورة . فتفرق الناس وانهزموا يمينا وشمالا ، وكادت الكسرة أن تكون ، فإن الملك ريد افرنس وصل بنفسه[(١)] إلى باب قصر السلطان . إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية ، التى تعرف بالبحرية والجمدارية ، وفيهم [ركن الدين] بيبرس البُنْدُقْدارى[(٢)] الذى تسلطن بعد هذه الأيام . فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر . فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس ، حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم . وكانت رجالة[(٣)] الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه ، فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر .

(١) لم يكن ملك فرنسا قد زحف بعد نحو المنصورة ، وإنما المقصود هنا (Counts of Artois) ، فانه تقدم نحو قصر السلطان ، وانتشرت جنوده فى أزقة المنصورة ، حيث أمطرهم السكان وابلا من الأحجار والطوب والسهام . وبينما الكل على ذلك ، كان المسلمون قد استجمعوا بعض قواهم خارج المدينة ، فدخلت منهم طائفة المنصورة ، وهاجموا الفرنج وقتلوا فيهم وأهلكوهم عن آخرهم تقريبا ، وكان (Count of Artois) ممن قتلوا فى هذه المعمعة ، كما هو وارد فيما يلى . هذا والسبب فى تسميته هنا باسم ملك الفرنسيين ، أنه لما وقع صريعا وأخذ كراغنده لعرضه على المسلمين ، وهو مطرز بزهرة الزنبق (Fleur - de - lis) شعار أبناء البيت المالك فى فرنسا ، ظن المتفرجون أن ملك فرنسا كان بين القتلى . (Joinville : Op. cit. p. 69; Oman : Op. cit. pp. 348-349) . وبعد نزول تلك الطامة اللامة بساعة تقريبا ، وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ، وحاول الاستيلاء على " جديلة " التى كان عليها آلات المسلمين . وكان غرض الملك من ذلك أن يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية لتعبر الرجالة اليه ، وقد نجح فى ذلك كله ، غير أن الروح المعنوية الجديدة فى صفوف المسلمين أذهبت ذلك سدى ، وخيم الليل فحجز بين الفريقين ، كما هو وارد بالمتن فيما يلى . انظر أيضا (Oman : Op. cit. I. pp. 348 et seq.) .

(٢) البندقدارى نسبة إلى البندقدار ، وهو لفظ فارسى مركب ، معناه حامل جراوة — أى كيس — البندق ، خلف السلطان أو الأمير . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ؛ ج ٥ ، ص ٤٥٨) . وقد سمى بيبرس هذا باسم البندقدارى ، لأنه كان فى أول أمره مملوكا للأمير أيدكين البندقدار ، ثم انتقل الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وصار من مماليكه البحرية ، (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 263) . وكان فى خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمير اسمه ركن الدين بيبرس أيضا ؛ وأصله من مماليك الملك الكامل ، وهو الذى انتصر بالخوارزمية وعساكر مصر على الفرنج ، ثم انقلب مع الخوارزمية ضد السلطان ، فما زال به حتى اعتقله وأعدمه كما سبق وروده بالمتن . (انظر ص ٣١٦ ، سطر ١١ ؛ ص ٣١٨ ، سطر ١ ؛ ص ٣٢٢ ، سطر ٧ ؛ وأيضا ابن واصل ، نفس المرجع ، ص ٣٥٩ أ) . وقد أدى هذا الشبه بين الاسمين الى نسبة وقعة غزة خطأ الى بيبرس البندقدارى ، كما يفهم من (Stevenson : Op. Cit. Index) ، وكما هو منصوص فى (Barker : The Crusades. pp. 82, 84) .

(٣) فى س " رجال " . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٦ أ ، ب) .

وكانت المعركة بين أزقة المنصورة، فانهزموا إلى جديلة منزلتهم، وقد حال بين الفريقين الليل، وأداروا عليهم سـورا وخندقوا خنـدقا . وصارت منهـم طائفة فى الـبر الشرقى، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط . فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج[1] .

وعند ما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة (٩١ ب)، فانزعج الناس انزعاجا عظيما . وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر، فلم تغلق أبواب القاهرة فى ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين . وفى صبيحة يوم الأربعاء وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبـل، وكثر فرح الناس وسرورهم . وبقى العسكر يدبر أمره شجر الدر ، فكانت مدّة تدبير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بعـد موت الملك الصالح، لمملكة مصر، خمسة وسبعين يوما . وفى يوم قتله نهب مماليكه و بعض الأمراء داره، وكسروا صناديقه وخزائنه، وأخذوا أمواله وخيوله وأحرقوا داره .

السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان . سار من حصن كيفا إلى دمشق ، لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان ؛ فنزل عانة فى خمسين فارسا من أصحابه ، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة سبع وأربعين ؛ وخرج منهـا يوم الأحد يريد دمشق على طريق السَّماوة[2] فى الـبرية ، فنزل القُصَـيْر فى دهليز ضربه له الأمير جمـال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق، يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان . ودخل [المعظم توران شاه] من الغد — وهو يوم السبت سلخه — إلى دمشق،

(١) يعزو (Oman : Op. cit. pp. 350-352)، وغيره من المؤرخين الحديثين ، هزيمة الصليبيين عند المنصورة الى تسرع (Count of Artois)، ومخالفته تعليمات أخيه ملك فرنسا . هذا وقد فصل المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٢١٩ — ٢٢٢) وقعة المنصورة، وأضاف هناك بعض معلومات ليست هنا .

(٢) بغـير ضبط فى س ، وهى الصحراء الممتدة بين الكوفة والشام، واسمها أيضا بادية السماوة . انظـر (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣١ ؛ و Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 530).

ونزل بقلعتها ، فكان يوما مشهودا . وقام الأمير جمال الدين بخدمته ، وحلف له الأمراء ، وتسلطن فى يومئذ . وخلع [المعظم] على الأمراء وأعطاهم أموالا جزيلة ، بحيث أنه أنفق ما كان فى قلعة دمشق ، وهو ثلاثمائة ألف دينار . واستدعى من الكرك مالا آخر حتى أنفقه ، وأفرج عمن كان بدمشق فى حبس أبيه ، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم . ولأربع مضين من شوال سقطت البطائق إلى المعسكر والقاهرة ، بوصول الملك المعظم إلى دمشق وسلطنته بها ، فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة .

وسار السلطان من دمشق يوم الأربعاء سابع عشريه يريد مصر ، بعد ما خلع على الأمير جمال الدين ، وأقره على نيابة السلطنة بدمشق . وقدم معه القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان مقيما بدمشق عند الأمير جمال الدين . وقدم معه أيضا هبة الله ابن أبى الزهر بن حشيش الكاتب النصرانى ، وقد وعده [السلطان] بوزارة مصر ، فأسلم وتلقب بالقاضى معين الدين (١٩٢) . وسيره [السلطان] أول يوم من ذى القعدة الى قلعة الكرك ، ليحتاط على خزائنها ، فأنهى أشغاله بها ولحقه فى الرمل ، [وأسلم على يده هناك][1] .

وعند ما تواترت الأخبار فى القاهرة بقدوم السلطان ، خرج قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، فلقيه بغزة وقدم معه . وخرج الأمير حسام الدين [بن] أبى[2] على نائب السلطان الى الصالحية ، فلقيه بها يوم السبت لأربع عشرة [ليلة] بقيت من ذى القعدة[3] .

ونزل [السلطان المعظم توارنشاه] فى قصر أبيه ، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح [نجم الدين أيوب] . ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته ، بل كانت الأمور على حالها — والدهليز الصالحى والسماط ومجىء الأمراء للخدمة ، على ما كان عليه الحال فى أيام حياته ،

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ أ) ، واسم هذا الكاتب هناك " النشو بن حشيش النصرانى ، ولقبه معين الدين " .

(٢) فى س " ابو " .

(٣) كان جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، مقيما بالقاهرة وقت ذاك ، فخرج صحبة الأمير حسام الدين الى الصالحية ، لاستقبال السلطان المعظم . (انظر نفس المرجع ، ص ٣٦٦ ب — ٣٦٧ أ) .

وشجر الدر تدبر أمور الدولة كلها، وتقول : "السلطان مريض، ما إليه وصول" — فلم يتغير عليها شيء، الى أن استقر الملك المعظم بالصالحية .

فتسلم [السلطان المعظم] مملكة مصر، وخلع على الأمير حسام الدين [بن] أبى على خلعة سنية، ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية . وأنشده الشعراء عدة تهانى، وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات فى أنواع من العلوم . وكان [السلطان المعظم] قد مهر فى العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول؛ وكان جده الملك الكامل يحبه لميله الى العلم، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه. ولازم [المعظم] الاشتغال الى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء .

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تِلْبَانَة[(١)]، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة، وسار منها الى المنصورة . وقد تلقاه الأمراء المماليك، فنزل فى قصر أبيه وجده، يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة . فأول ما بدأ به أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيرا من مُخَلَّفه، بدون القيمة؛ ولم يعط ورثته شيئا، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار . وأخذ يسب فخر الدين ويقول : "أطلق السكر والكتّان، وأنفق المال وأطلق المحابيس. إيش ترك لى ؟" .

وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل ، فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال الى بحر المحلة، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ؛ وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه، خرجت عليها بغتة وقاتلتها . وللحال قدم أسطول (٩٢ ب) المسلمين من جهة المنصورة، فأَخَذَتْ مراكب الفرنج أخذا وبيلا، وكانت اثنتين وخمسين مركبا؛ وقتل منها وأسر نحو ألف

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية صغيرة بمركز منية القمح من مديرية الشرقية ، واسمها أيضا تلبانة ديرى ، تمييزا لها من تلبانة عدى من ناحية المرتاحية ، وتلبانة عدى أخرى من ناحية حوف رمسيس ، وتلبانة الأبراج من ناحية حوف رمسيس أيضا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩، ص ٤٠ — ٤١) .

إفرنجى، وغنم سائر مافيها من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى على الجمال الى العسكر . فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

وفى أول ذى الحجة ، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، ونجا من كان فيها من المسلمين . وفى ثانى ذى الحجة تقدم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين [بن] أبى على بالمسير الى القاهرة ، والإقامة بدار الوزارة على عادته فى نيابة السلطنة . وفيه وصل الى السلطان جماعة من الفقهاء : منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهاء الدين ابن الجميزى، والشريف عماد الدين، والقاضى عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المقنشع(١) الحموى - قاضى مصر، وكان قد ولى القضاء بعد موت الجمال يحيى، فى جمادى الأولى -، وسراج الدين الأرموى . فجلس [السلطان المعظم] معهم وناظرهم(٢) .

وفى يوم عرفة وصلت مراكب فيها الميرة للفرنج، [فالتقت بها شوانى المسلمين عند مسجد(٣) النصر]، فأخذت شوانى المسلمين منها اثنين وثلاثين مركبا، منها تسع شوانى. فاشتد الغلاء عند الفرنج، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة . فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين بن أمير جاندار، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى؛ فسألوا أن يسلموا دمياط، ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض الساحل، فلم يجابوا الى ذلك .

وفى يوم الجمعة، لثلاث بقين من ذى الحجة، أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، وخرجت السنة وهم فى منزلتهم .

(١) كذا فى س بغير ضبط .

(٢) حضر ابن واصل، صاحب كتاب مفرج الكروب (نفس المرجع، ص ٣٦٧ ب) أحد هذه المجالس، وكان موضوع النقاش فى الحديث النبوى "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٨ ب) . انظر أيضا العينى (عقد الجمان، ص ٢٠٩، فى Rec. Hist. Or. II. 1) .

وفى هذه السـنة قدم الى بغداد طائفة من التتر على حين غفلة ، فقتلوا ونهبوا وجفـل منهم الناس . وفيها استولى على بن قتادة على مكة ، فى ذى القعدة . وفيها قتل الشريف شيحة أمير المدينة النبوية ، وقام من بعده ابنه عيسى . وفيها قتل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن، وملك بعـده ابنـه المنصور شمس الدين يوسف . وفيها مات متملك تونس أبو زكريا يحيى بن عبـد الواحد ابن أبى حفص، فى آخر جمادى الآخرة ، عن تسع وأربعين سـنة . وكان [أبو زكريا يحيى] قد قام وملك تونس، واسـتبدّ بأمرها ودعا لنفسه، وقد ضعف أمر ملوك الموحدين من بنى عبد المؤمن بن على. فأقام [أبو زكريا يحيى] على مملكة إفريقية ثلاثا وعشرين سنة؛ وامتدت مملكته الى تلمسان وسِجِلْمَاسَة وسَبْتَه، وبايعه أهل إشْبِيلِيَّة وشاطِبَـة والمَرِيَّة[1] ومَالَقَة[2] وغَرْنَاطَة ، وخلف مالا جما . فبويع بعده ابنـه محمد المستنصر . وأبو زكريا هذا هو أول من ملك تونس من الملوك الحفصيين، و[أما] من كان قبله منهم فإنمـا كانوا عمالا لبنى عبد المؤمن . وفيها قبض الشريف أبو سعد بن على بن قتادة على الأمير أحمـد بن محمد بن المسيب بمكة فى آخر شوّال ، كما تقـدّم فى السنة الخالية ، وقام [هو] بإمرة مكة .

* * *

سنة ثمـان وأربعين وستمائة . فى ليـلة الأربعاء ثالث المحـرم، رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينـة دمياط، وانحدرت مراكبهم فى (١٩٣ ا) البحر قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم، بعد أن عدوا إلى برهم واتّبعوهم . فطلع صباح نهار يوم الأربعاء، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستولوا عليهم قتلا وأسرا . وكان معظم الحرب فى فارس كور ، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل، وثلاثين ألفا فى قول المكثر . وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم[3] المقاتلة، وصناعهم وسوقتهم، ما يناهز مائة ألف

(١) أسماء هذه المدن ومواقعها معروفة جيـدا ، ويكتفى هنا بضبطها والتعـريف فقط بغير المشهور منها، مثل شاطبة، وموقعها شرقى قرطبة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٢٣٥) .

(٢) تقع هذه البلدة ، واسمها (Almeria) فى الأطالس الحديثة، على شاطئ إسـبانيا الجنوبى، شرقى مالقة (Malaga) .

(٣) فى س "رجالهم" .

إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة . واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل، وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى — فى هـذه النوبة بلاء حسنا، وبان لهم أثر جميل .

والتجأ الملك ريدافرنس — وعدة من أكابر قومه — إلى تل [المُنْيَة][1] ، وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه . وأُخذوا إلى المنصورة، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان — كاتب الإنشاء ، التى كان ينزل بهـا من المنصـورة ، ووكل بحفظـه الطواشى صبيح المعظمى . واعتقل معه أخوه[2] ، وأجرى عليه راتب فى كل يوم . وتقدّم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودى[3] — أحد من وصـل معه من بلاد الشرق — بقتل الأسرى من الفرنج، وكان [سيف الدين] يُخرج كل ليلة منهم ما بين الثلثمائة والأربعمائة، ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر، حتى فنوا بأجمعهم .

ورحل السلطان من المنصورة ، ونزل بفارس كور وضرب بها الدهليز السلطانى، وعمل فيه برجا من خشب ، وأقام على لهوه . وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصـه : "[من] ولده تورانشاه . الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عنـد الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا

---

(١) انظـر ص ٣٥٧ سطر ٩ ، والمقصود هنا منية عبد الله ، القريبة من ناحية شرمساح . انظر العينى (عقد الجمان، ص ٢١٠ ، فى Rec. Hist. Or. II. I.) .

(٢) كان لملك فرنسا ثلاثة إخوة، وهم (Robert, Count of Artois) الذى وقع قتيـلا بالمنصورة ، و(Alphonse of Poitou) ، و(Charles of Anjou). راجع (Camb. Med. Hist. VI. p. 338). وقد أسر المسـلمون الأخوين الثانى والثالث، وأبقوهما فى الأسر مع غيرهم ، حتى تمت مفاوضات الصلح والفدية . وبعـد ذلك رأى أمراء المسلمين حفظ أحد الأخوين، وهو (Count of Poitou) رهينة عنـدهم ، حتى تدفع الفـدية المقررة . (Joinville : Op. cit. pp. 102-108) .

(٣) كذا فى س ، واسمه الطورى فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٢٧٠ ب) .

نعمة الله لا تحصوها . نبشر المَجْلِس السَّامِىّ الجَمَالِى(١)، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرَّقنا (٩٣ ب) السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا(٢) خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل، وقد حلَّ بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا، غير من ألقى نفسه فى اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته"؛ وذكر كلاما طويلا .

وبعث [المعظم] مع الكتاب غِفَارَة(٣) الملك الفرنسيس، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، وهى أَشْكَرْلاط(٤) أحمر بفرو سنجاب، [فيها بُكْلَةَ(٥) ذهب] . فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل :

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٩١، ومابعدها) فصل طويل فى أصل الألقاب، وأنواعها المستعملة فى المكاتبات السلطانية . ويتضح منه أن لقب "المجلس السامى"، كان فى أوائل الدولة الأيوبية بمصر مقصورا على السلطان فقط، فلا يكتب به إلى أحد سواه . ثم استقر اصطلاح الدواوين على كتابة هذا اللقب فى المكاتبات الصادرة إلى الملوك ومن فى معناهم، مثل كبار الأمراء والوزراء وولاة العهد بالسلطنة . وفى عصر دولة المماليك انحط هذا اللقب درجة أخرى، فصار من ألقاب أرباب السيوف والأقلام عامة، وجعلت ألقاب أخرى كالجناب والمقر والمقام لمن فوقهم فى الدولة .

(٢) واو الجماعة هنا عائدة على الفرنج .

(٣) الغفارة المعطف، وجمعها غفائر . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) عدة أمثلة لاستعمال هذا اللفظ، منها : "ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة، من العمائم والغفائر والبرانس والأكسية" . راجع أيضا محيط المحيط .

(٤) نوع من القماش، كان يرد من بلاد إيرلندة، لونه قرمزى (écarlate) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٦، فى Rec. Hist. Or. V.)، وكان أبو شامة حاضرا، عند ما لبس الأمير جمال الدين بن يغمور الغفارة المذكورة . هذا والبكلة معرب اللفظ الفرنسى (boucle)، ومعناه المشبك . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

إن غفارة الفرنسيس التى * جاءت حِباء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن * صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال [آخر](١) :

أسَيِّدَ أملاك الزمان بأسرهم * تنجـزت من نصر الإله وُعُودَه
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى * ويُلبس أسلابَ الملوك عبيدَه

وأخذ الملك المعظم فى إبعاد رجال الدولة ، فأخرج الملكَ المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل من قلعة الجبل الى الشوبك ، واعتقله بها . وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر [الى دمشق] ، فلما وصل دمشق قبض عليه ابن يغمور واعتقله . وفى يوم الجمعة لخمس مضين من المحرم ، ورد الى القاهرة كتاب السلطان الى الأمير حسام الدين أبى على نائب السلطنة بالقدوم عليه ، وأقام بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى . ووصل الأمير أبو على الى المعسكر ، فنزل به مُطَّرَحَ الجانب ، بعد ما كان عَدَّة الملك الصالح وعمدته . وبعث المعظم الى شجر الدر يتهددها ، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر . فداخلها منه خوف كثير ، لما بدا منه من الهوج والخفة ؛ وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه ، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها . فأنفوا لها ، وحنقوا من أفعال السلطان . وكان [السلطان المعظم] قد وعد الفارس أقطاى لما أتاه فى حصن كيفا بأن يُؤَمِّره ، فلم يف له بذلك ؛ فتنكر له [أقطاى] وكتم (٩٤ ا) الشر ، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكنا .

وانضاف الى هذه الأمور ، أن(٢) [السلطان المعظم] أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، واطّرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد ، وأبعد غلمان أبيه وترابيه ،

(١) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٢) .
(٢) فى س "انه" .

واختص بجماعتــه الذين قدموا معه؛ وولّاهم الوظائف السلطانية . وقــدّم الأراذل : وجعل الطواشي مسرورا[(1)] — [وهو] خادمه — أستادار السلطان؛ وأقام صبيحا — وكان عبدا حبشيا نَحْلًا — أمير جاندار، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن يُصاغ له عصا من ذهب . وأساء [السلطان] الى المماليك وتوعّدهم، وصار إذا سكر في الليـل جمع ما بين يديه من الشـمع، وضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع، ويقول : " هكذا أفعـل بالبحرية "، ويسمى كل واحد منهم باسمه . واحتجب أكثر من أبيـه، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون[(2)] هذا الفعل من أبيه . وكذلك فعل بحظايا أبيه .

وصار مع هـذا جميعُ الحـل والعقد، والأمر والنهى، لأصحـابه الذين قدموا معه . فنفرت قـلوب البحرية منـه، واتفقوا على قتـله . وما هو إلا أن مدّ السماط [بعـد نزوله بفارس كور][(3)]، في يوم الاثنين سادس عشرى المحرم، وجلس السلطان على عادته، تقدم إليه واحد من البحرية — وهو بيبرس البندقدارى، الذى صار إليه مُلك مصر — وضربه بالسيف . فتلقّاه[(4)] [المعظم] بيده فبانت أصابعه، والتجأ الى البرج الخشب [الذى نصب له بفارس كور][(5)]، وهو يصيح : " من جرحنى ؟ " قالوا : " الحشيشة[(6)] "، فقال : " لا والله إلّا البحرية ! والله لا أبقيتُ منهـم بقية ! "؛ واستدعى المزين [ليداوى يده][(7)] . فقال البحرية بعضهـم

(١) في س "مسرور" . (٢) في س "يالفوا" .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر، ص ١٢٩، في Rec. Hist. Or. I) .

(٤) في س "فلقـا" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر، ص ١٢٩، في Rec. Hist. Or. I) .

(٦) المعنى المقصود بهـذا اللفظ، أن الذى جرحه أحد الحشيشيين الباطنية . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧١ ب) .

(٧) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هذا وعبارة مفرج الكروب أحسن وصفا لما حدث للسلطان المعظم، ونصها : " (٣٧١ ا) ولما جرى ما ذكرنا من تغير قلوب العسكر منه، خصوصا مماليك أبيه البحرية، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله . فلما كان بكرة الاثنين لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة، مدّ الملك المعظم السماط في دهليزه، وجلس على طراحته، وأكل الناس بين يديه وأكل معهم على ماجرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل، وتفرقت الأمراء إلى وطاقاتهم، وقام [المعظم] من مجلسه فطلب الدخول =

لبعض : " تمّموه وإلّا أباد كم "، فدخلوا عليه بالسيوف . ففر [المعظم] الى أعلى البرج وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده . فأضرموا النـار فى البرج ، ورموه بالنشاب ، فألقى نفســه من البرج ، وتعلق بأذيال الفارس أقطاى ، واستجار به فلم يجره . ومر [المعظم] هار با الى البحر ، وهو يقول " ما أريد ملكا ، دعونى أرجع الى الحصن . يامسلمين ! ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟ ". [هذا] وجميع العسكر واقفون ، فلم يجبه أحد ، والنشاب يأخذه من كل ناحية . وسبحوا خلفه فى المـاء ، وقطعوه بالسـيوف قطعا ، حتى مات جريحا حريقا غريقا[1] ؛ وفرّ أصحابه واختفوا .

وتُرِك [المعظم] على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه ، إلى أن شـفع فيه رسول الخليفة ؛ فحمل إلى ذلك الجانب ودفن ، فكانت (٩٤ ب) مدّة ملكه أحداً[2] وسبعين يوما . وقيل مرة لأبيه فى الإرسال إليه ، ليحضر من حصن كيفا إلى مصر ، فأبى . وألح عليه الأمير حسام الدين أبو على فى طلب حضوره ، فقال : " متى حضر إلى هنا قتلتُه" . وكان المباشر لقتله أربعة من مماليك أبيه ، وكان [الملك الصالح نجم الدين] لمـا أراد أن يقتل أخاه العادل ، قال للطواشي محسن : "اذهب إلى أخى العادل فى الحبس ، وخذ معك من المماليك من يخنقه " ؛ فعرض محسن ذلك على جماعة من المماليك ، وكلهم يمتنع إلّا أربعة منهم ، فمضى بهم حتى خنقوا العادل . فقدر الله أن هؤلاء الأربعة هم الذين باشروا قتل ابنه

= الى خيمة له صغيرة . فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك . . . فضرب (٣٧١ ب) الملك المعظم بسيف بجرحه فى كتفه ، ورمى ركن الدين السيف من يده . ورجع الملك المعظم ... الى مجلسه ، واجتمع حوله النـاس وأصحابه و بعض مماليك أبيه . فقالوا له : أى شىء جرى؟ فقال : جرحنى أحد البحرية . وكان ركن الدين بيبرس واقفا ، فقال : ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية ، فقال [المعظم] : ما فعل بى هذا إلا البحرية ؛ فخافت البحرية حينئذ ، واستشعروا منه" .

(١) رواية ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٣٧١ ب) مختلفة هنا أيضا ، ونصها : "وأحضرت نار ليحرق بها البرج ، فنزل [المعظم] من البرج ، فحمل عليه البندقدارى الذى كان جرحه . فهرب [المعظم] الى جهة البحر ، وكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق اليها و يعتصم بها ، فأدركه فارس الدين اقطايا (كذا) ، وضربه بالسيف فقتله ... "

(٢) فى س " احد" .

المعظم أقبح قتـلة . ورؤى فى النوم الملكُ الصالح [نجم الدين] بعد قتل ابنـه الملك المعظم تورانشاه ، وهو يقول :

قتـلوه شــرّ قتـله * صـار للعـالم مُثـله
لم يراعـوا فيــه إلًّا * لا ولا من كان قبـله
ستراهم عن قريب * لأقل النـاس أُكْلَه

فكان[1] ما يأتى ذكره من الوقعـة بين المصريين والشاميين، بين المعز أيبك والنـاصر [صـلاح الدين] يوسف [بن العزيز محمـد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ، وهو صاحب حلب] وعدم فيها عدّة من الأعيان[2] . وبقتـل المعظم انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سـنة ، وعدّة ملوكهم ثمانيـة ، كما مرّ ذكرهم . فسبحان الباقى، وما سواه يزول .

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس، وقيل بل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بحيث كان لا يفارقها سفرا ولا حضرا . وولدت منه ابنا اسمه خليل[3]، مات وهو صغير[4] . وهـذه المرأة شجر الدر، هى أوّل من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وذلك أنه لـما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما تقدّم ذكره، اجتمع الأمراء المماليك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة، بالدهليز السلطانى ؛ واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مملكة مصر، وأن تكون العلامات

(١ و ٢) هـذه العبارة واردة فى س كالآتى : " فكان ما ياتى ذكره من الوقعة بين المصريين والسامين وعدم فيها عدة من الاعيان بين المعز ابـك والناصر يوسف" ، وهى مكتوبة على هامش الصفحة ، ما عدا ما بين الأقواس فانه أضيف من أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. V. ؛ وابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧٤ أ) .

(٣ و ٤) اعترى بعض حروف الكلمات الواردة بين الرقمين هنا ما محاها تقريبـا ، على أنهـا واردة فى ب (١١٣ أ) .

السلطانية على التواقيع[(١)] تبرز من قبلها، وأن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية[(٢)]. وحلفوا على ذلك فى عاشر صفر، وخرج عز الدين الرومى من المعسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق، فأعجبها . وصارت الأمور كلها معدوقة[(٣)] بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها "والدة خليل" . وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، ونقش اسمها على السكة ، ومثاله "المستعصمية[(٤)] الصالحية ، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين" . وكان الخطباء يقولون فى الدعاء : "اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل" ؛ وبعضهم يقول، بعد الدعاء للخليفة : "واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح" .

و[لما حلف الأمراء والأجناد واستقرت القاعدة][(٥)] ، نُدب الأمير [حسام الدين محمد ابن] أبى[(٦)] على للكلام مع الملك ريد افرنس فى تسليم دمياط، فجرى بينه وبين الملك مفاوضات

---

(١) التواقيع جمع توقيع، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع . (راجع ص ٣٤٤، حاشية ١، والقلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٤٤) . انظر أيضا (G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. p. LVIII)، حيث ترجم لفظ تواقيع إلى "actes de nomination" .

(٢) كان منصب مقدّم العساكر قد عرض، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٢ ب)، أوّلا على حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى، ثم على الطواشى شهاب الدين رشيد، فامتنعا .

(٣) كذا فى س، وهو اسم مفعول من فعل عدق، ومعناه جمع . (لسان العرب) .

(٤) تدل هذه النسبة على أن شجر الدر كانت جارية للخليفة المستعصم، قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب . (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 525) . غير أن صمت جميع المراجع العربية المتداولة فى هذه الحواشى عن هذه المسألة، يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة فى سكتها وخطبتها، ترضية للخليفة فى بغداد، ولأولى الأمر فى القاهرة . ويقوى هذا الفرض أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد أوصى بتسليم مملكته الى الخليفة المستعصم "ليرى فيها رأيه"، (انظر ص ٣٤٢، سطر ١٣)، فلا أقل من انتماء شجر الدر — وهى المرأة القادرة، الى الخليفة المستعصم على هذا النحو .

(٥) أضيف ما بين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٢ ب — ٣٧٣ أ) .

(٦) فى س "أبو" .

ومحاورات[1] ومراجعات، آلت إلى أن وقع (٩٥ ا) الاتفاق[2] على تسليمها من الفرنج، وأن يُخَـلَّى عنه ليذهب إلى بلاده، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من المـال المقرر . فبعث [الملك ريد افرنس] الى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها، فأبوا وعاودهم مرارا، الى [أن] دخل العلم الإسلامى إليهـا، فى يوم الجمعة لثلاث مضين [من] صفر، ورفع على السور وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق . فكانت مدة اسـتيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرا وتسـعة أيام .

وأفرج عن الملك ريد افرنس ، بعد ما فدى نفســه بأربعمائة ألف دينـار ، وأفرج عن أخيه وزوجته[3] ومن بقى من أصحابه، وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة ، ممن أسر فى هذه الواقعة، ومن أيام العادل والكامل والصالح . وكانت عدتهم اثنى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشرة أسارى . وساروا الى البر الغـربى ، ثم ركبوا البحر فى يوم السبت تاليه ، وأقلعوا الى جهة عكا . فقال الصاحب جمال الدين بن مطروح فى ذلك :

قـــل للفرنسيس إذا جئته * مقال نصح من قؤول فصيح
آجـــرك الله على ما جرى * من قتل عُبَّاد[4] يسوع المسيح

---

(١) أورد ابن واصل (نفس المرجع، ص ١٢٧٣) قصة إحدى تلك المحاورات ، وليس لها علاقة جوهرية بموضوع تسليم دمياط أو الفدية المطلوبة ، ونصها : "حكى لى الأمير حسام الدين ، قال : كان ريد افرنس ملك الإفرنج عاقلا فطنا الى الغاية . قال قلت له فى بعض محاورتى ما معناه : كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيــه من فضله وعقــله وصحة ذهنــه ، أن يقدم على خشب ويركب متن هذا البحر ، ويأتى الى هذه البلاد المملوءة خلقا من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ؛ و [قلت له إن] فيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته . قال فضحك ولم يرد جوابا . فقلت له إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى ، مغرى بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد . فقـال الملك : ولم ذلك ؟ قال فقلت إنا نستدل بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغى قبول شهادته . قال فضحك وقال ، والله لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به" .

(٢) يوجد بين الصفحتين ٩٤ ب ، ٩٥ أ فى س ، ورقة منفصلة بها عدة وفيات ، وضعت هناك خطأ ، وقد أوردت فى مكانها المناسب تحت سنة ٦٥٣ هـ .

(٣) المعروف أن ملكة فرنسا (Margaret of Provence) رافقت زوجها فى تلك الحملة ، وبقيت بدمياط طول مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية ، وهى التى جمعت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية المقررة (Lane-Poole: A Hist. of Egypt. p. 250) ولكن ليس من المعروف فى غير كتاب السلوك أنها أسرت ألبتة .

(٤) يوجد فوق هذا اللفظ فى س كلمة " نصارى " .

أتيتَ مصرًا تبتغى ملكها * تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدْهَم * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يُرى منهمُ * إلا قتيل أو أسير جريح[1]
ألهمك الله إلى مثلها * لعل عيسى منكمُ يستريح
إن يكن البابُ[2] بذا راضيا * فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه * أنصح من شِقٍّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة * لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح

واتفق أن الفرنسيس هذا، بعد خلاصه من أيدى المسلمين، عزم على الحركة[3] الى تونس من بلاد إفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان. وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث الى البابه[4] خليفة المسيح بزعمهم. فكتب [البابه] الى ملوك النصارى بالمسير معه، وأطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء. فأتاه من الملوك ملك الإنكتار[5]، وملك

(١) فى س "اسيرا وجريح". انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١٢٩، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٢) أى البابا.

(٣) وقعت حركة الملك (Louis IX) على تونس فى آخر سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م)، وسيأتى ذكرها هنا فيما يلى.

(٤) كذا فى س، والمقصود البابا واسمه (Clement IV). انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 189).

(٥) أطلق مؤرخو المسلمين هذا الاسم على ملك إنجلترة فى العصور الوسطى، و يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٧٥) وصف لإنجلترة وملوكها فى تلك الأزمنة، ونصه : "جزيرة انكلطرة ... و يقال انكلترة ...، وطول هذه الجزيرة من الجنوب الى الشمال بانحراف قليل أربعمائة وثلاثون ميلا، واتساعها فى الوسط نحومائتى ميل، وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وليس فيها كروم لشدة البرد بها ؛ وأهلها يحملون الذهب إلى بلاد الفرنج، و يتعاضون عنه بالخمر لعدمه عندهم. وقاعدتها مدينة لندرس .. وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار ... ". هذا و يلاحظ أن "الانكتار" المذكور هنا لم يكن ملكا على إنجلترة فى وقت الحملة المشار اليها، بل كان ولى العهد فقط واسمه (Edward). أما ملك انجلترة إذ ذاك فكان اسمه (Henry III)، وهو أبو ولى العهد المذكور.

اسكوسنا(١)، وملك تُورَل(٢)، وملك برشلونة واسمه ريداركون(٣)، وجماعة أخر ملوك النصارى . فاستعد له السلطان أبوعبد الله محمد المستنصر بالله ابن الأمير أبي زكريا يحيي ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ملك تونس؛ وبعث إليه رسله فى طلب الصلح، ومعهم ثمانون(٤) ألف دينار . فأخذها [الفرنسيس] ولم يصالحهم ، وسار الى تونس آخر ذى القعدة سنة ثمان وستين وستمائة ، ونزل بساحل قُرْطَاجَنّة(٥) فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . وأقام [الفرنسيس هناك] ستة أشهر، فقاتله المسلمون — للنصف من محرم سنة تسع وستين — قتالا شديدا(٦) ، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة ميتا ، فجرت أمور آلت الى عقد الصلح ومسير النصارى . ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات(٧)، قال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر * فتأهّب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا(٨) * وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فالا عليه ومات......(٩)؛ وكان ريدا فرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكِّرًا .

(١ و ٢) كذا فى س ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يساعد على تعيين المقصود بهذين الاسمين ، ما عدا أنه يوجد فى (Bouquet: Rec. Des Hist. Des Gaules, Tome 20, p. 447) ، ضمن عبارة طويلة ، أن ملك فرنسا أبحر إلى تونس برفقة الملوك الآتية أسماؤهم ، وهذا هو نص العبارة المذكورة ، وهى مكتوبة بالفرنسية القديمة :
"Quant li roys Loys attendoit ainsi en sa nef au port de Chatiau Castre, le vendredi après ensivant vindrent aussi come ensemble toutes les autres nez qui estoient menes dou port de Marseille et dou port d'Aiguemorte. Lors vindrent li roys de Navarre et li cuens de Poitiers, li conte de Flandres, messire Jehanne de Bretaigne, et pluseurs autres desquelz trop long chose seroit lors de nombrer."
انظر أيضا (Ibid. Op. Cit. pp. 21, 305 et seq., 440) .

(٣) اسم هذا الملك (James VIII. of Aragon) ، انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 415) .

(٤) فى س " ثمانين " .

(٥) بغير ضبط فى س ، وقرطاجنة الحالية إحدى بلاد تونس بإفريقية ، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٧ — ٥٨) .

(٦) فى س "محاربه سديده" .

(٧) فى س "الزيات" ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ وص ٢٢٣) .

(٨) فى س "قبر" .

(٩) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، قدر سطر تقريبا .

ولما استولى المسلمون على دمياط ، سارت البشائر الى القاهرة ومصر وسائر الأعمال ، فضربت البشائر وأعلن الناس بالسرور والفرح، (٩٥ ب) وعادت العساكر الى القاهرة فى يوم الخميس تاسع صفر . فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره خلعت شجر الدر على الأمراء وأرباب الدولة، وأنفقت فيهم الأموال وفى سائر العسكر .

ووصل خبر قتل الملك المعظم و إقامة شجر الدر [فى السلطنة](١) الى دمشق، بمسير الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعردى، لاستحلاف الأمراء [بها] . [وكان] فيها الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة ، والأمراء القيمرية ؛ فلم يجيبوه وأخذوا فى مغالطته . واستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب على مال مدينة غزة، وصار إلى قلعة الصُّبَيْبَة فملكها . فلما ورد الخبر بذلك إلى قلعة الجبل، [فى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت(٢) من صفر]، أُحيط بداره من القاهرة، وأخذ ما كان له بها(٣) . وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى — نائب الكرك والشوبك ، وركب إلى الشوبك، وأخرج الملكَ المغيث عمر بن العادل(٤) [بن الكامل] الصغير من الحبس، وملّكه الكرك والشوبك وأعمالها، وحلّف له الناس، وقام يدبر أمره لصغر سنه .

وكتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — صاحب حلب، يخبرونه(٥)

(١) فى س "ووصل خبر قتل الملك المعظم الى دمشق واقامة شجر الدر" .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٤ أ) .

(٣) كانت قلعة الصبيبة، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) بيد الملك السعيد هذا منذ مات أخوه الملك الظاهر بن العزيز عثمان . ثم أعطاها الملك السعيد لابن عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعوضه السلطان عنها خبزا بالديار المصرية . فلما قتل السلطان الملك المعظم توارانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، هرب الملك السعيد الى غزة، وفعل ما فعل على الصورة الواردة فى المتن .

(٤) كان السلطان الملك المعظم توران شاه قد أخرج المغيث هذا من محبسه بقلعة الجبل، ثم أبعده الى الشوبك خوفا منه . (انظر ص ٣٥٨، سطر ٧، وابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧٤ ب) .

(٥) فى س "يخبروه" .

بامتناعهم من الحلف لشجر الدر، ويحثونه(١) على المســير إليهم حتى يملك دمشق . فخرج من حلب فى عساكره مستهل شهر ربيع الآخر، ووصل إلى دمشق يوم السبت ثامنه، ونازلها إلى أن كان يوم الاثنين عاشره زحف [عليها] . ففتح الأمراء القيمرية له أبواب البلد، وكان القائم بذلك من القيمرية(٢) الأمير ناصر الدين أبو المعـالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرى الكردى . فدخلها [الناصر صلاح الدين] هو وأصحابه بغير قتال، وخلع على الأمراء القيمرية، وعلى الأمير جمال الدين بن يغمور، وقبض على عدّة من الأمراء المـماليك الصالحية وسجنهم . وملك [الناصر صلاح الدين] قلعـة دمشق، وكان بها مجاهـد الدين إبراهيم أخو زين الدين أمير جندار، فسلمها إلى الناصر، وبها من المـال مائة ألف دينار وأربعمائة ألف درهم سوى الأثاث . ففرق الناصر جميع ذلك على الملوك والأمراء، وأعطى شمس الدين لؤلؤ من خزائنه عشرة آلاف دينار، وخلعة وفرسا وثلثمائة ثوب؛ فرد [شمس الدين] ذلك، إلا الخلعة والفـــرس .

وكان الخبر قد ورد الى قلعـة الجبل — فى سادس ربيع الآخر — بخروج الناصر من حلب، فجـدّد الأمراء والمماليك وغيرهم الأيمـان لشجر الدر، ولعز الدين أيبك بالتقدمة على العساكر . ودارت النقباء على الأجناد، وأمروهم بالسـفر الى الشام . وفى يوم الأربعـاء ثانى عشره رُسم أن يسـير الأمير أبو على بالعسكر . وفى رابع عشره ورد الخـبر بمنازلة الناصر لدمشق، فوقع الحث على خروج العسـكر . وفى حادى عشريه ورد الخـبر بأن الناصر ملَك دمشق، بتسليم القيمرية البلد له . فقُبض على عدّة من أمراء مصر [الذين ليسوا من الترك](٣)، ووقع اضطراب كثير فى القاهرة؛ وقبض على القاضى نجم الدين ابن قاضى نابلس، وعدة (٩٦ ا) ممن يتهم بالميل الى الناصر. وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر، فى تاسع عشرى

(١) فى س "يحثوه" .

(٢) بعض حروف هذه العبارة محجوب بورقة ملصوقة فوقها فى س، ولكنها واضحة تماما فى ب (١١٤ ب) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٥ ا) .

شهر ربيع الآخر، وخلعت [شجر الدر] نفسها من مملكة مصر، ونزلت له عن الملك، فكانت مدة دولتها ثمانين يوما(١) .

الملك المعز عز الدين أيبك(٢) الجاشنكير التركمانى الصالحى

كان تركى الأصل والجنس ، فانتقل الى ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركمانى(٣) ، فعرف بين البحرية بأيبك التركمانى ؛ وترقى عنده فى الخدم ، حتى صار أحد الأمراء الصالحية ، وعمله جاشنكيرا(٤) ، الى أن مات الملك الصالح، وقتل بعده ابنه الملك المعظم . فصار [أيبك] أتابك العساكر ، مع شجر الدر ؛ ووصل الخبر بذلك الى بغداد ، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتابا الى مصر ، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم : " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا " .

(١) ينتهى هنا القسم الذى ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك الى الفرنسية ، ويليه القسم الذى ترجمه الى الفرنسية أيضا (Quatremère) . انظر تصدير القسم الأول من الجزء الأول ، صفحة ى — ك .

(٢) هذا الاسم مركب من لفظين تركيين ، وهما آى بك . ومعنى أولها القمر ، ومرادف ثانيهما فى العربية لفظ الأمير . (Quatremère : Hist. des Sultans Mamlouks I. 1. p. 1. n. 2) . ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك ، وأسماء كل أمراء دولتهم تقريبا ، عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والفارسية والتترية ، مثل ذلك بيبرس ومعناه الأمير فهد ، وقلاون ومعناه البطة ، وطوغان ومعناه الصقر ، وبكتمر ومعناه الأمير حديد . ومن أسمائهم أيضا ما يدل على صفات فى إحدى اللغات المتقدمة ، ومنها سلار ومعناه الهاجم ، وازبك ومعناه النبيل . راجع (Lane-Poole : Saracenic Art. p. 4. Note) .

(٣) أولاد التركمانى هم بنو رسول الذين استقلوا باليمن (Quatremère : Op. cit. I. 1. P. 1. N. 3) ، انظر أيضا (ص ١٨١ ، ٢١٣ ، ٢٣٧) . وأصل نسبتهم الى التركمان، مع أنهم عرب غسانية ، حسبما جاء فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١ ، ص ٢٧ — ٢٨) ، أتوا من بلاد التركمان الى بغداد، فى خلافة المستنجد (٥٥٥ — ٥٦٦ هـ ، ١١٦٠ — ١١٧٠ م) ، فنسبهم من يعرفهم الى غسان ، ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان ، "وكانوا بيت شجاعة ورئاسة ، وكان محمد بن هارون جليل القدر فيهم ، فأدناه الخليفة العباسى واختصه برسالة الى الشام والى مصر ... ، فانطلق عليه اسم رسول وشهر به ... . ثم (ص ٢٨) انتقل [محمد بن هارون] من العراق الى الشام، ومن الشام الى مصر، فيمن معه من أولاده ... فلما استوثق الملك لبنى أيوب فى مصر، لم يزل معهم عصبة من بنى رسول ... فأجمع رأيهم على تسييرهم الى اليمن صحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب، فخرجوا صحبته ... ... " ، ومن هنا بدأت علاقة بنى رسول باليمن .

(٤) فى س "جاشنكير" .

واتفق ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق، فاجتمع الأمراء والبحرية للشُّور[(1)]، واتفقوا على إقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر فى السلطنة، ولقبوه بالملك المعز؛ وكان مشهورا بينهم بدين وكرم وجودة رأى . فأركبوه فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر، وحمل الأمراء بين يديه الغاشـية نوبا واحدا بعد آخر الى قلعـة الجبل، وجلسوا معـه على السماط؛ ونودى بالزينة فزينت القاهرة ومصر .

فورد الخبر فى يوم الأحد تاليه بتسلم الملك المغيث عمر الكرك والشوبك ، وبتسلم الملك السعيد قلعة الصبيبة . فلما كان بعد ذلك تجمع الأمراء، وقالوا : "لابد من إقامة شخص من بيت المُلْك مع المعز أيبك، ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله[(2)] " . فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك [المسـعود[(3)] — ويقال له] الناصر [صـلاح الدين] — يوسف بن الملك المسعود يوسف — [المعروف باسم] اقسيس[(4)] — بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب[(5)] ، وله من العمر نحو ست سـنين ، شريكا للملك المعز أيبـك ، وأن يقوم الملك المعز بتدبير الدولة . فأقاموه سلطانا فى ثالث جمادى الأولى ، وجلس على السماط وحضر الأمراء فى خدمتـه يوم الخميس خامس جمادى الأولى . فكانت المراسيم والمناشـير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك . وكان بغزة جمـاعة من العسكر، عليهم

(١) كذا فى س، وهى بغير ضبط . والمشور صيغة عامية للفظ " المشورة " . (محيط المحيط) .

(٢) تدل عبـارة ابن واصل فى هـــذا الصدد (نفس المرجع، ص ٣٧٦ أ) على أن سبب اجتماع الأمراء على إقامة واحد من بنى أيوب ليشارك فى السلطنة، هو أنفتهم وخوفهم من المعز أيبك التركمانى . ونصها : " أنفوا من أن يكون عز الدين التركمانى سـلطانا، فاختاروا أن يقيموا صبيا من بنى أيوب، يكون له اسم الملك، ويكون هم الذين يدبرون الملك، ويأكلون الدنيا باسمه ... ." (انظر أيضا ص ٣٧٨ ، سطر ٦) .

(٣) عبارة س كالآتى : " فاجمعوا على اقامه الملك الاشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك المسعود يوسف بن الملك المسعود قسيس بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب" ، وقد صححت الى الترتيب الوارد هنا ، وأضيف ما بين الأقواس ، بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٣٠ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، وابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧٦ أ) .

(٤ و ٥) العبارة الواردة بين الرقمين ليست مترجمـة فى (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 8) . هـذا وأقسيس — أو اطسز، أو طسز — اسم عرف به الملك المسـعود يوسف المذكور، وهو الذى كان آخر ملوك بنى أيوب باليمن . واجع ص ٢٣٧ ، سطر ١ — ٦ ؛ وكذلك القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٣٠) .

الأمير ركن الدين خاص ترك ، فرجعوا الى الصالحية (٩٦ ب) واتفقوا مع عدّة من الأمراء على إقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير، صاحب الكرك ؛ وخطبوا له بالصالحية ، يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة . فلما ورد الخبر بذلك نودى فى القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى، وأن الملك المعز عز الدين أيبك نائبه بها، وذلك فى يوم الأحد سادسه . ووقع الحث فى يوم الاثنين على خروج العساكر ، وجُدِّدت الأيمان للملك الأشرف موسى والملك المعز أيبك ، وأن يبرز اسمهما على التواقيع والمراسيم، وينقش اسمهما على السكة ، ويخطب لهما على المنابر. وأقيم شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى المنعوت بالأسعد فى الوزارة[(١)] .

وتسحب من الصالحية الطواشيان شهاب الدين رشيد الكبير، وشهاب الدين الصغير، وركن الدين خاص ترك، وأَقِش[(٢)] المُشْرِف[(٣)] . فقبض على الطواشى شهاب الدين رشيد الصغير، وأحضر الى القاهرة فاعتقل بها ، ونجا الباقون . وسارت الخلع لمن بقى بالصالحية ، وعفى عنهم وأُمِّنوا، وأرسل إليهم بنفقة .

وفى يوم الخميس عاشره ركب الملكان الأشرف والمعز بالصناجق السلطانية ، وشقّا القاهرة، والمعز يحجب[(٤)] الأشرف، والأمراء تتناوب فى حمل الغاشية واحدا بعد واحد .

وقدمت عساكر الملك الناصر إلى غزة ، فخرج الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار — وكانت إليه تقدمة المماليك البحرية — من القاهرة، فى يوم الخميس خامس شهر رجب، بألفى فارس . وسار إلى غزة، وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم .

---

(١) كان شرف الدين أبو سعيد هذا قبطيا ، وهو أوّل قبطى ولى الوزارة بمصر الإسلامية ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. l. P. 10) .

(٣) تقدّم وصف وظيفة المشرف فى ص ١٢٧ ، حاشية ١ ، ويوجد فى Quatremère : Op. cit. I. l. P. 10, N. 9.) أمثلة تدل على ماهية تلك الوظيفة بالضبط ، ومنها : "مشرف الممالك مرتبته دون الوزارة" .

(٤) المقصود هنا أن المعز أيبك كان يؤدّى وظيفة الحاجب فى ذلك الموكب ، أى أنه كان راكبا أمامه بعصا فى يده. انظر (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٥١) . ويؤيد ذلك ما ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٦ ب

وفى يوم الخميس لخمس بقين من رجب، اتفق أهـل الدولة على نقـل [تابوت] الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من قلعـة جزيرة الروضة، إلى تربتـه التى بنيت له بجوار مدارسه الصالحية من بين القصرين . فخرج الناس يوم الجمعة إلى قلعة الروضة، وحملوا السلطان منها، وصلوا عليه بعـد صلاة الجمعة . وجميع العسكر قد لبسوا البياض، وقطّع المماليك شعورهم، وأقيم عزاؤه ودفن ليـلا . ونزل الملكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحية فى يوم السبت، ومعهما سائر المماليك البحرية والجمـدارية، والأمراء والقضاة والأعيان . وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر، وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين، واستمرّ الحضور للعزاء إلى يوم الاثنين . وجعل عند القـبر سناجق السلطان (٩٧ أ) وبُقَجُه[١] وقوسه وتَرْكاشُـه[٢]، وترتبت القراء يقرءون عند قبره .

وفى هذه السـنة عزل بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى عن قضاء القاهرة، وولى بعـده عماد الدين أبو القاسم ابن المقنشع بن القطب الحموى . فلما مات أفضـل الدين الخونجى، ولى [ابن القطب الحموى] بعده قضاء مصر . ثم ولى صـدر الدين موهوب الجزرى قضاء مصر، عنـد انتقال ابن القطب الى قضاء القـاهرة . وفى آخر شهر رجب أعيد البـدر السنجارى الى قضاء القـاهرة، وابن القطب الى قضاء مصر . ثم جُمع

= ٣٧٧ أ)، فى وصف ذلك الموكب . ونصـه : "ولما كان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى، ركب السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بالسناجق السلطانية، (٣٧٧ أ) والملك المعز عزالدين أيبك التركمانى راكب قدامه... ..."على أنه من المعروف أيضا، حسبما جاء فى (Quatremére : Op. cit. I. 1. p. 10. N. 10)، أن المعز أيبك كان قد قرر احتجاب الأشرف موسى عن الناس، واستدل على ذلك بعبارات من مراجع كثيرة، ومنها : "وزاد [المعز] على ذلك بأن حجبه ومنعه من الظهور الى الناس إلا معه" .

(١) البقجة الصرة من القماش، توضع بها الثياب أو النقـود أو الأوراق الخاصـة، وهى فارسية الأصـل، وتجمع على بقج . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. l. p. 12. N. 13) هذا اللفظ الى (coffre)، أى صندوق أو خزانة، على أنه لا يوجد بين الأمثـلة الواردة هناك للتدليل على ذلك المعنى مايشير الى أن البقجة كانت تصنع من مادة غير القماش .

(٢) التركاش لفظ فارسى الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب . (Quatremère : Op. cit. I l. p. 13. N. 14 و ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قضاء مصر والقاهرة للسنجارى ، وصرف ابن القطب عن مصر . وعاد الفارس أقطاى من غزة الى القاهرة ، فى رابع شعبان . وفى خامسه قبض على الأمير زين الدين أمير جاندار الصالحى ، وعلى القاضى صدر الدين قاضى آمد — وكان من كبراء الدولة الصلاحية ، واعتقلا .

ولاثنتى عشرة بقيت من شعبان وقع الهدم فى مدينة دمياط ، باتفاق أهل الدولة على ذلك ؛ وخرج الحجارون والصناع والفعلة من القاهرة ، فأزيلت أسوارها ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع . وسكن طائفة من ضعفاء الناس فى أخصاص على شاطئ النيل من قبليها ، وسموها المنشية وهى موضع دمياط الآن . ولِستٍّ بقين منه قُبض على الأمير جمال الدين النجيبى واعتقل ، وبعده بيوم قبض على أقش العجمى .

وأخذ الملك الناصر صاحب الشام فى الحركة لأخذ مصر ، بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينى له على ذلك . وخرج [الناصر] من دمشق بعساكره ، يوم الأحد النصف من شهر رمضان : ومعه الملك الصالح [عماد الدين](1) إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب ، والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شيركوه ، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين الكبير وأخوه نصرة الدين ، والملك الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الأمجد حسن(2) ، والملك الأمجد [تقى الدين] عباس بن العادل ، وعدة ملوك .

فلما ورد الخبر بذلك اضطربت الدولة ، ورُسم بجمع العربان من الصعيد ، وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر فى ثانى شوال ، عند ما ورد الخبر بوصوله

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ أ) .

(٢) كان أولاد الناصر داود وأخوته قد انتقلوا الى القاهرة ، فى أواخر أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (انظر ص ٣٣٨ ، سطر ٢ ، وما يليه) ، وقد بقوا بها حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ أ) ، الى أيام المعز أيبك والأشرف موسى . فلما استولى الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب على دمشق ، أمر الملك المعز إخوة الملك الناصر داود وأولاده وأهله بالخروج من الديار المصرية ، فرحلوا وانضم منهم إلى الناصر صاحب حلب الملك الظاهر شادى وأخوه الملك الأمجد حسن ، كما هو وارد فى المتن .

الى غزة . وفى غَده كثر الإرجاف ووقع التهيؤ للحــرب ، وأحضرت الخيول من الربيــع[1] . وفى يوم الاثنين ثامنه برز الأمير حسام الدين أبو على من القاهرة ، وكان الوقت شتاء . وفى تاسعه (٩٧ ب) برز الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار — مقدم البحرية — فى جمهور العسكر من الترك . وسارت العساكر فى حادى عشره، واجتمعت بالصالحية .

وفى يوم السبت ثالث عشره استناب الملك المعز أيبك بديار مصر الأمير علاء الدين البندقدار، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل ، لترتيب الأمور وكشف المظالم . ونودى يوم السبت العشرين منه بإبطال الخمور، والجهة المفردة[2] .

وفيــه كثر الإرجاف بوصول الناصر إلى الدَّارُوم . وفى تاسع عشريه خلع الملك المعز على الملك المنصور محمود، و[على] أخيــه الملك السعيد عبد الملك ، ولدى الملك الصالح إسماعيل [عماد الدين] — وكانا فى حبس الملك الصالح نجم الدين [أيوب] — وأركبهما فى القاهرة، ليوهم الناس أن الملك الصالح أباهما مباطن له على الملك الناصر، حتى يقع بينهما .

وفى يوم الثــلاثاء أوّل ذى القعــدة نودى بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحــرية ، وبين الملك المغيث عمر بن العــادل صاحب الكرك . ولم يكن لمــا نودى به حقيقة، وإنما قصد بذلك أن يقف الملك الناصر عن الحركة .

وفى يوم الخميس ثالثه نزل الملك المعز من قلعــة الجبل فيمن بقى عنــده من العساكر، وسار إلى الصالحية وبها العساكر التى خرجت قبله ؛ وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى. فاستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى يوم الاثنين سابعه ، فوصل الملك الناصر بعساكره إلى

(١) الربيــع هنا مكان الرعى ، وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 16, N. 16) أمثلة عدة للدلالة على هذا المعنى، ومنها : "توجه الى الربيع وأقام به أياما" .

(٢) الجهة هنا الضريبة ، وفى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 17, N. 17) أمثلة كثيرة لتقرير هــذا المعنى، ومنها : " نظر الجهات موضوعه التحدث فيما يتحصــل من التجار برا وبحرا " . وعلى ذلك فالجهة المفردة هى الضريبة المقررة لديوان المفرد، وهو الديوان الذى يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣، ص ٤٥٧) .

كُراع[١] — وهى قريبة من العباسة ، فتقارب ما بين العسكرين . و[كان] فى ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية ، لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه . فاتفق أنه كان مع الناصر جمع كبير من مماليك أبيه الملك العزيز ، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية ، ولكراهتهم فى الأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة .

فعند ما نزل الناصر بمنزلة الكراع ، قريبا من الخشبى[٢] بالرمل ، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية ، ونزل تجاهه بسَمُّوط[٣] إلى يوم الخميس عاشره . فركب الملك الناصر فى العساكر ، ورتب ميمنة وميسرة وقلبا . وركب الملك المعز ، ورتب أيضا عساكره . وكانت الوقعة فى الساعة الرابعة ، فاتفق فيها أمر عجيب قلَّ ما اتفق مثله ، فإن الكسرة كانت أولا على عساكر مصر ، ثم صارت على الشاميين : (٩٨ ا) وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هى والميسرة على من بإزائها حملة شديدة ، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين ، وزحف أبطال الشاميين وراءهم ، وما لهم علم بما جرى خلفهم . وانكسرت ميمنة أهل الشام ، وثبت كل من القلبين واقتتلوا . ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد ، وقد نهبت أثقالهم . وعند ما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر ، وخطب له بقلعة الجبل ومصر ، وبات الأمير جمال الدين بن يغمور بالعباسة ، وأحمى الحمام للملك الناصر وجهز له الإقامة . هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر ، وإنما هو واقف بسناجقه وخزائنه وأصحابه . وأما ميمنة أهل الشام ، فإنها لما كُسرت قَتل منهم عسكر مصر خلقا كثيرا فى الرمل ، وأسروا أكثرما قتلوا .

(١) بغير ضبط فى س ، وقد حدّد المقريزى موضعها فيما يلى ، كما ذكر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 19. N. 18) أنها واقعة بين العباسة والسدير . هذا والكراع فى اللغة طرف الشىء ، وكراع الأرض طرفها البعيد . (محيط المحيط) .

(٢) يوجد بهامش الصفحة فى س ، قبالة اسم هذا البلد العبارة الآتية ، وهى بخط يشبه خط المتن تماما ، ونصها : " الخشبى يعرف اليوم بالسعيدية ، فيما بين بلبيس وبين الصالحية " . ويقع هذا البلد على مسافة ثلاث مراحل من الفسطاط ، وكان به خان ، وهو أول الجفار من ناحية مصر ، وآخرها من ناحية الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٤٥) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى موضع بين الخشبى والعباسة . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٢٠١ ، فى (Rec. Hist. Or. V.) .

وتعين الظفر للناصر وهو ثابت فى القلب، وتجاهه المعز أيبك أيضا فى القلب . فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم إلى الملك المعز : وهم الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، والأمير جمال الدين أقوش الحسامى ، والأمير بدر الدين بكتوت الظاهرى، والأمير سليمان العزيزى، وجماعة [غيرهم] . فخارت قوى الناصر من ذهاب المذكورين إلى الملك المعز ، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر، ظنا منه أن الناصر تحتها . وكان الناصر — لما فارقه الأمراء إلى عند المعز — [قد] خرج من تحت السناجق فى شرذمة قليلة، فخاب ما أمّله المعز أيبك ، وعاد إلى مركزه خائبا . وقد قوى الشاميون بذلك، وتبعوه يقتلون منه وينهبون .

وسُرّ الأمراء القيمرية بذلك، وقصدوا الحملة على المعز ليأخذوه ، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا فى طلب الكسب والنهب . فحمل المعز عليهم وثبتوا له، ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك . ووقف الناصر فى جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن ، فخرج عليهم المعز — ومعه الفارس أقطاى — فى نحو ثلثمائة من البحرية، وقرب منه . فخامر عدّة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية ، فولى الناصر فارا يريد الشام فى خاصته وغلمانه . واستولى البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه ونهبو (٩٨ ب) أمواله .

وساق المعز يريد الأطلاب، فوقع بطلب الأمير شمس الدين لؤلؤ ، والأمير حسام الدين القيمرى، والأمير ضياء الدين القيمرى، وتاج الملوك ابن المعظم، والأمير شمس الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى ، وجماعة [غيرهم] . فبدّد [الملك المعز] شملهم، وأَسَر المعظمَ تورانشاه بن صلاح الدين، وأخاه نصرة الدين محمد، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر، والأمير شهاب الدين القيمرى، والأمير حسام الدين طرنطاى العزيزى، والأمير ضياء الدين القيمرى ، والأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة الحلبية، وأعيان الحلبيين وخلقا كثيرا . وقُتِل الأمير شمس الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى، وجماعة [غيرهما] .

وكان الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى على ميسرة عسكر المصريين، فلما وقعت الكسرة على الميسرة تفرق عنه أصحابه، وتقنطر[1] عن فرسه وكاد يؤخذ، لولا [أنه] وقف معه من أركبه، فلحق بالمعز أيبك . فأمر الملك المعز بضرب عنق الأمير شمس الدين لؤلؤ، فأخذته السيوف حتّى قطع، وضُربت عنق الأمير ضياء الدين القيمرى . وأُتى بالملك الصالح إسماعيل وهو راكب، فسلم عليه الملك المعز وأوقفه إلى جانبه، وقال للأمير حسام الدين أبى على : "ما تُسَلِّم على المولى الملك الصالح"، فدنا منه [الأمير حسام الدين] وعانقه وسلم عليه . وجُرح الملك المعظم، وابنه تاج الملوك؛ وضُرب الشريف المرتضى فى وجهه ضربة عظيمة، وهموا بقتله ثم تركوه .

وتمزق أهل الشام كل ممزق، ومشوا فى الرمل أياما . وسار الملك الناصر ومعه نوفل الزبيدى وعلى السعدى إلى دمشق . وأما العسكر الشامى الذى كَسَر ميسرة المصريين، فإنه وصل إلى العباسة ونزل بها، وضرب الدهليز الناصرى هناك، وفيهم الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق وعدة من أمراء الناصر، وهم لايشكُّون أن أمر المصريين قد بطل وزال، وأن الملك الناصر مُقْدِم عليهم ليسيروا فى خدمته إلى القاهرة . فبيناهم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب الملك الناصر، وقتْل الأمراء وأسر الملوك وغيرهم . فهمّ طائفة منهم أن يسيروا إلى القاهرة ويستولوا عليها، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام؛ ثم اتفقوا على الرجوع .

وأما من انهزم من (١٩٩ ا) عسكر مصر أولا، فإنهم وصلوا إلى القاهرة فى يوم الجمعة حادى عشره، غد يوم الوقعة . فما شك الناس فى أن الأمر تم للملك الناصر، وأن أمر البحرية قد زال . وكان بقلعة الجبل الأمير ناصر الدين إسماعيل ...[2] بن يغمور، أستادار الملك الصالح [عماد الدين] إسماعيل، فى جب هو وأمين الدولة أبو الحسن بن غزال — المتطبب المعروف بالسامرى وزير الصالح المذكور، والأمير سيف الدين القيمرى، وجماعة [غيرهم أيضا]، لم

(١) فى س "تقطر" . (٢) بياض فى س، يسع لفظا واحدا .

من أيام الملك الصـالح نجم الدين أيوب فى الاعتقال . فلما بلغهم ذلك خرجوا من الجب ، وأظهروا الفرح والاستبشار، وأرادوا أخذ القلعة . فلم يوافق الأمير سيف الدين القيمرى على ذلك ، وتركهم وقعد على باب دار الملك المعـز أيبك التى فيها عياله ، وحمـاها وصدّ الناس عنها . وصاح البقية : "الملك الناصر يا منصور!" .

وخُطب للناصر بالقلعة ومصر ، وسائر البلادالتى بلغها خبر نصرته . وكان بجامع القاهرة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين ، وصلى بجماعة الجمعـة ، وصلى قوم صـلاة الظهر . فـا هو إلا أن انقضت صلاة الجمعة ، [حتى] وردت البشارة بانتصار الملك المعز وهزيمة الناصر ، فدُقّت البشائر . وقدم جماعة ومعهم نصرة الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاعتقلوه بقلعة الجبل . وقُبض على الأمير ناصر الدين ابن يغمور ، والوزير أمين الدولة [أبى الحسن بن غزال](1)، ومن كان معهما ، وأعيـدوا الى الجب . ونودى آخر النهار فى القاهرة ومصر بالزينة .

وأما الملك المعز فإنه ساق — بعد ما تقدم ذكره من قتله الأمراء — إلى العباسة ، فلما رأى دهليز الملك الناصر توهم(2) ، وعرج عن الطريق على العلاقمة إلى بلبيس ، ظنا أن واقعـة وقعت بالقاهرة . فبلغ من كان بالدهليز الخبر فهدموه فى الليل ، وساروا الى الشـام . فبلغ ذلك الملك المعز وهو فى بلبيس ، فرحل يريد القـاهرة وقد اطمأن ؛ ودخلها يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة بالأسرى بين يديه ، وسناجقهم مقليـة وطبولهم مشققة(3) ، وخيولهم وأموالهم بين يديه ، إلى أن وصـل إلى بين القصرين . فلعبت المـالك بالرماح وتطاردوا ، والملك المعز فى الموكب ، وإلى جانبه الأمير حسـام الدين أبى على ، وقدامه الملك الصالح

(١) فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى هامش غير موجود بالصفحة ، ولعل المقريزى قصـد أن يكمل الاسم على الصورة الواردة بالصفحة السابقة ، ثم أغفل ذلك أو نسيه .

(٢) كان العسكر الشامى الذى كسر ميسرة المصريين ، وتقدم الى العباسة فنزل بهـا ، قد ضرب الدهليز الناصرى هناك استعدادا لوصول الناصر . (انظر ص ٣٧٦ ، سطر ١٠) .

(٣) فى س " مشقعة " .

إسماعيل تحت الاحتياط . فعند ما (٩٩ ب) وصـل إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل، وصاحوا : "ياخوند ! أين عينك ترى عدوك إسماعيل؟" ثم ساروا إلى قلعة الجبـل، واعتقل الصالح إسماعيل بهـا وبقية الملوك ؛ وألقى الأسرى من الشاميين فى الجباب . وعند ما دخل الملك المعز [إلى القلعة][1]، تلقاه الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر ؛ فقال الأمير فارس الدين أقطاى للأشرف : "كلما حصل بسعادتك ، وما سعينا إلا فى تقرير ملكك "، وكان يؤثر بقاء الأشرف خوفا من استبداد المعز أيبك . وكان هـذا اليوم من أعظم أيام القـاهرة ، واستمرت الزينة بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل وقلعة الروضة عدّة أيام .

وفى يوم الاثنين رابع عشره شُنق الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يغمور، أستادار الصالح إسماعيل؛ وشنق بكجا[2] ملك الخوارزمى[3] ، وأمين الدولة أبو الحسن السامرى الوزير، على باب قلعة الجبـل، ومعهم المجير بن حمـدان من أهـل دمشق . وظهر لأمين الدولة من الأموال والتحف والجوهر ما لا يوجد مثله إلا عند الخلفاء، بلغت قيمة ما ظهر له سـوى ما كان مودوعا ثلاثة آلاف ألف دينـار؛ ووجد له عشرة آلاف مجـلدة، كلها بخطوط منسوبة، وكتب نفيسة .

وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة، قُتل الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة الجبل، وعمره نحو الخمسين سنة . قال ابن واصل : من أعجب ما مَرّ بى أن الملك الجواد مودودا[4]، لمـا كان فى حبس الملك الصالح إسماعيل، سير إليه [الملك الصالح إسماعيل] من خنقه ، وفارقه ظنا أنه قد مات، فأفاق فرأته امرأة هناك،

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٤أ) .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وهو فى ب (١١٨ أ) "بكجسا" ، وقد ترجمه Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 30) الى (Bekdjesa) .

(٣) كذا فى س .

(٤) فى س "مودود" .

فأخبرتهم أنه قد أفاق ، فعادوا إليــه وخنقوه حتى مات . وفى هذه الليلة لمـا أخرجوا الملك الصالح إسماعيــل بأمر المعز أيبــك إلى ظاهر القلعة، وكان معهم ضــوء فأطفأوه، وخنقوه وفارقوه ظنا أنه قــد مات ، فأفاق فرأته امرأة هنــاك ، فأخبرتهــم أنه أفاق ، فعادوا اليــه وخنقوه حتى مات . فانظر ما أعجب هذه الواقعة! ودفن هناك [١] ؛ وكانت أمه رومية ، وكان رئيس [٢] (؟) النفس نبيل القدر، مطاعا له حرمة وافرة، وفيه شجاعة .

وفى ثامن عشريه أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر، الى دمشق على حمير، هُمْ وأتباعهم؛ ولم يمكن أحدا منهــم أن يركب فرسا ، إلا نحو الستة أنفس فقط ، وكانوا نحو الثلاثة آلاف رجل .

وفيهـا وصل الى الملك الناصر من قبل القان [٣] ملك التتر طَمْغَا [٤] صورة أمان ، فصار يحملها فى حياصته [٥] ، وسير الى القان هدايا كثيرة . فلما خرج هولاكو واستولى على الممـالك ، تغافل الناصر عنه ولم يبعث إليه شيئا ؛ فعز ذلك عليه ، وصار فى كل قليل ينكر تأخر تقدمة الناصر الهدايا والتحف اليه .

---

(١) قصــة خنق الملك الصالح إسمـاعيل مرتين، وموافقتها فى التفاصــيل لمـا حدث فى خنــق الملك الجواد ، واردة بألفاظها وترتيبها فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٤ ب) . و يلاحظ أن هذه أول مرة فى كتاب السلوك، يشير فيها المقريزى لابن واصل . (٢) فى س " ريس " .

(٣) كانــ قان — أوخاقان — التــتر فى تلك الســنة كيــوك (٦٤٤ — ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) . انظر (Lane-Poole : Muh. Dyns. P. 215) . وهو ابن أوغطاى بن جنكزخان ، واسمــه فى المراجع الإنجليزية (Kuyuk) ، وفى الفرنســية (Couyouk) . وقد أرســل ذلك الخانــ ، حســبما جاء فى (D'Ohsson : Hist. Des Mongols, III. p. 91) الى الملك الناصر صــاحب دمشــق صورة أمان ، صار الناصر يحملها فى حياصته ، كما فى المتن هنا .

(٤) الطمغا كلمة تركية ، معناها هنا البراءة (diploma) التى تصدر من قبل السلطان أو الملك ، بالعفو عن مجرم أوتأمين خائف . والطمغا أيضا شعار السلطان أوالأمير (blazon) . انظر (Steingass : Pers. - Eng. Dict.) ، وأيضا (Mayer : Saracenic Heraldry, pp.18,33,53,206) .

(٥) الحياصة هنا الحزام أو المنطقة ، (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 31, N. 31) ، وهى فى الأصل السير الذى يشد به حزام سرج الحصان . (محيط المحيط) .

وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فَعلوا فِعْلهم .

وفى سابع عشرى ذى الحجة ، سار الأمير فارس الدين أقطاى من القاهرة فى ثلاثة آلاف الى غزة ، واستولى (١٠٠ ا) عليها .

وفى هذه السنة قُدِّم البطرك أثناسيوس[1] ابن القس أبى المكارم ، فى يوم الأحد رابع شهر رجب ، الموافق لخامس بابه سنة سبع [وستين][2] وتسعمائة للشهداء . فأقام فى البطركية إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات يوم الأحد أول كيهك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة للشهداء ، الموافق لثالث المحرم سنة ستين وستمائة هجرية ؛ وخلا الكرسى بعده خمسة وثلاثين يوما . وفيها مات الإمبراطور[3] ملك الفرنج الألمانية بصقلية[4] ، وقام من بعده ابنه .

وخرجت هذه السنة والناصر يوسف بدمشق ، وبيده ملك الشام والشرق ؛ ومملكة مصر بيد الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، ويخطب معه للأشرف موسى ، والمعتمد عليه فى أمور الدولة من البحرية ثلاثة أمراء : وهم الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم غياث الدين توارنشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم . ومات الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى ليلة الأحد سابع عشرى ذى القعدة ، عن نحو خمسين سنة . ومات الأمير شمس لؤلؤ الأمينى ، مقدم عسكر حلب ، قتيلا فى يوم الخميس عاشر

(١) اسم هذا البطريق (Athanasius III) ، وهو السادس والسبعون من بطارقة الأقباط بالإسكندرية (Butcher : Op. cit. I. p. XIV ; II. pp. 163-165) .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 31) .

(٣) فى س " الانبرطوز " .

(٤) الإمبراطور المقصود هنا هو (Frederic II) ، وقد توفى بحصن (Fiorentino) ، الواقع بين بلدتى (Foggia & Lucera) ، بإقليم (Apulia) بإيطاليا قسما . (Camb. Med. Hist. VI. p. 164) .

ذى القعدة . وتوفى رشيد الدين أبو محمـد عبد الوهاب بن طاهر بن على بن فتوح[1] بن رواج[2] الإسكندرى المـالكى، عن أربع وتسعين سـنة، فى ... ...[3] . وتوفى الحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الدمشقى بحلب ، عن ثلاث وتسعين سنة .

* * *

سنة تسع وأربعين وستمائة . فيها استولى الأمير فارس الدين أقطاى على الساحل ونابلس الى [نهر] الشَّرِيعَة[4]، وعاد الى القاهرة. فسير الملك الناصر عسكرا من دمشق الى غزة ليكون بهـا ، فأقاموا على تل العجول . فخرج المعز أيبك ، ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاى وسائر البحرية ، ونزل بالصالحية . فأقام العسكر المصرى بأرض السائح قريبا من العباسة ، والعسكر الشامى قريبا من سنتين[5] ، وتردّدت بينهما الرسل . وأحدث الوزير الأسعد الفائزى ظلامات عديدة على الرعية .

وفيهـا أمر الملك المعز أيبك بإخلاء قلعة الروضـة ، فتحول من كان فيها من المـماليك والحَرَسِيَّة[6] وغيرهم . وفيها عزل قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم بن أبى إسحاق ابن المقنشع — المعروف بابن القطب الحموى، عن قضاء مصر، وأضيف [ذلك] الى قاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وسافر الأمير حسام الدين أبو على الى الحجاز — وترك طلبه بالسائح وفيه من ينوب عنه — من البحر الى قوص ، ثم ركب البحر الملح الى مكة . وفيها أشيع وصول البادرائى رسول الخليفة، ليصلح بين الناصر والمعز . فلما أبطأ قدومه، وكثرت الأقاويل، قال الأمير

(١) كذا فى ب (١١٩ أ)، وهو فى س "موح" . (٢) كذا فى س . (٣) بياض فى س .

(٤) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن، بعد زمن الحروب الصليبية، وخصوصا جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية الى مصبه فى البحر الميت، ويعرفه البدو بهـذا الاسم حتى الآن . (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 32. N. 37) ؛ و (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 52) .

(٥) كذا فى س، وقد أوردها (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 33) على أنها موضع اسمه "سنين"، وترجمها إلى (Sattin) . هـذا وفيما يلى تحت سـنة ٦٥٤ ، أن السلطان الملك المعز أقام بعساكره بأرض السائح ثلاث سنين، فلعل المقصود هنا بلفظ "سنتين" مدة زمنية، وليس موضعا لإقامة العساكر . (٦) جمع حرسى، وهـو الجندى الموكل بحراسة مكان من الأمكنة ، (un soldat destiné à garder une place) . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 33. N. 40) .

شهاب الدين غازى بن أَيَاز[1] المعروف بابن المعار — أحد المجردين صحبة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور : —

يُذَكِّرُنا زمانُ الزهد ذكرى * زمانِ اللهو فى تَلِّ العجول
ونطلب مسلما يروى حديثا * صحيحا من أحاديث الرسول

وفيها وقع بمكة غلاء عظيم . ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة ببغداد، [واسمه] كمال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم الدامغانى الحنفى . و[فيها] توفى بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله بن سلامة الجميزى الشافعى ، خطيب القاهرة — وقد انتهت اليه مشيخة العلم — عن تسعين سنة ، فى يوم ... ...[3] . و[فيها] توفى الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح — الوزير بالشام، [و] الشاعر [أيضا] — عن سبع وخمسين سنة، فى ...[4] ... . و[فيها][5] توفى رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى شيخ القرآت ... و[فيها] توفى علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر — المعروف بتعاسيف، الفقيه الحنفى ، بدمشق فى ...[6] رجب ؛ ومولده بأَصْفُون[7] من صعيد مصر سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وهو أحد الأئمة فى العلوم الرياضية .

* * *

سنة خمسين وستمائة . فيها قدم الأمير حسام الدين أبو على من الحجاز، فنزل فى المعسكر من أرض السانح بالصالحية . وقدم من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 35) .

(٢) الوفيات الواردة هنا ، مكتوبة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ٩٩ ب ، ١٠٠ أ ، ولم يشر المقريزى كعادته الى مكانها المناسب ، على أنها وقعت فى سنة ٦٤٩ هـ . انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 35-36, et notes)

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) بياض فى س .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى قرى المطاعنة بالوجه القبلى ، وتقع على الشاطىء الغربى للنيل ، وتسمى أسفون أيضا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٥٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٠٠) .

ابن الحسن بن أبى سعد البادرائى، رسولا من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك (١٠٠ ب) الناصر . فتلقاه القاضى بدر الدين الخضر بن الحسن السنجارى من قطيا ، ومعـه جماعة، وتحدّث [معـه] فى ذلك . فأراد النـاصر أن تقام له الخطبة بديار مصر، فلم يرض الملك المعز، و[زاد بأن] طلب أن يكون بيده — مع مصر — من غزة الى عقبة فيق[1] .

و[فيها] وردت الأخبار بأن منكوخان[2] ملك التترسير أخاه هولاكو لأخذ العراق . فسار[3] وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلا ونهبا وأسرا وسبيا[4]، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين؛ وجاءوا إلى رأس عين وسروج ، وقتـلوا ما ينيف على عشرة آلاف ، وأسروا مثـل ذلك ؛ وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغـداد، فأخذوا منها أموالا عظيمة، من جملتها ستمائة

(١) فى س "فق" .

(٢) اسم هـذا الخـان فى المراجع الأوربية الحديثة (Mangu) ، وهو ابن تولوى بن جنكزخان ، وقد وقع تتويجه وإعلانه خانا أعظم سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م)، فى مجمع رؤساء التتر (Kuriltay) تلك السنة ، أى بعد ثلاث سـنين من وفاة كيوك . وفى ذلك المجمع قرّ الرأى على تجهيز حملتـين حربيتين ، تقصد إحداهما الصين ويكون قائدها قوبيلاى ، وتذهب الأخرى الى بلاد فارس بقيادة هولاكو، وكلاهما أخ لمنكوخان (Browne : A Lit. Hist. Of Persia, II. p. 452).

(٣) وصل هولاكو إلى بلاد الاسماعيلية الفرس بقوهستان ، وهى جهات الجبال الواقعة بين هرات ونيسابور، بعد السنة المذكورة هنا بكثير . فقد سار من قراقوم (Karakorum) عاصمة التتر العظمى، سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٠م)، بتعليمات مشدّدة فحواها محق الإسماعيلية بفارس ، وهـدم الخلافة العباسية ببغداد . ووصل هولاكو بلاد الإسماعيلية سـنة ٦٥٤ هـ (١٣٥٦ م) ، وكان عنـد التعليمات التى لديه : فأتى عليهم وعلى جميع معاقلهم بما فى ذلك ألموت ، وأسر آخر رؤسائهم وهو شيخ الجبل ركن الدين خورشاه، وأرسله الى (Karakorum) حيث أمر منكوخان بقتله . (Browne: A Lit. Hist. of Persia, II. pp. 452-460) .

(٤) أحس الإسماعيليـة بخطر المغول قبـل ذلك بعدة سنين، كما أحست به جميع دول أوربا أيضا ، وذهب رسول من الإسماعيلية إلى إنجلترة وفرنسة ، سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)، يرجوهما الغوث على المغـول، ولكنه لم يلق مجيبا . يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينـة (Winchester) بإنجلترة، حسـبما جاء فى (Browne : Op. cit. III. p. 6) ، وهذا نصه :

"Let these dogs devour each other and be utterly wiped out, and then we shall see, founded on their ruins, the Universal Catholic Church, and then shall truly be one shepherd and one flock."

حمل سكر من عمل مصر، وستمائة ألف دينار؛ وقتلوا الشيوخ والعجائز، وساقوا النساء والصبيان معهم . فقطع أهل الشرق الفرات، وفرّوا خائفين .

فعند ذلك أزال الملك المعز اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف، واستولى على الخزائن . وشرع فى تحصيل الأموال : فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى حوادث ، وقرر على التجار وعلى أصحاب العقار أموالا، ورتب مكوسا وضمانات سمّاها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالى[1] من الذمة مضاعفة، وأحدث التصقيع والتقويم[2] وعدّة أنواع من المظالم . ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر، وأمّر عدة من مماليكه . فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم، وصار كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى ملجأ لهم، يسألونه فى حوائجهم، ويكون هو المتحدّث مع الملك المعز . وفيها أقطع الفارس أقطاى ثغر الإسكندرية، وكُتب له به منشور . وتعدى شر البحرية ، وكثر تمردهم وطغيانهم .

وخرجت السنة والملك المعز والعساكر بالسانح، وعساكر الشام بغزة، والملك الناصر مقيم بدمشق، والملك المغيث عمر بالكرك . وكان النيل عاليا : بلغ ثمانية عشر ذراعا وسبعة عشر إصبعا، وسدّ باب البحر عند المقس .

وفيها وقع بمدينة حلب حريق عظيم ظهر أنه من الفرنج، [و]تلف فيه أموال لا تحصى، واحترقت ستمائة دار . وحج فى هذه السنة ركب العراق .

---

(١) تقدم شرح لفظ الجوالى فى ص ٨٦ (حاشية ٤) ، ويزاد عليه هنا أن الجوالى جمع جالية ، وأن لفظ جالية مطلق على أهل الذمة ، وقد "قيل لهم ذلك لأن الامام عمر أجلاهم عن جزيرة العرب ، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة ... وإن لم يجلوا من أوطانهم" . (محيط المحيط) . انظر أيضا .
(Quatremére: Op. Cit. II. 1, p. 132. N. 16).

(٢) التصقيع هنا إحصاء البيوت والعقارات ، لأجل فرض ضريبة عليها . والتقويم تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة ، من أجل الفرض نفسه . (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 37, et p. 89. N. 124) .

ومات فى هذه السنة من الأعيان العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر[١] العمرى الهندى الصنعانى الحنفى اللغوى، [مات] ببغداد، ودفن بمكة عن ثلاث وسبعين سنة. وتوفى فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى بن هبة الله ابن الحسين بن يحيى بن بصاقة الكنانى، الكاتب الوزير للناصر داود، [و] الأديب المنشئ، فى ...[٢]. وتوفى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سعد بن عبد الله بن سـعد الأنصارى القدسى، الفقيه الشافعى المحدّث المقرئ، النحوى الأديب الكاتب المجوّد، [مات] بدمشق عن تسع وسبعين سنة. وتوفى مُسْنَدُ العراق المؤتمن أبو القاسم يحيى بن نصر بن أبى القاسم بن الحسن بن قميرة[٣] التميمى، التاجر السفار، عن خمس وثمانين سنة، حدّث بمصر وغيرها. وتوفى نقيب الأشراف — وقاضى العسكر، ومدرّس المدرسة الشريفية بمصر — الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد العلوى الحسينى الأرموى، [على ما] حدّثنا[٤] الأشراف، فى ثالث عشر شوّال سنة خمسين وستمائة. وكان إماما فى الفقه والأصول مناظرا، تفقّه على الصدر ابن حمويه، وشرح المحصول، ومات عن نيف وسبعين سنة.

* * *

سنة إحدى وخمسين وستمـائة. فيها تقرّر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق، بسفارة نجم الدين البادرائى. وقد قـدم [نجم الدين] إلى القاهرة، وصحبته عز الدين أزدمر، وكاتب الإنشاء ببغداد نظام الدين أبو عبدالله محمد بن المولى الحلبى، لتمهـيد القواعد. فلم يبرحا إلى أن انفصلت القضية: على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك؛ وأن يدخل فيها للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله؛

---

(١) اسم هذا العلامة فى بعض المراجع العربية، (انظر Quatremère: Op. cit. I. 1. p.38. Ns. 50, 51)، حسن بن عمر، ومولده بمدينة لاهور بالهند، سـنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م)، ومن مؤلفاته فى النحو كتاب مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلدا، وكتاب العباب الزاخر فى عشرين مجلدا، وكانت وفاته ببغداد فى يوم الجمعة تاسع عشر شعبان.

(٢) بياض فى س.

(٣) كذا فى س، وهو فى ب (١٢٠ ب) "قيمرة".

(٤) فى س "حدسا". انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 38. N. 53).

وأن المعز يطلق جميع من أسره من (١٠١ ا) أصحاب الملك الناصر . وحلف كل منهما على ذلك ، وكتبت به العهود . وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سابع صفر، ونزل البادرائى بالقاهرة . وأطلق الملك المعز الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخاه نصرة الدين ، وسائر أولاد الملوك والأمراء ؛ وأحضرهم دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر . ثم قدّم [الملك المعز أيبك] للملك المعظم تقدمة سنية ؛ وأعطى نظام الدين بن المولى ، ورفيقه عز الدين أزدمر، عشرة آلاف دينار .

وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين أقطاى — على المعز ، وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز ، وهمّوا بقتله . وفيها تسلم المصريون قلعة الشوبك ، فلم يبق مع الملك المغيث سوى الكرك والبلقاء و بعض الغور. وفيها قطع المعز خبز الأمير حسام الدين ابن أبى على، فلزم داره، ثم خرج الى بلاد الشام بإذن الملك المعز له ، فأكرمه الملك الناصر وأقامه فى خدمته بمائة فارس .

وفيها ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحرى، وقطعوا الطريق برا و بحرا، فامتنع التجار وغيرهم من السفر . وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين على ابن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلِم(١) بن أبى جميل(٢) الجعدى، وقال: "نحن أصحاب البلاد" ومنع(٣) الأجناد من تناول الخراج، وصرّح هو وأصحابه : " بأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد" . وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا إنما هم عبيد للخوارج ؛ وكتبوا الى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه(٤) على القدوم الى مصر .

---

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) فى هامش الصفحة فى س تكلة لهذا النسب، نصها : "أبو جميل دحية بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب " ، وفى هامش ملاصق قبالة لفظ دحية ، ضبط لهذا الاسم أيضا ، نصه : " بضم الدال المهملة ، وفتح الحاء المهملة ، وتشديد الياء آخر الحروف " .

(٣) فى س " منعوا " . (٤) فى س " يستحثوه " .

واجتمع العرب — وهم يومئذ فى كثرة من المـال والخيل والرجال، الى الأمير حصن الدين ثعلب، وهو بنـاحية دَهْرُوطْ[1] صَرَبان ؛ وأتوه من أقصى الصـعيد ، وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم، وحلفوا له كلهم . فبلغ عدّة الفرسان اثنى عشر ألف فارس، وتجاوزت عدّة الرجالة الإحصـاء لكثرتهم . فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب، فى خمسة آلاف فارس . فساروا الى ناحيـة ذَرْوَة[2]، وبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب ، فاقتتل الفريقان من بكرة النهار الى الظهر . فقدر الله أن الأمير حصن الدين تقنطر[3] عن فرسه، فأحاط به أصحابه ، وأتت الأتراك إليـه ، فقتـل حوله من العرب والعبيد أربعمائة رجل ، حتى أركبوه . فوجد العرب قد تفرقوا عنه ، فولى منهزما . وركب الترك أدبارهم، يقتلون و يأسرون حتى حال بينهم الليل، فحَوَوا (١٠١ب) من الأسلاب والنسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشى ، ما عجزوا عن ضبطه ، وعادوا الى المخيم ببلبيس . ثم عدوا الى عرب الغربية والمنوفية من [قبيلتى] سِنْبِس[4] ولَوَاتة[5]، وقد تجمعوا بناحية سخا وسـنهور ؛ فأوقعوا بهـم وسبوا حريمهم وقتلوا الرجال ، وتبـدد شمل عرب مصر وخمدت جمْرتهم من حينئذ .

(١) بغير ضبط فى س . وتسمى تلك الناحيـة دروت سربام ، ودروط سريان ، وذروة سريام ، ودروط الشريف ، وديروط الشريف ، والتسمية الأخيرة عائدة على صاحب تلك الناحيـة ، وهو الشريف بن ثعلب . وكان موقع تلك الناحيـة بين النيل وترعة المنهى ، التى هى الآن بحر يوسف . وقد حوّلت تلك الترعة الى جنـوبى دروط صربان ، فصارت الترعة فى غربها . هذا ودهروط هى ديروط الحالية ، إحدى مراكز مديرية أسيوط . (مبارك : الخطط التوفيقيـة ، ج ١١ ، ص ٣ — ٦ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١١٨) . انظر أيضا القسم الأوّل من هذا الجزء، ص ١٣٠ ، حاشية ٤ .

(٢) بغـير ضبط فى س ، وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٧٣) قريتان بهـذا الاسم ، إحداهما بمديرية المنوفية ، والثانية فى المرتاحية ، من قسم نوسة الغيط . والراجح أن الثانية هى المقصودة هنا ، بدليل أن معسكر جيش الملك المعز كان فى بلبيس . (انظر ما يلى ، سطر ١١) .

(٣) فى س "تقطر" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وكان مقر تلك القبيلة مدينة سخا بالغربية ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧١) . انظر أيضا مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وكانت لواتة بالمنوفية . (انظر المرجعين السابقين) .

ولحق الشريف حصن الدين من بقى من أصحابه، و بعث يطلب من الملك المعز الأمان، فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه، ليصيروا من جملة العسكر وعونا له على أعدائه . فانخدع [الشريف حصن الدين]، وظن أن الترك لا تستغنى عنه فى محاربة الملك الناصر، وقدم فى أصحابه وهو مطمئن إلى بلبيس . فلما قرب من الدهليز نزل عن فرسه ليحضر مجلس السلطان، فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه، وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل . وأمر [الملك المعز] فنُصبت الأخشاب من بلبيس إلى القاهرة وشُنق الجميع؛ و بعث بالشريف حصن الدين إلى ثغر الإسكندرية، فحبس بها وسلّم لواليها الأمير شمس الدين محمد بن باخل. وأمر المعز بزيادة القطيعة[(١)] على العرب، و بزيادة القَوْد[(٢)] المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر . فذلّوا وقلّوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا .

وفيها صاهر الأمير فارس الدين أقطاى الملك المظفر صاحب حماة، وسير إليه فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا — قبل أن يتقلد أبوه الوزارة، و إنما كان قد ترشح لها — لإحضار ابنة المظفر من حماة؛ فحملها إلى دمشق فى تجمل عظيم . فطلب أقطاى من الملك المعز أن يسكن قلعة الجبل بالعروس، فشق ذلك عليه وأخذ يتحيل فى قتله . وكان قد ثقل عليه، وصار ليس له مع البحرية أمر ولا نهى ولا حل ولا عقد ، ولا يسمع أحد منهم له قولا : فإن رسم لأحد بشىء لا يُمكَّن من إعطائه، و إن أمر لأحد منهم بشىء أخذ أضعاف ما رسم له به . واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاى، و[قد] استولى على الأمور كلها . و بقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتابا، ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمرا، إلا بحضور أقطاى لكثرة خُشْدَاشيته[(٣)] .

(١) القطيعة ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويا ، أو ما يقرره فى أحوال غير عادية كالغرامة الحربية (Quatremère : Op. cit. I. 1. p,14. N, 85,) .

(٢) القود ما يبعث به قبائل العرب إلى السلاطين من الهدايا ، من نحو الخيل والإبل والحيوانات العزيزة . (Ibid : Op. cit 1. 1. P. 42, N. 59) .

(٣) جمع " خشداش " ، وهو معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ، أى الزميل فى الخدمة . (Steingass : Pers. — Eng. Dict.) . والخشداشية — أو الخوشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية =

وفى هذه السنة حج من البر والبحر عالم كبير، فإنها كانت وقفة الجمعة. وفيها أخذ الشريف جماز بن حسن مكة، وأقام بها إلى آخر ذى الحجة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة، واستقر بعده فى الإمارة ابنه أبو نمى ، وأخوه إدريس بن على . ومات الملك الصالح أحمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان، صاحب عينتاب ، عن إحدى وخمسين سنة . وتوفى كمال الدين أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزملكانى (١) الدمشقى الشافعى، بدمشق . وتوفى جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الإسكندرى ، سبط الحافظ ابى الطاهر السلفى ، وقد انتهى إليه علو الإسناد .

* * *

سنة اثنتين وخمسين وستمائة . فيها استفحل أمر الفارس أقطاى الجمدار وانحازت اليه البحرية، بحيث كان أقطاى إذا ركب من داره إلى القلعة شعل (٢) بين يديه جماعة بأمره ،

= فى اصطلاح عصر المماليك بمصر ، الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة ، ويقابلها فى الفرنسية (camarades) . ويوضح هذا المعنى تماما العبارة الآتية ، وهى من الأمثلة الواردة فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 43. N. 61)، ونصها : "كان يعد نفسه غريبا فى بيت السلطان ، لكونه لم يكن له خجداش" . ولهذه الرابطة أثر ظاهر فى حوادث تاريخ المماليك بمصر، ومثلها فى الأهمية التاريخية علاقة الأستاذ — أو السيد — بمماليكه الذين شراهم لنفسه . (انظر ص ٤٩٣ سطر ١٠) . ولعل ذلك راجع الى قلة الروابط الأخرى بين الأمراء ، إذ كانوا يجلبون من مختلف أسواق النخاسة ، وليس بينهم من الروابط سوى ماجد عليهم بمصر .

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة الى زملكان ، وهى قرية بغوطة دمشق، يقال لها زملكا أيضا . (ياقوت : معجم البلدان، ج٢ ، ص ٩٤٤ — ٩٥٥). هذا وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 45, N. 63) أن كمال الدين هذا كان مبرزا فى علم المعانى والبيان ، وأنه تولى التدريس فى بعلبك والقضاء فى صرخد، وأنه كان شاعرا مجيدا.

(٢) فى س "صعمل" ، أو ما يقرب من ذلك . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 47) العبارة كلها إلى "Toutes les fois que cet officier montait à cheval pour se rendre de sa maison au château, il avait devant lui une troupe de Mamlouks tout prêts à exécuter ses ordres....."

ولا يُنكِر [هو] ذلك [منهم] . وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر أحد على منعهم . وكانوا يدخلون الحمامات و يأخذون النساء منها غصبا ، وكثر ضررهم .

[هذا] والمعز يحصل الأموال، وقد ثقل عليه أقطاى، فواعد طائفة من مماليكه على قتله : وبعث [المعز] إليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان، ليحضر إليه بقلعة الجبل فى مَشُوْر (١٠٢ ا) يأخذ رأيه فيه . فركب [أقطاى] على غير أهبة ولا اكتراث، فعند ما دخل من باب القلعة، وصار إلى قاعة العواميد(١)، أغلق باب القلعة، ومُنع مماليكه من العبور معه . فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعدّوا لقتله : وهم قُطُز وبَهادُر(٢) وسَنجر الغَتْمِى، فَهبروه(٣) بالسيوف حتى مات . فوقع الصريخ فى القلعة والقاهرة بقتله ، فركب فى الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة ، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه ، وأنهم يأخذونه(٤) من المعز . وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى، وقلاون الألفى، وسنقر الأشقر، و بَيْسَرِى، وسِكِز ، و بِرامِق(٥) . فلم يشعروا إلا و رأس أقطاى قد رَمَى بها المعز إليهم، فسقط فى أيديهم وتفرقوا بأجمعهم . وخرجوا فى الليل من القاهرة، وحرقوا باب القراطين فعرف

---

(١) كان بالقلعة عدة قاعات، وكلها مخصصة لحاجات السلطان المنزلية ، حسبما جاء فى ابن شاهين (زبدة كشف الممالك، ص ٢٦ — ٢٧)، *"ومنها القاعة البيسرية ...، ومنها القاعة الكبرى وتعرف بالعواميد برسم خوند الكبرى، ومنها قاعة رمضان [و] بها خوند الثانية ، ومنها قاعة المظفرية [و] بها خوند الثالثة ، ومنها القاعة المعلقة و بها خوند* الرابعة ، ومنها قاعة البربرية برسم السرارى ، و [كان بها] غير ذلك من القياع (كذا) والمنازل والأماكن المتسعة مما يطول شرحها" .

(٢) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) . هذا وليس فى نية الناشر أن يدأب على ضبط جميع أسماء الأمراء المماليك لكثرتها ، وهو يحيل القارىء فى ضبطها الى (Mayer:Saracenic Heraldry) و إلى (Zetterstéen : Beitrage zur Geschichte Mamlūkensultane) .

(٣) فى س "فهبروه" ، والمعنى أنهم قطعوه بالسيوف . (محيط المحيط) .

(٤) فى س "ياخذوه" .

(٥) ضبطت هذه الأعلام على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) ، وكل نقطها منه أيضا .

بعد ذلك بالباب المحروق إلى اليوم (١) . فمنهم من قصـد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار إلى الملك النـاصر بدمشق ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس ، يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه .

واتفق أن اثنى عشر من البحرية مرّوا فى تيه بنى إسرائيل ، فأقاموا به خمسة أيام حائرين ، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه : فإذا مدينة عظيمة ، ذات أسوار وأبواب حصينة ، كلها من رخام أخضر . فطافوا بداخل المدينة ، وقد غلب عليهـا الرمل فى أسواقها ودورها ، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تتفتت وتبقى هبـاء . فوجدوا فى صوانى بعض البزازين تسعة دنانير ، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة عبرانية . وحفروا مكاناً ، فإذا بلاطة ، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماءٌ أبرد من الثلج ، فشربوا وساروا ليلتهم . فإذا بفريق عرب فحملوهم إلى الكرك ، فعرضوا تلك الدنانير على الصيارف ، فقال بعضهم هذه ضربت فى أيام موسى عليه السلام . وسألوا عن المدينة ، فقيل هذه المدينة الخضراء ، بنيت لمـا كان بنو إسرائيل فى التيه ، ولها طوفان من رمل يزيد تارة وينقص أخرى ، ولا يقع عليها إلا تائه . وصرفوا كل دينار بمائة درهم (٢) .

وسار منهم (٣) قشتمر العجمى ، وشار باش العجمى ، وسنجر الحاووك ، والركن الفارقانى وسنقر الجبيلى ، وسنقر الحُبَيْشى (٤) الكبير ، والحبيشى الصـغير الحاجب ، والصقيلى ، والفتمى ، وبلبان النجمى ، وبكتش المسعودى ، وأبوعبية ، والتميسى ، وفخر الدين ماما ، وأيدمر الجدار الرومى ، وسنقر الركنى ، والحسام قريب سكز ، وإيدغدى الفارسى ، وبلبان الزُهيرى (٥) ، وسنجر

(١) ليس فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣٨٣) ما يزيد هذه المعلومات ، كأن يبين موضع باب القراطين أو يوضح أصل تسميته . هـذا والباب المحروق ، وهو باب القراطين قبـلا كما بالمتن ، هو باب القاهرة الشرقى . (Lane-Poole : Cairo, p. 129) .

(٢) يرى (Quatremère :Op. cit. I.1. p. 49. N. 71) ، أن المدينة التى عثر عليها هؤلاء المماليك هى البـتراء .

(٣) الضمير هنا عائد على الأمراء الذين خرجوا من القاهرة بعد مقتل أقطاى .

(٤) مضبوط هكذا فى س . (٥) مضبوط هكذا فى س .

البدرى ، و إزدمر السيفى ، و إزدمر البواشق مملوك الرشيدى الكبير ، والعتابى ، والمستعربى ، وسنقر البُدَيْوى[1] ، وأيبك الشقارى ، و إيدغدى فتنة ، وسيف الدين الأشل ، والخولانى ، وسنجر الشكارى ، والمطروحى ، وأيبك الفارسى ، وأياس المقرى[2] ، فى جماعة كبيرة من المماليك الصغار الجدارية الصالحيــة . وكان الحاكم المقدم على هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الباشقردى — وهو أعقلهم وأعرفهم — ، والأمير شمس الدين سنقر الجيلى — وهو أفرسهم وأشهرهم بالشطارة[3] . فمضى هؤلاء إلى السلطان علاء الدين ملك [السلاجقة] الروم .

فلما أصبح الملك المعز أيبك ، وعلم بخروج الجماعة من القاهرة ، قبض على من بقى منهم ، وقتــل بعضهم وحبس باقيهم ، وأوقع الحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسـائهم وأتباعهم ، واستصفى أموالهم وذخائرهم وشـونهم . وظفر للفــارس أقطاى بأموال عظيمــة . ونودى فى القاهرة (١٠٢ ب) ومصر بتهديد من أخفى أحدا من البحرية ، وتمــكن عند ذلك الملك المعز ، وارتجع الإسكندرية إلى الخاص السلطانى ، وخفف بعض ما أحدث من المصادرات والجبــايات .

فلما وصل البحرية الى غزة : وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشــيدى ، وعز الدين أزدمر السيفى ، وشمس الدين سنقر الأشقر ، وسيف الدين سكز[4] ، وسيف الدين قلاون ، و بدر الدين بيسرى — كتبوا إلى الملك الناصر بأنهم قد وصــلوا إلى خدمته ، فأذن لهم . وعَرَوا[5] على بلاد الفرنج بالساحل ، فقتلوا ونهبوا حتى قاربوا دمشــق .

---

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) قوبلت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1, p. 50) ، وكل نقطها منه .

(٣) الشطارة هنا المهارة والقدرة ؛ ويجىء لفظ الشاطر أيضا ، فى العربية والفارسية ، بمعنى اللص قاطع الطريق ، وبمعنى ساعى المراسلات . (Ibid : Op. cit. I, 1. p. 50. N. 72) . انظر أيضا محيط المحيط .

(٤) فى س " سكر " . انظر ص ٣٩٠ ، سطر ١٢ .

(٥) عراه يعروه ، أى ألم به وأتاه طالبا معروفا ، وهو فعــل متعد . (محيط المحيط) . غير أنه يتضح من بقيــة الجملة أن المقريزى تجوز فى استعمال هذا الفعل .

فخرج إلى لقائهم الملك الناصر، وخلع عليهم وأعطاهم . [هذا] وهم يحثونه على قصد مصر، وهو يدافعهم .

فخاف المعز غائلتهم ، وكتب الى الناصر يوهمه منهم ، ويخوفه عاقبة شرهم . وطلب منه الناصر البلاد التى كان قد أخذها بالساحل لأجل البحرية ، وأنها فى إقطاعاتهم . فأعادها المعز إلى الملك الناصر، فأقر كل إقطاع منها بيد من كان له ، وكتب مناشيرها عنه للبحرية .

وكتب المعز إلى سلطان الروم بأن : "البحرية قوم مناحيس أطراف[(١)]، لا يقفون[(٢)] عند الأيمان، ولا يرجعون[(٣)] إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا . فتحرّز منهم على نفسك، فإنهم غدّارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك" . فخاف سلطان الروم منهم، وكانوا مائة وثلاثين فارسا، فاستدعاهم وقال : " يا أمراء ! مالكم ولأستاذكم ؟ " فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، وقال : "يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ " قال : "الملك المعز صاحب مصر" . فقال الباشقردى : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ ، إنما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا، فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد، ونحن التجأنا إليك" . فأعجب سلطان الروم بهم، واستخدمهم عنده .

وفيها وقع الصلح بين الملك الناصر وبين الفرنج أصحاب عكا، لمدة عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوما أولها مستهل المحرم، على أن يكون للفرنج من نهر الشريعة مغربا، وحلف الفريقان على ذلك[(٤)] .

(١) جمع طرف، وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 51. N. 75) لفظ الأطراف إلى "des hommes vils, ou des hommes d'une condition inferieure".

(٢) فى س "لا يقفوا" . (٣) فى س "لا يرجعوا" .

(٤) كان مما دعى الفرنج إلى الصلح تلك السنة ، اضطرار لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى كان مقيما بالشام منذ رحيله عن دمياط ، الى السفر الى مملكته . (Stevenson : Crusaders In The East. p. 331) .

وفيها أقطع الملك المعز أيبك الأمير علاء الدين إيد غدى العزيزى دمياط، زيادة على إقطاعه، وارتفاعها يومئذ ثلاثون ألف دينار. وفيها خرج الملك المعز من قلعة الجبل بالعساكر وخيم بالباردة(١) قرب العباسة (١٠٣ ا)، خوفا من البحرية لنزولهم بالعوجاء.

وفيها سفّر الملك المعز أيبك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن الملك المسعود إلى بلاد الأشكرى منفيا. وفيها درّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بالمدرسة(٢) الصالحية بين القصرين. وفيها وصل الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن محمد بن جعفر الحسينى إلى دمشق، ومعه الخوندة ملكة خاتون بنت السلطان علاء الدين كيقباد(٣) ملك [السلاجقة] الروم، وزوجة الملك الناصر يوسف. فزفت إليه، وقد احتفل بقدومها، وبالغ فى عمل الوليمة لها.

وفيها ظهرت نار بعدن روّعت القلوب. وفيها ولّى المنصور [قضاء] حماة شمس الدين إبراهيم بن هبة الله البارزى، بعد المحيى حمزة بن محمد.

وفيها مات ملك التتر طرطق(٤) خان بن دوشى خان بن جنكزخان، فكانت مدّته سنة وشهورا.

---

(١) بغير ضبط فى س، ويوجد قبالة السطر بهامش الصفحة العبارة التفسيرية الآتية: "الباردة يقال لها السعدية"، وعلى هذا تكون بلدة الباردة هى التى سميت فيما بعد باسم الخشبى. (انظر ص ٣٧٤، حاشية ٢).

(٢) بدأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بناء تلك المدرسة، على قطعة من موضع القصر الفاطمى المعروف بالكبير شرقى، سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م)، وهى أول مدرسة بمصر رتبت بها دروس للمذاهب الأربعة. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٧٤).

(٣) فى س "كيقباذ".

(٤) بغير ضبط فى س، واسمه فى المراجع الأوروبية الحديثة (Sartak)، وهو ابن باطوخان بن جوشى خان (دوشى هنا فى المتن) بن جنكزخان. (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 230). لكن تلقيب طرطق هذا بملك التتر، من غير تعيين الفرع التترى الذى حكمه فعلا، خطأ مضل يتطلب توضيحه الرجوع الى معرفة تقسيم الإمبراطورية التترية بين أولاد مؤسسها جنكزخان. ذلك أنه لما قسم جنكزخان إمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة، (انظر ص ٢٢٨، حاشية ٢)، كان نصيب جوشى وهو أكبر أبنائه، البلاد الواقعة بين نهر إرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين. وكان اسم تلك البلاد عامة القبشاق، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde)، نسبة الى خيم معسكراتها ذوات اللون الذهبى (Sir Orda, i. e. Golden Camp) وكان غالب أهلها تركا وتركمان. =

فقام من بعده بركه[١] خان بن جوشى خان بن جنكز خان، وأسلم وأظهر شعائر الإسلام فى مملكته، واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء[٢] . وأسلمت زوجته ججك[٣]، واتخذت لها مسجدا من الخيم، وذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرا[٤] .

و[فيها] توفى مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد بن

= مات جوشى قبيل وفاة أبيه جنكز خان بستة شهور، سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م)، وانقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر. وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda)، وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة فى أول الأمر، وثانيهم باطو (Bātū) الذى فضلته قبائل القسم الغربى من المملكة وأعلنتــه ملكا عليهـا ، واعترف بذلك جنكز خان نفســه قبــل مماته . لهــذا انكمش سلطان أوردا الى القسم الشرقى فقط ، وعرف باسم القبشاق الشرقى أو القبيــلة البيضاء (Āk Orda, i.e. White Horde) ، كما عرفت بلاد باطــو باسم القبشــاق الغــربى أو القبيــلة الزرقاء (Kok Orda, i.e. Blue Horde) .

وكان مركز مملكة باطو — وهو الشخصية التى تهم هذه الحاشية — الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا ، وقــد اتخذ بهــا عاصمة سمــاها (Sarāi) . وهو الذى غزا أوربا : فتوغل فى الروســيا و بولنــدا والمجر ودلمــاشيا (٦٣٥ — ٦٤٠ هـ؛ ١٢٣٧ — ١٢٤٠ م)، وطغت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القبشاق أحق أبناء جوشى خان بالملك، برغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعــد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية ، وهو لقب شامل لجميع بلاد القبشاق شرقيها وغربيها ، فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم منكوخان ، الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) .

مات باطوخان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م)، وتولى بعده مباشرة ولده طرطق المذكور هنا ، ولكنه توفى فى نفس السنة المذكورة ، وظلت سلالة باطو من بعــده حافظة للقب خان القبيلة الذهبية ، حتى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) . راجع (Howorth: Op. cit. II. 1. pp. 36-132 ; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 222-231 ; Enc. Isl. Art. Bātū Khān) .

(١) فى س "بركه خان بن باطوا خان بن دوشى خان بن جنكز خان"، وهذا الخطأ متواتر فى مؤلفات كثير من المؤرخين ، والصواب أن بركه خان ثالث أبناء جوشى خان (Enc. Isl. Art. Bereke) .

(٢) تختلف الروايات فى إسلام بركه ، وأرجحها ما يقول إنه اعتنق الإسلام وتعلم القرآن فى حداثته ، حين كان ببلدة خوقند (Khodjand) ، على يد أحد فقهائها ، وذلك قبــل أن يصير ملكا على القبيلة الذهبية . ويظهر أن بركه كان مهتما بنشر الإسلام فى بلاده ، بدليل إنه أمر بأن يكون فى حاشية كل واحدة من زوجاته ، وكل أمير من أمرائه أيضا ، إمام ومؤذن لإقامة شعائر الدين . على أنه لم يكن متعصبا تعصبا أعمى ، يشهد بذلك إن عاصمته صراى كانت ، منذ سنة ٦٦٠ (١٢٦١ م)، كرسيا لأسقفية مسيحية . (Enc. Isl. Art. Bereke) .

(٣ ، ٤) ضبط كل من هذين اللفظين على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 56, 57) .

تيمية[١] الحرانى الحنبلى، عن اثنتين وستين سنة . وتوفى كمال الدين أبو سالم محمد بن أحمد بن هبة الله ابن طلحة النصيبينى الشافعى خطيب دمشق بحلب، وقد قدم القاهرة .

وفيها أخذ مكة الشريف راجح [بن قتادة][٢] من الشريف جماز بن حسن، بغير قتال؛ ثم أخذها ابنه غانم بن راجح فى ربيع الأول بغير قتال؛ فقام عليه الشريف أبو نمى [بن أبى سعيد ابن على بن قتادة] فى شوّال ومعه الشريف إدريس[٣]، وحارباه وملكا مكة . فقدم فى خامس عشرى ذى القعدة مبارز الدين الحسين[٤] بن على بن برطاس من اليمن، وقاتلهما وغلبهما، وحج بالناس .

* * *

سنة ثلاث وخمسين وستمائة . فيها سار الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى إلى بلاد الصعيد، وأظهر الخروج عن طاعة الملك المعز، وجمع العربان . فسير إليه الملك المعز الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين الفائزى، ومعه طائفة من العسكر، حتى سكّن الأمور . وأخرج الملك الناصر عسكرا إلى جهة ديار مصر، ومعهم البحرية : وهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، وعز الدين أزدمر، وشمس الدين سنقر الرومى، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وسيف الدين قلاون، وسيف الدين بلبان المسعودى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وعدة من مماليك الفارس أقطاى .

(١) بغير ضبط فى س ، وهو جدّ تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ... بن تيمية، الفقيه الحنبلى الشهير، صاحب الآراء الجريئة فى أصول الدين . (Enc. Isl. Art. Ibn Taimiya) .

(٢) انظر الحاشية التالية .

(٣) العبارة التالية، الى آخر الوارد هنا تحت هذه السنة، موجودة فى ب (١٢٣ ب) فقط، وليس منها فى س سوى بقايا كتابة خافية تماما، لورودها بطرف هامش الصفحة، حيث اعتراها ما محاها تقريبا . هذا وقد قورنت العبارة كلها على ما يقابلها فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١١٥)، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هذه الفقرة، وضبطت بعض الأسماء أيضا، بعد مراجعة الترجمة الإنجليزية لنفس المرجع . انظر (Ibid : Op. Cit. III. Ns. 535-537) .

(٤) فى ب " البارز بن على بن برطاش" . انظر ص ٣٠٢، سطر ٢، وكذلك الترجمة الإنجليزية لكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى . (Ibid : Op. Cit.I. p. 146.) .

وفيها قَتَل الملكُ المعز الأميرَ علاء الدين إيدغدى العزيزى ، بعد ما قبض عليه؛ و[كان قد قبض أيضا] على الفارس أقطاى العزيزى، والفارس أقطاى الأتابك ؛ وهرب [منــه] أقش الركنى . وأمر الملك المعز ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشى رجل بلا سراويل . فقال أبو الحسين الجزار فى ذلك :

حَنَـا الملك المعـز على الرعايا * وألزمهم قوانين المُـــرُوّة
وصان حريمهــم من كل عار * وألبسهم سراويل الفتـــوّة

وفيهـا توجه الناصر داود بن المعظم عيسى إلى بغداد ، يطلب ما أودعه عند الخليفة من الجوهر، وقيمته مائة ألف دينار . فمُطِل مدة، فتوجه إلى الحجاز، واستشفع إلى الخليفة فى ردّ وداعته، وعاد إلى العراق . فعوض عن جوهره بما لا يذكر، ورُدّ إلى الشام . وفيها قدم مكة أبو نُمَىّ وإدريس[2]، ومعهما جماز بن شيحة[1] أمير المدينة، فقاتلوا المبارز بن بِرطاس، وأخذوا مكة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير شرف الدين يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى بنابلس، ودفن بدمشق . وتوفى نقيب الأشراف بحلب، [وهو] الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن أحمد بن أبى الحسن محمــد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن أبى إبراهيم محمــد بن ممدوح أبى العلاء ، عن أربع وسبعين ســنة بحلب . وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمــد بن محمد بن عثمان البلخى الحنفى البغدادى ، بحلب عن تسع وسبعين ســنة . وتوفى ضياء الدين أبو محمد جعفر بن يحيى بن سالم بن يحيى بن عيسى بن صقر المحلى الشافعى، عن نيف وتسعين سنة بحلب، قدم مصر وحدّث بها .

* * *

سنة أربع وخمسين وستمائة . فيها ورد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائى، من قبل الخليفة المستعصم بالله، ليجدد الصلح الأول بين الملك الناصر والملك المعز.

(١) فى س " سبحه " .

(٢) هنا تنتهى أخبار هذه السنة فى س ، على أن الوفيات التالية واردة فى ب (١٢٤ أ)، وقد وردت فى س خطأ على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٩٤ ب، ٩٥ أ، (انظر ص ٣٦٣، حاشية ٢) . ولا شك فى صحة وضعها هنا ، ففى (Quatremère : Op. cit. I. 1, p. 60. Ns. 85-88) دلائل مادية كافية للبرهان على ذلك .

فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجارى ، فسار إلى قَطْيَا[1] ، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به . فقرّر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع مُلك مصر؛ وأن الملك الناصر لا يأوى عنده أحدا من البحرية ، فمضوا إلى الملك المغيث بالكرك . وتولى الصلح قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ؛ فلما تم الصلح عاد البادرائى ، و رحل الملك الناصر عن تل العجول الى دمشق ، وعاد المعز من العباسة — بعد إقامته عليها ثلاث سنين — الى قلعة الجبل .

وسار الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا إلى الخليفة ببغداد ، صحبة الشيخ نجم الدين البادرائى ، يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية للملك المعز ، أسوة من تقدمه من ملوك مصر؛ فسار إلى بغداد . و بعث [الملك المعز] إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة ، و إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، يخطب ابنتيهما[2] لنفسه . فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه ، فتنكر لها وفسد ما بينهما ، فأخذت تدبر فى قتله .

وفى خامس جمادى الآخرة ظهرت نار بأرض الحجاز ، واستمرت شهرا فى شرق المدينة النبوية ، بناحية وادى شَظَا[3] تلقاء جبل أُحُد[4] ، حتى امتلأت تلك الأودية (١٠٣ ب) منها . وصار يخرج منها شرر يأكل الحجارة ، وزلزلت المدينة بسببها . وسمع الناس أصواتا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام ، أولها يوم الاثنين أول الشهر ، فلم تزل الأصوات ليلا ونهارا ، حتى ظهرت [النار] يوم الجمعة . وقد انبجست الأرض عن نار عظيمة عند وادى شظا ، وامتدت أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال وعمق قامة ونصف ، وسال الصخر منها ، ثم صار كحما

(١) فى س " قطيا " .

(٢) كذا فى س ، و يمكن قراءة هذا اللفظ أيضا "اختيهما" ، على أن الوارد بالمتن هنا هو الراجح ، و يؤيده أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ١٣٥ ، فى Rec. Hist. Or. I) ، وكذلك ما يلى ، ص ٤٠٢ ، سطر ٣ .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو جبل بمكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٩٢) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو جبل بشمالى المدينة بينه و بينها قرابة ميل ، وعنده كانت الواقعة الإسلامية المشهورة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٤) .

أسود . وأضاءت بيوت المدينة منها فى الليل، حتى كأن فى كل بيت مصباحا[(١)]، ورأى الناس سناها بمكة . فالتجأ أهـل المدينة إلى قبر رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ودَعَوا واستغفروا الله تعالى، واعتقوا عبيدهم وتصدقوا، وقال بعضهم :

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنـا * لقـد أحاطت بنـا يارب بأساءُ
نشكو إليـك خطوبا لا نطيق لهـا * حَمْـلا ونحن لهـا حقا أحقّاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لهـا * وكـيف يقوى على الزلزال شمـاء
بحرا من النار تجرى فوقه سفن * من الهضاب لها فى الأرض إرساء
ترى لهـا شررا كالقصر طائشة * كأنهـا ديمَـة تنصبُّ هطلاء
تُحَـدِّث النـيراتِ السبعَ ألسُنُها * بمـا تلاقى[(٢)] بهـا تحت الثرى المـاء
منهـا تكاثف فى الجـو الدخان إلى * أن عادت الشمس منه وهى دهماء
فيالهـا آية من معجـزات رسول الله * ـه يعقلهـا القـــوم الألبـاء
فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامحُ واعفُ وجُد * واصـفح فكل لفـرط الحلم خُطَّاء

وذكر غير واحد من الأعراب الذين كانوا بحاضرة بلد بُصْرى من أرض الشام، أنهـم رأوا[(٣)] صفحات أعناق إبلهم فى ضوء هذه النار . وفى ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان، احترق مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مَشْرَجة القيِّم ، وذهبت سائر سقوفه و بعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة .

وفيهـا غرقت بغداد وهلك بها عالم عظيم ، وسارت السفن فى أزقتها . وفيها قوى أمر هولاكو بن طولوخان بن جنكزخان، وظهر اسمه، وفتح عدّة قلاع بالشرق[(٤)] . وفيها دخل مُقَدَّم

(١) فى س "مصباح" .
(٢) فى س "ملاق" .
(٣) يتضح من هذه العبارة، أن أهل الحجاز رأوا فى تلك الظاهرة البركانية علامة لانتهاء الدنيا واقتراب الآخرة .
(٤) كان هولاكو تلك السنة يقوم بالشطر الأول من تعليماته (انظر ص ٣٨٣ ، حاشية ٣)، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس، «أوشك أن ينتهى منهم فى أواخر تلك السنة ، وذلك حينما سلم إليه شيخهم سلم ركن الدين خورشاه، ووقعت =

من التتار إلى أرض الروم [السلاجقة]، ففر منه السلطان غياث الدين كيخسرو[1] ومات فى فراره، فقام من بعـده أولاده الثلاثة . وأخذ التتار قيسارية وما حولها، فصار لهم من بلاد الروم مسافة شهر. وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ببغداد، وتحدّثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشىء من ذلك[2] .

وفيها ولى تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز قضاء القضاة، عوضا عن بدر الدين يوسف السنجارى . وفيها سار إدريس إلى راجح، وأخذ مكة

= ألَموت نفسها فى أيدى التتر . على أنه بقى بعد ذلك من حصون الإسماعيلية اثنان، استولى التتر على أحدهما وهو حصن لامسار (Lamsar) فى ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ، وامتنع عليهم ثانيهما عدة سنين واسمه حصن جردى كوه (Gird-i-Kuh) . راجع (Enc. Isl. Art. Hulagu ؛ Browne. Op. Cit. II. P. 459) .

(١) فى س "كيخسروا" . وقد أخطأ المقريزى فى إيراد ذلك الحادث تحت هـذه السنة، إذ المعروف أن التتر غزوا بلاد الروم السلاجقة قبـل ذلك بعدة سنين — ٦٣٩ هـ، ١٢٤١ م — بقيادة أحد مقدميهم المسمى (Baidju Noyon) . وقد انهـزم أمامهم السلطان غياث الدين كيخسرو المذكور هنا، عند بلدة (Kōzädagh) فى سـنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م)، وفر الى قونية . ثم خضع للتتر من بلاد السلاجقة الروم مدينة سيواس، وامتنعت قيسارية وتوقات من التسليم اليهم، فدخلوهما عنوة ونهبوهما . ومات غياث الدين كيخسرو سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م)، وخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس، فأشرك معه فى الحكم أخويه ركن الدين قلج أرسلان، وعلاء الدين كيقباد . هذا؛ ويظهر أن منشأ خطأ المقريزى أن القائد (Baidju Noyon) غزا بلاد الروم السلاجقة مرة أخرى، سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م)، فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس المتقدّم ذكره، فهزم السلطان المذكور عند أقصرا، وألجأه الى الفـرار مدّة، كما بالمتن . انظـر (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 73 et seq., esp. N. 1, en p. 82 ؛ Enc. Isl. Arts. Kaikhusrau II, & Kaikā'ūs II) .

(٢) يفهم من هـذه العبارة، أن هولاكو أخذ فى التمهيد للشـطر الثانى من تعلياته، وهو الاستيلاء على بغداد، ولما ينتهى تماما من أمر الشطر الأوّل منها، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس . وتثورهنا مسألة موقف ابن العلقمى من مشروع التتر على بغداد، وهل كان خائنا للخليفة المستعصم، غير أن آراء المعاصرين أنفسهم متضاربة فى هذه النقطة . انظر (Browne : Op. cit. II. pp. 464-465) . ومن أمثال تلك الآراء ما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٦ أ)، ونصه : "وكان الوزير مؤيد الدين قد أطمع نفسه بأن الأمور تكون مفوضة فى العراق اليه، وكان قد عزم على أن يحسن لهولاكو ملك التتر أن يقيم ببغداد خليفة من الشرفاء الفاطميين، فلم يتم له ذلك واطرحه التتر وبقى معهم على صورة بعض الغلمان، فات بعد قرب كمدا، وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم" .

أبو نمى، بخاء راجح مع إدريس وأصلح بينه وبين أبى نمى . وفيها قدم مكة ركب الحاج من العراق، ولم يحج بعدها ركب من العراق .

ومات فى هذه السنة من الأعيان شمس الدين يوسف(١) بن قزغلى بن عبد الله أبو المظفر، [وهو] سبط الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى الفقيه الحنفى الواعظ. وتوفى شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن هبة الله بن قرناص الخزاعى الحموى الفقيه الشافعى الأديب . [وتوفى] زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الأصبع الفقيه الشافعى النحوى الأديب، عن خمس وستين سنة . [وتوفى] الشيخ أبو الروح عيسى بن أحمد ابن إليـاس اليونينى(٢) ببعلبك . ومات ملك الروم غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد ابن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وقد ملك الططر قيصرية ومسيرة شهر معها، فقام بعده ابنه عز الدين(٣) كيقباد بن كيخسرو .

* * *

سنة خمس وخمسين وستمائة . فيهـا تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزم على قتلها . وكان له منجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة، فكانت هى شجر الدر. وذلك أنه كان قد تغير عليها، وبعث يخطب ابنة صاحب الموصل .

واتفق أن(٤) [المعز] قبض على عدّة من البحرية، وهو على أم البـارد(٥)، وسيرهم ليعتقلوا

(١) فى س " سمس الدس س يوسف "، وخطأ المقـريزى هنا واضح . انظـر (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzī, Sibt)، وقد لاحظ بعض من اطلع على هذه النسخة من السلوك هـذا الخطأ، فعقب عليـه بالآتى، وهو وارد قبالة وفيات تلك السنة، بخط مخالف طبعا، ونصه : " وهم المؤرخ فى هذا، إنمـا هو يوسف ولكن لقبه شمس الدين، ومن هنا أتاه الوهم والله أعلم" .

(٢) كذا فى س، بغير ضبط .

(٣) فى س "علا الدين" . (انظر ص ٤٠٠، حاشية ١) . ويلاحظ أن ورود هذه الوفاة الأخيرة هنا خطأ، وقد تقدّم التنبيه الى منشأه بالحاشية المشار إليها، أما بقية الوفيات فليس من سبب يدعو الى التشكك فى وقوعها تلك السنة .

(٤) فى س " انه " .

(٥) لعلها " الباردة "، المذكور فى ص ٣٩٤، سطر ٣

بقلعة الجبل، وفيهم أيدكين[1] الصالحى . فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيــه شجر الدر، علم [أيدكين] أنها هناك ، فخدم[2] برأســه وقال بالتركى : " المملوك أيدكين بشمقدار[3] . والله ياخوند ما عملنا ذنبا يوجب مسكنا ! إلا أنه لمــا سير يخطب بنت صاحب الموصل، ماهان علينا لأجلك ، فإنا تربيــة نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم[4] ، فلمــا عتبناه تغير علينا وفعل بنــا ما ترين[5] " . فأومأت[6] [شجر الدر] إليه بمنــديل، يعنى : " قد سمعت كلامك " . فلما نزلوا بهم الى الجب[7] قال أيدكين : " إن كان حبسنا فقد قتلناه " .

وكانت شجر الدر قد بعثت نصراً[8] العزيزى بهدية الى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز ، والتروج[9] به وتمليكه مصر . فخشى [الملك النــاصر يوسف] أن يكون هذا خديعة، فلم يجبها بشىء .

و بعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر[10] [الملك المعز] من شجر الدر، وأنها باطنت الملك الناصر [يوسف]، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة . وكانت

(١) مضبوط على منطوقه فى (Zetterstéen : Op. cit. pp. 188, 189) .

(٢) معنى هذا أن إيدكين حنى رأسه تحية و إجلالا ، انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 64. N. 95) .

(٣) البشمقدار ـــ أو البجمقدار ـــ هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير ، و يتركب هذا الاسم من لفظين ، أحدهما من اللغة التركية وهو بشمق ومعناه النعل ، والثانى من اللغــة الفارسية وهو دار ومعناه ممسك ، و يكون المعنى ممســك النعل . (القلقشندى : صــبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) . انظر أيضا تحــديد معنى لفظ بشــمق فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) المقصود هنا الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٥) فى س " ما ترى " .

(٦) فى س " فاومت " .

(٧) وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣) جب القلعة بالآتى : " كان بالقلعــة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاو يط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد . عمره الملك المنصور قلاون فى ســنة إحدى وثمانين وستمائة ، فلم يزل الى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاون ، حتى أخرج من كان فيــه من المحابيس ونقلهم الى الأبراج ، و ردمه وعمر فوق الردم طباقا ، فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة " .

(٨) فى س "نصر" .

(٩) فى س " التزويج " .

(١٠) فى س " يحذره " .

[شجر الدر] قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها ، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنـه على وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح .

فأقام [الملك المعز] بمناظر اللوق أياما ، حتى بعثت [شجر الدر] من حلَف عليه . فطلع القلعة وقد أعدت له [شجر الدر] خمسة ليقتلوه : منهم محسن الجَوْجَرِى[1]، وخادم[2] (١٠٤ أ) يعرف بنصر العزيزى ، ومملوك يسمى سـنجر . فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشرى شهر ربيع الأول ، ركب [الملك المعز] من الميدان بأرض اللوق ، وصـعد الى قلعة الجبل آخر النهار . ودخل الى الحمام ليلا ، فأغلق عليه الباب محسن الجوجرى ، وغلام كان عنده شديد القوة، ومعهما جماعة . وقتلوه بأن أخذ بعضهم بأنثييه وبعضهم بخناقه، فاستغاث [المعـز] بشجر الدر فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجرى فى القول، وقال لها : "متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك" ؛ ثم قتلوه .

وبعثت شجر الدر فى تلك الليـلة أصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أيبـك الحلبى الكبير، وقالت له : "قم بالأمر"؛ فلم يجسر . وأشيع أن[3] [المعز] مات بجأة فى الليل، وأقاموا الصائح فى القلعة ، فلم تصـدق مماليكه بذلك : وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمى — وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم — ،وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية،وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم، فأقروا بما جرى . وعنـد ذلك قبضوا على شجر الدر، ومحسن الجوجرى، وناصر الدين حلاوة، وصدر البازى، وفرّ نصر العزيزى إلى الشام .

فأراد مماليك المعز قتل شجر الدر، فحماها الصالحية، ونُقلت إلى البرج الأحمر[4] [بالقلعة] . ثم

---

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة الى قرية جوجر، بمركز سمنود من مديرية الغربية . وهى واقعة على الشاطئ الغربى لفرع دمياط ، وقبالتها على الشاطئ الشرقى منيـة بدر خميس . (ياقوت : معجم البـلدان، ج ٢ ، ص ١٤٣ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٠ ، ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) فى س "وخادما" .

(٣) فى س "انه" .

(٤) كان بقلعة الجبل عدّة أبراج ، ومنها هذا البرج الذى بناه السلطان الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٢) .

لما أقيم ابن المعز فى السلطنة ، حُملت [شجر الدر] إلى أمه فى يوم الجمعة سابع عشريه ، فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت . وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياما ، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها . ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت ، وحملت فى قفة — بتربتها قريب المشهد النفيسى . وكانت من قوة نفسها ، لما علمت أنها قد أحيط بها ، أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر واللآلئ ، كسّرته فى الهاون .

وصُلب محسن الجوجرى على باب القلعة ، ووُسِّط[1] تحت القلعة أربعون طواشيا ، وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة . وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا ، لكونه وزير شجر الدر ، وأخذ خطه بستين ألف دينار .

فكانت مدّة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما ، وعمره نحو ستين سنة . وكان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء : قتل خلقا كثيرا ، وشنق عالما من الناس بغير ذنب ، ليوقع فى القلوب مهابته ؛ وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده . ووزر له الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، ثم صرفه ؛ واستوزر القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، فتمكن منه تمكنا زائدا . وأحدث [القاضى الأسعد] حوادث شنيعة من المظالم ، واستناب فى الوزارة القاضى زين الدين يعقوب ابن الزبير — كان يعرف اللسان التركى — ، ليحفظ له مجالس أمراء الدولة ويطالعه بما يقال عنه .

---

(١) معنى وسط هنا " قطع نصفين " ، وفى (Quatremère : Op. cit. I. l. p. 72. N. 103) أمثلة عديدة للدلالة على استعمال هذا الفعل بذلك المعنى ، ومنها : " وسطه بالسيف نصفين " . وكان هذا النوع من القتل شائعا فى مصر زمن المماليك وفى غيرها من بلاد الشرق أيضا ، وطريقته أن يعرّى المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ، وتسمى هذه العملية بالتسمير ، وربما طيف بالمحكوم عليه شوارع القاهرة على هذه الحال . ثم يأتى السياف فيضرب المحكوم عليه ضربة بقوة تحت السرة ، تقسم الجسم نصفين من وسطه فتنهار أمعاؤه الى الأرض .

الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك

أقامه أمراء الدولة سـلطانا بقلعة الجبل، يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الأول، سـنة خمس وخمسين وستمائة، وعمره خمس عشرة سنة تقريبا. وحلفوا له واستحلفوا العسكر، ما خلا الأمير عز الدين أيبك الحلبي المعروف بأيبك الكبير، فإنه توقّف وأراد الأمر لنفسه، ثم وافق خوفا على نفسه. فركب الأمير قطز — هو والأمراء —، وقبض على الأمير سنجر الحلبي، يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر، واعتقله. فركب الأمير أيبك [الحلبي] الكبير فى الأمراء الصالحية فلم يُوَفَّق، وتقنطر[1] عن فرسه خارج باب زويلة، فأُدخل إلى القاهرة ميتا.

وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة على عادته، و[صار] مدبر دولة[2] [الملك المنصور على]. و[أقيم] الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى أتابك العساكر، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبي (١٠٤ ب). واستمر الوزير شرف الدين الفائزى على عادته، فَنُقِل عنـه الأمير سابق الدين بوزنا[3] الصيرفى، والأمير ناصر الدين محمـد بن الأطروش الكردى أمير جاندار، أنه قال: "المملكة ما تمشى بالصبيان، والرأى أن يكون الملكُ الناصرَ". فتوهَّمت أم المنصور من أنه يرسل إلى الملك الناصر، وقبضت عليـه وأدخلته إلى الدور، وأُخذ خطه بمـائة ألف دينار. واستقر فى الوزارة بعـده قاضى القضاة بدر الدين يوسـف بن الحسن السنجارى، مضافا إلى القضاء وقد أعيد إليـه. وأحيط بأموال الفائزى، وقبض على جماعة بسببه. ثم إن السنجارى استعفى من الوزارة وتركها فى ربيع الآخر، فتقلد الوزارة قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف العلائى، المعروف بابن بنت الأعز، بعد السنجارى.

وفى ليـلة الخامس عشر من جمـادى الآخرة، خسف القمر بحمرة شـديدة، وأصبحت الشمس حمراء، فأقامت كذلك أياما وهى ضعيفة اللون متغيرة.

---

(١) فى س "تقطر". (٢) فى س "دولته". (٣) فى س "بوز نا"، والصيغة المثبوتة هنا من ب (١٢٦ أ)، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 74) هذا الاسم الى (Bourna).

وفيها بلغ البحرية الذين كانوا ببلاد [السلاجقة] الروم موت الملك المعز، فساروا فى البر والبحر، ووصلوا إلى القاهرة . فلم تطل مدتهم حتى كرهوا المنصور بن المعز، لكثرة لعبه بالحمام ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالجارة وركوبه الحمير الفُرْه فى القلعة، ومناطحته بالكباش .

وفيها دخل الصارم أحمر[1] عينه الصالحى بجماعة، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى، وأخرج فى نخ[2] . قال ابن واصل[3] : حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا قال : "دخلتُ على شرف الدين الفائزى وهو معتقل، فسألنى أن أتحدث فى إطلاقه، بحكم أنه يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة، و إلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى" . فلم يلتفت مماليك الملك المعز إلى ذلك، وعجلوا بهلاكه وخنقوه، وحمل إلى القرافة ودفن بها .

وفيها وقعت الوحشة بين الملك الناصر و بين من عنده من البحرية، ففارقوه فى شوّال، وقصدوا الملك المغيث صاحب الكرك . فأخرج الأمير سيف الدين قطز العسكر إلى الصالحية، فواقعوهم فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، وأسروا الأمير سيف الدين قلاون، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، وقُتل الأمير سيف الدين بلغان[4] الأشرفى . وانهزم عسكر الكرك، وفيهم بيبرس البندقدارى الذى[5] ملك مصر. وعاد العسكر إلى القاهرة، فضَمَن الأميرُ شرف الدين قيران[6] المعزى — [وهو] أستادار السلطان — الأميرَ قلاون وأطلقه . فأقام [قلاون] بالقاهرة قليلا، ثم اختفى بالحسينية عند سيف الدين قطليجا[7] الرومى، فزوّده وسار إلى الكرك .

(١) كذا فى س .

(٢) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 75) هذا اللفظ إلى (couverture) أى غطاء، ولعل لفظ "النحى" هو المقصود، ومعناه "الزق أو ما كان للسمن خاصة، وجرة فخار يجعل فيها لبن يمخض" (محيط المحيط) .

(٣) هذه المرة هى الثانية، التى يشير المقريزى فيها الى ابن واصل . (انظر ص ٣٧٩، حاشية ١) .

(٤) كذا فى س، و بغير ضبط، وهو مترجم الى (Belban)، فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76) .

(٥) نصف هذا اللفظ زائل تقريبا فى س، وهو وارد كما هنا فى ب (١٢٦ ب) .

(٦) فى س "قيران"، وقد نقل نقطه من (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76) .

(٧) فى س "قطليجا"، وقد أصلح هذا الاسم على منطوقه فى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 76) .

وفيها بعث الخليفة إلى الناصر يوسف بدمشق خلعة وتقليدا وطوقا . وفيها حسّن البحرية للملك المغيث أخذ ملك مصر، فكاتب عدّة من الأمراء ووعدهم . وفيها قوى هولاكو بن تولى ابن جنكزخان، وقصد بغـداد و بعث يطلب الضيافة من الخليفة[1] . فكثر الإرجاف ببغداد، وخرج الناس منهـا إلى (١٠٥ ا) الأقطار . ونزل هولاكو تجـاه دار الخلافة[2] وملك ظاهر بغداد، وقَتَل من الناس عالمـا كبيرا[3] .

وفيهـا قدم إلى دمشق الفقراء الحَيْدَرِيّة[4] ، وعلى رءوسهم طراطير، ولحاهم مقصوصـة وشواربهم بغير قص . وذلك أنـ شيخهم حيدر، لمـا أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه، فاقتدوا به فى ذلك، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق، ومنها وصلوا إلى مصر .

ومات فى هـذه السنة من الأعيـان نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمـد بن الحسن بن أبى سعد البادرائى[5] البغدادى الشافعى، رسول الخلافة وقاضى بغداد، عن إحدى وستين سنة . وتوفى الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين أبو سـعيد هبة الله بن صاعد الفـائزى . وتوفى

(١) يوجد فى (D'Ohsson : Op. cit. III. p. 215 et seq.) ترجمة فرنسية لهـذا الكتاب الذى بعثـه هولاكو الى الخليفة المستعصم ، وفحواه دعوة الخليفة الى تسليم نفسه وعاصمته بغـداد الى التتر ، أو الويل والثبور ؛ وكان جواب المستعصم على هذا سخرية من هولاكو ومطلبه ، وقد حمله الى هولاكو شرف الدين عبد الله بن الجوزى . (Browne : Op. cit. II. p. 461) .

(٢) ينتهى هنا النقص الموجود بنسـخة مفرج الكروب لابن واصل المذكورة فى هذه الحواشى . انظر (نفس المرجع، ص ٣٨٥ أ) .

(٣) تحـرك هولاكو من حمـدان ، حيث كان معسكرا منذ الانتهاء من حرب الإسماعيلية ، الى بغداد مباشرة فى ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ (نوفبر ١٢٥٧ م) ؛ وأرسـل فى نفس الوقت جيشا بقيادة (Baidju Noyon) ، للزحف على بغداد أيضا من طريق تكريت والموصل . وكان عدد الجيش الذى بقيادة هولاكو ثلاثين ألفا على حسب تقرير المؤرخين المعاصرين ، وكانت عدة الجيش الذى جهزه الخليفة المستعصم عشرين ألفا . وتقدمت الجيوش التترية ، فتناوبت النصر والهزيمة هى وجيوش الخليفة ، حتى حاصرت بغداد نفسها فى المحرم سنة ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) (Browne : Op. cit. II. p. 460 et seq.) . انظر أيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٥ أ)

(٤) ترجم (Quatremère : OP. Cit. T. I. P 76) هذا اللفظ الى (Haidaris) ، بغير تعليق .

(٥) فى س "الباذراى" .

عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبى الحديد المدائنى ، مؤلف كتاب الفلك الدائر على المثل السائر . ومات متملك الروم علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين[1] كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان . وقام بعده أخوه عز الدين كيكاوس ابن غياث الدين كيخسرو ، فملك الططر قونية منه ، ففر منها إلى العلايا[2] .

(١) كان علاء الدين كيقباد أصغر الأخوة الثلاثة ، الذين تشاركوا فى حكم بلاد السلاجقة الروم (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . ومات علاء الدين كيقباد هذا مقتولا ، وهو فى الطريق الى منكوخان إمبراطور التتر . ولما كان أخوه الثانى ، وهو ركن الدين قلج أرسلان ، مسجونا بأمر عز الدين كيكاوس وهو الأخ الثالث ، فإن الجو خلا لعز الدين هذا بعد وفاة علاء الدين كيقباد . وعز الدين كيكاوس هو الذى انهزم على يد القائد التترى (Baidju Noyon) سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، ولجأ بعد هزيمته الى الأشكرى (Theodore II Lascaris) ، إمبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية . وهذه الأخبار هى التى قصد المقريزى إيرادها تحت سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، فاختلط عليه الأمير وأخطأ ، على الصورة التى سبق ورودها . (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . وكان التتر قد أخرجوا ركن الدين قلج أرسلان من السجن ، وأقاموه مقام أخيه سلطانا على السلاجقة الروم . ثم حدث بمجرد رحيل الجيوش التترية عن البلاد ، أن رجع عز الدين الى قونية ، وكان أخوه ركن الدين قد استقر بقيصرية ، فاتفق الأخوان فيما بينهما على اقتسام البلاد ، وجعل نهر قزل إرمك حدا بين القسمين . ثم ذهب الأخوان الى حضرة هولاكو وكان وقتئذ بتبريز ، للتصديق على ذلك الاتفاق ، وتم الأمر . بعد ذلك غضب هولاكو على عز الدين ، لمفاوضته سلطان المماليك بمصر وهو عدو التتر ، فعزله هولاكو وألجأه إلى الفرار إلى العلايا سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، وهى إحدى الثغور الجنوبية فى آسيا الصغرى . (انظر الحاشية التالية) . وسافر علاء الدين بعد ذلك الى القسطنطينية ، وكان قد رجع إليها سلطان البيزنطيين ، فأقام بها حتى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) . واتهم عز الدين تلك السنة بالاشتراك فى مؤامرة على حياة الامبراطور (Michael Palaeologus) ، غرضها إقامة عز الدين نفسه أمبراطورا . لذلك أخرج عز الدين منفيا الى بلدة (Ainos) ، وبقى هناك حتى أرسل اليها منكوتيمور خان القبشاق جيشا سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٨ م) فاحتلها ، وأطلق سراح عز الدين وأحضره الى بلاد القرم حيث تزوج من إحدى بنات بركة خان ، وبقى بها حتى وفاته سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩) . انظر (Enc. Isl. Art. Kaika'us II.) . وقد انفرد ركن الدين قلج أرسلان بالملك منذ جلوء أخيه الى البيزنطيين ، على أن مقاليد الحكم كانت فى يد الوزير معين الدين سليمان ، وعلى يد هذا الوزير كان مقتل ركن الدين سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦) م . (Enc. Isl. Art. Kilidj Arslan IV) (Cam. Med. Hist. IV. pp. 503 et seq., 510) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو ثغر بجنوبى آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واسمه الأصلى (Galonoros) أى الثغر الجميل باللغة اليونانية ، وكان يحكمه أمير (baron) أرمنى مستقل بنفسه . ثم استولى السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى على هذا الثغر حوالى سنة ١٢٢٠ م ، وبنى به الأسوار والعمائر وجعله مشتى لبلاطه ، وسماه العلايا نسبة إليه . فلما انتهت دولة الروم السلاجقة من آسيا الصغرى ، ظل ثغر العلايا بيد أبناء تلك الدولة ، وعاشوا به حتى استولى عليه منهم الأتراك العثمانيون ، سنة ١٤٧١ م . (Enc. Isl. Art. Alaya) .

* * *

سنة ست وخمسين وستمائة . فيها وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك(١) القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما(٢)، و بقية الأسعار من هذه النسبة .

وفى رابع شهر رمضان سقطت إحدى مسالّ(٣) فرعون التى بعين شمس، فوُجِد فيها نحو المائتى قنطار نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار .

وفيها ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله عبد الله(٤) فى سادس صفر، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام . وانقرضت بمهلكه دولة بنى العباس [من بغداد]، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فصحّ حديث حبيب ابن أبى ثابت، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن رسول الله قام فقال : "يامعشر قريش !

---

(١) المكوك هنا — وجمعه مكاكيك — مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا، والصاع قدر نصف ويبة، والويبة ثلاث كيلات . (محيط المحيط) . على أن هذه المكاييل ليست ذات سعة واحدة فى أنحاء البلاد الإسلامية، كما يتضح من (Enc. Isl. Art. Kaila) .

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س، قدر نصف سطر تقريبا .

(٣) جمع مسلة، وكان ببلدة عين شمس، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٢٨ — ٢٣١) مسلتان فقط، سقطت إحداهما فى رمضان من تلك السنة، و بقيت الثانية أو جزء منها الى الآن .

(٤) أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد، فى أوّل يوم من تلك السنة (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨ م)، ودحر جيوش الخليفة المستعصم بعد ذلك بتسعة أيام، ولم يبق فى طريقه الى أبواب بغداد مقاومة . وفى يوم ٤ صفر (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) سلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد ولا شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان . و بعد ذلك بعشرة أيام قتل الخليفة وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن، وممن قتل أيضا محيى الدين بن الجوزى، وأولاده جمال الدين وتاج الدين وشرف الدين، وغيرهم كثير . على أن الروايات تختلف فى كيفية قتل التتر للخليفة المستعصم، وفى هذا يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٥ ب) : "وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه، لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان، فقيل إنه خنق، وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات، وقيل غرق فى الدجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك" . هذا وقد كان من تقاليد التتر ألا يريقوا دما ملكيا، فالغالب أن المستعصم لقى حتفه بإحدى الوسائل المتقدمة، وليس بالسيف . راجع (Browne : Op. cit. II. p. 463)، وانظر أيضا (Enc. Isl. Arts. Baghdad & Hulagu) .

إن هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه . فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه، فالتحوكم كما يلتحى القضيب (١) .

وقُتِل الناس ببغـداد وتمزقوا فى الأقطار، وخرب (٢) [التتر] الجوامع والمساجد والمشاهد (٣)، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوما . وأمر هولاكو بعدِّ القتلى، فبلغت نحو الألفى ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بهـا . وملك التتار إربل (٤)، ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى طاعتهم .

وفيهـا كثر الوباء ببلاد الشام، فكان يموت (٥) من حلب فى كل يوم ألف ومائتا إنسان . ومات من أهل دمشق خلق كثير، وبلغ الرطل التمر هندى ستين درهما .

وفيها أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه تقادم وعدة من الأمراء . فلما وصل [الملك العزيز] إلى هولاكو قدّم إليه ما معه، وسأله على لسان أبيه

---

(١) تقدّم ذكر هذا الحديث، على هامش العبارات الافتتاحية من هذا الكتاب . انظر ص ٨، حاشية ٢ .

(٢) فى س "خربوا" .

(٣) يفهم من (Enc. Isl. Art. Baghdad)، أن بغداد — مع فداحة الكارثة التى حلت بهـا — لم تلق على يد التتر مثـل الذى لقيته بلاد أخرى على يدهم . والسبب فى ذلك أن هولاكو كان يريد أن يحتفظ ببغداد لنفسه، وقد أمر فيما بعد باصلاح بعض ما أفسدت جيوشه، مثل إعادة بناء جامع القصر الذى كان من أكبر جوامع بغداد .

(٤) كان هولاكو إبان شروعه فى الزحف على بغداد، قـد أرسل جيشا بقيـادة (Oroctou Noyon) للاستيلاء على إربل . وكان بها منذ سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) قوم من الكرد، استطاعوا أن يقاوموا جيوش هولاكو مقاومة عنيـدة مدة، وذلك رغم ذهاب قائدهم الشريف ابن صـلايا إلى جيوش التـتر، ورجوعه الى إربل لينصح النـاس بالتسليم . ثم حدث أن أنجـد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصـل جيوش التتر على إربل، فانكسرت المقاومة الكردية وسلمت المدينة . وكان القائد التترى قد أرسل الشريف ابن صلايا الى حضرة هولاكو بهمذان، بعد ما تبين عجزه عن إقنـاع الأكراد بالتسليم، فأمر هولاكو بقتـله عملا بمشورة بدر الدين لؤلؤ . وفى هـذا يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٦ أ) : "وأما الشريف ابن صلايا فقتل، وقد ذكر والله أعلم أن بدر الدين لؤلؤ هو [الذى] كان السبب فى قتله، وأنه قال لهولاكو هـذا شريف علوى، وربما يطاول أن يكون خليفة، وتبايعه على ذلك خلق عظيم، فتقدم بقتله" . انظر أيضا (D'Ohsson : Op. cit. III. p. 256-257 ; Enc. Isl. Art. Irbil).

(٥) فى س "مات" .

فى نجدة ليأخذ مصر من المماليك ، فأمر [هولاكو] أن يُتَوَجَّه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس . فطار هذا الخبر إلى دمشق ، فرحل من كان بها من المماليك البحرية ، وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرّضوه على أخذ مصر ، فجمع الملكُ المغيث وسار .

فتجهز الأمير قطز ، وخرج من القلعة بالعساكر فى ... ...[1] . فلما وصل الى الصالحية تسلل الى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وصاروا اليه ، فلقيهم قطز وقاتلهم . فانهزم الملك المغيث فى شرذمة الى الكرك ، ومضى البحرية نحو الطور[2] واتفقوا مع الشَّهرزُورِيّة[3] من الشرق . واستولى المصريون على من بقى من عساكر[4] [المغيث] وأثقاله ، وأسروا جماعة ، وعادوا الى قلعة الجبل . وقد تغير قطز على عدّة من الأمراء ، لميلهم الى الملك المغيث : فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومى الصالحى ، والأمير سيف الدين بلبان الكافورى الصالحى الأشرفى ، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفى ، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفى ، وجماعة غيرهم ، وضرب أعناقهم فى سادس عشرى ربيع الأوّل (١٠٥ ب) ، وأخذ أموالهم كلها .

وفيها فر طائفة من [الأكراد من وجه] عسكر هولاكو ، يقال لهم الشهرزورية ، وقدموا دمشق وعدّتهم نحو الثلاثة آلاف ، ومعهم أولادهم ونساؤهم . فسر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم ، فزاد عتهم وكثر طلبهم حتى خافهم ، وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمردا عليه ، إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك ، فسر بهم وتاقت

(١) بياض فى س .

(٢) الراجح أن الطور المقصود هنا هو طور سيناء ، وليس الطور المذكور بالقسم الأوّل ، ص ٩٥ ، حاشية ١ .

(٣) فى س " السهرز " فقط ، وبقية اللفظ زائل ، على أنه فى ب (١٢٧ ب) . والشهرزورية نسبة إلى شهرزور ، وهى إحدى جهات كردستان ، حيث توجد مدينة بهذا الاسم أيضا . وكان بتلك الجهة جماعة الأكراد الكوسية (Kusa Kurds) ، وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد ، وتقدّمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر ، كما بالمتن . (Enc. Isl.Art. Shehrizur).

(٤) فى س "عساكره" .

نفســه إلى أخذ دمشــق . فخاف الناصر وتخيــل من الأمراء القيمرية الذين فى دمشــق ، فاضطرب وتحير .

وفيها مات أمير بنى مَرِين أبو يحيى بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة، فى رجب. وقام من بعده ابنه عمر، ونازعه عمه يعقوب بن عبد الحق . وأبو يحيى هو الذى فتح الأمصار، وأقام رسوم المملكة ، وقسم بلاد المغرب بين عشائر بنى مرين، وقام بدعوة الأمير أبى زكريا ابن أبى حفص صاحب تونس . وأبو يحيى أوّل من اتخذ الموكب الملكى[(١)] منهم، وملك مدينة فاس. وقد استبد [أبو يحيى] بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواحد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبى حفص بإفريقية . هذا وقد أشرفت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن على الزوال .

وفى ســنة ست وخمسين [هــذه] قدم أولاد حسن مكة، وقبضوا على إدريس وأقاموا ستة أيام، فجاء أبو نمىّ وأخرجهم ولم يُقتل بينهم أحد .

ومات فى هذه السنة من الأعيان[(٢)] ... المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمــد، آخر خلائف بنى العباس، مقتولا فى سادس صفر، بعــد ما أتلف عساكر بغــداد لنهمته فى جمع المــال . فَدُهِى الإســلام وأهله بلينه ، وإســناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمى ، فإنه قطع أرزاق الأجناد ، واستجرّ[(٣)] التتار حتى كان ما كان . ومات الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، صاحب دمشق والكرك، بعد ما مرّت به خطوب كثيرة، عن ثلاث وخمسين سنة خارج دمشق؛ وله شــعر بديع . وتوفى الحافظ ركن الدين أبو عبــد الله عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة المنذرى الشافعى الإمام الحجة، عن خمس وسبعين سنة. ومات محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج

(١) فى س " الملوكى " .

(٢) النصف الثانى من كلمة الأعيان محجوب بورقة ملصوقة فوقه فى س، وكذلك بقية السطر أيضا . ولعل تلك البقية، وهى المشار إليها هنا بنقط، عبارة عن لفظى " الخليفة العباسى "، أو شىء مثل ذلك .

(٣) انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ٢ .

عبد الرحمن بن على بن محمـد بن على بن محمد بن جعفر بن الجوزى البكرى البغدادى الحنبلى ، محتسب بغداد ورسول الخلافة ، عن[1] ست وسبعين سـنة . وتوفى الصاحب محيي الدين أبو عبد الله محمـد بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زيد بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عامر أبى جرادة العقيلى بن العديم الحنفى ، عن ست وستين سنة بحلب . وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد المجيد بن المولى الأنصارى الحلبى ، صاحب الإنشاء بحلب . وتوفى ناظر الجيش بحلب ، [واسمه] عون الدين أبو المظفر سليمان بن البهاء أبى القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبـد الله بن الحسن بن العجمى الحلبى ، عن خمسين سنة . وتوفى الصاحب عز الدين أبو حامد محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر بن القيسرانى الحلبى ، ناظر الدواوين بدمشق . وتوفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى الأزدى المكى ، الكاتب الشاعر الماهر ، صاحب الإنشاء بديار مصر ، عن خمس وسبعين سـنة . وتوفى الأمير سـيف[2] الدين على بن سابق الدين عمر بن قزل ــ المعروف بالمشدّ ، عن أربع وخمسين سنة ؛ وشعره الغاية فى الجودة . وتوفى شاعر بغداد جمال الدين أبو زكريا يحـيى بن يوسف بن يحيى بن منصور الصَّرصرى[3] الحنبلى شهيدا ، عن ثمـان وستين سنة . وتوفى الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد ابن أبى الوفاء بن الحُلَاوِى[4] الموصلى ، عن ثلاث وخمسين سـنة بالموصل . و[توفى] الأديب سعد الدين أبو سعد محمد بن محيي الدين محمـد بن على بن عربى ، بدمشق . و[توفى] الأديب

(١) توفى فى تلك السنة أيضا ، حسبما جاء فى ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٣٨٧ ب) ، الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، مؤلف كتاب مرآة الزمان .

(٢) كان هـذا الأمير قريب جمال الدين بن يغمور ، وابن أخ الأمير فخر الدين عثمان أستادار الملك الكامل . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٨٩ أ) .

(٣) بغير ضبط فى س ، والنسـبة الى صرصر ، وهو اسم يطلق على قريتين من سواد بغـداد ، وهما صرصر العليا وصرصر السفلى ، وكلتاهما على ضفة نهر عيسى الذى يسمى أحيانا نهر صرصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) بغـير ضبط فى س ، والنسـبة الى بلدة حلاوة . انظر ياقوت (معجم البلدان : ج ٢ ، ص ٣٠٣) .

نور الدين أبو بكر محمد عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم الإسعردى ، بدمشق . و[توفى] الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الحق بن يوسف الشاذلى الزاهد، بصحراء عيذاب . و[توفى] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفتح، خطيب مَرَدا (١)، التركى الحنبلى، عن سبعين سنة، بمردا من عمل دمشق، [وكان قد] حدّث بالقاهرة .

* * *

سنة سبع وخمسين وستمائة . فيها نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئا، فرحلوا عنها إلى ميافارقين (٢) وحاصروا أهلها، حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التى تلبس فى الرجلين .

وفيها خرج الملك المغيث من الكرك بعساكره يريد دمشق، فخرج الملك الناصر من دمشق إلى محاربته ، ولقيه بأَرِيحا (٣) وحاربه، فانهزم المغيث إلى الكرك . وسار الناصر إلى القدس فأقام به أياما، ثم رحل إلى زَيْزاء (٤) فخيم على بركتها . وأقام [هناك] مدّة ستة أشهر، والرسل تتردّد بينه وبين المغيث إلى أن وقع الاتفاق بينهما، على أن الناصر يتسلم من المغيث الطائفة البحرية جميعهم، وأن المغيث يبعد عنه الشهرزورية؛ فسارت الشهرزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية .

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى قرية قرب نابلس ، تنطق بألف مقصورة دائما . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٣) .

(٢) كان هولاكو قد عزم إبان تلك السنة على غزو الشام ، ووقعت محاولاته على ماردين وميافارقين فى الطريق اليها . وكان من ضمن قواده إذ ذاك ولده يشموط (Yschmout)، وقد ناط به أخذ مدينة ميافارقين : (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 306-308) . وكان صاحب ميافارقين الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، وقد صابر حصار التتر واستمر على المقاومة مدة سنتين، حتى نفدت عنده الأزواد، وفنى أهل ميافارقين بالوباء والقتل ، وضعف من بقى منهم لديه عن القتال . عند ذلك استولى التتر عليها ، وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور ، كما سيلى بالمتن .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس ، وتسمى أيضا أريحا وأريحاء . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧ — ٢٢٨) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة تابعة للبلقاء، وتطل على بركة واسعة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٦٦) .

وسَـيّر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان، فحلف له وحضر [ركن الدين بيــبرس] إليــه على بركة زيزاء : ومعه بدر الدين بيسرى ، وإيتمش المسعودى، وطيبرس الوزيرى، وبلبـان الرومى الدوادار، وأقوش الرومى، ولاجين الدرفيل الدوادار، وكشتغدى المشرف، وإيدغمش [الشيخى ؟]، وأيبك الشيخى، وبلبان المهرانى، وخاص ترك الكبير، وسنجر المسعودى، وأياز الناصرى، وســنجر الهمامى، وأيبك العلائى، وطبان [الشقيرى ؟] ، ولا جين الشقيرى، وســلطان الإلدكزى، وبلبـان الأقسيسى، وعز الدين بيبرس[1] . فأكرمه [الملك الناصر]، وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها، بمائة وعشرين فارسا . وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر، فرحل عن زيزاء إلى دمشق، وقبض على البحرية واعتقلهم .

وفيها قدم الملك العزيز بن الملك الناصر من عند هولاكو، وعلى يده كتابه ونصه : "الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ . واستحضرنا خيلفهـا[2]، وسألناه[3] عن كلمات فكذب، فواقعه النـدم واستوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المـال (١٠٦ أ) ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تم أمر دنا نقصــه * توقَّ زوالا إذا قيـل تم
إذا كنت فى نعمة فارعها * فإن المعاصى تزيل النعم
وكم من فتى بات فى نعمة * فلم يدر بالموت حتى هجم

(١) قوبلت جميع هذه الأسماء على ترجمتها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 83) .

(٢) كذا فى س ، ولعلها صيغة تحقير وتصغير على غير قياس، فان مصغر خليفة يكون خُلَيْفَة .

(٣) فى س "سالنا" .

إذا وقفت على كتابى هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه رُوىْ زَمِين[١]، تأمن شره وتنل[٢] خيره ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى . ولا تعوق رسلنا عندك كما عوّقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان[٣] سراى، فإن كانوا فى الجبال نسفناها، و إن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لهارب * ولَّى البسيطان الثرى والماء

ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت * فى قبضتى الأمراء والوزراء

فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك ، وخاف الناس بدمشق خوفا كثيرا لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات[٤] ، وسار كثير منهم[٥] إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق، ونُهب أكثرهم . و بعث الناصر، عند ما بلغه توجه هولاكو نحو الشام، بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر، يستنجد بعسكرها .

فلما قدم [ابن العديم] إلى القاهرة، فى يوم ...[٦]، عُقد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور، وحضر قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسُئلا فى أخذ أموال العامة ونفقتها فى العساكر، فقال ابن عبد السلام : "إذا لم يبق فى بيت المال

(١) فى س "روازمين"، ومعنى شاهنشاه روى زمين، ملك الملوك على وجه الأرض . (Quatremère : Op.cit. I. 1. p. 84. N. 119 & Richardson : A Dict. Pers. Ar. Eng.) .

(٢) فى س "تنال" .

(٣) ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) هذا اللفظ ترجمة حرفية الى (Karavanserai)، أى محط الرحال أو فندق المسافرين . غير أنه توجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة بهامش الصفحة ، ونصها : "يعنى مصر"، وهى بخط المتن . و يفهم من هذا أن مصر كانت تعرف فى بلاد التتر باسم كروان سراى، و ربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من سائر جهات الشرق والغرب، فى القرون الوسطى .

(٤) كان هذا الخبر مفعما بالمبالغة، فالمعروف أن هولاكو لم يعبر الفرات إلا بعد الاستيلاء على آمد وغيرها، وسيأتى ذكر ذلك كله فيما يلى . (انظر ص ٤١٩، سطر ١) .

(٥) الضمير هنا عائد على أهل دمشق . (٦) بياض فى س .

شيء،وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحـرب، ولم يبق للجنـدى إلا فرسه التى يركبها، ساغ أَخْذ شيء من أموال النـاس فى دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دَفْعُه بأموالهم وأنفسهم"(١)؛ وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلا إلى القول ، وأخذ ينكر على الملك المنصـور ، وقال : "لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة". وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علىّ بن المعز أيبك، واستهتر فى اللعب، وتحكّمت أمه فاضطربت الأمور . وطمع الأمير سيف الدين قطز فى أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلمـا خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمى ،والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعـزية لرمى البندق — وكان يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة — قبض [قطز] على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما ، واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل . فكانت مدّة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

الملك المظفر سيف الدين قُطُز(٢)

جلس على سرير الملك بقلعة الجبـل يوم السبت ، الرابع والعشرين من ذى القعدة ، سنة سبع وخمسين وستمائة . وهو ثالث ملوك الترك بمصر . وفى خامسه وَلِى الوزارة زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، وصُرف تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز . فبلغ ذلك الأمراء فقدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قَبْض(٣) [قطز] على الملك المنصور، وتوثبه على المُلْك . فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر، والتخوف مع هذا من الملك الناصر صاحب دمشـق، [وقال] : " وإنى ما قصـدت إلّا أن نجتمع على قتال

(١) كان من بين الحاضرين هذا المجلس ابن واصل . انظر (نفس المرجع ، ص ٣٩١ ب) .

(٢) ضبط اسم هذا السلطان على منطوقه فى (Enc. Isl. Art. Ḳuṭuz) ، وفى هذا المرجع أن اسم قطز الأصلى محمود بن ممدود، وأنه كان قريب (nephew) الملك جلال الدين خوارزمشاه، وقد أسر فى حروب التتر، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك .

(٣) فى س " قبضه " .

التتر، ولا يتأتّى ذلك بغير مَلِك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا فى السلطنة من شئتم " . فتفرقوا عنه ، وأخذ يرضيهم حتى (١٠٦ ب) تمكّن . فبعث بالمنصور وأخيه وأمه الى دمياط، واعتقلهم فى برج عمره وسماه برج السلسلة، ثم سيرهم الى بلاد الأشكرى (١) . وقبض على الأمير علم الدين سنجر الغتمى المعظمى، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزى، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قرا سنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير ، والأمير سيف الدين الدود (٢) خال الملك المنصور على بن المعز، والطواشى شبل الدولة كافور لالا (٣) الملك المنصور ، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجمدار . واعتقلهم ، وحلّف الأمراء والعسكر لنفسه ، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير فى خامس ذى القعدة، واستقر بالأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستعرب أتابكا (٤) . وفوّض إليه والى الصاحب [زين الدين؟] تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الدولة، واحتفل باستخدام الجنود والاستعداد للجهاد .

وورد الخبر بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، فكتب إليه الملك المظفر قطز وقد خافه كتابا يترقق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حلّ بها أقعده على الكرسى، [وقال فيه أيضا] : " وإن اخترتنى خَدَمْتُك ، وإن اخترتَ قدمتُ ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره " . فلما قدم على الملك الناصر ...اب قطز اطمأن .

---

(١) المقصود ببلاد الأشكرى هى الإمبراطورية البيزنطية بنيقية ، وصاحبها تلك السنة (Theodore Lascaris II.) . انظر (Camb. Med. Hist. III. pp. 501-506) .

(٢) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 86) هذا الاسم الى (Addoud) .

(٣) اللالا لفظ فارسى، معناه هنا الشخص المكلف بالعناية بالأطفال . (Steingass: A Pers.Eng. Dict.) .

(٤) فى س "اتابك" .

وفيها سار هولاكو من بغداد بنفســه إلى ديار بكر، ونزل على آمد يريد حلب، ونازل حران ونصب عليها المجـانيق — وكانت فى مملكة النـاصر يوسف — حتى أخذها . وقطع بعضُ جيشه الفرات وعاثوا فى البلاد[1] ، فأجمع أهل حلب على الرحلة منها ، وخرجوا جافلين . فاحترز نائبها المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف، وجمع أهل الأطراف . وتقدم التتار حتى دنوا من حلب، فقتلوا كثيرا من عسكرها الذين خرجوا إليهم، ثم رحلوا عنها عاجلا .

فاضــطرب الناصر وعزم على لقاء هولاكو، وخيَّم على بُرْزَة[2] . وكتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك، و إلى الملك المظفر قطز، يطلب منهما نجدة . ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت، وعظم خوف الأمراء والعساكر من هولاكو : فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو، ويشير بأن لا يقاتَل وأن يدارَى بالدخول فى طاعتــه . فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البنـدقدارى ، وضربه وسـبه وقال : "أنتم سبب هـلاك المسلمين"، وفارقه إلى خيمته . فمضى الزين الحافظى إلى الملك الناصر، وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس . فلما كان الليل (١٠٧ أ) هجم طائفــة من المماليك على الملك الناصر، ليقتلوه ويملِّكوا غيره ، وكان فى بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق . فبادر الأمراء القيمرية والأمير جمال الدين بن يغمور والأكابر إلى القلعة، وأشاروا على الناصر بأن يخرج إلى المخيم، فخرج . وعند ماخرج ركب بيبرس وسار إلى غزة، وبها الأمير نور الدين

(١) سار هولاكو بعد حصار ماردين وميافارقين الى آمد ، وترك على حصارها الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . (انظر ص ٤٢١ ، سطر ٧) . ثم زحف هو على نصيبين واستولى عليها ، وتقدم حتى عسكر قرب حران فأسرع أهلها الى التسليم ، وحذا حذوهم أهل الرها ، وشذ أهل سروج فلم يرسلوا فى طلب الأمان ، فكفاهم هولاكو بسيوف عسكره مؤونة التسليم . (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 308-313) . لم يبق بعد ذلك بين جيوش التتر ونهر الفرات سوى مسافة قصيرة ، فأنفذ هولاكو جزءا من الجيش بقيادة ولده يشموط ، فسبق الجيش الرئيسى الى عبوره والتقدّم نحو حلب عن طريق ناحيــة تل باشر وبلدة نهر الجوز . وهذه المحاولة على حلب هى التى أسماها ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٣ أ) "المنازلة الأولى" . (انظر ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ١٥١) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بالغوطة شمالى دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٦٣؛ ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٩٢ أ) .

بدلان كبير الشهرزورية، فتلقاه وأنزله . وسيّر [بيبرس](١) إلى الملك المظفر قطز علاءَ الدين طيبرس الوزيرى ليحلِّفه ؛ [فكتب إليه الملك المظفر أن يقدم عليه . ووعده الوعود الجميلة . ففارق بيبرس الناصرية، ووصل فى جماعة إلى مصر، فأنزله الملك المظفر بدار الوزارة، وأقبل عليه وأقطعه قليوب وأعمالها(٢)] .

وبلغ الناصر أن هولاكو أخذ قلعة حران وسائر تلك النواحى، وأنه عزم على أخذ حلب، فاشتد جزعه وسيّر زوجته وولده وأمواله إلى مصر، وخرج معهم نساء الأمراء وجمهور الناس . فتفرقت العساكر، وبقى [الناصر] فى طائفة من الأمراء . ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها — وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز [عثمان بن العادل](٣)، وله بها تسع سنين فى الاعتقال، وولاه الصبيبة وبانياس — ، ونزل على حلب .

ففر أهل دمشق وغيرها، وباعوا أموالهم بأبخس ثمن، وساروا وكان الوقت شتاء، فهلك منهم خلق كثير . وسير الملك المغيث من بقى عنده من البحرية مقيدين على الجمال، وهم نحو الخمسين : منهم الأمير سنقر الأشقر . وسار أربعة من البحرية إلى مصر : وهم قلاون الألفى، وبكتاش الفخرى أمير سلاح، وبكتاش النجمى، والحاج طيبرس الوزيرى .

وفيها كثرت الزلازل بأرض مصر . وفى ثانى عشر جمادى الآخرة جُبِى التصقيع من أملاك القاهرة ومصر . وفى شعبان قُبض على رجل يعرف بالكورانى، وضرب ضربا مبرحا بسبب بدع ظهرت منه، وجدّد إسلامه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأُطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر .

وفيها بنى [هولاكو] الرَّصَد بمدينة مَرَاغة(٤)، بإشارة الخَوَاجا(٥) نصير الدين محمد الطوسى،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٤ أ) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٩، ١٤٣، ١٤٤ فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) بغير ضبط فى س، وهى من بلاد آذربيجان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٦) .

(٥) الخواجا هنا أو الخواجه — المعلم، ومن معانيه الكاتب والتاجر. (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . =

وهو دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء ، بها من كتب بغداد شيء كثير، وعليها أوقاف لخدامها .

وفيها[1] استقل يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة ، ملك بنى مرين، بملك فاس وعامة المغرب الأقصى . وفيها سار عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباد من قونية إلى هولاكو، فأقاما عنده مدة ثم عادا إلى بلادهما[2] .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل، فى ثالث عشر شعبان عن ثمانين سنة، دبّر فيها الموصل نحو خمسين سنة[3] . وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل ، وسار ابنه علاء الدين على مفارقا لأخيه إسماعيل إلى الشام . وتوفى الشريف منيف بن شيحة الحسينى أمير المدينة النبوية . وتوفى صدر الدين أبو الفتح أسعد ابن المنجا التنوخى الدمشقى الحنبلى، ناظر الجامع الأموى، عن ستين سنة بها . وتوفى نجم الدين أبو الفتح مظفر بن محمد بن إلياس بن السيرجى الأنصارى الدمشقى الشافعى، محتسب دمشق ووكيل بيت المال بها . وتوفى الأديب بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن مكى بن محمد بن الحسين بن الدجاجية القرشى الدمشقى بها، عن ست وستين سنة .

= أما نصير الدين الطوسى، المولود بطوس سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠م)، فكان من البارزين فى شتى العلوم فى عصره، واشتهر خاصة بالاشتغال بالفلك . وقد أقام نصير الدين عند الإسماعيلية ببلدة ألَمُوت مدة، وهو الذى أغرى ركن الدين خورشاه رئيس الإسماعيلية بالتسليم الى هولاكو . ودخل نصير الدين بعد ذلك فى خدمة هولاكو، وكان مسموع الكلمة عنده، وهو الذى أقنعه حينما كان يفكر فى مصير الخليفة المستعصم، أن إعدام الخليفة لن يستجلب غضب أحد فى السماء أو الأرض . (Browne : Op. Cit. II. pp. 456-457, 460, 465, 484-486) .

(١) انظر الحاشية التالية .

(٢) العبارة المبتدئة من رقم الحاشية السابقة والمنتهية هنا، مكتوبة بقلم مخالف لقلم المتن المعتاد، على أنها بخط المقريزى، والراجح أن مكانها كان بياضا ملأه المقريزى فيابعد، بعد أن اعترى خطه شيء من الهزة . هذا وقد تقدم ذكر أخبار هذين الملكين السلجوقيين فى ص ٤٠٠، حاشية ١ .

(٣) يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٦ أ — ب) فقرة طويلة فى تاريخ أعمال بدر الدين لؤلؤ . انظر أيضا (نفس المرجع، ص ٣٩١ أ — ب)، حيث توجد له ترجمة قصيرة .

* * *

سنة ثمان وخمسين وستمائة . فى المحرم نزل هولاكو على مدينة حلب[(١)]، وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه [إلى طلبه][(٢)] وأبى إلا محاربته . فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف ، وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام ، استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى . وصارت عساكر التتر تمشى على جيف من قُتِل ، فيقال (١٠٧ ب) إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان . وامتنعت قلعة حلب، فنازلها [هولاكو] حتى أخذها فى عاشر صفر، وخربها وخرب جميع سور البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة . وخرج اليه الملك المعظم توارن شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام[(٣)] . ووجد [هولاكو] من البحرية تسعة أنفس فى حبس الملك الناصر، فأطلقهم وأكرمهم :

(١) يوجد فوق هذا اللفظ عبارة "فى ثالث صفر"، ولما كان من المعروف ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٥ أ — ب)، أن هولاكو نزل على نواحى حلب مثل جبرين والملاحة فى المحرم، وأنه لم يزحف على مدينة حلب نفسها حتى ثانى صفر، وذلك بعد رجوع رسوله من عند صاحبها الملك المعظم، (انظر الحاشية التالية)، فيظهر أن المقريزى كتب العبارة المشار اليها لمجرد الاختصار .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٤ ب) . وكان مضمون الرسالة الى الملك المعظم نائب حلب : "إن هولاكو يقول لكم إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ومالكم قدرة بهم، ونحن نقصد الملك الناصر ومن معه من العساكر . فتجعلون لنا عندكم شحنة بالقلعة وشحنة بالمدينة، ونتوجه نحن الى الملك الناصر . فان كانت الكسرة علينا فالأمر اليكم، إن شئتم أبقيتم على الشحنتين وطردتموهما عنكم، وإن شئتم قتلتموهما . وإن كانت النصرة لنا ، فحلب وغيرها لنا وتكونون آمنين على أنفسكم . فلما أدى الرسول الرسالة على (كذا) الملك المعظم ، قال الملك المعظم نحن لانجيب (فى الأصل نجب) إلى هذا أبدا، وما بيننا وبينه إلا السيف . فانصرف الرسول متعجبا من هذا الجواب ومتألما، لما يعلم أن من هذا الجواب يكون وباله (كذا) على أهل حلب والمسلمين . ولما بلغ هولاكو ما أجاب به الملك المعظم، ركب فى جحافله وعساكره الكثيرة ورحل الى حلب ، وأحاط بها ثانى صفر من هذه السنة" .

(٣) لا يوجد فى نسخة ابن واصل المتداولة هنا (نفس المرجع، ص ٣٩٤ ب — ٣٩٥ أ) ، سوى أوائل أخبار هذا الحصار ، وذلك لفقد الصفحات التى بها بقية أخبار تلك السنة ، وجزء من أخبار السنة التالية أيضا .

منهـم سـنقر الأشقر ، وسيف الدين سكز ، وسيف الدين برامق ، وبدر الدين بكمش المسعودى ، ولاجين الجمدار الصالحى ، وكندغدى الصغير (١) .

فلما وصـل الخبر الى دمشق بأخذ قلعة حلب اضطربت بأهلها ؛ وكان الملك الناصر قد صادر الناس ، واسـتخدم لقتال التتر ، فاجتمع معه مايناهز مائة ألف ما بين عرب وعجم . فتمزق حينئذ الناس ، و زهدوا فى أمتعتهم و باعوها بأبخس الأثمان ، وخرجوا على وجوههم . ورحل الملك الناصر عن برزة ، يوم الجمعـة منتصف صفر ، بمن بقى معـه يريد غزة ، وترك دمشق خاليـة ، و بها عامتها قد أحاطت بالأسوار ، و بلغت (٢) أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة ، وكان الوقت شـتاء . فلم يثبت الناس عنـد خروج الناصر ، ووقعت فيهـم الجفلات حتى كأن القيامة قامت ، وكانت مدة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر ، منها مدة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يوما .

ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو ، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده ، وجفل أهل حمص وحماة .

وسار هولاكو إلى دمشق ، بعـد أخذ حلب بسـتة عشر يوما (٣) ، فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد على بن عامر العقربانى (٤) المعروف بالزين الحافظى ، وأغلق أبواب دمشـق ،

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 1. p. 90.) هذا الاسم الى (Kidgadi) .

(٢) فى س "بلغ" .

(٣) يفهم مما يلى ، ومن (Enc. Isl. Art. Hulagu ; D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 323) ، أن هولاكو لم يزحف بنفسه على دمشق .

(٤) بغير ضبط فى س ، ويوجد بين صفحتى ١٠٧ ب ــ ١٠٨ أ هامش على ورقة منفصـلة ، فيه تعريف بهذا الأمير وتوضيح لنسبته الى عقرباء ، التى هى إحدى قرى دمشق . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩٥) . وهذا نص الهامش مصححا : "سليمان بن على بن عامر الأمير زين الدين بن المؤيد المعروف بالزين الحافظى ، وكان أبوه خطيب عقربا (كذا) من قرى دمشق ، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، وخدم به الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن [العادل] أبى بكر بن أيوب صاحب جعبر ، فخوله فى دولته (فى الأصل فخوله فى دوليه) وداخل أولاده . ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب ، فصارت له عنده يد ورفعة ، وكثرت أمواله وصار مكينا فى دولته ، ويرسل عنه الى هولاكو . فازج (فى الأصل فازح) التتار وأطمعهم فى البلاد ، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب . فقام بأمر دمشق التتار ، ودعوه بالملك زين الدين وسار معهم خوفا من الملك المظفر قطز ، فقتله وقتل أولاده" .

وجمع من يق بها وقرر معهم تسليم المدينة الى هولاكو . فتسلمها منه فخر الدين المردغانى (١)، وابن صاحب أرزن، والشريف على — وكان هؤلاء قد بعث بهـم هولاكو الى الملك الناصر وهو على برزة . فكتبوا بذلك الى هولاكو، فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهما فما فوقه .

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشر صفر، وصل رسل هولاكو صحبـة القاضى محيي الدين ابن الزكى، — وكان قد توجه من دمشق الى هولاكو بحلب، فخلع عليه وولّاه قضاء الشام، وسيره الى دمشق ومعه الوالى . فسكن الناس، وجُمعوا من الغـد بالجامع، فلبس ابن الزكى خلعة هولاكو، وجَمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو . وقُرئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق، فكثر (١٠٨ ا) اضطراب الناس واشتدّ خوفهم .

وفى سادس عشر شهر ربيع الأول وصل نواب هولاكو، فى جمع من التتر صحبة كَتُبُغا (٢) نُوِين (٣)، فقرئ فرمان بالأمان . وورد فرمان على القاضى كمال الدين عمر التفليسى، نائب الحكم عن قاضى القضاة صدر الدين أحمـد بن سنى الدولة، بأن يكون قاضى القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين، وفيه تفويض نظر الأوقاف اليه من جامع وغيره، فقرئ بالميدان الأخضر .

---

(١) فى س " المردغاى " ، وقد ترجم (Quatremère ; Op. cit. I. 1. p. 97.) هـذا الاسم الى (Merdegaï) .

(٢) فى س " كتبغا " بغير ضبط . انظر (Zetterstéen : Op. Cit. P. 33.). ويرد اسم هـذا القائد، وهو صهر هولاكو، على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا وكيتبوقا وكيتو بوقا . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 97. N. 129) .

(٣) بغير ضبط فى س، وهو لفظ فارسى، كثير الورود فى (D'Ohsson : Op. cit.) مقرونا بأسماء قواد التتر، ومعناه مقدّم ألف، وهو حسبما جاء بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣٣) "من ألقاب كفال الممالك بالممالك القانية، كاتب السلطنة وأمراء الألوس والوزير ونحوهم، ... ... والنوينى نسبة اليه للمبالغة ... ... وهو بمثابة الكافل فى ألقاب النواب ... ." راجع أيضا (Richardson : Dict. Ar. Pers. Eng.)

وغارت جمائع التـتر على بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف بلاد غزة و بيت جبريل والخليـل و بركة زيزاء والصلت ، فقتلوا وسبوا وأخذوا ما قدروا عليه ، وعادوا الى دمشق فباعوا بها المواشى وغيرها .

واستطال النصارى بدمشـق على المسلمين ، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم و إقامة دينهـم : فتظاهروا بالخمر فى نهـار رمضـان ، ورشّوه على ثياب المسـلمين فى الطرقات ، وصـبّوه على أبواب المسـاجد . وألزموا أرباب الحـوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهـم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون[1] به فى الشـوارع الى كنيسة مريم[2]، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم ، وقالوا جهرا " ظهر الدين[3] الصحيح دين المسـيح " . فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو [وهو كُتبغا[4]] ، فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظّم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم[5] . وجمـع الزين الحافظى من النـاس أموالا جزيلة ، واشـترى بهـا ثيابا وقدّمها لكتبغا نائب هولاكو ، ولبَيْدَرا[6] وسائر الأمراء والمقدمين مـن التتر ؛ وواصل حمل الضـيافات اليهـم فى كل يوم . ثم خرج كتبغا وبيدرا الى مَرْج بُرْغُوث[7] .

ووصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو، وبيده مرسوم أن يكون نائب السـلطنة بدمشـق والشام[8] . فامتثـل ذلك كتبغا ، وصـارت الدواوين وغيرها تحضر الى

(١) فى س " يمروا " .

(٢) كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانية المسيحية ، ولا يعدلها عندهم سوى كنيسة القيامة ببيت المقدس.
(Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 254, 264).

(٣) فى س "الرب" ، وهو فى ب (١٣١ ب) كما بالمتن هنا .

(٤) انظر ما يلى ، سطر ١١ .

(٥) كان كتبغا ، نقلا عن (D'Ohsson : Op. Cit. III. P. 325. N. 1.) ، من قبيلة تترية اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون .

(٦) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère ; Op. Cit I. 1. p. 99) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهو على مسافة يوم من دمشق . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٣٨٤ ، ٤٩٥ ، فى (Rec. Hist. .Or. IV.

(٨) فى س " اليه " .

[الأشرف] . ثم بعد أيام ثار الأمير بدر الدين محمد بن قرجاه[1] والى قلعة دمشق ، هو والأمير جمال الدين بن الصيرفى ، وأغلقا أبوابها . فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار، وحصروا القلعة فى ليلة السادس من ربيع الآخر . فبعث الله مطرا وبردا، مع ريح شديدة ورعود وبروق وزلزلة، سقط منها عدة أماكن ، وبات الناس بين خوف أرضى وخوف سمائى . فلم ينالوا من القلعة شيئا ، واستمر الحصار عليها (١٠٨ ب) بالمجانيق — وكانت تزيد على عشرين منجنيقا — إلى ثانى عشرى جمادى الأولى . [عند ذلك] اشتد الرمى، وخرب من القلعة مواضع، فطلب من فيها الأمان . ودخلها التتر فنهبوا سائر ما كان فيها، وحرقوا مواضع كثيرة، وهدموا من أبراجها عدة، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد . وساروا الى بعلبك فخربوا قلعتها، وسارت طائفة منهم إلى غزة ، وخربوا بانياس وأسعروا البلاد حربا وملأوها قتلا ونهبا .

وفى يوم السبت ثانى عشرى شهر ربيع الأول قدم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى القاهرة ، فركب الملك المظفر قطز إلى لقائه، وأنزله فى دار الوزارة بالقاهرة، وأقطعه قصبة قليوب الخاصة .

وفيها ملك هولاكو ماردين، وقتل أمراءها وخرب أسوار قلعتها . وفيها وصل الملك الناصر إلى قطيا، فخافه قطز وبرز بالعسكر إلى الصالحية . ففارق الناصر عدة من أمرائه ومن الشهرزورية، ولحقوا بقطز وأقاموا ببلبيس : منهم حسام الدين طرنطاى ، وبدر الدين طيدمر الأخوث، وبدر الدين أيدمر الدوادار، وإيد غدى الحاجى . فعاد الناصر من قطيا، وقد تمزق ملكه وتفرق الناس عنه، فنزل البلقاء .

ورجع قطز إلى قلعة الجبل ، وقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، واعتقله بقلعة الجبل . وصادر كل من وصل اليه من غلمان الملك الناصر وكتابه وأخذ أموالهم، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهرا كثيرا ، وأخذ من

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit I. l. p. 99) .

نساء الأمراء القيمرية أموالا جمة، وعاقب بعضهن . وأما الملك الناصر، فإن شخصا من غلمانه — يعرف بحسين الكردى الطَّبَردار[(١)] — قبض عليه وعلى ولده الملك العزيز، وعلى أخيه غازى، و إسماعيل بن شادى ومن معه، وبعث بهم إلى هولاكو .

وفيها رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق[(٢)]، وجعل كتبغا نوين نائبا عنه بحلب، و بيدرا نائبا بدمشق . وأخذ [هولاكو] معه من البحرية سبعة : منهم سنقر الأشقر، ومكز، و برامق، وبكمش المسعودى .

وفيها وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه : "من ملك الملوك شرقا وغربا، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا[(٣)] إلى هذا الإقليم، يتنعمون[(٤)] بأنعامه، ويقتلون[(٥)] من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى (١٠٩ ا) أرضه، خلقنا من سخطه،

(١) بغير ضبط فى س، والطبردار هو الذى يحمل طبر — أى فأس — السلطان، عند ركوبه فى المواكب وغيرها؛ وأمير طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨، ٤٦٢) . انظر أيضا (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 100. N. 131.)، حيث توجد معلومات أوفى عن أصحاب تلك الوظيفة .

(٢) سبب رجوع هولاكو الى الشرق — والمقصود بذلك بلاد فارس — أن أخبارا وصلت إليه بوفاة أخيه منكوخان الخان الأعظم على جميع التتر، سنة ٦٥٥هـ . وكان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاى، وكان واليا على الصين من قبل أخيه، وهو الذى خلف منكوخان على جميع بلاد التتر، بعد أن تغلب على الطامعين فى الملك من أبناء بيت جنكزخان، سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . وقد حكم قوبيلاى حتى سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م)، واستولى فى أثناء حكمه على البقية الباقية من بلاد الصين، ونقل عاصمة التتر من قراقوم (Karakorum) إلى خان بالق (Khan Balik)، وهى بكين الحالية . وانصبغت دولة قوبيلاى من ذلك الوقت بصبغة صينية من دون سائر دول التتر، وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم (Yuen Dynasty) . انظر (Enc.Isl. Art. Kubilai; Lane-Poole: Muh. Dyns. pp. 212-512).

(٣) هنا إشارة مبهمة إلى أصل قطز، وقد تقدم القول (ص ٤١٧، حاشية ٢) بأنه كان من الخوارزمية .

(٤) فى س "تمعوا" .

(٥) فى س "يقلوا" .

وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب. فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع. فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون[1] عند كلام، وخُنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان. فابشروا بالمذلة والهوان، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم. فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنْ نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سَلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبرة. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا، وتُدْهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هُلاوُن[2] قد أتى بحدّ سيوف تُنتضى وبواتر

(١) فى س "تعفوا".

(٢) كذا فى س بغير ضبط، وهى صيغة لاسم هولاكو، ترد كثيرا فى كتب المؤرخين المعاصرين. انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 102. N. 132)، وقد ضبطت تلك الصيغة على منطوقها فى هذا المرجع. انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٧٢، حاشية ٧).

يَصيــــر أعز القوم منهـا أذلة   ويُلحـــق أطفالا لهم بالأكابر

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض (١٠٩ب) على الرســل واعتقلوا ، وشرع فى تحليف من تحـيّره من الأمراء ، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهــة فى لقاء التتر . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان، خرج الملك المظفــر قطز بجميع عسكر مصر ، ومن انضم اليــه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية .

وفيه أحضر[قطز] رسل التتر، وكانوا أربعة : فوسط واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة ، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووســط الرابع بالريدانية . وعلقت رءوسهم على باب زويلة ، وهــذه الرءوس أوّل رءوس علّقت على باب زويلة من التتار . وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل، وجعله من جملة مماليكه .

ونودى فى القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج الى الجهاد فى سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليــه وسلم . وتقدّم [الملك المظفر] لسائر الولاة بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر، ومن وُجد منهــم قد اختفى يضرب بالمقارع . وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنــده العسكر، فطلب الأمراءَ وتكلم معهــم فى الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل . فقال لهم : "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون[1] أموال بيت المــال، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصــحبنى، ومن لم يختر[2] ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين" . فتكلم الأمراء الذين تخيّرهم وحلّفهم فى موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة؛ وانفضّ الجمع .

فلمــا كان فى الليل ركب السلطان ، وحرك كوساته وقال : "أنا ألقى التتار[3] بنفسى" ، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره . وأمر [الملك قطز] الأميرَ ركن الدين بيبرس

(١) فى س "ماكلوا" .   (٢) فى س "يختار" .

(٣) فى س "التتا" .

البنـدقدارى أن يتقـدّم فى عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار [بيبرس] إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك [هو] غزة .

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بهـا يوما ، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئـذ الفرنج ، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة . فشكرهم وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليـه ، وأقسم لهم أنه متى تبعـه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رَجَع وقاتلهم قبل أن يلقَ التتر .

وأمر [الملك قطز] (١١٠ ا) بالأمراء فجمعوا، وحضّهم على قتال التتر، وذكّرهم بمـا وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق، وخوّفهم وقوع مثل ذلك، وحثّهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسـلام والمسلمين، وحذّرهم عقوبة الله . فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التـتر ودفْعِهم عن البـلاد . فأمر [السلطان] حينئذ أن يسـير الأمير [ركن الدين] بيبرس [البندقدارى] بقطعة(١) من العسكر، فسار حتى لق طليعة التتر . فكتب إلى السلطان يعلمـه بذلك ، وأخذ فى مناوشتهم ، فتارة يقـدم وتارة يحجم ، إلى أن وافاه(٢) السلطان على عين جالُوت(٣) .

وكان كتبغا و بيدرا نائبا(٤) هولاكو، لمـا بلغهما مسير العساكر [المصرية]، جمعا من تفرق من التتر فى بلاد الشام، وسارا يريدان(٥) محاربة المسلمين؛ فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها . فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى شهر رمضان التق الجمعـان ، وفى قلوب المسلمين وهْمٌ عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس . وقد امتلأ الوادى، وكثر صياح

(١) ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. I04) هـذا اللفظ إلى (un corps de troupes)، ولم يزد (Dozy: Supp. Dict. Ar.) على هذا كثيرا، إذ ترجمه إلى (corps d'infantrie, de cavalrie) .

(٢) فى س "وفاه" .

(٣) بغير ضبط فى س، واسمها فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٦٠) عين الجالوت ، وهى بليـدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٤) فى س "نواب" . (٥) فى س "ساروا يريدون" .

أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والامراء ؛ فتحيز التتر إلى الجبل. فعند ما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منـه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسـه الى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : " وا إسلاماه(١)! "، وحمل بنفسه و بمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره . وقُتل كتبغا مقدم التتر، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز — وكان مع التتر . وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون و يأسرون ، وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان .

ومما اتفق فى هـذه الوقعة ، أن الصبى الذى أبقاه السـلطان من رسـل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكبا وراءه حال اللقاء . فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان، فبصر به بعض من كان حوله فأُمسِـك وقُتل مكانه . وقيـل بل رَمى [الصبى] السلطانَ بسهمه فلم يخطئ(٢) فرسـه وصرعه إلى الأرض ، وصار السـلطان على قدميه ، فنزل اليـه فخر الدين ماما وأركبه فرسه، حتى حضرت الجنائب(٣) فركب فخر الدين منها .

ومر العسكر فى أثر التتر الى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهـم . وكان قد تزلزل المسـلمون زلزالا شـديدا ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : " وا إسلاماه(٤) !" ثلاث مرات ، " يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار " . فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسـه ومرغ وجهـه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شـكراً لله تعـالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلا ت أيديهم بالمغانم .

(١) فى س "واسلاماه" .

(٢) فى س " يخط " .

(٣) الجنائب جمع جنب، وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة اليها ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 106.) هذا اللفظ الى (des cheveux de main) . انظـر أيضا (محيط المحيط ؛ و Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س " واسلاماه " .

فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه ، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار الى القاهرة ، ففرّ الزين الحافظى ونواب التتار من دمشق ، وتبعهم أصحابهم . فامتدّت (١١٠ ب) أيدى أهل الضياع إليهم ونهبوهم ، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام .

وفى يوم الأحد المذكور نزل السلطان على طبرية ، وكتب الى دمشق يبشّر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر ، وهو أوّل كتاب ورد منه الى دمشق . فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورا كثيرا ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوهما حتى بقيتا كوما (١) ، وقتلوا عدّة من النصارى ، واستتر باقيهم . وذلك أنهم فى مدّة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين ، وخربوا مساجد ومآذن (٢) كانت بجوار كنائسهم ، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا بالصليب ، وشربوا الخمر فى الطرقات ورشوه على المسلمين .

وفى ثامن عشريه نهب المسلمون اليهود بدمشق حتى لم يتركوا لهم شيئا ، وأصبحت حوانيتهم بالأسواق دكا ؛ فقام طائفة من الأجناد حتى كفوا الناس عن حريق كنائسهم وبيوتهم . وفيه ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم ، وخربوا الدور المجاورة للكنائس ، وقتلوا جماعة من المُغُل ، فكان أمرا مهولا .

وفى تاسع عشريه وصل بكرة النهار الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم الملك المظفر قطز ، فنزل بدار السعادة ، وأمن الناس ووطنهم .

وفى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان وصل الملك المظفر بعساكره إلى ظاهر دمشق ، فخيم هناك وأقام الى ثانى شوال ، فدخل الى دمشق ونزل بالقلعة . وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص ، فقتل من التتر وأسر كثيرا ، وعاد الى دمشق .

(١) فى س " احرقوها حتى هتيب " .
(٢) فى س " مواذن " .

واســتولى الملك المظفر على سائر بلاد الشــام كلها من الفرات إلى حد مصر ، وأقطــع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام ، واستناب الأمير علم الدين سنجر الحلبى فى دمشق ، ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشى(١) الكردى . وبعث [اليــه] الملك الأشرف موسى — صاحب حمص ، ونائب هولاكو ببلاد الشــام — يطلب الأمان فأمّنه . وبعث [السلطان أيضــا] بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار الى حلب نائبا بها ، وأقطع أعمالهــا بمناشيره . وأقر الملك المنصور على حمــاة وبارين ، وأعاد عليــه المعرة — وكانت بيد الحلبيين من ســنة خمس وثلاثين وستمــائة ؛ وأخذ سلمية منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العــرب . ورتّب الأميرَ شمسَ الدين أقوش البُرلى(٢) العزيزى أميرا بالساحل وغزة ، ومعه عدة من العزيزية — وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان ، وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت . وأمر بشنق حسين الكردى الطبردار ، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر .

(١١١ أ) وثار عدة من الأوشاقية(٣) ممــاليك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم ، [وكان] معهم عدة من عوام دمشق ، فشنق منهم(٤) نحو الثلاثين نفسا . وأمر [السلطان] أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون(٥) ألف درهم ، فجمعوها وحملت إلى السلطان ، بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر .

---

(١) كذا فى س ، و يوجد فى أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٧٦ ، فى Rec. Hist. Or. V) أمير اسمه ابن خشتر بن الأزكى ، وقد توفى بحران سنة ٦١٦ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، ولفظ البرلى محرف من الكلمة التركية بُرُنْلُو ، ومعناها ذو الأنف الكبير . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . انظر أيضــا ص ٧٦٩ فى نفس المجلد .

(٣) بغير ضبط فى س ، والواحد أوشاقى — و يقال أوجاقى أيضا — وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٤) .

(٤) لعلّ الضمير هنا عائد على النصارى ، انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 108) .

(٥) فى س "خمسين" .

وأما التتر فإنهم لمـا لحقهم الطلب إلى أرض حمص، ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره وأطلقوا الأسرى، وعرجوا نحو طريق الساحل . فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقا كثيرا، وأسروا أكثر . فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليـه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ، ورحل من يومه .

وكان [هولاكو] لمـا قـدم عليه الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتبا، واختص به وأجلسه على كرسى قريبا منه، وشرب معه. ثم كتب له فرمانا[1] وقلده مملكتى الشام ومصر، وأخلع عليـه وأعطاه خيـولا كثيرة[2] وأموالا ، وسيره الى جهة الشام . فأمر [هولاكو] لمـا ورد عليه خبر الكسرة برده، فأحضر وقُتل بجبال سَلَماس[3] فى ثامن عشر شـوال؛ وقتل معه أخـوه الملك الظاهر غازى، والملك الصـالح ابن شيركوه، وعدة من أولاد الملوك . وشفعت طُقُز[4] خاتون زوجة هولاكو فى الملك العـزيز ابن الناصر، فلم يسلم من القتل غيره ؛ ورجع هولاكو الى بلاده .

وتراجع الناس الى دمشق، وصارت الأسعار بهـا غالية جدا لقـلة الأقوات . وعدمت الفلوس فيها، وتضرر الناس فى المعاملة بسبب الدراهم، وعزّ كل ما كان قد هان .

فلما رتب السلطان أحوال النوّاب والولاة والشادين ببلاد الشام ، خرج من دمشق يوم الثـلاثاء سادس عشرى شوّال يريد مصر بعـد ما كان قد عزم على المسير الى حلب ، فثناه عن ذلك ما بلغـه من تنكر الأمير بيبرس وتغيره عليـه ، وأنه قد عزم على القيام بمحاربته : وسبب ذلك أن[5] [الأمير بيبرس] سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب[6]، فلم يرض فتنكر عليـه،

(١) فى س "فرمان" .

(٢) فى س "كثيرا" .

(٣) بغير ضبط فى س ، وسلما س مدينـة فى آذربيجان، بينها وبين أُرمية يومان، وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ١٢٠) .

(٤) مضبوط على منطوقه فى (Quatremére: Op. Cit. I. 1. P. 109) .

(٥) فى س "انه" .

(٦) كان قطز قد أعطى قبل ذلك نيابة حلب إلى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ . انظر ص ٤٣٣، سطر ٥ .

ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فخافه [السلطان] وأضمر له السـوء، وسار إلى جهـة مصر . وبلغ ذلك بيبرس، فاحترس كل منها من الآخر، وعمل فى القبض عليـه . وحدّث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتـل السلطان : منهم الأمير سـيف الدين بلبان الرشـيدى، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتوت الجُوكَنْدار(١) المعـزى، والأمير بيدغان الركنى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير (١١١ ب) بدر الدين أنس الأصبهانى .

فلم يزل السلطان سائرا إلى أن خرج من الغـرابى وقارب الصالحية، فانحرف(٢) فى مسيره عن الدرب للصيد ومعـه الأمراء . فلمـا فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبى التتر، فأنعم بها عليه . فأخذ [بيبرس] يد السلطان ليقبلها، وكانت إشارة بينـه وبين الأمراء : فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسـيف [و] ضرب به عاتقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعـزى بسهم أتى على روحه؛ وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، ودفن بالقُصَير(٣)، فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما .

وحمل [قطز بعـد ذلك] إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشـيخ تقى الدين قبل أن تعمر؛ ثم نقله الحاج قطز الظاهرى الى القرافة، ودفن قريبا من زاوية ابن عبود. ويقال إن اسمه محمود بن ممدود، وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين؛ وإنما سبى عنـد غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل الى القاهرة(٤) .

(١) بغير ضبط فى س، والجوكندار — والعامة تقول جكندار — هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة والصوالجة التى تعرف الآن باسم (polo)؛ والجوكان المحجن الذى تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضا . (القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨) . وكانت الجوكان عصى مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع، وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 122) .

(٢) فى س "انحرف" .

(٣) فى س "بالمصير"، بغير ضبط، وهو بلد بمصر بطريق الرمل، بينه وبين الصالحية مرحلة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٤، فى .(Rec. Hist. Or. I

(٤) يلى هذا فى ب (١٣٥ ا - ب) وفيات، هى فى الواقع تابعة لسنة ٦٥٦ هـ، وقد وردت هناك فى موضعها

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى

كان [بيبرس] تركى الجنس ، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه . فلما مات [الملك الصالح]، قام [بيبرس] فى خدمة [ابنه] الملك المعظم [تورانشاه] الى أن قُتـل ، فلم يزل يترقى إلى أن قُتل الفارس أقطاى ، فخـرج[(١)] من القاهرةوتنقل فى بلاد الشام . ثم عاد الى مصر، وخرج مع الملك المظفر قطز الى قتال التتر. فلما قتل قطز ، سار الأمراء الذين قتـلوه الى الدهليز السلطانى [بالصالحيـة[(٢)]]، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس. فقام الأمير أقطاى المستعرب الأتابك — وكان بالدهليز— وقال للأمراء عنـد حضورهم : " من قتـله منكم ؟ " فقال الأمير بيبرس : " أنا قتلته " . فقال [الأمير أقطاى] : " يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه " . فجلس [بيبرس] ، و بايعـه [أقطاى] وحلف له ، ثم تلاه الأمير بلبان الرشـيدى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير سيف الدين قلاون، والأمير بِيِلِيك[(٣)] الخازندار، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم .

وتلقب [بيبرس] بالملك القاهر،وذلك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة المذكور . فقال له الأمير أقطاى الأتابك:"لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل". فركب [بيبرس] لوقته، ومعـه الأمير أقطاى، والأمير قلاون، والأمير بيسرى، والأمير بلبان، والأمير بِيلِيك،

= المناسب، وذلك حسبما جاء فى س، فضلا عن دلائل مادية (انظر ص ٤١٣ حاشية ١)، تثبت وقوعها حيث أوردت . ولما كان (Quatremère : Op. Cit. I. 1. PP. 113-115) قد اعتمد فى ترجمته على نسخة ب، فانه انزلق الى خطئها، وأثبت تلك الوفيات تحت هذه السنة التى لم تنته بعد .

(١) فى س "خرج" .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعة أبى الفـداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٤ ، ١٤٥، فى .(Rec. Hist. Or. I .

(٣) فى س " بيليك " ، بغير ضبط . و يتكرر ورود هذا الاسم ، بالصفحات التالية فى س ، على ذلك الرسم الناقص أو ما يشبهه ، وسيصلح فيما يلى الى الصـيغة المثبوتة هنا بالمتن، مرـ غير تعليق . انظر أبا الفـداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ ، فى .(Rec. Hist. Or. I .

هذا وقد دأب (Quatremére: Op. Cit. I. 1. p. 116, et seq.) على ترجمة هذا الاسم الى (Bilbek) .

ومماليكه . وتوجه الى قلعــة الجبل، فلقيــه الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر، و[كان] قد خرج الى لقاء الملك المظفر قطز . فأعلمه [بيبرس] بما جرى فخلف له الحلى وتقدّمه إلى القلعــة، ووعد من فيها من الأمراء بمواعيد جيدة عن بيبرس، فلم يخالف منهم أحد . وجلس [الأمير عز الدين أيدمر الحلى] على باب القلعة حتى قدم بيبرس والأمراء فى الليل، فتسلم القلعة ليلة الاثنين تاسع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة[1]، وحضر اليه الصاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وأشار عليه أن يغير اللقب بالملك القاهر، فإنه ما تلقب به أحد فأفلح، فاستقر لقبه الملك الظاهر .

وكانت القاهرة قد زُيّنت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس فى (١١١٢) فرح ومسرات بقتــل التتر . فلما طلع النهار نادى المنادى فى النــاس : "ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس"؛ ثم فى آخر النهار أُمر بالدعاء للملك الظاهر . فغمّ[2] [الناس] ذلك، وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية[3]، وسوء مملكتهم[4] وجورهم .

وكان قطز قد أحدث فى هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر : منها تصقيع الأملاك وتقويمها، وأخذ زكاتها من أربابها، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا، وأخذ من الترك الأهلية[5] ثلثها . فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قطز،

(١) فى س "وستمائة" .

(٢) فى س "فغمهم" .

(٣) يستنتج من هــذه الجملة أن السلطان قطز لم يكن من المماليك البحرية ، وهو اســتنتاج صحيح يدعمه الواقع التاريخى ، إذ ليس قطز من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى تصح له هــذه النسبة ، بل كان مملوكا للسلطان الملك المعز أيبك التركمانى . (انظر ص ٤١٧ ، حاشية ٢ ، وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٩١ أ ، ب) . وعلى هــذا فليست تسمية دولة سلاطين المماليك ، الذين تداولوا الحكم حتى ســنة ١٣٨٢ م ، باسم دولة المماليك البحرية متفقة مع الحقائق التاريخية ، بل هى تسمية اصطلح عليها المؤرخون الحديثون من باب التعميم .

(٤) فى س "ملكتهم" .

(٥) المقصود بهؤلاء ، حسبما جاء فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p.117) ، عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل (Turcs domiciles) .

وكتب به توقيعا قرئ على المنابر، فكان جملة ما أبطله ستمائة ألف دينار. فسر الناس ذلك، وزادوا فى الزينة .

وفى يوم الاثنين صبيحة قدوم السلطان، جلس [الملك الظاهر بيبرس] بالإيوان من القلعة، وحلّف العساكر، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، واستقر بالأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا(1) على عادته، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى أستادارا(2)، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار، والأمير صيام الدين لاجين الدرفيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دوادارية، والأمير بهاء الدين أميرآخور(3) على عادته. ورتب فى الوزارة الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير، والأمير ركن الدين إياجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين(4). وكتب بإحضار البحرية البطالين من البلاد(5)؛ وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة، خلا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق: فإنه لما استقر فى نيابة دمشق [كان قد] عمر سورها وحصنها، فورد عليه الخبر بقتل قطز وسلطنة بيبرس فى أوائل ذى الحجة، فامتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس. ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، وخُطب له يوم الجمعة سادس ذى الحجة، فدعا الخطيب للملك الظاهر أوّلا ثم للملك المجاهد ثانيا، وضُربت السكة باسمهما. ثم ارتفع المجاهد عن هذا،

(1) فى س "اتابك". (2) فى س "اسادار".

(3) تقدمت الإشارة الى ماهية الوظائف المذكورة هنا ما عدا وظيفة أميرآخور، وهى التى يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإصطبلات. هذا وأمير آخور مركب من لفظين، أحدهما عربى وهو أمير، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه المعلف، فيكون معنى أميرآخور أمير المعلف، لأنه المتولى لأمر الدواب. وهناك أيضا وظيفة السراخور — والعامة تقول سراخورى، ويقال أيضا سلاخورى —، وهى مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما سرا ومعناه الكبير، والثانى خور ومعناه العلف، والمراد كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٠ — ٤٦١). انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 119. N. 3) .

(4) فى س "حجابا".

(5) يوجد بهامش الصفحة فى س، قبالة هذا السطر تقريبا، عبارة مكتوبة هكذا ٣٣ . ولعل المقريزى أراد بهذا أن يشير إلى السنة التى وصل فيها إلى ذلك الحد من مؤلفه، أى سنة ٨٣٣ هـ.

وركب بشعار السلطنة والغاشية بين يديه ؛ وشرع فى عمارة قلعة دمشق ، وجمع لها الصنّاع وكبراء الدولة والناس ، وعملوا فيها حتى عملت النساء أيضا ، وكان عند الناس بذلك سرور كبير . فقدم رسول الملك الظاهر [بيبرس] بكتابه بعد يومين ، فوجد الأميرّ سنجر قد تسلطن ، فعاد إلى مصر . فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه ويقبح فعله ، فغالطه فى الجواب .

فولى دمشق فى هذه السنة — من أولها الى نصف صفر — الملك الناصر؛ ثم ملكها هولاكو إلى أن سار إلى الشرق ، فاستناب بها كتبغا و بيدرا ، فحكم فيها التتر الى خامس عشرى رمضان؛ ثم صارت فى مملكة قطز الى (١١٢ ب) أن قتل فى خامس عشرى ذى القعدة ، فلكها الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى (١) بقية السنة . وكان القضاء بها أولا بيد القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سنى الدولة ؛ ثم ولّى التترُ القاضى كمال الدين عمر ابن بندار التفليسى (٢) ، ثم بعده القاضى محيى الدين بن الزكى ، ثم القاضى صدر الدين أبو القاسم . ثم ولى القاضى صدر الدين بعلبك ، فاستقل ابن الزكى بالقضاء [بدمشق] إلى أن صرفه قطز بنجم الدين أبى بكر محمد بن صدر الدين أحمد بن سنى الدولة .

وفيها ثار بحلب العزيزية والناصرية على الملك السعيد (٣) علاء الدين بن [بدر الدين] صاحب الموصل ، وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه ، وقدّموا عليهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى

---

(١) فى س ''الحلى'' ، وقد صححت الى الحلبى لسبق ورودها بهذه الصيغة الثانية فى س (ص ٤٣٨ ، سطر ١٠) ، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٦٨) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 121).

(٢) س ''القسم'' .

(٣) كان الملك السعيد علاء الدين هذا نائبا على حلب منذ ولاه السلطان قطز عليها ، (انظر ص ٤٣٣ ، سطر ٥). غير أنه أساء السيرة وظلم وعسف ، وجلب من الحلبيين خمسين ألف دينار ، فأغضب بذلك عامة الناس والعسكر . ثم حدث بعد ذلك بقليل أن أغار القائد بيدرا التترى على البيرة ، فجرّد الملك السعيد لصدّه شرذمة قليلة من عسكر حلب ، ولم يأبه لرأى كبار العزيزية والناصرية الذى كانوا قد أشاروا عليه بعدم التعرّض للتترالبتة . فلما انهزمت تلك الشرذمة على يد بيدرا قرب البيرة ، ازداد غيظ الأمراء العزيزية والناصرية على الملك السعيد ، وثاروا به وقبضوا عليه ، ثم حملوه الى قلعة الشغر و بكاس واعتقلوه بها ، وأقاموا مكانه الأمير حسام الدين لاجين كما بالمتن . وفى أثناء ذلك كان التتار قد قاربوا حلب ، فأفرج التوار عن الملك السعيد ، وجلوا جميعا عن حلب الى حماة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . أنظر أيضا (D'Ohsson: Op. Cit. III. PP. 358-359) .

الجوكندار. [وكان الأمير حسام[١] الدين المذكور قد أخذ إذنا من الملك المظفر قطز، رحمه الله تعالى، وتوجّه لاستخلاص مابقى له من الإقطاع والودائع التى كانت له من أيام الملك الناصر. فلما اتفق ما اتفق وهو بحلب أجمع الحلبيون على تقديمه، فكتب إليه الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى بأن يخطب له فى حلب وأن يكون نائبا له، وأن يزيده على إقطاعه زيادات كثيرة]. فامتنع [لاجين] من إجابة الملك المجاهد سنجر، [وقال: "أنا نائب لمن ملك مصر"]، وأقام على طاعة الظاهر بيبرس؛ فبعث إليه الظاهر بالتقليد بنيابة حلب.

وفيها ثار جماعة من السودان والرِّكْبِدارية[٢] والغلمان[٣]، وشقوا القاهرة وهم ينادون "يآل على!"، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين وأخذوا ما فيها من السلاح، واقتحموا إصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول. وكان الحامل لهم على هذا رجل يعرف بالكورانى، أظهر الزهد وحمل بيده سبحة وسكن قبة بالجبل، وتردد اليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم بها رقاعا. فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم وربطوهم، فأصبحوا مصلبين خارج باب زويلة، وسكنت الثائرة. وخرجت السنة ولم يركب الملك الظاهر [بيبرس] بشعار السلطنة على العادة.

ومات[٤] فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف بن العزيز

(١) أضيف مابين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٧٠ — ٧١).

(٢) الركبدارية — أو الركابدارية — هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الحفلة، كوكب العيد ونحوه. وهم تابعون للركاب خاناه، وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم والكاليش، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧، ١٢).

(٣) أطلق هذا اللفظ — ومفرده غلام — على من يقوم بخدمة الخيل، وفى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٧١) أن لفظ غلام "فى أصل اللغة مخصوص بالصبى الصغير والمملوك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم، وكأنهم سموه بذلك لصغره فى النفوس، وربما أطلق على غيره من رجال الطست خاناه (كذا) ونحوهم".

(٤) الوفيات الآتية واردة على ورقة منفصلة فى س، بين الصفحتين ١١٢ ب، ١١٣ أ، وهى غير واردة فى ب (١٣٧ أ)، أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 129). على أنه لاشك فى مناسبة وقوعها هنا، ويستدل على ذلك بمراجعة تواريخ وفاة الملوك الأيوبيين المذكورين ضمن هذه الوفيات. انظر (Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids.).

شادى بن [الظاهر غازى بن[1] صلاح الدين يوسف بن أيوب] كبير البيت الأيوبى، ونائب حلب، عن ثمـانين سـنة . ومات الملك الكامل محمد بن المظفـر غازى بن العادل أبى بكر ابن أيوب بن شادى صاحب ميا فارقين ، وكان عالمـا عادلا محسـنا ، قتـله التتار وحمـلوا رأسه إلى دمشق[2] . وتوفى الملك السـعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب ابن شادى ، صاحب قلعـة الصبيبة وبانياس ، بعـد ما أخذتا منه وسار الى البيرة، فأعاده التتار الى ولايتهما، وحضر معهـم عين جالوت ، فأمر[3] وضُرب عنقه . ومات الملك السعيد إيلغازى بن المنصور أرتق بن إيلغازى بن ألبي بن تمـرتاش بن إيلغازى بن أرتق، صـاحب ماردين بها، وقام من بعده ابنه المظفر قرا أرسلان. وتوفى قاضى القضاة بدمشق صدر الدين أبو العباس أحمد بن أبى البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ببعلبك، عن ثمان وستين سنة . وتوفى شيخ الإسلام تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمـد بن عبد الله بن عيسى اليونينى الحنبلى ، عن ست وثمـانين سنة ببعلبك . وتوفى الصـاحب مؤيد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن القفطى الشيبانى، وزير حلب، بها عن أربع وستين سنة . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو عبـد الله

---

(١) موضع ما بين القوسين بيـاض فى س ، وقد أضيفت هـذه الأسماء بعد مراجعـة : Lane - Poole) Saladin, Table II; Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids) على أنه ليس فى هذين المرجعين ما يشير الى أن العزيز ابن الظاهر غازى كان يسمى شادى، بل كان اسمه محمدا .

(٢) حمـل التتر رأس الملك الكامل محمد هذا على رمح ، ومروا به على البلاد التى استولوا عليها بالشام مثـل حلب وحمـاة ، وطافوا به دمشق بالمغانى والطبول، وهناك علقوه فى شبكة بسور باب الفراديس ، حيث ظل الرأس معلقا حتى عادت دمشـق الى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين . (أبو الفداء : المختصر فى أخبـار البشر ، ص ١٤٢ ، فى .(Rec. Hist. Or. I .

(٣) انضم الملك السعيد هذا الى التتر سـنة ٦٥٧ هـ، بعد أن خلصه هولاكو من سجنه بالبيرة وولاه على الصبيبة وبانياس . (انظر ص ٤٢٠ ، سطر ٨) . وقد أغرق هذا الملك بعد ذلك فى النكر والفساد، فأعلن بالفسق والفجور وسـفك دماء المسـلمين ، وحارب فى صفوف التتر فى وقعة عين جالوت، وهناك وقع أسـيرا فى يد المظفر قطز فأمر بضرب عنقه ، جزاء على ما كان قد اعتمده من السفك والفتن . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٣ ، ١٤٤، فى .(Rec. Hist. Or. I .

المبارك بن يحيى بن المبارك بن فضيل الغسانى الحمصى ، بها فى الجفلة . و [توفى] الأديب جلال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الصفار الماردينى الشاعر، بها قتيلا عن ثلاث وثمانين سنة . وتوفى الشيخ أبو بكر بن قوام بن على بن قوام البالسى الصالحى الزاهد، ببلاد حلب عن أربع وسبعين سنة .

* * *

سنة تسع وخمسين وستمائة . فيها عظم الفار فى أرض حوران(١) أيام البيادر(٢) حتى أكل معظم الغلال، فيقال إنه أكل ثلاثمائة ألف غرارة قمح .

وفيها اجتمع من التتار ستة آلاف فارس، وقاموا بحمص(٣) . فبرز اليهم الملك الأشرف موسى بن شيركوه صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة، واجتمع اليهما قدر ألف وأربعمائة فارس ؛ وقدم زامل بن على أمير العرب فى عدة من العربان . وواقعوا التتر يوم الجمعة خامس المحرم على الرستن(٤)، فأفنوهم قتلا وأسرا، ووردت البشارة الى مصر بذلك . وكانت التتار فى ستة آلاف، والمسلمون ألف وأربعمائة؛ وحملت رءوس القتلى الى دمشق .

وفيها اشتد الغلاء بدمشق .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى كورة واسعة من أعمال دمشق ، وبها قرى كثيرة ومزارع ؛ وقد صارت حوران فى زمن سلاطين المماليك نيابة قائمة بذاتها وسميت باسم القبلية ، وكان مقر نائبها بلدة أذرعات . هذا وسلسلة جبال حوران هى جبل الدروز الحالى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ؛ .(Enc. Isl. Art. Hawran

(٢) جمع بيدر، وهو الموضع الذى تدرس فيه الغلال . (محيط المحيط) .

(٣) كان معظم ذلك الجيش التترى مكونا من فلول الكتائب التى بقيت بعد وقعة عين جالوت، وقد جمعها القائد بيدرا من أطراف الشام والعراق، وذلك بعد ذيوع خبر وفاة السلطان قطز . وزحف بيدرا بهذا الجيش أولا على البيرة، وهزم الفئة القليلة التى أرسلها لصده الملك السعيد علاء الدين نائب حلب . وكانت تلك الهزيمة من أسباب ثورة المماليك العزيزية والناصرية على الملك السعيد . وتقدم التتر بعد ذلك الى حلب واحتلوها ، بعد أن بادر بالجلاء عنها الى حماة نائبها الجديد حسام الدين لاجين العزيزى (انظر ص ٤٣٩ ، حاشية ٣) . ثم سار التتر الى حماة، فتقهقر عنها الى حمص صاحبها الملك المنصور محمد، والأمير حسام الدين لاجين العزيزى أيضا ، وقصد التتر بعد ذلك حمص، والتقوا قبل وصولهم اليها بجيوش صاحب حمص وحلفائه كما بالمتن . (D' Ohsson : .Op. Cit. III. pp. 358 et seq.)

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى فى نصف الطريق بين حماة وحمص . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٧٨) .

وفى يوم الاثنين سابع صفر ركب الملك الظاهر [بيبرس] من قلعة الجبل بشعار السلطنة (١) الى خارج القــاهرة، ودخل من باب النصر . فترجل (٢) الأمراء والعسكر ومشوا بين يديه إلى

(١) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات، التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحفلة، مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين، ونحوها . ومن هذه الملابس والأدوات، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، وذلك حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص٧ — ٨)، "الغاشية وهى غاشـية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمـل بين يديه [أى السلطان] عند الركوب فى المواكب الحفلة، كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها [أحد] الركاب دارية رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا، وهى من خواص هذه المملكة . ومنها المظلة ويعبر عنها بالجتر، ... وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضــة (ص ٨) مطلية بالذهب، تحمـل على رأسه فى العيدين، وهى من بقايا الدولة الفاطمية ... . ومنها الرقبة وهى رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب، بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها، [و] تجعـل على رقبة الفرس فى العيدين والميادين، من تحت إذنى الفرس الى نهاية عرفه، وهى من خواص هذه المملكة . ومنها الجفتة وهما اثنان من أوشاقية إصطبله قريبان فى السن، عليهما قباءان أصـفران من حرير بطراز من زركش، وعلى رأسهما قبعتان من زركش، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما السلطان راكب به، كأنهما معــدان لأن يركبهما، [و] يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة فى الميدان الكبير ونحو ذلك، وهما من خواص هذه المملكة . ومنها الأعلام وهى عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتســمى العصابة، وراية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق .. ... " .

ويلاحظ مما تقدم أنه كان لكل موكب ترتيب معين، وأن بعض ما كان يستخدم من الأدوات فى العيدين غير موجود فى بعض المواكب الأخرى . انظر القلقشندى (نفس المرجع والجزء، ص ٤٤ — ٤٩) . هذا ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٩) وصف لموكب الســلطنة، وهو إن كان غير شامل لمواكب الســلطنة فى سائر الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، فإنه يعطى فكرة لما كان عليه ترتيب تلك المواكب فى زمن معين، ونصه : "وكانت العادة أيضا أنه إذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء، ومن تحتها فرجية خضراء، وعمامة سوداء مدورة . ويقلد بالسيف العربى المذهب، ويركب فرس النوبة، ويسير الأمراء بين يديه والغاشية قدامه، والجاويشية تصيح والشبابة السلطانيــة ينفخ بها والطبردارية حواليــه، الى أن يعبر من باب النحاس الى درج ... الإيوان [المعروف بدار العدل] . فينزل عن الفرس ويصــعد إلى التخت فيجلس عليه، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون اليه ويقبلون يده على قدر رتبهم، ثم [يؤدى ذلك] مقدمو الحلقــة . فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة، فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء، ويشهد عليه بذلك، ثم ينصرف ومعه القضاة . فيمد السماط للأمراء، فإذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة، وانصرف الأمراء" .

(٢) فى س: "ترجل".

باب زويلة ، (١١٣ أ) ثم ركبوا إلى القلعة . وقد زينت القاهرة ، ونثرت الدنانير والدراهم على السلطان ، وخلع على الأمراء والمقدمين وسائر أرباب الدولة . وكان هـذا أول ركوبه ، ومن حينئذ تابع الركوب الى اللعب بالأُكَرَة (١) . وكتب الى ملوك الغرب واليمن والشام والثغور بقيامه فى سلطنة مصر والشام .

وفيها بعث [السلطان] الملك الظاهر [بيبرس] الأمير جمال الدين المحمدى الى دمشق ، ومعه مائة ألف درهم وحوائص وخلع بألفى دينار عينا ، ليستميل الناس على المجاهد سنجر . فقدم دمشق ثالث صفر وعَمِل ما أمر به ، فأجابه الأمراء القيمرية وخرجوا عن دمشق : ومعهم الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار (٢) الصالحى ، والأمير بهاء الدين بُغْدِى (٣) الأشرفى ، والأمير قرا سنقر الوزيرى ، وعدّة من الأمراء . ونادوا باسم الملك الظاهر بيبرس ، فارتجت دمشق .

وبعث المجاهد [سنجر] اليهم بعسكر فانهزم ، فخرج بنفسه وحمل بأصحابه ، ففروا عنه ثم عادوا عليه ، فجرح وقتل عدّة من جماعته ، والتجأ [هو] إلى القلعة فامتنع بها فى يوم

(١) الأُكرة لُغَيَّة فى الكرة (محيط المحيط) ، والمراد بلعب الأكرة اللعبة المعروفة الآن باسم (polo) ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى ص ٤٣٥ ، حاشية ١ . هذا ويوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧) وصف لهيئة ركوب السلطان للعب الكرة بالميدان الأكبر زمن الأيوبيين والمماليك بمصر ، ونصه : " عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاث مرات متوالية فى كل سبت ، [و] ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل وهو راكب على الهيئة المذكورة فى العيد (انظر نفس المرجع والجزء ، ص ٤٦) ، ماعدا الجتر فانه لا يحمل على رأسه . وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره ، ويصير الى الميدان فينزل فى قصوره ، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهم . ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والأمراء معه ، ثم ينزل فيستريح ، ويستمر الأمراء فى لعب الكرة الى أذان العصر ، فيصلى العصر ويركب على الهيئة التى كان عليها فى أول النهار ، ويطلع الى قصره " . أما الميدان الأكبر فهو الميدان السلطانى ، الذى بناه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحطباب اللوق . (انظر ص ٣٤١ ، سطر ١٧ ؛ القلقشندى : نفس المرجع : ج ٣ ، ص ٣٧٨) .

(٢) فى س " البندقدارى " .

(٣) فى س " بندى " ، وبغير ضبط . انظر (Zetterstéen: Op. Cit. P. 24) . ويرد هذا الاسم كثيرا بالصفحات التالية فى س ، على هذا الرسم الناقص أو مايشبهه ، وسيصلح الى الصيغة المثبوتة هنا بغير تعليق .

السبت حادى عشر صفر . فدخل الأمير إيدكين البندقدار — أستاذ[١] الملك الظاهر — إلى المدينــة وملكها ، وحلّف النــاس للملك الظاهر وقام بأمرها . وخاف المجاهد على نفســه ففر من قلعة دمشق الى بعلبك ، فأرسل اليه الأمير إيدكين وأحضره محتفظا به . فلمــا بلغ الملك الظاهر [بيبرس] ذلك قرر الأمير علاء الدين طيبرس الحاج الوزيرى فى القلعة ، وجعل إليــه التحدث فى الأموال ، واستدعى الأمير سنجر الحلبى ، وأقام إيدكين مدّة شهر فى نيابة دمشق ، ثم صرفه عنها بالأمير طيبرس الوزيرى . وسار الأمير سنجر مع الأمير بدر الدين بن رحال[٢] ، وأُحضر فى سادس عشر صفر وهو مقيــد إلى مصر . فندب الملك الظاهر إلى لقائه الأمير بيسرى ، وأدخله ليــلا من باب القرافة على خفية واعتقله بالقلعة ، من غير أن يعلم به أحد من الناس .

وفيهــا جهــز الملك الظاهر [بيــبرس] الأموال والأصــناف صحبة الأمــير علم الدين اليغمورى لعمارة الحرم النبوى بالمدينة ، وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس ، وكانت قد وَهَت . وأخرج ما كان فى إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليــل[٣] عليه الســلام[٤] ، ووقف عليــه قرية تعرف بأذنا[٥] . ورسم للأمير جمال الدين بن يغمور بعمارة ما تهدم من قلعة الروضة ، فرمّ مافسد منها ورتب بها الجندارية وأعاد لها حرمتها ، وفرق أبراجها على الأمراء : وهم الأمير قلاون ، والأمير عز الدين الحــلى ، والأمير عز الدين أوغان ، والأمير بيسرى ،

(١) كذا فى س ، وقد ورد فى ب (١٣٧ ب) "اسادار" ، وترجمه فى (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. I39) إلى (Majordome) .

(٢) كذا فى س بغــير ضبط ، وهو مترجم فى (Ibid : Op. Cit. I. l. p. 139) الى (Radjal) ، اعتمادا على الرسم الوارد فى ب (١٣٧ ب) .

(٣) الخليل اسم لبلدة بفلسطين بها قبر سيدنا الخليل إبراهيم ، واسمها الأصلى حبرون ، وهى بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٨) .

(٤) فوق هذه الكلمة بالمتن فى س ، إشارة الى هامش ذهب كل ألفاظه سوى الأخير منها ، وهو لفظ "بوقف" .

(٥) فى س " ماذنا " بغير ضبط ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يدل على قرية بفلسطين بهذا الاســـم .

وغيرهم — لكل أمير منهم برج . وأمرهم أن تكون إصطبلاتهم وبيوتهم فيها ، وسلمهم مفاتيح القلعة . وأمر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت[١] من الجيزية، لكثرة ما كان يشرق من الأراضي فى كل سنة (١١٣ ب)، فانتفعت البلاد بهذه القناطر. وأمر بعمارة أسوار الإسكندرية، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر . وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر . وأمر بردم فم بحر دمياط، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القرابيص[٢] ، حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله، واستمر ذلك الى اليوم .

وأمر [السلطان] بإخراج الأمير سيف الدين الرشيدى إلى بحر أشموم، فتوجه إليه وأحضر الولاة وحفر هذا البحر، وأزال منه ما ترَبَّى به من الأطيان، وغرّق عدة مراكب حتى ردّ إليه الماء . وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام : وهى قلعة دمشق، وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد ، وقلعة بصرى ، وقلعة بعلبك، وقلعة شيزر ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة شُمَيميش[٣]، وقلعة حمص . فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد ، وخزنت بها الغلات والأزواد . وحملت غلال كثيرة إلى دمشق، وفرقت فى البلاد لتصير تقاوى الفلاحين . ورتب [السلطان] بدمشق دار العدل، وبنى مشهدا فى عين جالوت عرف بمشهد النصر .

ورتب [السلطان] البريد[٤] فى سائر الطرقات ، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها . فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين، ويتحكم فى سائر الممالك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل ، وأنفق فى ذلك

(١) فى س "شبرمنت" بغير ضبط . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 140. N. 9.) . وهى قرية من مديرية الجيزة ، تعرف أيضا باسم شبرامنت وبنى يوسف ، وتقع فى شمالى بوصير ، وفى قبلها جسر ممتد من النيل الى الجبل . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٢) القرابيص هى الحجارة ، ومفردها قرباص ، ويظهر أن أصل اللفظ يونانى (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى بلاد كورة حمص . (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 42).

(٤) قبالة هذا اللفظ فى هامش الصفحة فى س كلمة "البريد" ، بخط يشبه خط المتن .

مالا عظيما حتى تمّ ترتيبه. ونظر فى أمر الشوانى الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم فى الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ما كانوا عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى [دار] الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببرّ مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها.

فلما كان ذات يوم حضر إليه رجل من أجناد الأمير الصيقلى[١]، وأخبره أن أستاذه فرق مالا على جماعة من المعزية وقرر معهم قتل السلطان: منهم الأمير علم الدين الغتمى، والأمير بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت؛ فقبض على الجميع فى ثامن ربيع الأول.

[و] فيها قُبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، وعوق فى قاعة الوزارة؛ فشفع فيه الأمير سيف الدين أنس، فخلع عليه فى يومه. ولم يقم سوى أيام وقبض السلطان على الأمير أنس، فقبض على الصاحب زين الدين [بن الزبير] فى صبيحة مسكه. ثم طلب قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ليلى الوزارة فأبى، وأقام الأمير فارس الدين أتابك يراوده زمانا وهو لا يقبل، ثم نزل الى داره. فطلب [السلطان] بهاء الدين على بن سديد الدين محمد بن سليم بن حنا، فولى الوزارة، (١١٤ أ) وفوّض اليه تدبير المملكة وأمور الدولة بأسرها، وخلع عليه. فركب معه جميع الأعيان والاكابر، وعدّة من الأمراء منهم الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار.

وورد الخبر من عكا أن سبع جزائر من جزائر الفرنج فى البحر خسف بها وبأهلها، بعد ما نزل عليهم دم عشرة أيام، فهلك بها خلق كثير، وصار أهل عكا فى خوف واستغفار وبكاء.

وجهز السلطان الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى فى جماعة، ولم يعرف مقصده فى ذلك أحد ممن جرده ولا غيرهم، فساروا الى الشوبك وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين عمر فى سادس عشرى ربيع الآخر. واستقر فى نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المختصى[٢]

(١) فى س "الصقلى"، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. p. 144) هذا الاسم الى (Saikal).

(٢) كذا فى س بغير ضبط، وقد ترجم (Ibid : Op. Cit. I. l. p. 145) هذا اللفظ الى (Mokhtassi).

واستخدم فيها النقباء والجنادرة ، وأفرد بخاص القلعة ما كان فى الأيام الصالحية . وفيه قبض على الأمير بهاء الدين بغدى[1] ، وحبس بقلعة الجبل حتى مات .

وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فُوّض قضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز ، عوضا عن بدر الدين السنجارى ، بعد عدّة شروط اشترطها على السلطان أغلظ فيها . وقصد [القاضى تاج الدين] بكثرة الشروط أن يعفى من ولاية القضاء ، فأجاب السلطان الى قبول ما اشترط عليه رغبة فيه وثقة به ، وصلى بالسلطان صلاة الظهر وحكم بعد ذلك . وقبض السلطان على البدر السنجارى وعوقه عشرة أيام ، ثم أفرج عنه .

وفيها سار الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى — الذى يقال له الزراتيتى[2] لقب لقبه به العامة — ، مع جماعة من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق . وكان قد فرّ من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة ، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر [بيبرس] بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : "بأنه ورد الى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر ، ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا ؛ وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عَرف أمراء العرب المذكورين ، وقال بهؤلاء يحصل المقصود" . فكتب [السلطان] الى النواب بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق ، (١١٤ ب) فسار من دمشق بأوفر حرمة الى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب

(١) كذا فى س ، وقد صحح (Blochet) ، ناشر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٧٩) ، هذا الاسم الى يغدى ، وترجمه (Yaghoudaï) . انظر ص ٤٤٤ ، حاشية ٣ .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 146) هذا اللفظ الى (Zerâtini) . ويوجد أيضا فى ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٧٧) شخص اسمه شمس الدين محمد الزراتيتى ، فلعل هذه النسبة راجعة الى بلد بهذا الاسم .

الى لقائه، ومعه الوزير الصاحب بهـاء الدين بن حنـا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وسائر الأمراء وجميع العسكر، وجمهور أعيان القاهرة ومصر، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة، والنصـارى بالإنجيل. فسار [السـلطان] به إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسى؛ وخرج الناس إلى رؤيته ، وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصـبة الى باب زويلة ، وصـعد قلعة الجبـل وهو راكب؛ فأنزل فى مكان جليل قد هيئ له بها، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره حضر قاضى القضاة ونوّاب الحكم، وعلمـاء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصـوفية ، والأمراء ومقـدّمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس؛ وحضر [أيضا] الشيخ عز الدين بن عبد السـلام (١) . فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد، وجلس السلطان متأدبا معـه بغير كرسى (٢) ولا طرّاحة (٣) ولا مسند . وشهد العربان وخادم من البغاددة بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين، وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبـد المنعم بن حسن المعروف بالجمـال يحيى نائب الحكم بمصر ، والفقيه علم الدين محمـد بن الحسين بن عيسى بن عبـد الله بن رشيق ، والقاضى صـدر الدين موهوب الجزرى، ونجيب (٤) الدين الحـرّانى ، وسديد الدين عثمان بن

(١) فوق هذا اللفظ، بين سطور المتن، ثلاثة ألفاظ بخط دقيق تعذرت قراءتها .

(٢) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٦ — ٧) وصف لأنواع المقاعد الذى يجلس عليها السلطان فى أوقات مختلفة ، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، ونصه : " سرير الملك، ويقال له تخت الملك ... وهو منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه، وهو على هيئة منابر (ص ٧) الجوامع إلا انه مستند الى الحائط، وهـذا المنبر يجلس عليه السلطان فى يوم مهم كقدوم رسل عليـه ونحو ذلك ، وفى سائر الأيام يجلس على كرسى من خشب مغشى بالحرير ، إذا أرخى رجليـه كادتا أن تلحق الأرض . وفى داخل قصوره يجلس على كرسى صـغير من حديد، يحمل معه الى حيث يجلس " .

(٣) الطراحة — وجمعها طراريح — مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.؛ ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧١ أ) .

(٤) فى س " محب " . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. P. 148)، حيث ترجم هذا الاسم إلى (Mouhibb) .

عبدالكريم بن أحمد بن خليفة، [و] أبوعمرو بن أبي محمد الصنهاجي التَّرْمَنْتِي[1]، أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . فقبل قاضي القضاة تاج الدين شهادات القوم، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه في ذلك المحفل العظيم حتى تم الإسجال والحكم .

فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضي تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان وبايع أميرَ المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وأخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء وكبار الدولة[2] . فلما تمت البيعة قلد الإمامُ المستنصر [بالله] السلطانَ الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر [بالله] على اختلاف طبقاتهم . وكتب في الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يُدعى له (١١٥ ا) على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، [وأن] تنقش السكة باسمهما .

(١) بغير ضبط في س ، والنسبة الى قرية ترمنت التابعة لعمل البهنسى بصعيد مصر ، وتقع على غربي النيل . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٨٤٨) .

(٢) يفهم من عبارة أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، في Rec. Hist. Or. I.) في هذا الصدد ، أنه كان شاكا في نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين، وهذا نصها : " وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر . فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسا حضر فيه جماعة من الأكابر... ، فشهد أولئك العرب أن الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الإمام الناصر، فيكون عم المستعصم وأقام القاضي [ابن بنت الأعز] جماعة من الشهود ... ، فأثبت ... نسب أحمد المذكور، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم ... وبايعه الملك والناس بالخلافة . واهتم الملك الظاهر بأمره ، وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة ، واستخدم له عسكرا، وغرم على تجهيزه جملا طائلة، قيل إن مقدار ما غرمه عليه كان ألف ألف دينار ... وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود... وتوجها الى دمشق... ". انظر أيضا ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٠٥)، حيث سمي هذا الخليفة باسم "المستنصر بالله الأسود" .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خطب الخليفة المستنصر بالله فى جامع القلعة ، فاستفتح بقراءة صـــدر سورة الأنعـــام ، ثم صلى على النبي صلى الله عليـــه وسلم ، وترضى عن الصحابة وذكر شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وقضى الخطبة ؛ فاستحسن الناس ذلك منه . واهتم السلطان بأمره ، ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة . فلما شرع فى الخطبـــة تلكأ فيها ، ثم نزل بعد تمامها وصلى بالناس الجمعة[(١)] .

وكان منصب الخلافة شاغرا ثلاث سنين ونصف[(٢)] [سنة] ، منذ قتل الخليفة المستعصم فى صـــفر سنة ست وخمسين ، فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، و بينه و بين العباس أر بعة وعشرون أبا . وكان أسمر اللون وسيما ، شديد القوى عالى الهمة ، له شجاعة و إقـــدام . واتفق له مالم يتفق لغيره ، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه بانى المدرسة [المستنصرية] ببغداد ، ولم يقع لغيره أنّ خليفة لقب بلقب أخيه سواه .

وفى يوم الأحد تاسع عشره ركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل الى مدينة مصر ، وركبا فى الحراريق وسارا فى النيل إلى قلعـــة الجزيرة ، وجلسا فيها . وأحضرت الشوانى الحربية ، فلعبت فى النيـــل على هيئة محاربتها العـــدو فى البحر . ثم ركبا إلى البر وسارا إلى قلعة الجبل ، وقد خرج الناس لمشاهدتهما ، فكان من الأيام المشهودة[(٣)] .

وفيه قلد السلطان الأمير علم الدين سنجر الحلبى — [الذى ثار قبلا[(٤)]] بدمشق — نيابة حلب ، وجهز معه أمراء لكل منهم وظيفة : وهم الأمير شرف الدين قيران الفخرى أستادار ، والأمير

---

(١) الفقرة التالية واردة بهامش الصفحة فى س ، وقد أشار المقريزى الى مكانها المناسب من المتن ، على أنها غير واردة فى ب (١٤٠ أ) ، أو فى ترجمة (Quatremère : Op .Cit.I. 1. p. 149) .

(٢) فى س " ونصفا " .

(٣) الفقرة التالية ، حتى نهاية سطر ٤ بالصفحة التالية ، غير واردة فى ترجمة (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 149) ، على أنها موجودة فى ب (١٤٠ أ) .

(٤) فى س " علم الدين سنجر الحلبى الثائر بدمشق " ، وكان السلطان بيبرس قد عفا عن هـــذا الأمير قبـــل ذلك بمدة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٨) .

بدر الدين جماق[1] أمير جاندار ، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابى شاد الدواوين . وسار [الأمير علم الدين] من القاهرة كما تسافر الملوك، فدخل حلب فى ثالث شعبان ، فحضر اليه جماعة من العزيزية والناصرية وسألوا الأمان — وكانت العزيزية والناصرية قد اختلفوا وخرجوا إلى الساحل، فأقطعهم السلطان إقطاعات، وأحضر منهم عدة إلى مصر .

وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان الى خيمة ضربت له فى البستان الكبير خارج القاهرة، ومعه أهل الدولة . وحملت الخلع صحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجى، وخادم الخليفة المستنصر بالله . فدخل السلطان الى خيمة أخرى، وأفيضت عليه الخلع الخليفتية وخرج بها : وهى عمامة سوداء مذهبة مزركشة ، ودراعة[2] بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وقيد من ذهب عمل[3] فى رجليه ، وعدة سيوف تقلد منها واحدا — وحملت البقية خلفه ، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران وترس . فقدّم له فرس أشهب، فى عنقه مشدة[4] سوداء وعليه كنبوش[5] أسود . وطلب الأمراء واحدا بعد واحد وخلع عليهم؛ وخلع على

(١) كذا فى س .

(٢) الدراعة جبة مشقوقة المقدم، ولا تكون إلا من صوف، والجمع دراريع . (محيط المحيط) . والدراعة أيضا صدرية تلبسها البنات . (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٣) فى س " وعمل قد من ذهب فى رجليه "، وقد غير ترتيب الجملة للانسجام مع أسلوب بقية العبارة .

(٤) ترجم (Dozy : Supp. Dict. Ar.) هذا اللفظ الى (écharpe au cou d'un cheval)، وعلى هذا تكون المشدة مرادفة للفظ " الرقبة " المذكورة فى القلقشندى (صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٨) ، فى باب رسوم الملك وآلاته . (انظر ص ٤٤٣ ، حاشية ١) . هذا وفى محيط المحيط أن الشد عند العامة شال من الحرير يعتم به أو يتمنطق ، والمشد نطاق تشد المرأة به نفسها . أما كون المشدة هنا — أو الرقبة — سوداء فراجع إلى رغبة السلطان بيبرس فى إحياء شعار العباسيين وهو السواد .

(٥) فى س "كنفوش" بغير ضبط ، ولعل هذا هجاء ثان لكلمة كنبوش ، وهى البرذعة تجعل تحت سرج الفرس . (محيط المحيط) . وإنما يقابل هذه الكلمة فى (Dozy: Supp. Dict.Ar.) اللفظ الفرنسى (housse) ، الذى من معانيه غاشية الفرس، وقد تقدّم شرحها . (انظر ص ٢١٤ ، حاشية ٥) . هذا والكنبوش — بفتح الكاف — اللثام الذى يستعمله أهل بلاد المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم ، اتقاء لبرودة هواء الصباح ورطوبته . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قاضى القضاة تاج الدين، وعلى الصاحب بهاء الدين، وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء . ونُصب منبر، فصعد عليه ابن لقمان بعد ما جلل بثوب حرير أطلس أصفر، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان، وهو من إنشائه، ونصه بعد البسملة : "الحمد لله الذى (١١٥ ب) اصطفى الإسلام بملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيّد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف، وقيّض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف . أحمده على نعمه التى رتعت الأعين منها فى الروض الأُنُف ، وألطافه التى وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور ما كان حزنا . وأشهد أن محمدا عبده الذى جبر من الدين وهنا، ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنا، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى ، وأصحابه الذين أحسنوا فى الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى" .

"وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ، ودعا الى طاعته فأجاب من كان مُنْجدا ومُتْهما ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام[1] العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه، ذَكَره الديوان

(١) تقدمت الإشارة (ص ٣٥٧ ، حاشية ١) إلى بعض ما جاء فى الألقاب وأنواعها بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ٤٩١ ، وما بعدها؛ ج ٦ ، ص ٥ ، وما بعدها)، ومنه يتضح أن لفظ المقام كان من الألقاب الخاصة بالملوك والسلاطين، وأنه كان يستعمل فى المكاتبات السلطانية للكناية عن السلطان تعظيما له عن التفوه باسمه، فيقال المقام الأشرف أو المقام الشريف العالى أو المقام العالى؛ وكان لفظ العالى فقط من الألقاب التى يشترك فيها أيضا أرباب السيوف والإقلام . أما لفظ المولوى فنسبة للمبالغة من كلمة مولى، ويظهر أنه كان من الألقاب المتجنبة، لأن المولى لفظ مشترك يقع فى اللغة على السيد وعلى المملوك والعتيق . أما السلطانى فهو السلطان، وقد أدخلت عليه ياء النسب للمبالغة، وكذلك الحال فى لفظ الملكى أيضا ، على أن لفظ الملكى كان من الألقاب المشتركة بين الملك نفسه وأتباعه المنسوبين إليه، من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم .

العزيز[1] النبوى الإمامى[2] المستنصرى أعز الله سلطانه، تنويها بشريف قدره، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية ، بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت[3] ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب . فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله ما لا يخفى؛ وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك بحبله متمسك لا نقطع به قبل الوصول إليه . لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه، والسعيد من خفف من حسابه . فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن (١١٦ ا) حصل الإياس من جمعه" .

" وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى" .

" فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا ،

(١) كان هذا اللفظ من ألقاب ديوان الخلافة خاصة ، فيقال الديوان العزيز كا بالمتن هنا ، وقد جرى المصطلح على عدم إضافة ياء النسب إلى هذا اللفظ . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٦ ، ص ٢٠) .

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم ، على أنه كان يقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء ، وقد تضاف إليه ياء النسبة أحيانا للمبالغة . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٦ ، ص ٩) .

(٣) فى س "واذهب" .

وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدّم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعـدل وحثّ على الإحسان، وكرّر ذكره فى مواضع من القرآن، وكفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العـدل إلا واجتنيت ثمـاره من أفنان، ورجع الأمر به بعد بُعْد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد" .

" وهـذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج الى نوّاب وحكام، وأصحـاب رأى من أصحاب السـيوف والأقلام . فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقّب عليه تنقيبا، واجعل عليـه فى تصرفاته رقيبا . وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا . وأْمُرْهم بالأناة فى الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق، وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا، وأن يوسعوهم برا وإحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم (١١٦ ب) إذا استحل الزمان لهم حرمانا، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليـه وسلطانا . والسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله، واستنّوا بسنتـه فى تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنـه ما تعجز قـدرته عن حمل أثقاله" .

"ومما تؤمرون به أن يُمحَى ما أُحدث من سيئ السنن، وجُدّد من المظالم التى هى من أعظم المحن، وأن يُشترى بإبطالها(١) المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن . ومهما جبى منها من الأموال فإنما هى باقية فى الذمم حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها حالية فإنما هى على الحقيقة منها

(١) ضمير الهاء هنا عائد على المظالم .

عاطلة . وهل أشق ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلما . وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله . فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدّم من الملوك وإن جاء آخرا . فاحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمامُ هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبّه الخلائق على ما خصّك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور يجب أن تُلاحَظ وترعى ، وأن توالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت فى الأمور أصلا وصار غيرك فرعا" .

"ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة التى لا لغو فيها ولا تأثيم . وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت (١) فى سواد الحُسّاد ، وعرفت منك عزمة هى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد . وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبدّل ، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفُك أثّر فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأُول . فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيِّد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا" .

"ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له (١١٧ أ) الثغور ، واحتفال يبدِّل ما دجى من ظلماتها بالنور . واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيِّد منها كل ما غادره العدو منهدما ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع . وأولاها بالاهتمام

(١) كذا فى س ، ولعلها أشرعت أو أشرقت أو أشرفت ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I.1. P. 156) هذه العبارة الى كلها (faits éclatants, qui ont fait pâlir les envieux) .

ما كان البحر له مجاورا، والعدوّ له ملتفتا ناظرا، لاسيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل اليها رابحا وراح خاسرا، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا» .

«وكذلك أمر الأسطول[(١)] الذى تزجى[(٢)] خيله كالأهلة، وركائبه سابقة بغير سائق[(٣)] مستقلة . وهو أخو الجيش السليمانى : فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة . وإذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام» .

« وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيّب؛ وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ؛ وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها، وألزمك المراشد ولا تحتاج الى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة ستتم بشكره » .

ولما فرغ من قراءته، ركب السلطان بالخلعة والطوق الذهب والقيد الذهب ، وكان الطالع برج السنبلة . وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى أستادار السلطان، ثم حمله الصاحب بهاء الدين وسار به بين يدى السلطان ، وسائر الأمراء ومن دونهم مشاة سوى الوزير . ودخل [السلطان] من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زُينت وبُسط أكثر الطريق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان . وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يُخْلَعها خلع الرضى ، إلى أن خرج من باب زويلة وسار إلى القلعة ، فكان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه .

وشرع السلطان فى تجهيز الخليفة للسفر، واستخدم له عساكر ، وكتب للأمير سابق الدين

---

(١) تقدم ذكر كلمة أسطول أكثر من مرة، ولم ينبه إلى أصلها أو أنواع استعمالها فى كتب المؤلفين بالعربية . وأسطول لفظ يونانى الأصل ، يطلق فى العربية أحيانا على المراكب الحربية المجتمعة ، وأحيانا على مركب حربى واحد فقط ؛ والأسطولى هو العسكرى الذى يعمل فى البحر، أما الذى ينتظم فى سلك الجيوش البرية فهو الجندى . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 157 N. 33).

(٢) فى س " تزجى " .

(٣) فى س " سابقه بغير سايق " .

بوزبا[1] أتابك العسكر الخليفتى[2] بألف فارس، وجعل الطواشى بهاء الدين صندل الشرابى[3] الصالحى شرابيا بخمسمائة فارس، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندارا[4] بمائتى فارس، والأمير الشريف نجم الدين جعفر أستادارا[5] بخمسمائة فارس، وسيف الدين بلبان الشمسى دوادارا[6] (١١٧ ب) بخمسمائة فارس، والأمير فارس الدين أحمد بن أزدمر اليغمورى دوادارا[7] أيضا، والقاضى كمال الدين محمد بن عز الدين السنجارى وزيرا، وشرف الدين أبا حامد كاتبا[8]؛ وأقام عدة من العربان أمراء. وحمل [السلطان] إلى الجميع الخزائن والسلاح وغيره من الصناجق والطبلخاناه، وأنفق فيهم أموالا كثيرة. واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا، ورتبهم سلاح دارية وجامدارية، وأعطى كلا منهم ثلاثة أرؤس من الخيل وجملا لعدته. ورتب سائر ما يحتاج إليه الخليفة: من صاحب ديوان وكاتب إنشاء ودواوين وأئمة، وغلمان

(١) كذا فى س، وقد تقدم ورود هذا الاسم (ص ٤٠٥، سطر ١١) على أنه " بوزنا "، اعتمادا على رسم وروده فى ب (١٢٦ أ). انظر ص ٤٠٥، حاشية ٣. هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٨٣)، أن اسم هذا الأمير ابورتا؛ وهو فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٥ أ) "بروما"، بغير نقط البتة.

(٢) هذا اللفظ وارد بهامش الصفحة فى س، بدون إشارة كالمعتاد الى موضعه المقصود، وقد وضع هنا لمناسبته المعنى.

(٣) الغالب أن الشرابى هو الذى يصنع الأشربة والأدوية، وأنه كان أحد رجال الشراب خاناه، مثل الشربدار. انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٩). ويقوى هذا الفرض أن صانع الأدوية يسمى شرائبى وشرباتى فى (Dozy : Supp. Dict. Ar)، وأنه يوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦) حارة تسمى بحارة الشرابية، وقد " عرفت بذلك لأنها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية، [وهم] إحدى طوائف العسكر... ". هذا وقد ترجم (Blochet)، ناشر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٨٣) هذا اللفظ إلى (échanson)، ويقابل ذلك فى مصطلح دولة المماليك كلمة الساقى (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٤) فى س "خازندار".

(٥) فى س " استادار".

(٦ و ٧) فى س " دوادار".

(٨) الكاتب فى العرف العام بالديار المصرية، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية، هو كاتب المال ومن فى معناه. (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٢).

وجرائحية وحكماء وبيوتات، وكلها كلها مما تحتاج إليه . ورتّب الجنائب وخيول الإصطبلات، واستخدم الأجناد، وعيّن لخاص الخليفــة مائة فرس وعشر قُطُر بغال وعشر قُطُر جمــال، وطشت خاناه وشراب خاناه وحــوائج خاناه؛ وكتب لمن وفد معه من العراق تواقيع ومناشير بالإقطاعات .

فلمــا تهيأ ذلك كله برز الدهليز الخليفتي والدهليز الســلطانى إلى البركة ظاهر القاهرة، وركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل فى السادسة من نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان، وسارا إلى البركة فنزل كل منهما فى دهليزه، واستمرت النفقــة فى أجناد الخليفــة . وفى يوم عيــد الفطر ركب الســلطان مع الخليفة تحت المظلة، وصليا صــلاة العيد، وحضر الخليفة إلى خيمة الســلطان بالمنزلة وألبســه سراويل الفتوة بحضرة الأكابر . ورتب السلطان الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر، وأقام معه الصاحب بهاء الدين بن حنا .

(١) الجرائحية جمع جرائحى، وهذا الجمع ومفرده صيغة عامية للفظى جراحيون وجراحى، والجراحى — ويقال الجرّاح أيضا — الطبيب الذى يعالج الجراح . (محيط المحيط) .

(٢) ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. I. P. 160) هذا اللفظ الى (des maisons garnies de toutes sortes d'accessoires utiles) ويفهــم من ذلك أن السلطان أعطى الخليفة بيوتا مفروشــة بكامل الأثاث والمفروشات .

(٣) جمع قَطْر، وهو عدد من البغال أو غيرها من المــاشية، تكون على نسق واحد . (محيط المحيط) .

(٤) الحوائج خاناه بيت الحوائج، وهى حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص١٢ — ١٣)، " جهــة تحت يد الوزير، منها يصرف اللحم الراتب للطبخ الســلطانى والدور السلطانية، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ (ص ١٣) أسماؤهم الدفاتر؛ وكذلك توابل الطعام للطبخ الســلطانى والدور السلطانية، ومن له توابل مرتبــة من الأمراء وغيرهم؛ و[كذلك] الزيت للوقود، والحبوب وغير ذلك من الأصــناف المتعددة . ولها مباشرون منفردون بهــا، يضبطون أسمــاء المستحقات ومقادير استحقاقهم؛ وهى من أوســع جهات الصرف، حتى أن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل يوم، خارجا عما عداه من الأصناف، وربمــا زاد على ذلك" .

(٥) تقــدمت الإشارة الى الفتوة وسراويلها (انظر ص ١٧٢، حاشية ١، ٢)، وقد أورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٨٤ — ٨٥) فقرة طويلة فى هذا الصدد، ونصها : "ثم تجهز السلطان [بيبرس] إلى الشام فى تاسع عشر رمضان، ورغب فى لباس الفتوة فألبسه [الخليفة] قبل سفره . ونسبة الفتوة من الإمام على بن أبى طالب =

وفى يوم السبت سادس شوّال رحل الخليفة وصحبته الملك الظاهر بجميع العساكر، فساروا إلى الكسوة ظاهر دمشق، وخرج إلى لقائهم عسكر دمشق فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة. فنزل الخليفة بالتربة الصالحية فى سفح قاسِيُون[1]، ونزل السلطان بقلعة دمشق. وفى يوم الجمعة عاشره دخل الخليفة [الجامع الأموى بدمشق] من باب البريد[2]، وجاء السلطان من باب الزيادة، واجتمعا بمقصورة الجامع حتى فرغا من صلاة الجمعة، وخرجا إلى باب الزيادة فمضى الخليفة وعاد السلطان.

وكان قد قدم إلى السلطان وهو بقلعة الجبل الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وولده [الملك[3] السعيد] علاء المُلْك[4] وأهله، فى شعبان إلى القاهرة. فأقبل السلطان عليه وأحسن إليه، وأمر له ولمن معه بالإقامات والأموال من دمشق إلى القاهرة، وتلقاه وأنزله بدار تليق به. ثم وصل أخوه الملك المجاهد سيف الدين (١١٨ أ) إسحاق صاحب الجزيرة، فتلقاه [السلطان] كما تلقى أخاه. وكان أخوهما الملك المظفر

= كرّم الله وجهه، لسلمان الفارسى، لعلى التونى، للحافظ الكندى، لعوف الغسانى، لأبى (ص ٨٥) العز النقيب، لأبى مسلم الخراسانى، لهلال النبهانى، لجوشن الفزارى، للأمير حسان، لأبى الفضل القرشى، لأبى الحسن النجار، للملك أبى كلنجار، لروزبه الفارسى، للأمير وهزان، للقائد عيسى، لمهنا العلوى، لعلى الصوفى، لمعز بن أنس، لأبى القاسم بن حنا، لنفيس العلوى، لبقا بن الطباخ، لحسن بن الشرابدار، لأبى بكر بن الجيش، لعمر بن الرصاص، لعبد الله بن العين، لعلى بن زعيم، لعبد الجبار، للإمام الناصر، لجده" .

(١) بغير ضبط فى س، وهو جبل مطل على الشمال الغربى من دمشق، ويقال إنه (Mons Casius) الرومانى. راجع (Le Strange : Palest. Under Moslems, pp. 240. Note *, 482)؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣).

(٢) باب البريد أحد الأبواب الأربعة التى لجامع دمشق، وهى: باب البريد، وباب جيرون ويسمى أيضا باب الساعات، وباب الزيادة ويعرف هذا بباب الصرمايا تية وباب الساعات أيضا، وباب العمرة وكان معروفا قديما باسم باب الفراديس وباسم باب الناطفيين أو الناطفانيين (Le Strange : Palest.Under Moslems, p 226).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٦ أ).

(٤) يلى هذا بياض فى س يسع لفظا تقريبا.

علاء الدين علىّ صاحب سنجار قد رتبـه الملك المظفر قطز فى نيابة حلب[١] ، فقبضه العزيزية واعتقلوه، فسأل إخوتُه الملكَ الظاهرَ فيه فأفرج عنه، وبالغ فى إكرامهم وعطائهم . و[كان السلطان] لما نزل بالبركة خارج القاهرة، [قد] جهز إليهم خيل النوبة[٢] والعصائب[٣] والجمدارية والخلع، وكتب لهم تقاليد ببلادهم التى فوضت إليه من الخليفة: فكتب للملك الصالح بالموصل ونصيبين وعقر[٤] [و]شُوش[٥] ودارا والقلاع العمادية[٦] ، وكتب للمجاهد بالجزيرة ، وكتب للمظفر بسـنجار . فقبلوا الأرض عنـد لبس الخلع ، وسـير[السلطان] إليهم الكوسات والسناجق والأموال، وأعفوا من الحضور والخدمة . فساروا إلى دمشق، وحضروا مجلس الشام بقلعة دمشق، ولبسوا الخلع وقبلوا الأرض، وخرجوا والأتابك فى خدمتهم بشعار السلطنة، وأعطاهم [السلطان] فى لعب الكرة شيئا كثيرا .

(١) تقدمت الاشارة الى هذا الملك ، وما حدث له منذ تولى نيابة حلب، ص ٤٣٩ ، حاشية ٣)، واسمه هناك الملك السعيد ، وكان السلطان قطز قد لقبه بذلك اللقب . (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 359. N. 1) .

(٢) خيـل النوبة هى التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ، وتسمى أيضا فرس النوبة . وللفظ النوبة فقط معان اصطلاحية أخرى ، أحدها فرق الجند التى تتاوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . والنوبة عند المغنين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معا ، ويقابلها فى الفرنسية (aubade, concert, fanfares, musique symphonie, orchestre) ، وربما أطلقت على المطربين بها إذا اجتمعوا ، ويقال لهم النوبجية عند الأتراك . هذا ويقال ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر، والنوبة أيضا الوقعة الحربية . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) جمع عصابة، وقد تقدّم وصفها فى ص ٤٤٣ ، حاشية ١ .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى الجبال الواقعة شرقى الموصل ، وتعرف بعقر الحميدية نسبة الى أهلها الأكراد المعروفين بهذا الاسم . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٦٩٦) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة عالية جدا قرب عقر الحميدية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٣٣٤) . ويلاحظ أن المقريزى اعتبر هـذه القلعة والتى قبلها كأنهما موضع واحد ، غير أنه ليس فى المراجع المتداولة فى هـذه الحواشى ما يسند هذا التركيب المزجى . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 166. N, 49) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى شمالى الموصـل ، عمرها عماد الدين زنكى سـنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) ونسبت اليـه ، وكان اسمها قبل ذلك آشب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٧) . ويتضح من (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 166. N. 49) أن قلعتى عقر وشوش كانتا تدخلان فى عمل القلاع العمادية ، وهذا يفسر تسمية المقريزى لها جميعا باسم القلاع العمادية .

ووصل إلى دمشق الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماة . فوصل [السلطان] كلا منهما بثمانين ألف درهم وحملين من الثياب وخيول ، وركب كل منهما بدمشق والأمراء مشاة فى خدمته بشعار السلطنة . وكتب [السلطان] لهما التقاليد باستقرارهما على ما بأيديهما وزادهما، ثم عادا إلى بلادهما .

وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ، ويكونَ أولاد صاحب الموصل فى خدمته . فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل : "فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر" . فرجع إليه [الوسواس] ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس . وجرّد [السلطان] الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين سنقر الرومى الى حلب ، وأمرهما بالمسير الى الفرات ، و إذا ورد عليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه سار .

وركب السلطان لوداع الخليفة ، وسافر [الخليفة](1) فى ثالث عشر ذى القعدة ، ومعه أولاد صاحب الموصل الثلاثة . ففارقوه فى أثناء الطريق وتوجه كل منهم(2) الى مملكته . فوصل الخليفة الى الرحْبة(3) ، وأتاه الأمير على بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب ، وانضاف إليه من مماليك المواصلة نحو الستين مملوكا ، ولحق به الأمير عز الدين بركه من حماة فى ثلاثين فارسا . ورحل [الخليفة] من الرحبة الى مشهد على ، فوجد رجلا(4) ادّعى

(1) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٦ أ) .

(2) فى س "منهما" .

(3) بغير ضبط فى س ، وهى رحبة مالك بن طوق ، وموقعها على شاطىء الفرات جنوبى قرقيسيا ، وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤) .

(4) يقصد المقريزى بهذا الرجل الأمير أبا العباس أحمد ، الذى أتى مصر فيما بعد وصار خليفة بها وتلقب بالحاكم بأمر الله . (انظر ص ٤٦٧ ، سطر ٦) . وقد ترجم السيوطى (تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ ، وما بعدها) لهذا الأمير العباسى ، وفصل ما حدث له منذ نجاته من أيدى التتر بعد وقعة بغداد ، وهذا نص ماجاء به مصححا ، ومضافا إليه زيادات توضيحية بين الأقواس من نفس المرجع (ص ٣١٦ — ٣١٧) : "الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبى علىّ الحسن القبى — بضم القاف وتشديد الباء الموحدة — ابن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله ، =

أنه من بنى العباس قد اجتمع اليه سبعمائة فارس من التركمان ، كان الأمير شمس الدين أقوش البرلى قـد جهزهم من حلب . فبعث الخليفـة الى التركمان واستمالهم ففارقوه وأتوا الخليفـة ، فبعث اليه الخليفة يستدعيه (١١٨ب) وأمّنه ورغّبه فى اجتماع الكلمة على إقامة الدولة العباسية ، ولاطفه حتى أجاب وقـدم اليه ، فوفى له وأنزله معـه . وسار [الخليفـة] الى عانة ثم الى الحديثة ، وخرج يريد هيت ، وكتب الى الملك الظاهر [بيبرس] بذلك .

وأما حلب فإن الأمير سـنجر الحلبى فارقها وسار الى دمشق ، فاستولى عليهـا الأمير شمس الدين أقوش البرلى و بعث بالطاعة الى السلطان ، فأبى إلا حضوره . فلمـا سار الأمير سيف الدين الرشـيدى والأمير سـنقر الرومى من دمشق رحل أقوش عن حلب ، فدخلاها وسارا منها الى الفرات ، وأغارا على بلاد أنطاكية ، وكسب العسكر وغنم ، وحرق غلال الفرنج ومراكبهـم وعاد . فولى السلطان الأمير علاء الدين بندقدار[1] نيابة حلب ، فأقام بها فى شدّة من غلاء الأسعار وعدم القوت ، ثم رحل عنها .

وقدمت الإقامات من الفرنج[2] الى السلطان ، وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهـم أمورا

= كان اختفى وقت أخذ بغداد ونجا ، ثم خرج منها و فى صحبته جماعة ، فقصد حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة فأقام عنده مدّة . ثم توصل مع العرب إلى دمشق ، وأقام عند الأمير عيسى (ص ٣١٨) بن مهنا مدة ، فطالع [ابن مهنا] به الناصر صاحب دمشق فأرسل يطلبه ، فبغته مجىء التتار . فلمـا جاء الملك المظفر [قطز] دمشق سير فى طلبه الأمير قلج البغدادى ، فاجتمع به و بايعه بالخلافة ، وتوجه فى خدمته جماعة من العرب ، فافتتح الحاكم [بأمر الله] عانة بهم والحديثة وهيت والأنبار ، وصاف التتار وانتصر عليهـم . ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشـق يومئـذ والملك الظاهر يستدعيه (كذا) ، فقدم دمشق فى صفر ، فبعثه الى السلطان . وكان المسـتنصر بالله قد سبقه بثلاثة أيام الى القاهرة ، فـا رأى أن يدخل إليها خوفا من أن يمسـك فرجع الى حلب . فبايعه بها صاحبها [شمس الدين أقوش] ورؤساؤها [و] منهم عبد الحليم بن تيمية ، وجمع خلقا كثيرا وقصد عانة . فلما رجع المسـتنصر وافاه بعانة ، فانقاد الحاكم [بأمر الله] له ودخل تحت طاعتـه ... " ، كما بالمتن . ويتضح من هذا أن سلاطين المماليك قبـل بيبرس فكروا فى اجتذاب الخلافة العباسية الى القاهرة ، وأن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أمينا لإيوائهم وحمايتهم .

(١) كذا فى س .

(٢) من أخبار السلطان بيبرس والفرنج تلك السنة ، وهذا نقلا عن العينى (عقد الجمان ، ص ٢١٦ ، فى =

لم يجيبوا اليها ، فأهانهم . وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهــة بعلبك، فسألوا رجوعه . واتفق الغلاء ببلاد الشام ، فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه الى آخر أيام الملك الناصر[١] ، و إطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية . فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهــدنة لصاحب[٢] يافا ومتملك بيروت ، فكاسر الفرنج فى أمر الأسارى ، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس الى دمشق واستعملهم فى العمائر. فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين، فأجيبوا : "بأنكم أخذتم العوض عنها فى الأيام الناصرية مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين[٣] والمقايضة فى أيديكم . فكيف تطلبون العوض مرتين ؟ فإن بقيتم على العهــد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد" . وخرج الأمير جمال الدين المحمدى فى عسكر ، وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانما سالمــا .

وسارت عدة من العسكر فأوقعوا بعرب زُبيد[٤] لكثرة فسادهم ، وقتــلوا منهم جماعة وعادوا

= Rec. Hist. Or.II. 1) أنــ السلطان جهز الى إمبراطور الدولة الغربية ، وهو مانفرد بن فردريك الثانى (Manfred, son Of Frederic II) هــدية من جملتها عدد من الزراف ، وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت ، بخيولهم التترية وعدتهم . انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 177) . على أن الفرنج المقصــودين هنا بالمتن هم ملوك وأمراء الصليبيــين بالشام ، ومنهم صاحب يافا ومتملك بيروت ، واسم كل منهما (John of Ibelin) . انظر (Stevenson : The Crusaders In The East. p. 336; King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 258)

(١) المقصود بالملك الناصر هنا السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، وكان بينه و بين (John of Ibelin) صــاحب يافا معاهــدة قديمة . راجع (Lane-Poole: A Hist. of. Egypt In The Middle Ages. P. 268. N. I.)

(٢) اسم هذا الأمير فيما يلى كنديافا ، أى (Count of Jaffa) .

(٣) فى س ، ب (١٤٤ أ) سيس ، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 169) على هذا الاعتبار . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٨ ب) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وزبيــد اسم لقبيلة كانت مساكنها حول دمشق ، وقد عرف كل فرع من فروعها باسم نواحى دمشق التى سكنتها ، وهذه الفروع هى زبيد الغوطة ، وزبيد المرج ، وزبيد صرخد ، وزبيد حوران ، وزبيد الأحلاف الذين كانت مساكنهم قرب الرحبــة بجوار منازل آل فضل . (القلقشندى : صــبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

غانمين . وأحضر السلطان أمراء العربان ، وأعطاهم وأقطعهم الإقطاعات، وسلمهم درَك[1] البـلاد وألزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق ؛ وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وفوّض [السلطان] إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نيابة دمشق، وفوّض قضاءها للقاضى شمس الدين أبى[2] العباس أحمـد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان — وكان قد خرج معه من مصر — ، عوضا عن نجم الدين أبى بكر محمد بن احمد بن يحيى بن السنى، ووكل به وسـفّره إلى (١١١٩) القاهرة . وقرئ تقليد ابن خلكان يوم الجمعة تاسع ذى الحجـة، وفُوّض إليه الحكم من العريش إلى الفرات، والنظر فى جميع أوقاف الشام من الجامع والمـارستان والمدارس والأحباس وتدريس سبع مدارس .

وخرج السلطان من دمشق يوم السبت سابع عشره يريد مصر . وصُرف قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز فى سلخ شوّال عن قضاء مصر والقبلى، واستقر مكانه قاضى القضاة برهان الدين السنجارى، وبقى قضاء القـاهرة والوجه البحرى بيد ابن بنت الأعز . وأمر السلطان ببناء مشهد على عين جالوت .

وفيهـا كتب السلطان إلى الملك بركه [خان] يغريه بقتال هولاكو ويرغبـه فى ذلك، وسببه تواتر الأخبار بإسلام بركه . وفيهـا أغار التتار الذين تخلّفوا على أعمال حلب وعاثوا، ونزل مقدمهم بيـدرا على حلب، وضايقها حتى غلت أسعارها وتعـذّر وجود القوت ، فلما بلغهم توجه عسكر السلطان إليهـم رحلوا . وفيهـا استولى الأمير شمس الدين أقوش البرْلى[3] العزيزى على حلب، وجمع معـه التركمان والعرب، فأقام نحو أربعة أشهر . ثم توجه إلى البيرة

(١) الدرك التبعة ، فيقال دَرّك السلطان أمراء العربان بالبلاد أى جعلها تحت دركهم وتبعتهم وخفارتهم ، وهو فعل مولد . انظر (محيط المحيط ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar) . هذا وعبارة ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع ، ص ٣٩٨ ب) توضح هـذا المعنى تمـاما ، ونصها : "وعمهم السلطان بفضـله ، وأطلق رسومهم وكتب مناشيرهم ، وسلم اليهم خفر البلاد وألزمهم حفظها إلى حدود العراق" .

(٢) فى س " ابو " .

(٣) هذا اللفظ مضبوط فى س بسكون على الراء فقط .

وأخذها، ومضى إلى حران فأقام بها، وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان. وفيها عدى بنو مرين العدوة[1] لقتال الفرنج فظفروا. وفيها حج الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن، وكسا الكعبة وتصدق بمال.

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى، صاحب حلب [و] دمشق — و[هو] آخر ملوك بنى أيوب —، بعد أربعة وعشرين عاما من ملكه، واثنتين وثلاثين سنة من عمره، مقتولا بأمر هولاكو[2]. ومات الملك الصالح إسماعيل بن المجاهد شيركوه ابن القاهر محمد بن المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى، صاحب حمص، مقتولا [بأمر هولاكو[3] أيضا]. وتوفى الأديب مخلص الدين أبو العرب إسماعيل بن عمر بن يوسف بن قرناص الحموى.

*

سنة ستين وستمائة. فى ثانى المحرم وصل السلطان من دمشق. واشتد الغلاء بدمشق، فبلغت الغرارة القمح أربعمائة وخمسين درهما فضة، وهلك خلق كثير من الجوع.

---

(١) بغير ضبط فى س، وقد أطلق المؤرخون هذا الاسم — ويقال بر العدوة أيضا — على الشاطئ المراكشى لبوغاز جبل طارق، ويستعمل لفظ عدوة فى مراكش الحالية بمعنى شاطئ نهر، ويسمى قسما مدينة فاس القديمة باسم العدوتين. انظر (G. - Demombynes : Masalik el Absār, p. 137. N. 1.).

(٢) تقدم ذكر وقوع الملك الناصر هذا وأخيه الملك الظاهر غازى وغيرهما فى يد التتر، وإرسالهم جميعا الى هولاكو بتبريز. (انظر ص ٤٢٧، سطر ١). ويفهم مما يلى هنا سطر ٢٠، أن الناصر رأى وقت ذاك أن السلامة لا تكون إلا باظهار الميل الى التتر، فأعلن أنه لاجىء بحمى هولاكو ورحمته، ولذا أقبل عليه هولاكو وعلى من معه، ووعده برده الى مملكته. أما سبب قتله، نقلا عن أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٧، فى Rec. Hist. Or. I.)، فهو أنه "لما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا، ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر يوسف، الذى كان قد التجأ اليه ... وأحضر معه أخاه الملك الظاهر غازى، وقال له: أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك، فغدرت بى وقتلت المغل. فقال له الملك الناصر: لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون بتوريز كيف يحكم على من بالشام؟ فاستوفى (كذا) هولاكو لعنه الله ياجيا (une flèche أى سهم أو نبلة أو رمح) وضربه به. فقال له الناصر: يا خوند! الصنيعة! فنهاه أخوه الظاهر وقال: قد حضرت. ثم رماه [هولاكو] بفردة ثانية فقتله، ثم أمر بضرب رقاب الباقين، فقتلوا الظاهر أخا الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معهم".

(٣) انظر الحاشية السابقة.

و[فيه] سار قرابغا(١) مقـدم التتار من بغـداد — وكان قد استخلفه هولاكو عليها(٢) عند عوده إلى بلاد الشرق — يريد لقاء الخليفـة المسـتنصر بالله ومحاربته ، فنهب الأنبار وقتل جميع من فيها ، وتلاحقت به بقية التتار من بغداد . ولقيهم الخليفـة وقد رتّب عسكره : فجعل التركمان والعرب فى جناحى العسكر ، واختص جماعة جعلهم فى القلب ، وحمل بنفسه على التتار فكسر مقدّمتهـم ، وخذله العـرب والتركمان فلم يقاتلوا . وخرج كمين للتتار ففـر العرب والتركمان ، وأحاط التتار بمن بقى معه فلم يفلت منهـم سوى الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم الى مصر وتلقب بالحاكم بالله ، والأمير ناصر الدين بن مهنا ، والأمير ناصر الدين ابن صيرم، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى(٣) ، والأمير أسد الدين محمود، فى نحو الخمسـين من الأجناد . ولم يعرف للخليفـة خبر : فيقال قتل بالمعركة فى ثالث المحرم ، ويقال بل نجا مجروحا فى طائفة من العرب فمـات عندهم . وكانت هذه الواقعة فى العشر الأول من المحرم، فكانت خلافته دون السنة . وبلغت نفقة الملك الظاهر على الخليفـة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستين ألف دينار عينا .

واستقر الملك الصالح عماد الدين اسماعيل[بن بدر الدين لؤلؤ] فى مملكته بالموصل، وسار أخواه إسحاق وعلىّ إلى الشام خوفا من التتار، وقدما على السلطان بقلعة الجبل فأبرّ مقدمهما، وسألاه فى تجهيز نجدة لأخيهما(٤) . فرسم [السلطان] بتجريد الأمير شمس الدين سـنقر الرومى

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremére : Op. Cit . I. I. p. 17I) .

(٢) كان قرابغا ، نقـلا عن (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 368)، قائدا عاما على الجيوش التترية بسائر العراق العـربى ؛ أما القائد الذى اسـتخلفه هولاكو على بغداد فاسمـه بهادر على (Bahdir Ali) ، وقد سار القائدان معا لملاقاة الخليفة المستنصر على الأنبار ، كما يلى بالمتن .

(٣) فى س " الصيرمى " .

(٤) كان رحيل الملك الصالح هذا قبلا الى حضرة السلطان بيبرس (انظر ص ٤٦٠ ، سطر ٧) قد أغضب أهل الموصـل والمندوب التترى المقيم بها . وكان ممن خرج من الموصل لتوديع الملك الصالح وقت ذاك أحد قواده واسمه علم الدين سنجر، فلما رجع هذا القائد الى الموصل منعه المندوب التترى من دخول المدينة . ثم استطاع علم الدين أن يدخلها مع رجاله خفية ، واضطر المندوب التترى الى الجوء الى القلعة ، وتلا ذلك إيقاع علم الدين بالمسيحيين و بكنائسهم =

فى جماعة من البحرية والحلقة ، وساروا من القاهرة فى (١١٩ ب) رابع جمادى الأولى . وكتب إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس، فسار العسكران من دمشق فى عاشر جمادى الآخرة .

وفوّض السلطان وزارة دمشق لعز الدين عبد العزيز بن وداعة . وتسلم نوّاب السلطان قلعة البيرة . ووقع الصلح بين السلطان وبين الملك المغيث صاحب الكرك . وباشر السلطان عرض عساكر مصر بنفسه ، وحلّفهم لولىّ عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان .

وفى يوم الأحد ثانى عشرى صفر، وصل الأمير أبو العباس أحمد الذى تلقب بالحاكم بأمر الله إلى دمشق، وخرج منها يريد مصر فى يوم الخميس سادس عشريه ، فوصل الى ظاهر القاهرة فى سابع عشرى شهر ربيع الأوّل . فاحتفل السلطان للقائه، وأنزله فى البرج الكبير داخل قلعة الجبل ، ورتب له ما يحتاج اليه[1] . وفى نصف رجب قدم جماعة من البغاددة مماليك الخليفة [المستعصم][2]، الذين تأخروا بالعراق بعد قتل الخليفة ، ومقدمهم الأمير سيف الدين سلار[3] . فأكرمهم السلطان ، وأعطى الأمير سلار إمرة خمسين فى الشام ونصف مدينة نابلس، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بمصر . وفيها أطلق السلطان الأمير

ــــــــــــــ

= وأديرتهم . وبينما الموصل ماثجة بتلك الحركة الانتقامية ، وصلها جيش تترى على رأسه قائد مسيحى اسمه صندغون (Sandaghoun) ، فحاصرها وأخذ يعدّ العدّة لهدم الثورة بها . ثم جاء الى ذلك القائد أن الملك الصالح قد عاد من مصر وأنه على مقربة من الموصل يريد الدخول إليها ، فرفع الحصار عنها وانتحى موضعا خفيا حتى دخلها الملك الصالح ، وعاد بعدئذ الى حصارها ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا . عند ذلك أرسل الملك الصالح يطلب نجدة السلطان بيبرس ، كما بالمتن هنا وفى ص ٤٧٥ . راجع (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٩٤ ، وما بعدها ؛ (D'Ohsson : Op. Cit. pp. 370 et seq. .

(١) انظر ص ٤٦٢ ، حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٨ ، فى .Rec. Hist. Or. I) .

(٣) أصل هذا الأمير مملوك قبشاق من قبيلة دوروت (Dourout)، وقد اشتراه الخليفة الظاهر العباسى (٦٢٢ — ٦٢٣ هـ)، وترقى فى خدمته حتى أصبح فى عهده واليا على واسط والكوفة والحلة ، وظل كذلك حتى آخر عهد المستعصم ووقوع بغداد فى يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ . عندذلك انضم الأمير سلار بما كان لديه من العسكر الى =

سيف الدين قلج البغدادى المستنصرى من الاعتقال ، وكان قد اعتقله ، فمنّ عليه وأذن له فى لعب الكرة معه[1] .

وفى شعبان قدم الأمير سيف الدين الكرزى[2] ، والقاضى أصيل الدين خواجا إمام ، من عند الأنبرور ملك الفرنج بكتابه[3] . ثم قدم رسوله بهدية ومعه نفران من البحرية[4] ، فاعتقلا بقلعة الجزيرة تجاه مصر . وقدم الأمير شرف الدين الجاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى ، من عند صاحب الروم — وهو السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ومعهما رسل المذكور [وهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان[5] أمير حاجب والصدر صدر الدين الأخلاطى] ، وكتابه المتضمن أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان ، وسيّر

= جيش والى شستر ، وظن أنه يستطيع معه محاربة التتر . نخاب ظنه ولجأ الى بلاد الحجاز ، وامتنع من الذهاب الى حضرة هولاكو رغم الوعود التى وصلته منه بارجاعه الى ولاياته بالعراق ، ثم جاء الى مصر بناء على طلب السلطان بيبرس وإلحاحه . (D'Ohsson : Op. Cit. III. pp. 375-377) .

(١) قبالة هذه العبارة فى س أرقام مرسومة هكذا $\frac{٣}{٣٣}$ ، ويظهر أن المقريزى قصد بهذه الأرقام أن يشير الى الشهر والسنة التى وصل فيها الى هذا الشطر من كتاب السلوك ، أى ربيع الأول سنة ٨٣٣ هـ .

(٢) كذا فى س ، بنقطة تحت الكاف لعلها إشارة الى وجوب ضبط هذا الحرف بالكسر ، وقد ورد هذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) برسم "الكردى" .

(٣) هذان الرسولان هما اللذان كانا قد ذهبا قبلا الى الإمبراطور بهدية السلطان بيبرس ، التى كان من محتوياتها زراف (انظر ص ٤٦٣ ، حاشية ٢) ، وقد ذكر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) أخبار ما حدث للرسولين فى بلاد الإمبراطور ، ونصه مصححا : "أن الأنبرور اهتم بهما اهتماما عظيما وتجمل لهما تجملا عظيما ، وأعرضت (كذا) عليه الهدية فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما ، ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينه . وقرىء عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه ، وأحسن الى الرسل غاية الإحسان ، وجهز رسولا وهدية فيما بعد ، وكانت هدية لا تحصى" .

(٤) يفهم مما جاء فى ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع والصفحة) أن هذين البحريين كانا ممن ذهب مع الهدية التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور ، وأنهما أساءا الأدب هناك ، فأعادهما الإمبراطور مع رسول من عنده إلى مصر ، كما بالمتن . "فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما ، لأنه بلغه سوء اعتمادهما ، فسيرهما الى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين" . وقد علق ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) على تلك العقوبة بالآتى : "وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدى ، وحفظ (فى الأصل وحفظا) لناموس السلطنة وإقامة لحرمة المملكة" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب — ٤٠١ أ) .

دُرُوجًا[1] فيها علائم[2] بما يُقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره، وسأل أن يكتب له [السلطان] منشورا[3] [قرين منشوره][4]. فأكرمهم السلطان، وشرع فى تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم، و[أمر] بكتابة[5] المناشير[6]. وعين [السلطان] الأمير ناصر الدين أغلمش[7] السلاح دار الصالحى لتقدمة العسكر ومعه ثلثمائة فارس، وأقطعه إقطاعا ببلاد الروم منه آمد وبلادها.

و [فى شهر رجب][8] قدم الأمير عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته هدية. (١٢٠ أ) فأكرمه السلطان وكتب له منشورا بإمرة ثلاثين فى حلب، ومنشورا آخر بإمرة مائة فى بلاد الروم. و[فى هذا التاريخ][9] ورد كتاب ملك الروم، بأن العدو هولاكو لما بلغه اتفاق الروم مع السلطان خاف من هيبته وولى هاربا، وأنه سيّر إلى قونية يحاصرها ليأخذها[10] من أخيه. و[فى هذا التاريخ][11]

(١) الدروج جمع درج، وهو كما عرفه القلقشندى (صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٨) "الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير"، وكان يكتب فيه ويلف. (محيط المحيط).

(٢) العلائم جمع علامة، وقد تقدم شرحها فى ص ٤٤٣، حاشية ١.

(٣) فى س "منشور". والراجح أن المقصود بلفظ المنشور هنا كل ما يصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات، مما لا يحتاج إلى ختم، كالمكتوب بالولاية والمكتوب بالحماية والمكتوب بالإقطاع أيضا. انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٥٧).

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠١ أ).

(٥) فى س "كتابه" وقد أضيف حرف الجر، وما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠١ أ).

(٦) المناشير جمع منشور، ومعنى المنشور هنا ما يكتب فى الإقطاعات خاصة، وقد جرى الاصطلاح بهذا التخصيص فى عهد دولة المماليك بمصر، وقبلها كان المكتوب بالإقطاع معروفا بالتوقيع فى أيام الأيوبيين، وبالسجل فى أيام الفاطميين، وبالمقاطعة فى الدولة الإسلامية زمن العباسيين، وبالقطيعة فيما سبق ذلك. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١١٨ — ١٥٧).

(٧) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 176.) هذا الاسم إلى (Ogulmusch)، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠١ أ) "اغلمس".

(٨ و ٩) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠١ أ — ب).

(١٠) انظر ص ٤٠٨، سطر ٣.

(١١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠١ ب).

قدم كتّاب الملك المنصور صاحب حماة، وصحبته قصاد من التتار معهم فرمان[1] له ، فشكره السلطان على ذلك ، واعتقل التتار . وفى [هذا التاريخ][2] سار الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار بعسكر الى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان و بدّد شملهم ، وذلك أنهم كثر طمعهم وهمّوا بتغيير الممالك ، و وثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه .

و [فى شعبان][3] كثر قدوم العزيزية والناصرية الذين كانوا صحبة الأمير البرلى ، فأكرمهم السلطان وعفا عنهم . و [فى هذه المدّة وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ، الذى كان قد توجه رسولا الى الأشكرى . وكان][4] الأشكرى قد بعث يطلب[5] من السلطان بطركا للنصارى الملكية ، فعين الرشيد الكحال لذلك ، وسيّره اليه مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى فى عدّة من الأساقفة . فلما وصلوا اليه أكرمهم وأعطاهم ، وأوقف الأمير أقوش على جامع بناه بالقسطنطينية ليكون فى صحيفة السلطان ثوابه . وعاد الأمير أقوش وصحبته البطرك المذكور ، فقدّم البطرك ما ورد على يده من هـدية الأشكرى للسلطان ، وقدّم أيضا ما حصـل له من المـال ، فرد السلطان ذلك عليـه . وجهز السلطان برسم جامع قسطنطينية الحصر العبّدانى[6] ،

(١) الفرمان فى اللغة ما يصـدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد ، يعلن فيها تنصيبهم ومأمور يتهم ، والجمع فرمانات وفرامين وفرامنة . (Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ محيط المحيط) . و يظهر أن هؤلاء القصاد كانوا قد حضروا الى الملك المنصور من قبل التتار ليرسلهم الى السلطان بيبرس ، وأن فرمانه كان لتعريف السلطان بيبرس بهم .

(٢) فى س "وفيها" ، وقد أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٢ أ) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٤ ، ٥) فى س "و بعث الاشكرى يطلب ... " ، وقد عدلت الجملة وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هذا والأشكرى المقصود هنا هو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus) ، وهو الذى أعاد الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية تلك السنة (Camb. Med. Hist. IV. pp. 507 et seq.) ، وقد صادف وصول الأمير فارس الدين الى حضرته بعد ذلك بقليل . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ أ) .

(٦) بغـير ضبط فى س ، والنسبة الى عبادان ــ فيقال عبادانى وعبدانى وعبادى أيضا ، وهى بلد جنوبى البصرة قرب الخليج الفارسى ، وتقع فى جزيرة محاطة بمياه مصبات دجلة والفرات ، وكانت مشهورة بصنع الحصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٩٧ وما بعدها ، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

والقناديل المذهبة والستور المرقومة، والمباخر والسجادات [إلى غير ذلك من البسط الرومية][1]، والعود والعنبر والمسك وماء الورد . وفيها أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومى على أنطاكية، ونازل صاحبها البرنس[2] وأحرق الميناء بما فيها من المراكب، وكان معه [الملك الأشرف موسى] صاحب حمص، [والملك المنصور][3] صاحب حماة . ثم حاصر السويداء، واستولى عليها وقتل وأسر وعاد، فوصل إلى القاهرة يوم الخميس لليلة بقيت من شهر رمضان، وصحبته من الأسرى نحو مائتين وخمسين أسيرا . فأكرمه السلطان، وأحسن إلى الأمراء، وسير الخلع إلى الملكين المذكورين .

وفى ثالث شهر رمضان عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشددا فى أحكامه، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية (١٢٠ ب) والحنابلة، فاستنابهم فى الحكم عنه، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت : فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى، والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى، فى أول ذى القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم . وفى رابعه قبض على الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نائب الشام، وحمل إلى مصر فاعتقل بقلعة الجبل، وكانت مدة نيابته سنة وشهرا . وحكم فى دمشق بعده الأمير علاء الدين أيدغدى الحاج الركنى إلى أن يحضر نائب .

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٢ ب) .

(٢) هذا تعريب واضح للفظ (prince) أى أمير، وكان أمير أنطاكية تلك السنة بوهمند السادس (Bohemond VI of Antioch)، وهو من أولئك الصليبيين الذين رأوا أن مصادقة التتر هى الوسيلة الباقية لمناوأة القوى الإسلامية بالشام، ولذلك كان بيبرس يتحين الفرص لمحاربته . فلما هدأت أمور حلب على يد الأمير شمس الدين سنقر الرومى المذكور، أمره السلطان بالإغارة على أنطاكية، وقد رافقه الى تلك الغارة الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، كما بالمتن . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٤٠٣ أ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٨، فى Rec. Hist. Or. I) .

(٣) انظر الحاشية السابقة .

وفيها كثر الإرجاف فى دمشق بحركة التتار، فكتب السلطان برحيل أهل الشام بأهاليهم الى مصر . فحضر من تلك البـلاد خلق كثير، بعد ما كتب [السلطان] إلى الولاة بتخفيرهم[1]، وألا يؤخذ منهـم مكس ولا زكاة، ولا يُتعرض لمـا معهم من متجر ولا غيره، ولا تُفتش تجارة[2]، فاعتمد ذلك . وكتب [السلطان] إلى حلب بتحريق الأعشاب، فسيرت[3] جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقت الأعشاب التى كانت بالمروج التى [جرت] عادة هولاكو أن ينزلها . فعمّت النـار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها رمادا، وعمّ الحـريق بلاد خلاط، وقُطع السنبل وهو أخضر .

و[فيها] خرجت الكَشّافة[4] من دمشق وغيرها، فظفروا بكثير من التتار يريدون القـدوم الى مصر مستأمنين . وقـد كان الملك بركه بعثهم نجـدة الى هولاكو، فلما وقع بينهما كتب يستدعيهم إليه، ويأمرهم إن تعذّر عليهم اللحاق به أن يصيروا إلى عساكر مصر . وكان سبب عداوة بركه وهولاكو أن وقعة كانت بينهما[5]، قُتل فيهـا ولد هولاكو وكُسر عسـكره وتمزقوا

(١) فى س "لتحفيرهم" .

(٢) فى س "فش محاره" .

(٣) فى س "فسير" .

(٤) الكشافة جمع كشاف، ومعناها هنـا فئة معينة من العسكر، وكان عملها الخـروج لكشف أخبار العدو . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 180. N. 61).

(٥) توجد أقوال كثيرة فى تعليل سبب العداوة بين هولاكو و بركه، ومنها عدا ما ورد بالمتن أن بركه لم يرض عما فعله هولاكو ببلاد المسلمين وأنه عنفه لقتله الخليفة المستعصم، ومنها أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق فى عين بركه ولاسيما بعد إدماج بلاد أرّان وآذربيجان داخل حدودها، مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركه حسب وصية جنكزخان . (Enc. Isl. Art. Berke) . هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٠١، وما بعدها) أن العداوة بين هولاكو و بركه نشأت من عدم مظاهرة بركه للخان الأعظم قوبيلاى، وانتصاره لأخ صغير اسمه (Arigha-Buga) . ولهـذا القول نصيب من الاعتبار، لأن المعروف أن بركه اعترف بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر . انظـر (D'Ohsson ; Op. Cit. III. pp. 377 et seq. ; (Enc. Isl. Art. Berke) . وقـد ذكر ابن أبى الفضائل (نفس المرجع، ص ١٠٢، وما بعـدها) سببا ثانيا لتلك العداوة قد لا يقل عن سابقه فى القيمة، وهو أن هولاكو كان منـذ صار بركه ملكا على مغول القبشاق قـد منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحروب، وهـذا نص ما جاء فى المرجع المـذكور : " ومما نقله الصاحب عز الدين بن شدّاد فى سيرة الملك =

فى البلاد، وصار هولاكو إلى قلعة بوسط بحيرة آذربيجان محصورا بها . فلما بلغ ذلك السلطان سُرّ به، وفرح الناس باشتغال هولاكو عن قصد بلاد الشام . وكتب [السلطان] إلى النواب بإكرام الوافدية من التتار، والإقامة لهم بما يحتاجون اليه من العليق والغنم وغيره ؛ وسيرت اليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه . وساروا الى القاهرة، فخرج السلطان الى لقائهم فى سادس عشرى ذى الحجة ولم يتأخر أحد عن مشاهدتهم، فتلقاهم وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق(١) ظاهر القاهرة، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك، وبعث اليهم الخلع والخيول والأموال . وأمّر [السلطان] أكابرهم، ونزّل باقيهم فى جملة البحرية، وكانوا مائتى فارس بأهاليهم، فحسنت حالهم، ودخلوا فى الإسلام(٢) .

= الظاهر [بيبرس] لما نقل هذه السنة، وسبب الخلف الذى وقع بين التتار، قال حكى لى علاء الدين بن عبد الله البغدادى أحد أصحاب الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار، قال أخذونى (كذا) التتار أسيرا من بغداد لما (١٠٣) أخذوها (كذا) التتار، وكنت قد عدت عندهم مختلطا بهم ومطلعا على أخبارهم . فلما كانت سنة ستين وستمائة ورد من عند بركه [خان] رسولان ، أحدهما يسمى بلاغيا والآخر ططر شاه ، برسالة ضمنها ما جرت به العادة ، ومن جملتها حمل ما جرت به العادة الى بيت باتو [خان] ، مما كانوا يحملونه من فتوح البلاد . وكانت العادة أن يجمع [التتر] ما يحصل فى البلاد التى يملكونها و يستولون (فى الأصل يستولوا) عليها من نهر جيحون مغربا فيقسم خمسة أقسام ، قسمان للقان الكبير وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتو [خان] . فلما مات باتو وجلس بركه على التخت منع هولاوون (كذا) قسمه ، فبعث بركه رسله إلى هولاوون وبعث فيهم سحرة يفسدون (فى الأصل يفسدوا) سحرة هولاوون . وكان عند هولاوون ساحر يسمى (١٠٤) يكشا ، فأعطوه هدية بعثها بركه اليه ، وسألوه أن يوافقهم على غرضهم فاتفق معهم . وكان هولاوون [قد] جعل لهؤلاء الرسل من يخدمهم ، وجعل فى الجملة ساحرة تسمى كشا لتطلعه على أخبارهم . فلما علمت أخبارهم أخبرته بذلك ، فأمر بالقبض عليهم فى قلعة تلا ، ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوما من قبضهم ، وقتل الساحر الذى كان له المسمى يكشا . فلما بلغ بركه قتل رسله وسحرته أظهر العداوة لهولاوون ، و بعث رسله إلى الملك الظاهر [بيبرس] يحرضه على اجتماع الكلمة على بيت هولاوون...” .

(١) كانت أراضى اللوق هذا ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١١٧) بساتين ومزروعات ، ليس فيها من الأبنية سوى ماكان قد عمره بها القاضى الفاضل لنفسه ، فكان مجىء أولئك التتار سببا لبناء دور للسكن بها لأول مرة . وقد تكاثر الوافدون من التتر بعد ذلك على مصر، نتيجة حسن معاملة السلطان بيبرس لإخوانهم السابقين ، فأدى تكاثرهم الى زيادة العمارة بأرض اللوق . (انظر الحاشية التالية) .

(٢) توجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١١٧ — ١١٨) تفصيلات أوفى عما اتفق لهؤلاء التتر ومن جاء بعدهم الى مصر، ومنها يتبين أن أعدادا كثيرة منهم اندمجت فى سلك المماليك وحييت حياتهم الحربية ، وهذا نصها : ”فأعطى [السلطان] كبراءهم إمريات ، فنهم من عمله أمير مائة ومنهم دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة =

وكتب [السلطان] الى الملك بركه كتابا ، وسيره مع الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كسريك[١] .

وفيها (١٢١ أ) سار صَندغُون[٢] مقدم التتار الى الموصل ، ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا ، ولم يكن بها سلاح ولا قوت فاشتد الغلاء . وحاصرها [صندغون] حتى خرج اليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الرحيم [بدر الدين] لؤلؤ الأتابكى ، فى يوم الجمعة النصف من شعبان ، فقبض عليه وعلى من معه . ووقع التخريب فى سور المدينة وقد اطمأن أهلها ، ثم اقتحموها ووضعوا السيف فى الناس تسعة أيام ، ووسّطوا علاء الدين[٣] بن الملك الصالح ، ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية ، وهدموا المبانى وتركوها بلاقع ، ورحلوا بالملك الصالح إسماعيل ، ثم قتلوه [٤][وهم فى طريقهم الى هولاكو] .

وفيها خرج الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى[٥] من حلب نجدة للملك الصالح ، فأدركه التتار بسنجار وواقعوه ، فانهزم منهم الى البيرة فى رابع عشر جمادى الآخرة . ثم استأذن[٦] [الأميرُ

= البحرية ، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان ، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام . فلما (١١٨) بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة ، وهو يقابلهم بمزيد الإحسان ، فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله . وفى سادس ذى الحجة من سنة إحدى وستين [وستمائة] قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلاثمائة فارس ، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم" .

(١) كذا فى س . انظر ما يلى (ص ٤٧٩ ، سطر ١٤) ، حيث سمى المقريزى هذا الأمير باسم سيف الدين كشتك ، وهو مترجم الى (Keschtek) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 181) .

(٢) فى س "صدغون" بنقط الغين من تحتها ، وبغير ضبط . راجع ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٩٤) . وقد تقدمت الإشارة الى سبب مسير هذا القائد التترى الى الموصل تلك السنة . انظر ص ٤٦٧ ، حاشية ٤

(٣) كان عمر علاء الدين هذا تلك السنة ثلاث سنين ، وقد سقاه التتر خمرا قبل قتله ، ثم وسطوه بحبل قوس شدوه حول وسطه حتى انقطع جسمه نصفين . (D'Ohsson. Op. Cit. III. p. 374) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٩٤) ، وهناك رواية أخرى فى مصرع الملك الصالح ، وهى أنه وصل فعلا الى حضرة هولاكو فأمر بوضعه فى جلدشاة ، وتركه فيها معرضا لحرارة الشمس مدة شهر كامل ، حتى مات . (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 374) .

(٥) مضبوط هكذا فى س .   (٦) فى س "واستاذن" .

شمس الدين السلطانَ] فى العبور إلى مصر، فأذن له وسار الى القاهرة فدخلها أوّل ذى القعدة، فأنعم عليــه السلطان وأقطعه إمرة ســبعين فارسا . وولى [السلطان] بعده نيابة حلب الأمير عزالدين أيدمر الشهابى، فواقع أهل سيس وأخذ منهم جماعة، و بعثهم إلى مصر فوُسِّطوا.

وفيها وفد على السلطان بعيد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة(١)، وكبيرهم خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادى، وشهرى(٢) ابن أحمد الخفاجى، ومقبل بن سالم، وعياش بن حديثة، ووشاح، وغيرهم . فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمــد العباسى، قتيــلا فى المعركة قريبا من هيت . وتوفى شيخ الإســلام عز الدين أبو محمد عبــد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن المهذب السلمى الشافعى، عن اثنتين وستين سنة، فى......(٣) . وتوفى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبــة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفى بالقاهرة(٤)، عن نيف وستين سنة . وتوفى الأديب محيى الدين أبو العز يوسف بن يوسف بن يوسف بن ســلامة بن زبلاق الهــاشمى الموصلى الأديب الشاعر الكاتب، قتيلا بالموصل، عن سبع وخمسين سنة .

(١) يلاحظ أن هذه البــلاد كانت حتى مقتل الخليفــة المستعصم بيد الأمير شمس الدين ســلار، وهو الذى جاء الى السلطان بيبرس قبلا فأكرمه وأحسن اليه . (انظر ص ٤٦٨، حاشية ٣). وقد كتب الأمير شمس الدين بعد ذلك الى من تأخر من خشداشيته والى أصحابه من خفاجة، وأخبرهم بما ناله من الإحسان على يد السلطان (ابن واصل: نفس المرجع، ص ٤٠٠ أ)، فلحقوا به كما بالمتن .

(٢) كذا فى س .

(٣) بياض فى س، وقد ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٨ ب) أنه توفى بمصر .

(٤) جاء فى (Enc. Isl. Art. Kamal al Din) أن الصاحب كمال الدين ابن العــديم، وهو مؤلف كتاب تاريخ حلب المشهور، كان قــد هرب مع الناصر صاحب حلب من وجه التتر إلى القاهرة . ثم استدعاه هولاكو إلى الشام ليوليه قضاء القضاة بها، غير أنه ظل مقيما بالقاهرة حتى مات .

* * *

سنة إحدى وستين وستمائة . فى الخميس ثامن المحرم جلس الملك الظاهر مجلسا عاما جمع فيــه الناس، وحضره التتار الذين وفدوا من العراق والرسل المتوجهون الى الملك بركه . وجاء الأمير أبو العباس أحمد بن أبى بكر على بن أبى بكر بن أحمد بن المسترشد بالله العباسى، وهو راكب، الى الإيوان الكبير بقلعــة الجبل . وجلس الى جانب السلطان، وقُرئ نسبه على النــاس بعد ما ثبت على قاضى القضــاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، ولُقّب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[1]، وتولى قراءة نسبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر . فلمــا ثبت ذلك مدّ السلطان يده وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهــاد أعداء الله، وأخذ أموال الله بحقهــا وصرفها فى مستحقها، والوفاء بالعهود وإقامة الحــدود، وما يجب على الأئمة فعــله فى أمور الدين وحراسة المسلمين . فلما تمت البيعة أقبل [الخليفة] على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد، وجعــل إليه تدبير الخلق، وأقامه قَسيمه فى القيام بالحق، وفوض اليه سائر الأمور، وعدق[2] به صلاح الجمهور . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعتــه، فلم يبق ملك ولا أمير ولا وزير ولا قاض ولا (١٢١ ب) مشير ولا جندى ولا فقيــه إلا وبايعه . فلما تمت البيعة تحدث السلطان معه فى إنفاذ الرسل الى الملك بركه، وانفض الناس .

فلما كان يوم الجمعــة ثانى هذا اليوم، اجتمع النــاس وحضر الرسل المذكورون، وبرز الخليفة الحاكم بأمر الله وعليه سواده، وصعد المنبر لخطبة الجمعة فقال : "الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أحمده على السراء والضراء، وأستنصره على دفع الأعداء . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمــدا

(١) ليس فى ما يقابل هذه العبارة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٨، فى Rec. Hist. Or. I)، تشكيك فى صحة نسبة هذا الخليفة كتشكيكه السابق بصدد الخليفة المستنصر، (انظر ص ٤٥٠، حاشية ٢)، على أن عبارته لم تخل من الغمز، وهذا نصها "وفى أواخر ذى الحجــة من هذه السنة جلس الملك الظاهر مجلسا عاما، وأحضر شخصا... من نسل بنى العباس يسمى أحمد، بعــد أن أثبت نسبه، وبايعه بالخلافة . ولقب أحمــد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ..." .

(٢) كذا فى س .

عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه وكاشف غمه أبى السادة الخلفاء الراشدين[(١)] والأئمة المهذبين، وعلى بقية الصحابة التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين . أيها الناس! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم عَلَم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبيت الحُرُم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام[(٢)] ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعَلَت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم طفل بكا فلم يرحم لبكائه . فشمّروا عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد ﴿وَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . فلم تبق معذرة عن القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين" .

"وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تُنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا . ولا يروّعنّكم ما جرى ، (١٢٢ ا)[(٣)] فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان والأخرى للمؤمنين . جمع الله على التقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم، وأستغفرُ الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم" .

وجلس [الخليفة] جلسة الاستراحة، ثم قام للخطبة الثانية وقال : "الحمد لله حمدا يقوم

(١) كذا فى س، ، والمقصود بالسادة الخلفاء الراشدين هنا بنو العباس .

(٢) المقصود بهذا بغداد، والإشارة الى سقوطها فى يد التتار .

(٣) يوجد بهامش هذه الصفحة فى س ، علامة مكتوبة هكذا ٣٣ ، ولعلها إشارة أخرى الى السنة التى وصل المقريزى فيها الى هذا الشطر من السلوك، أى سنة ٨٣٣ هـ . (انظر ص ٤٣٨ ، حاشية ٥ ؛ ص ٤٦٩ ، حاشية ١) .

بشكر نعمائه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له عدة للقائه، وأشهد أن محمدا سيد رسله وأنبيائه، صلى الله عليــه وعلى آله وصحبــه عدد ما خلق فى أرضه وسمائه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديّان : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ والْيَومِ الآخرِ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . نفعنا الله وإياكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لى ولكم وللمسلمين أجمعين، والحمــد لله رب العالمين" (١) . ثم نزل [الخليفــة] وصلى بالناس صلاة الجمعة، وانصرف .

وفى هــذا اليوم خُطب على منابر القاهرة ومصر بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله، وكُتب الى الأعمال بذلك، فخطب له بدمشق فى يوم الجمعة سادس عشره . وقد قيل فى نســبه إنه أبو العباس أحمــد بن الأمير محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحســن بن على القُبّى (٢) بن الحسن ابن أمير المؤمنين الراشد بن المسترشد ؛ وهو الخليفة التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، وليس فيهم بعد السفاح والمنصور من ليس أبوه وجده خليفة غيره، وأما من ليس أبوه خليفة فكثير .

وتجهز الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كش تك (٣) ، وكُتب على يدهما كتب بأحوال الإسلام ومبايعة الخليفة، واستمالة الملك بركه وحثــه على الجهاد ، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم ، وما فيها من خيــل (٤) وتركمان وعشائر وأكراد ، ومن وافقها وهاداها

---

(١) يوجد نص هذين الخطبتين فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٠ أ — ب) .

(٢) كذا فى س، بضم القاف فقط . ولعل هذه النسبة مأخوذة من قبة الحمار، وهى دار أنشأها الخليفة المكتفى بالله فى بغداد ، وقــد سميت بذلك الاسم لأنه كان يصعد إليها على حمار له . هذا وقــد كانت بلدة الرحبة تعرف باسم قبة الكوفة ، ومن هذه التسمية خرّج ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣) تلك النسبة .

(٣) كذا فى س، وقد تقدّم ذكر هذا الأمير باسم "كسريك" (انظر ص ٤٧٥ ، سطر ٢)، وهو وارد بهذا الرسم المتقدّم من غير نقط فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٩ أ)، وأصله حسبما جاء فى نفس المرجع والصفحة، "رجل تركى كان جمدار خوارزم شاه، له معرفة بالبلاد وخبرة بالألسنة" .

(٤) فى س "حيل"، وفى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) "خيل تركمان"، بغير واو بين اللفظين أو نقط البتة.

وهادنها، وأنها كلّها[1] سامعة مطيعة [لإشارته، إلى غير ذلك من] الإغراء بهلاون وتهوين أمره والإشلاء عليه وتقبيح فعله، ونحو ذلك . وجهز [السلطان] معهما أيضا نسخة نسبة الخليفة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُذْهِبَت وكتب فيها الإسجال بثبوتها . وجُمعت الأمراء والمفاردة[2] وغيرهم وقرئت عليهم الكتب، وسلمت الى الرسل . وسُيِّر معهما نفران من التتر أصحاب الملك بركه ليعرفاهما[3] بالطرق، وساروا فى الطرائد ومعهم زوادة أشهر . فوصلوا الى الأشكرى فقام بخدمتهم، واتفق وصول رُسِل[4] الملك بركه اليه (١٢٢ ب) فسيّرهم صحبته . وعاد الفقيه مجد الدين لمرض نزل به، ومعه كتاب الأشكرى بمسير الأمير سيف الدين ورفقته . وسار الأمير جمال الدين أقوش النجيبي الصالحى الى نيابة دمشق، ومعه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير دمشق، وعلى يده تَذاكُر[5] شريفة بعد ما خلع عليهما .

وفى سابع ربيع الآخر سار السلطان من قلعة الجبل إلى بلاد الشام، ونزل خارج القاهرة. ورحل فى حادى عشره، ودام الصيد إلى أن دخل غزة، بعد ما ضرب حلقة بثلاثة آلاف

---

(١) عبارة المقريزى هنا غير مستقيمة، ونصها : "وانها كلها سامعه مطيعه واغرائه بهلاون ..."، وقد عدلت وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٢) جمع مفردى، والمفاردة نوع من عساكر حلقة السلطان . و يظهر أنهم أفردوا بهذه التسمية لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد، وهو ديوان يرجع تأسيسه الى أيام الفاطميين، وكانت تخرج منه فى زمن الدولة المملوكية نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة . (انظر القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٧ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧ ; Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 187. n. 66 ; G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. P. XXXIII).

(٣) فى س "ليعرفهما" .

(٤) الرسل، كما هو مضبوط بالمتن، الجماعة والقطيع من كل شىء، وجمعه أرسال . (محيط المحيط) .

(٥) التذاكر جمع تذكرة، وهى كما يدل عليها معناها اللفظى كل مكتوب يصدر من السلطان الى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام، أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة، لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم، وليكون بمثابة ورقة اعتماد وجهة عند الجهات التى يقصدونها . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٧٩ — ١٠٤) . انظر أيضا (G. - Demombynes : Op. Cit. Introd. P. LXX)، حيث ترجم لفظ تذكرة الى (note résumée)، وقد ترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 188. N. 68) الى (un acte, un rescrit émané du prince) .

فارس فى العريش، فوقع فيها صيد كثير جدا . وتقنطر[١] الأمير شمس الدين سنقر الرومى [عن فرسه]، فسار السلطان اليه ونزل عنده ، وجعل رأسه على ركبته وأخرج من خريطته موميا[٢] وسقاه، وأخذه معه الى خيمته . وتقنطر الأمير سيف الدين قلاون، فاعتمد [السلطان] معه مثل ذلك .

وقدم عليه فى غزة جماعة منهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك ، فأنعم عليها إنعاما كثيرا وأعطى سائر من كان معها، [وحصل الحديث فى حضور ولدها إلى السلطان][٣]، وعادت إلى ابنها بالكرك . ومن جملة ما زودها به [السلطان] من صيده خمسة عشر حملا ، وسار معها الأمير شرف الدين الجاكى المهنمدار، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر . ونظر السلطان فى أمر التركمان، وخلع على أمرائهم وعلى أمراء [العربان من][٤] العايد[٥] وجرم وثعلبة، وضمنهم البلاد وألزمهم القيام بالعداد[٦]، وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه . وكتب إلى ملك شيراز وأهل تلك الديار، وإلى عرب خفاجة ، يستحثهم على قتال هولاكو ملك التتار، وأن الأخبار قد وردت من البحر بكسر الملك بركه له غير مرة .

---

(١) كذا فى س، وقد دأب الناشر على إصلاح هذا الفعل الى "تقنطر" فيما سبق من الصفحات، على أن الصيغة الموجودة بالمتن هنا واردة فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، مقرونة باستشهاد على صحتها فى اللغة العربية الفصحى .

(٢) الموميا — وهى لفظة يونانية الأصل — مادة دواء يستعمل شربا ومروخا وضمادا ، ويستخدم كثيرا لجبر العظام المكسورة . وهى مادة تنحدر من بعض الجبال مع الماء ، وتفوح منها وهى جامدة رائحة مثل رائحة الزفت . وتطلق الموميا أيضا على الدواء المعروف بقفر اليهود، وعلى حجارة سود فيها تجويف توجد فى صنعاء اليمن، وتكسر هذه الحجارة فيوجد فى تجويفها ماء سائل أسود، فتغلى الحجارة والسائل فى الزيت لتقذف جميع ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السائلة . (محيط المحيط؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٢ ب) .

(٤) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٢ ب) .

(٥) فى س "العابد" . راجع القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٥، ٢١١) .

(٦) العداد هنا زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية ، وفى : Quatremère (Op. Cit. I. 1. p. 189. N. 69) أمثلة لتوضيح هذه الزكاة ، منها أنه كان يحصل من التركمان "فى كل سنة عشرات آلاف من الغنم، تؤخذ منهم عن زكاة أغنامهم، يقال لها العداد" . (انظر أيضا محيط المحيط) .

ثم رحل [السلطان] من غزة [إلى جهة الساحل]، ونزل الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى، وقدم [إليه هناك][1] الملك الأشرف صاحب حمص فى خامس عشره بإذن [منه] . فتلقاه السلطان وأكرمه، وبعث إليه سبعين غزالا فى دفعة واحدة، وقال : "هذا صيد يومنا هذا، جعلته لك" . وخرج [إليه] الملك المغيث من الكرك، بعد ما كاتبه الملك الظاهر يستدعيه وهو يسوّف به . فأظهر السلطان من الاحتفال به شيئا كثيرا، وخدعه أعظم خديعة، وكتم أمره عن كل أحد . فلما وصل [المغيث] بيسان ركب السلطان إلى لقائه فى سادس عشرى جمادى الأولى، ووافاه فى أحسن زىّ . فعند ما التقيا ساق الملك المغيث إلى جانب السلطان، فسار به إلى (١٢٣ ا) الدهليز السلطانى، ودخلا إلى خركاه، وللوقت قبض عليه . وأحضر [السلطانُ] الملوكَ والأمراء، وقاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان — وكان قد استدعاه من دمشق، والشهود والأجناد ورسل الفرنج . وأخرج [السلطان] إليهم كُتُب الملك المغيث إلى التتار وكُتُب التتار إليه ، وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله، وأحضر أيضا القصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو . ثم قال[2] الأميرُ الأتابكُ لمن حضر : "السلطان الملك[3] الظاهر يسلم عليكم ، ويقول ما أخذتُ الملك المغيث إلا بهذا السبب" ، وقرئت الكتب المذكورة عليهم[4] . فكُتب بصورة الحال، وأثبت القضاة خطوطهم فى المكتوب، وانفض الجمع . وجلس السلطان وأمر فكتب إلى من بالكرك يعدهم ويحذرهم، وسير الأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير عز الدين الأستادار، بالكتب والخلع والأموال إلى الكرك . وأرسل الملك المغيث عِشاءً الى مصر مع الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى السلاح دار ،

(١) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة كلها من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ ا) .

(٢) فى س "وقال" .

(٣) فى س "الملك الظاهر السلطان" .

(٤) كانت هذه الكتب حسبما ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ ب) أجوبة كتب من الملك المغيث "مضمونها شكر هلاوون ملك التر منه ، واعتداده باعتزايه (كذا) إليه ، و يعده بوعود حسنة ، و يقول فى أمور منها قد أقطعتك من بصرى إلى غزة ، و يقول قد عرفت ما أشار إليه من طلب عشرين ألف فارس يسيرها إليه يفتح بها مصر، و يعده بارسالها و يوصيه على أمور جمة" .

فسار به الى قلعة الجبل وسجنه بها؛ وأطلق [السلطان] حواشـيه، وبعث بحريمه إلى مصر، وأطلق لهم الرواتب .

ولـما خلا بال السلطان من هم الملك المغيث، توجه بكلّيّته إلى الفرنج: فإنهم [كانوا قد] شرعوا فى التعلل وطلبوا زرعين، فأجابهم السـلطان " بأنكم تعوضتم عنهـا فى الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون "، [وهم لا يزدادون إلّا شكوى . وآخر الحال طلب الفرنج من والى غزة كتابا بتمكين رسـلهم إذا حضروا(١)، فكتب لهم الكتاب، وتواصلت بعد ذلك كتبهم](٢). ووردت كتب النواب بشكواهم، وأنهم قد اعتمدوا أمورا تفسخ الهدنة . فلما صار السلطان فى وسط بلادهم وردت عليه(٣) كتبهم، وفيها: " ماعرفنا بوصول السلطان ". فكتب(٤) إليهم : "من يريد [أن] يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة، ومن خفى عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش فى الفلاة والحيتان فى الميـاه، من كثرتها التى [لعل] بيوتكم ما فيها موضع إلا ويُكْنَسُ منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر، ولعلّ وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، ومن فى مُوقان(٥) من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها الى أبواب بيـوتكم ولا تدرون، فأى شيء تعلمون ؟ [وماذا تحيطون به علمـا ؟ ولمَ لا أعطيتم لوالى غزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر؟" فقال الرسول:

(١) وقعت تلك المفاوضات الأولى، حسبما سبق وروده هنا، سنة ٦٥٩ هـ . (انظر ص ٤٦٤، سطر ٥) .

(٢) عبارة السلوك هنا مختصرة جدا، وتنقصها بعض حقائق لازمة لفهم تسلسل الحوادث، وقـد أضيف مابين الأقواس فى هذه الفقرة وما يليها من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٤ أ — ب) .

(٣) فى س " عليهم " .

(٤) يفهـم من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) أنه لـما وصلت كتب شكاوى النواب من تعـدى الفرنج ومن عدم احترامهم للهدنة القائمة، أجاب السلطان الظاهر بأنه سيحقق تلك الأمور جميعا عند مجيئه الى الشام، وأشار بدعوة الفرنج الى حضرته من أجل ذلك . فلما جاء الى الشام ورد إليه رسـول من الفرنج وهنأه بسـلامة الوصول، وقال له بأن الفرنج لم يعرفوا بمجيئه، وكان جواب السلطان للرسـول كما يلى بالمتن . ويلاحظ أن المفهوم من عبارة المقريزى هنا أن ذلك كله حدث بالمكاتبة .

(٥) بغير ضبط فى س، وهى إحدى أقسام آذربيجان، ويطلق عليها أهلها موغان أيضا، وبها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٨٦) .

" نسينا ، وما علمنا كيف عُدِم . فكان الجواب : " إذا نسيتم هـذا فأى شيء تذكرون ؟ و إذا ضيّعتموه فأى شيء تحفظون؟" وانفصل الحال على هذا] . ووصلت نوّاب يافا ونوّاب أرسوف بهدية ، فأخذت منهم [تطمينا لقلوبهم ، وتسكينا لهم . هذا] و[قد] أمر السلطان ألا ينزل أحد فى زرع الفرنج ولا يسيب فرسا ، ولا يؤذى لهم ورقة خضراء، ولا يتعرض الى شيء من مواشيهم ولا إلى (١٢٣ ب) أحد من فلاحيهم .

وكانت كتبهم أولا ترد بندمهم على الهدنة وطلبهم فسخها ، فلما قرب السلطان منهم صارت ترد بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق[(١)] .

وفى اليوم الذى قُبض فيه على الملك المغيث، أمر السلطان بإحضار بيوت[(٢)] الفرنجية وقال: " ما تقولون؟ " قالوا : " نتمسك بالهدنة التى بيننا" . فقال [السلطان] : " لِمَ لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان ، و إنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ؟ ونحن [لما حضرنا الى هاهنا] ما آذينا لكم زرعا ولا غيره، [ولا نُهب[(٣)] لكم مال ولا ماشية، ولا أسر لكم

(١) انظر ملحق رقم ١ فى آخر هذا الجزء ، وهو نص لمضمون كتب وردت الى السلطان بيبرس من عند مقدم هيئة الفرسان الاسبتارية تلك السنة ، وجواب السلطان عليها .

(٢) المقصود بالبيوت هنا الدويلات الصليبية الباقية بالشام ، مثل بيت الاسبتار وبيت الداوية وإمارة يافا وإمارة أنطاكية . وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٤ أ) مثل على هذا الاستعمال ، ونصّه : " ولما استقل ركاب الملك الظاهر وسار الى وسط بلاد الفرنج ، ورد رسول منهم يذكرون أن البيوت يقبلون الأرض ويهنون بالسلامة ... " . على أن تسمية الدويلات الصليبية باسم " البيوت " له معناه ، فإن بيتى الإسبتارية والداوية كانا قد أصبحا — فى تلك الأيام الباقية للصليبيين بالشرق — القوة الحربية التى يعتد بها هناك . ولقد كان من بين الرسل الفرنج الذين جاءوا لحضرة السلطان تلك السنة ، واحد من قبل (Hugh Revel) رئيس الاسبتار ، وآخر من عند (Thomas Bernard) رئيس الداوية . انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. pp. 258-259)

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٥ أ) . وسيلاحظ القارئ كثرة الإضافات بالصفحات التالية ، وكلها من نفس المرجع (ص ٤١٥ أ — ٤١٦ ب) ، وسبب كثرة هذه الإضافات أن المقريزى اختصر ما أورده هنا من هذه الوثائق اختصارا مخلا ، مع أن المقام كان يقتضى منه النقل الحرفى . على أنه ليس مفهوما تماما سبب اختصار المقريزى لهذه الوثائق ، وقد يكون ذلك راجع الى أن بعض الحقائق المتعلقة بها غير موجودة فى صلب كتاب السلوك ، أو لأن المقريزى نقل هنا من مرجع مختصر .

أسير] . وأنتم منعتم الجلب[1] والميرة عن العسكر، [وحرمتم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمـان العسكر أسرتموه] . وسيّرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيّرنا نسخة يمين [من عنـدنا] لم تحلفوا عليها، وعملتم أنتم نسخة حلفتم عليها، وشرط اليمين الأولى تتعلق بالثانيـة . وسيّرنا الأسارى إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سـيرتم أنتم أحدا، وكلّ بيت يحيل على الآخر، [وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد وإقامة الحجة عليكم]. وسيّرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الأسرى ، فلم تبعثوا أحدا، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصـلوا الى أبواب بيوتكم ، كل ذلك حتى لا تبطل أشـغالكم من أسرى المسلمين عندكم . وأموال التجار شرطتم القيام بما أخذتموه منها، ثم قلتم ما أُخذت من بلادنا وإنمـا أخذت فى أنطرسوس ، وحمـل المـال إلى خزانة [بيت] الديوية[2] والأسرى فى بيت الديوية ، فإن كانت أنطرسوس ما هى لكم فالله يحقق ذلك . ثم إنا سـيرنا رسلا الى [بلاد السلاجقة] الروم ، وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر، فأشرتم عليهم بالسفر الى قبرس [فسافروا بكتابكم وأمانكم] ، فأُخذُوا وقُيّدوا وضُيّق عليهم ، وأُتلف أحدهم [على ما ذكر . فإن كان هذا برضاكم فقبيح أن يُعتمدوا هذا الاعتماد] . هذا مع إحساننا إلى رسلكم [وتجاركم، والوفاء أحد أركان الملك] . وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذَى، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردّد، [وما القدرة على الرســول بشيء يسكن غيظا] . فإن كان هـذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم ، [وإذا كان صاحب جزيرة قبرس من أهـل ملتكم ، يخرق حرمتكم ولا يفى بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم، فأى حرمة تبقى لكم وأى ذمام يوثق به منكم، وأى شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟] . وهل كانت الملوك [المـاضية] تقى النفوس [والرجال] والأموال إلا بحفظ الحرمة ؟ و [ما] صاحب [جزيرة] قبرس [ملك عظيم، ولا صاحب حصن منيع،

(١) الجلب هنا ما تجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النازلة بقربها ، ويتضح هذا المعنى من العبارة الآتية وهى من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٠٨)، ونصها : "فأرسل الله سبحانه [من]الأمطار مامنعت الجلب، فغلت الأسعار ولحق العسكر مشقة عظيمة " .

(٢) هذه صيغة أخرى للفظ الداوية . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٥ ب) .

ولا قائد جيش كثير ، ولا هو خارج عنكم . بل] أكثر تعلقاته فى عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار [والأموال والرسل] ، وليس هو منفرد بنفسه ، وعنده الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون عنده ، وعنده كُنْد يافا [وغيره] . فلو كنتم لا تؤثرون ذلك كنتم قمتم جميعكم عليه ، وأحطتم على كل ما يتعلق به [وأصحابه ، واسترحتم من هذه الفضيحة] ، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية وإلى البابا بما فعله . [وإذا قلتم صاحب قبرس لا يسمع منكم ولا يطيعكم ، فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرس وهو من أهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهـذه التقدمة إلا الأمر والنهى ؟ ولا سيما أنتم تقولون إن أموركم دينيـة ، ومن ردّها عصى المعبود ، ويغضب عليـه المسيح . فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرس ، وهو قـد ردّ أمركم وأغرى بكم وقبّح قولكم ؟ وكذا لو اشتهينا أخذنا حقنا منه ، وإنما الحق عندكم نحن نطلب منكم ، وأنتم تطلبون منه] . وأنتم فى أيام [الملك] الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف ، على أنكم تجدونه[1] على السـلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وخرجتم (١٢٤ أ)[2] جميعكم فى خدمته ونجدته ، وجرى ماجرى من خذلانه ، وقتْلكم وأسركم [وأسر ملوككم وأسر مقدّميكم ؛ وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال] . و[قد] انقضت تلك الدولة ، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد ، وأحسن إليكم فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الريدا[3] فرنس ، وساعدتموه وأتيتم صحبته إلى مصر ، حتى جرى ما جرى من القتـل والأسر . فأى مرة وفيتم فيها لمملكة مصر ، أم أى حركة أفلحتم [فيها] ؟ وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من [الملك] الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام ، وطاعة ملكها ونصرته [والخروج فى خدمته ، وإنفاق الأموال فى نجدته] . وقد صارت [بحمد الله] مملكة الشام وغيرها لى ، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجـدتكم ، [ولم يبق لى عدو أخافه] . فردّوا ما أخذتموه من البـلاد ، وفكّوا أسرى المسلمين جميعهم ، فإنى لا أقبل غير ذلك " .

(١) فى س " تجدوه " .

(٢) يوجد بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ أ فى س ورقة ملصوقة ، فيها وفيات تابعة لسنة ٦٦١ هـ ، وستورد فى مكانها المناسب فى ذيل هذه السنة .

(٣) انظر ص ٣٣٢ ، سطر ١٧ .

[فلمـا سمع رسل الفرنج هذه المقالة بهتوا]، وقالوا[(١)] : "نحن لا ننقض الهدنة، و إنمـا نطلب مراحم السلطان فى استدامتها، [ونحن] نزيل شكوى النواب، ونخرج من جميع الدعاوى] ونفك الأسرى، [ونستأنف الخدمة]". فقال السلطان : "كان هذا قبل خروجى من مصر، فى هذا الشتاء وهذه الأمطار، ووصول العساكر [إلى هنا]". وانفصلوا على هـذه الأمور] ، فأمر [السلطان] بإخراجهم وألا يبيتوا فى الوطاق. ووجّه الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة، وكانت أجل مواطن عباداتهم و يزعمون أن دين النصرانية ظهر منها، فسار إليها وهدمها ، فلم يتجاسر أحد من الفرنج [أن] يتحـرك . ثم وجه [السلطان] الأمير بدر الدين الأيدمرى فى عسكر إلى عكا، فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا . ثم ساروا ثانيا، وأغاروا على مواشى الفرنج، وأحضروا منها شيئا كثيرا الى المخيم .

واستمر جلوس السـلطان كل يوم على باب الدهليز بصُفّة[(٢)] عمرها ، من غير احتجاب عن أحد ؛ [فمن وقف له أحضره وأخذ قصته[(٣)] وأنصفه[(٤)]] ، وهو فى أمر ونهى وعطاء وتدبير ، واستجلاب [قلوب] أهل الكرك . وقدمت رسل دار[(٥)] الدعوة بالهدايا، فأحسن اليهم وعادوا .

---

(١) فى س "فعالوا" .

(٢) الصفة هنا مسطبة مرتفعة تستعمل للجلوس عليها (محيط المحيط)، ومن معانيها فى (Dozy: Supp. Dict. Ar.) اللفظ الإنجليزى (sofa) أى الأريكة أو المقعد، وفى الشبه بين منطوق اللفظين العربى والإنجليزى ما يوجب الالتفات . وفى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٦ ب) أن هذه الصفة التى عمرها السلطان بيبرس كانت مبنية بالحجر المنحوت، وعليها اسم السلطان .

(٣) القصة هى الطلب أو الالتماس (requête, placet) ، و يرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى الى حضرة السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار . وقد تكون القصة خاصة بطلب تحديد إقطاع انتهى عقده، أو بارتجاع إقطاع انتقل عن صاحبه لسبب من الأسباب، وفى مثل هذه الحالة تعرض القصة أولا على ناظر الجيش، ليكشف عنها قبل عرضها على السلطان . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٥٤، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٦ ب) .

(٥) المقصـود بدار الدعوة هنـا مركز الإسماعيلية بالشـام (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 198)، وهو ثغر مصياف (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 352)، واسمه مصياب أيضا، وموقعه بالساحل قرب طرابلس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٥٦) .

وأمّر جماعة فى الشام والساحل ، وأعطى الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إقطاعا جيدا بمصر . وطلب أهلَ بلاد الساحل من الفلاحين ، وقرر عليهم أموالا سمّاها جِنَايات[1] ، وألزمهم بحملها الى بيت المال ، عن ديات من قتل وليس له وارث وعما نهبوه من مال جهل مالكه . فحملت من ذلك أموال كثيرة جدا من بلاد نابلس وبلاد الساحل ، وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعد ما كان الضرر عظيما بهم ، من تسلطهم على الرعية (١٢٤ ب) ونقلهم الأخبار للفرنج . فرأى [السلطان] عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم ، فإنهم أصحاب زرع وضرع .

ولما كان ليلة السبت رابع جمادى الآخرة ، ركب السلطان وجرّد من كل عشرة فارسا ، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلى المهمندار فى الدهليز السلطانى ، وساق من منزلة الطور نصف الليل . فصبح عكا وأطاف بها من جهة البر ، وندب جماعة لحصار برج كان قريبا منه فشرعوا فى نقبه ، وأقام [السلطان] على ذلك الى قريب المغرب وعاد . وكان قصده بذلك كشف مدينة عكا ، فإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها ، فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة . ولما عاد السلطان الى الدهليز ركب لما أصبح ، وأركب الناس معه ، وساق الى عكا . فإذا الفرنج قد حفروا خندقا حول تل الفضول ، وجعلوا مَعاثِر[2] فى الطريق ، ووقفوا صفوفا على التل . فلما أشرف [السلطان] عليهم رتب العسكر بنفسه ، وشرع الجميع فى ذكر الله وتهليله وتكبيره ، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم . وللوقت رُدمت الخنادق بأيدى غلمان العساكر وبمن حضر من الفقراء المجاهدين ، وصعد المسلمون فوق تل الفضول ، وقد انهزم الفرنج الى المدينة .

(١) الجنايات جمع جناية ، ومعناها فى الاصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته . (Quatremère: Op. Cit.I. 1. p. 199. N.79) . انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٢) ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 1. p. 200) هذا اللفظ الى (chausse - trapes) ، ولعل المعاثر جمع العاثور ، وهو ما يعدّ فى الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد ، وتأتى أيضا بمعنى المهلكة من الأرض ، وبمعنى البئر . (محيط المحيط) .

وامتدت الأيدى إلى ماحول عكا من الأبراج فهدمت، وحرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها . وساق العسكر إلى أبواب عكا، وقتلوا وأسروا عدّة من الفرنج فى ساعة واحدة، والسلطان قائم على رأس التل يعمل الرأى فى أخذ المدينة، والأمراء تحمل على الأبواب واحدا بعد واحد . ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج فى الخنادق، وهلك منهم جماعة فى الأبواب . فلما كان آخر النهار ساق السلطان إلى البرج الذى نُقب، وقد تَعَلّق حتى رُمى بين يديه، وأُخذ[(1)] منه أربعــة من الفرسان ونيف وثلاثون راجلا، وبات [السلطان على ذلك] . فلما أصبح عاد على بلاد الفرنج وكشــفها مكانا مكانا، وعبر على الناصرة حتى شاهد خراب كنيستها وقد سُوّى بها الأرض، وصار إلى الصفة التى بناها قبالة الطور، فوافاها ليلا وجلس عليها . وأحضر الشموع[(2)] [التى] بالمنجنيقات ونصب عليهــا خيمة، وأحضر الصاحب فخر الدين محمــد بن حنا وزير الصحبة، وجماعة كتّاب الدّرج[(3)] وهم (١٢٥ ا) سـبعة : الصاحب فخر الدين بن

---

(١) هذا اللفظ مضبوط فى س بضم الألف فقط .

(٢) الشموع جمع شمعة، ومعنى الشموع هنا الأعمدة الخشبية الدقيقة (mince pilier) . انظر (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) كان كتّاب الدرج من موظفى ديوان الإنشاء، وكذلك كتّاب الدست، وقد شرح القلقشندى (صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧، وما بعدها) عمل كل من هاتين الطبقتين من الكتّاب وعددهما فى زمنه وقبله، وبين أصل تسميتهما أيضا، ونصه : "وأما ما استقر عليه الحال فى زماننا فكتّاب الديوان على طبقتين : الطبقة الأولى كتّاب الدست، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب، على ترتيب منازلهم بالقدمة، ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم، ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسموا كتّاب الدست إضافة الى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه . وهؤلاء هم أحق كتّاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخــلاف غيرهم . و ... كانوا فى أوائل الدولة التركيــة، فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها، قبــل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر، ثلاثة كتّاب ... ... ثم زادوا بعد ذلك قليلا الى أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا، خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج، حتى جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد ... . (ص ١٣) الطبقة الثانية كتّاب الدرج، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتّاب الدست، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات، ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وسموا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دروج الورق، والمراد بالدرج فى العرف =

لقمان، والصدر بدر الدين حسن الموصلى، والصدر كمال الدين أحمد بن العجمى، والصدر فتح الدين بن القيسرانى، والصدر شهاب الدين أحمد بن عبيد الله، والصدر برهان الدين . و[أحضر] كتاب الجيش، وأمر الأمير سيف الدين الزينى أمير علم (١) أن يجلس مع كتاب الجيش، لأجل كتابة المناشير وتجهيز الطبلخاناه، وأن يكون الأتابك بين يدى السلطان . واستدعى من الجشارات (٢) بخمسمائة فرس لأجل الطبلخاناه وخيول الأمراء، وأحضرت خلع كثيرة، وأمر السلاح دارية أن يستريحوا بالنوبة ويحضروا . فلم تزل المثالات (٣) والمناشير (٤)

= العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير ... . ويجوز أن يطلق عليهم [أى كتاب الدرج] كتاب الإنشاء، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدم ذكره، ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين، لما تقدم أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها . وكما زاد عدد كتاب الدست فى العدد زاد كتاب الدرج حتى خرجوا عن الحد، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا ... . على أن كتاب الدست الآن هم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج، كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير . وصار كتاب الدرج مخصوصين بالمكاتبات فى خلاص الحقوق وما فى معناها، وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب فى القطع الصغير . وربما شارك أعلام كتاب الدست فى التقاليد وكبار التواقيع وما فى معناها، إذا كان حسن الخط ...". انظر أيضا القلقشندى (نفس المرجع، ج ٥، ص ٤٦٤ — ٤٦٥؛ G.- Demombynes : Op. Cit. Index) .

(١) كان صاحب هذه الوظيفة هو الذى يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه، وسرت العادة فى أيام المماليك أن يكون المتحدث عليها من طبقة أمير عشرة . وكان هناك أيضا وظيفة علم دار، وصاحبها هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢؛ ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٦٣) .

(٢) الجشارات جمع جشار، وهو مكان رعى الماشية من خيل وغيرها . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل لتوضيح هذا المعنى، ونصه : "... ... وهجم على جشارهم، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر".

(٣) المثالات جمع مثال، وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية . وكان المثال يخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر هذا الديوان الى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان الجيش الى ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك "مربعة" فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة . ثم ترسل المربعة الى ديوان الإنشاء، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع، والمنشور آخر أدوار تلك العملية . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣، ص ١٥٣، وما بعدها؛ G. — Demombynes : Op. Cit. Introd. p. XLIII et seq.) .

(٤) انظر الحاشية السابقة، وكذلك ص ٤٧٠، حاشية ٦ .

تكتب وهو يعلّم، فكُتب بين يديه تلك الليـلة ستة وخمسـون منشورا كبارا بخطب لأمراء كبار. و[ظل] الصاحب فخر الدين يعلّم، وفتح الدين بن سناء الملك صاحب ديوان الجيش وصاحب ديوان الخزائن يعـلّم، والأمير بدر الدين الخازندار واقف، والمسـتوفى ينزّل، حتى كملت بين يديه. وأصبح [السلطان] مخلا بنفســه، وجهز الطبلخاناه والسـناجق والخيل والخلع الى الأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية.

ورحل [السلطان] من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة، وسار الى القدس فوافاه يوم الجمعة سابع عشره: وكشف أحوال البلد وما يحتاج اليه المسجد من العمارة، ونظر فى الأوقاف وكتب بحمايتها، ورتّب برسم مصالح المسجد فى كل سـنة خمسة آلاف درهم، وأمر ببناء خان خارج البـلد، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العيـد[1]، ونادى بالقدس ألا ينزل أحد فى زرع.

ثم سار [السـلطان] الى الكرك فنزله يوم الخميس ثالث عشريه بعساكره، وأحضر السلالم الخشب من الصلت وغيره، والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق. وكتب إلى من فى الكرك فخافوا، وترددت الرسـل بينهم وبينه، حتى استقر الحال على أنه يعطى الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس، فأنعم بذلك. ونزل أولاد المغيث، وقاضى المدينة وخطيبها وعدة من أهلها، ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة، فخلف لهم السلطان وأرضاهم؛ وسير الأمير عز الدين أيدمر الأستادار، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا، فى (١٢٥ ب) ليلة الجمعة رابع عشريه، فتسلما القلعة. وفى بكرة الجمعة دُعى للسلطان على الأسوار، ونُصبت سناجقه على الأبراج، وركب فى الساعة الثالثـة وطلع الى القلعـة ورتب أمر جيش الكرك، وأنفق[2] فيهم ثلاثة أشهر من خزائنه.

(١) كان ذلك الباب أحد أبواب القصر الكبير الفاطمى، وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيدين إلى الصلاة. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٠).

(٢) فى س "نفق".

واهتم [السلطان] ببلادها وعين لهـا خاصا، وزاد جماعة، وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان فى القلعـة من مال وقماش وأثاث . وصلى بهـا صلاة الجمعة ، ونزل قريب المغرب ، ولم يتعرض أحد من العسكر لأهلها بسـوء . وأصبح [السلطان] فبعث الى العزيز بن المغيث الخلع والقماش ، وإلى الطواشى بهـاء الدين صندل ، والأمير شهاب الدين صـعلوك أتابكه . وكُتب بالبشارة الى مصر والشام بأخذ الكرك ، وأن تُحمل إليه الغلات والأصـناف . وطلع [السلطان] إليها يوم الاثنين ، وأحضر الدواوين ورتب الإقطاعات للعربان والأجناد ، فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمائة منشور ، وسلمت لأربابها بعدما حلفوا بين يدى السلطان ، وكُتبت أيضا تواقيع لأهل الكرك بمناصب دينية وديوانية . وجرّد [السلطان] بهـا عدة من البحرية والظاهرية ، وحلّف مقدمى الكرك ونصاراها ، وقال لأهل الكرك : " اعلموا أنكم قد أسأتم إلىّ فى الأيام المـاضية ، وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ماخامرتم على صاحبكم . وقد ازددت فيكم محبـة ، فتناسوا الحقود " . وأحضر الأمير عبية[1] وغيره من عرب بنى مهدى[2] ، وألزمهـم أدراك البـلاد وخفّرهم إلى أرض الحجـاز . وأمر بعمارة ما يحتاج إليـه فى السور وحصّنه ، وحفـر الخنـدق وأحاطه بالحصن ، ولم يكن قبـل ذلك كذلك . وأشحن الحصن بالأسلحة والغلال وآلات الحرب والأقوات ، ووضع فيـه مبلغ سبعين ألف دينار عينا ومائة وخمسين ألف درهم نقرة . واسـتناب بالكرك الأمير عز الدين أيدمر من ممـاليكه ، وأضاف إليـه الشوبك وأعطاه ثلاثين ألف درهم وكثيرا من القماش .

ورحل [السلطان] الى مصر ، ومعه أولاد الملك المغيث[3] وحريمه ، فى يوم الأربعاء تاسع عشريه . فدخل القـاهرة فى سابع عشر رجب وقد زينت أحسن زينـة ، فشـق

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 207) هـذا الاسم إلى (Otba) ، ويعزز هذه الصيغة الثانية ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٤١٩ ب) ، حيث اسم هذا الأمير العربى "عتبه من بنى عقبه" . (انظر الحاشية التالية) .

(٢) المقصود هنا عرب بنى عقبة الذين كانت مسا كنهم حول الكرك ، وهم أحد فروع بنى مهدى . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ٢٤٢ — ٢٤٣) .

(٣) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى سقطة موجودة بهامش الصفحة ، وهى "وسرف الدين" .

القصـبة الى قلعـة الجبـل على شقق الحرير الأطلس والعتابى؛ وخلع على الأمراء والمقاردة والمقدمين وجميع حاشيته (١٢٦ أ) وغلمانه ومباشريه، وأعطى العزيز بن الملك المغيث إمرة مائة فارس وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه ، وأطلق لأخويه وحرم أبيـه سائر ما يحتاجون اليه هم وغلمانهم، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين من القاهرة .

وأصبح [السلطان] فقبض على الأمير سيف الدين الرشـيدى واعتقله . وفى تاسع عشره قبض على الأمير عز الدين أيبـك الدمياطى والأمير شمس الدين أقوش البرلى واعتقلهـما ، فكان آخر العهد بأقوش البرلى . ولـما قبض [السلطان] عليهما أحسن الى مماليكهما وحواشيهما ، ولم يغير على أحد منهـم ولا تعرض الى بيوت الأمراء . وكان سبب تنكره على هذه الأمراء أنه [كان قد] فوّض الى الرشيدى أمر المملكة حتى تصرفت يده فى كل شىء ، وأطلق له فى كل جمعة خِوَانين [من عنده] يُمَدّان له حتى ماء الورد ، ورتّب له فى كل شهر كَلُّوتَتَين (١)

(١) هذا اللفظ مثنى كلوتة ، وهى غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة ، وتجمع على كلوتات وكلاوات ، وتسمى أيضا كافة وكلفتاة وكلفتة ، ويقابلها فى الفرنسية لفظ (calotte) . وقد اختلف الأصوليون فى أصل هذا الاسم ، فيقول بعضهم إنه من اللفظ اللاتينى (calva) أى غطاء أعلى الرأس (superior pars capitis) ، ويقول آخرون إنه من لفظ لاتينى آخر هو (calautica) ، كما يقول فريق ثالث إنه معرّب اللفظ الفارسى "كلوته". (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وقد اسـتحدث سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر ، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رءوسهم بغـير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها ، وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومـماليكهم . ولم يزل السلاطين والجند يلبسون الكلوتات الصفراء بغير عمامة الى أواسط دولة المماليك البحرية ، فلما ولى السلطان المنصور قلاون السلطنة غير هذا الزى ، إذ أضاف لبس الشاش على الكلوتة . وفى عهد ابنه الأشرف خليل رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مـماليكهم بالكلوتات الزركش ، وتركت الكلوتات الجوخ الصـفر لمن دونهم ، على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشـعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولا . فلـما ملك السلطان النـاصر محمد بن قلاون اسـتجد العمائم الناصرية وهى صـغار ، وحلق رأسه وحلق الأمراء رءوسهم ، وتركت ذوائب الشعر . ثم حلت الكلوتات اليلبغاوية المنسوبة إلى الأمير يلبغا الخاصكى العمرى محل العمائم الناصرية ، وظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المـماليك الجراكسة ، فأحدث هذا السلطان الكلوتات الجركسـية ، وهى أكبر من اليلبغاوية . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥ — ٦) . ومن أغطية الرأس أيضا فى تلك الأزمنة الشربوش والطاقية ، وقد تقدم وصف أولها فى ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، ويضاف اليه هنا أن الشربوش كان يلبس عادة مع الخلع السلطانية ، وفى ذلك يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، =

زركش قيمة كل منهما مبلغ خمسين دينارا عينا وقيمة كلبندها[1] مبلغ أربعين دينارا ، [ورتب له برسم مشروبه اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة[2] . هذا] سوى ما له من الإقطاعات الجليلة والمرتبات الكثيرة، وسوى الإنعامات وجوامك البزدارية[3] والفهادة[4] وعليق الخيل . فأقبل [الرشيدى] على اللهو وشرب الخمر، وحمت حواشيه عدة بلاد، وحدثت منه أمور لا تسر ، فأغضى عنه السلطان . فلما كان بالطور بلغه أن الرشيدى قد فسدت نيته، فأقام عليه عيونا تحفظ كل ما يجرى منه : فبلغه عنه أنه كان يكاتب المغيث بالكرك ويحذره من القدوم على السلطان ويشير عليه ألا يسلم نفسه ، وأنه كتب الى أهل الكرك أيضا بعد القبض على المغيث يأمرهم بألا يسلموا الكرك ؛ فأسر [السلطان] ذلك فى نفسه إلى أن سار الى الكرك ، فبلغه عنه أنه يريد المبادرة إلى أخذ الكرك ، فسارع إليه ولاطفه

= ص ٩٩) : "وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمر أحدا من الأتراك ألبسه الشربوش ، وهو شىء يشبه التاج كأنه شكل مثلث ، يجعل على الرأس بغير عمامة ... وقد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية" . أما الطاقية فالمفهوم من المقريزى (نفس المرجع والجزء ، ص ١٠٤) أنها كانت أولا للصبيان والبنات ، ثم "كثر لبس رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم للطواق فى الدولة الجركسية ، وصاروا يلبسون الطاقية على رءوسهم بغير عمامة ، ويمرون كذلك فى الشوارع والأسواق والمواكب ، لايرون بذلك بأسا ، بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة . ونوعوا هذه الطواق ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان ، وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ، ويعمل أعلاها مدورا مسطحا . فحدث فى أيام الملك الناصر فرج شىء عرف بالطواق الجركسية ، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع ، وأعلاها مدور مقبب . وبالغوا فى تبطين الطاقية بالورق والكثيرة (كذا) ، فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس ، وجعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس ، فى عرض نحو ثمن ذراع ، يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه . وهم على استعمال هذا الزى الى اليوم (أى زمن المقريزى) ، وهو من أسمج ما عانوه ، ويشبه الرجال فى ذلك بالنساء" .

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 211.) هذا اللفظ الى (turban) أى عمامة . غير أن المفهوم من سياق العبارة أن الكلبند هذا كان جزءا من غطاء الرأس ، سواء أكان عمامة أو كلوتة . (انظر الحاشية السابقة) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٠ ب) .

(٣) البزدارية جمع بزدار — أو بازدار — ، وقد تقدم شرح هذا اللفظ . (انظر ص ٤٣٦ ، حاشية ٦) .

(٤) الفهادة هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود .

وركب[1] معه إلى الكرك وأخذها . و[بلغ السلطان[2] عنه أيضا] عدّة أمور من هــذا النحو .

وقدمت رســل الملك بركه تطلب[3] النجدة على هولاكو — وهم الأمير جلال الدين ابن القاضى، والشيخ نور الدين[4] على، فى عدة — ، [و] يخبرون بإسلامه وإســلام قومه، وعلى يدهم كتاب مؤرّخ بأوّل رجب سنة إحدى وستين [وستمــائة[5]] . وقدم أيضا رسول الأشكرى ، [ورسول مقدّم الجَنَوية[6]، ورسل صاحب الروم السلاجقة]؛فأحسن [السلطان] الى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق ، وواصــل الإنعام عليهم فى يومى الثلاثاء والسبت عند اللعب فى الميدان .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الملك بركه، ودعا للسلطان وللملك بركه فى الخطبة، وصلى بالناس صــلاة الجمعة ، واجتمع بالسلطان وبالرسل فى مهمات أمور الإسلام .

وفى ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان سأل [السلطانُ] الملكُ الظاهر الخليفةَ الحاكم

(١) فى س " وركب به معه " .

(٢) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٢٠ أ — ٤٢٢ أ) حيث هذه الأخبار واردة بتفصيل أكثر، ومن ضمنها شرح سبب غضب السلطان على البرلى والدمياطى .

(٣) فى س " بطلب " .

(٤) اسم هذين الأميرين فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٠) جلال الدين ابن قاضى توقات، وعز الدين التركانى .

(٥) أورد ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ أ — ب) مضمون هذا الكتاب ، وهــذا نص عبارته : " وقرىء كتاب الملك بركه ، [و] مضمونه الشكر والحمــد وطلب الإنجاد على هلاوون ، وإنى قدمت أنا وإخوتى لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى الى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والأذان والقراءة والصــلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة . ويلتمس إنفاذ جماعة من العسكر الى جهة الفرات لمسك الطريق على هلاوون (٤٢٢ ب) ، ويوصى على صاحب الروم " . هــذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ، ص ١١٠ ، وما بعدها) مضمون لتلك الرسالة أيضا ، وهو لايخرج فى معناه عن ملخص ابن واصل .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصــل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ أ) ، والجنوية أهل مدينة جنوة . انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٠٥).

(١٢٦ ب) بأمر الله : " هل لبس الفتوة من أحد من أهل بيته الطاهرين أو من أوليائهم المتقين ؟ " فقال : " لا " ، والتمس من السلطان أن يصل سببه(١) بهذا المقصود . فلم يمكن السلطان إلا طاعته المفترضة ، وأن يمنحه ما كان ابن عمه رضى الله عنه [قد] افترضه . ولبس [الخليفة] فى الليلة المذكورة بحضور من يُعتبر حضوره فى مثل ذلك ، و باشر اللبس الأتابك فارس الدين أقطاى بطريق الوكالة عن السلطان ، بحق لبسه(٢) عن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ولدِ الإمام الظاهر — وأبوه لجده الناصر [لدين الله] — والناصر لعبد الجبار ، لعلى ابن دُغيم(٣) ، لعبد الله بن الفير(٤) ، لعمر بن الرصاص ، لأبى بكر بن الجحيش ، لحسن بن الساربار(٥) ، لبقاء بن الطباخ ، لنفيس العلوى ، لأبى هاشم بن أبى حية ، لعمر بن ألبس ، لأبى على الصوفى ، لمهنا العلوى ، للقائد عيسى ، لأمير وهران ، لرؤبة الفارسى ، للملك أبى كاليجار ، لأبى الحسن النجار ، لفضل الفرقاشى ، للقائد شبل بن المكدم ، لأبى الفضل القرشى ، للأمير حسان ، لجوشن الفزارى ، للأمير هلال النبهانى ، لأبى مسلم الخراسانى ، لأبى العز النقيب ، لعوف الغسانى(٦) ، لحافظ الكندى ، لأبى على النوبى ، لسلمان الفارسى ، للإمام الطاهر النقى التقى على بن

---

(١) كذا فى س ، و يقابل هذه العبارة فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ما نصه : " والتمس من السلطان أن يصل نسبته هذا المقصود " .

(٢) الضمير هنا عائد على السلطان ، وقد تقدمت الإشارة الى لبس السلطان بيبرس لباس الفتوة على يد الخليفة المستنصر بالله (انظر ص ٤٥٩ ، حاشية ٥) ، والمفهوم من سياق العبارة هنا أن بيبرس أصبح رئيس الفتوة بعد موت الخليفة المذكور عند هيت . (راجع ص ٤٦٧ ، سطر ٩) .

(٣) كذا فى س بضم الدال فقط . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) ، حيث صحح هذا الاسم من مثل الصيغة الواردة هنا بالمتن الى " زعيم " .

(٤) كذا فى س . انظر نفس المؤلف والمرجع والصفحة ، حيث صحح هذا الاسم من " القير " الى " العين " .

(٥) كذا فى س ، وهو وارد بمثل هذا الرسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ، بغير نقط البتة ، وقد أورده بن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) " الشرابدار " .

(٦) فى س " العانى " ، وقد نقطه كاتب نسخة ب (١٥٢ ب) وصيره " القبانى " ، والصيغة المثبتة هنا من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤) ، أما فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) فقد ورد هذا اللفظ برسم " العسانى " .

أبي طالب رضى الله عنـه[1] . وحمـل السلطان[2] إلى الخليفـة من الملابس لأجل ذلك ما يليق بجـلاله .

وفى الليـلة الثانية حضر رسل الملك بركه إلى قلعة الجبـل ، وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك، وحمـل اليهم من الملابس ما يليق بمثلهم . وجهز السلطان هدية[3] جليلة للملك بركه ، وكتب جواب كتابه فى قطع النصف فى سبعين ورقة[4] بغدادية[5] بخط محيي الدين بن

(١) سيلاحظ القارئ تجنب الضبط بسائر هذه الفقرة ، والسبب هو أنه يوجد خلاف واضح بين صيغ معظم الأسماء والأنساب كما هى واردة هنا ، و بين كل مما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ)، وابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤ — ٨٥) .

(٢) فى س : "وحمل اله السلطان من الملابس" .

(٣) احتوت هـذه الهدية ، على حدّ تعبير ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ، "من كل شيء على اختلافه" ، وكان من جملتها "ختمة شريفة يذكر أنها خط عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر أدم مبطن بعتابى ، وكرسى لها أبنوس وعاج محرم بسقط فضة ، ومعها هدية عظيمة مالا توصف (كذا) . ومن جـملة الهدية سيوف وملحوريه (كذا) باسقاط ذهب وفضة وهى عدد كثير ، ومن الدبابيس والقسى الحلق (كذا) الدمشقية جملة كثيرة ، ومن قسى البندق بأوتارها عدة كثيرة . ومن جملة الهـدية قناديل كبار مذهبة شيء كثير ، ومن الجوارى الطباخات جماعة ، ومن الخيل الجياد السـبق عدد كثير ، ومن الدواب الفره التى لا تلحق عدد كثير ، وأصناف كثيرة ما ذكرناها لطول شرحها" . والغالب ان الأصناف التى لم يذكرها ابن واصـل "لطول شرحها" ، هى المذكورة فى ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السـديد ، ص ١١١ ، وما بعدها) ، وهذا نص عبارته : "وكان من جملة الهدية ، من الوحوش الغريبة فى تلك الأرض : فيـل وزرافة وقرود ، وحمير وحشـية عتابية وهجن وحمير مصرية ، وجملة كثيرة من ملبوس ومصاغ وشمعدانات فضة وحصر عبدانية ، وأمتعة وأوانى صينى ، وثياب سكندرية (ص ١١٢) ومن عمل دار الطراز ، وسكر نبات وسكر بياض شيئا كثيرا" .

(٤) يوجد فى ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ملخص لجواب السلطان بيبرس ، وهذا نص العبارة كلها : "وكتب الملك الظاهر جواب الملك بركه فى سـبعين ورقة بغـدادية ، من الأحاديث النبوية والآيات من القرآن الكريم ، فى الترغيب فى الجهاد وفى مصر وما ورد فيها من الأحاديث النبوية والآيات ، وقتال المشركين ، وفيه من ذكر مواطن العبادات ومواضع الزيارات فى سائر الشام . وجمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والإغراء على هلاون ، وإظهار الميل اليـه ، ووصف جنود الديار المصرية وماهى عليـه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأنها موافقة له فى نصرة الإسلام ، الى غير ذلك من الأمور الملوكية والأحوال الجهادية ، ما لا جمع فى كتاب" .

(٥) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة ، وكان مخصوصا لكتابة المصاحف ، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك . و يوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ، =

عبد الظاهر، و[هو الذى] قرأه على السلطان بحضور الأمراء . وسُلّمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودى، والشريف عماد الدين الهاشمى؛ فسارا فى طريدة بحرية فيها عدة رماة وجَرْخية[1] وزراقين[2]، وأشحنت بالأزودة لمدة سنة، وسارا فى سابع عشره . وخرجت النجابة الى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركه ويعتمر عنه، وأُمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس و بمصر والقاهرة، بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر .

(١٢٧ أ) وفى سادس شوّال توجه السلطان إلى جهة الإسكندرية، فأقام بتَرُوجة[3] أياما، ودخل البرّية وضرب حلقة فوقع فيها كثير من الصيد . واهتمّ [السلطان] بأمر المياه، وولى أمرها الأمير شجاع الدين الزاهدى أحد الحجاب، وأحضر من الإسكندرية الرجال لحفر الآبار

= وما بعدها) فصل فى أسماء وأجناس الورق المستعمل للكتابة فى الدول الإسلامية، ونصه : " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتّاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها ... . ودونه فى الرتبة الشامى وهو على نوعين، نوع يعرف بالحموى وهو دون القطع البغدادى، و[نوع] دونه فى القدر وهو المعروف بالشامى وقطعه دون القطع الحموى . ودونهما فى الرتبة الورق المصرى وهو أيضا على قطعين، القطع المنصورى وقطع العادة، والمنصورى أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا، أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمى فى عرف الوراقين المصلوح ... " . هذا وقد كان هناك نوعان من الورق البغدادى : أحدهما " قطع البغدادى الكامل، وعرض درجه ... ذراع واحد بذراع القماش المصرى، وطول كل وصل من الدرج المذكور ذراع ونصف بالذراع المذكور. وفيه كان (كذا) تكتب عهود الخلفاء وبيعاتهم، وفيه تكتب الآن عهود أكابر الملوك والمكاتبات الى الطبقة العليا من الملوك، كأكابر القانات من ملوك الشرق"، فيكون هذا النوع هو البغدادى المذكور هنا . أما النوع الثانى فاسمه "قطع البغدادى الناقص، وعرض درجه دون عرض البغدادى الكامل بأربعة أصابع مطبوقة، وفيه يكتب للطبقة الثانية من الملوك، وربما كتب فيه للطبقة العليا لإعواز البغدادى الكامل " . (نفس المؤلف والمرجع، ج ٦ ص ١٩٠، وما بعدها) .

(١) الجرخية جمع جرخى أى رامى الجرخ، ويقابل الجرخ فى الفرنسية لفظ (arbaléte) أى البندق . انظر (Dozy Supp. Dict. Ar.)

(٢) جمع زراق، ومعناه هنا رامى النفط من الزراقة، ويقابل لفظ الزراقة فى (Ibid : Op. Cit) العبارة التفسيرية الآتية : (le tube avec lequelle on lançait le naphte)، أى الأنبوبة التى يزرق بها النفط .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى قرية من كورة البحيرة (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٤٥)، وهى الآن موضع خرب فى الجنوب الغربى من دمنهور . (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١، ص ٢٢) .

ونزحها . ثم سار [السلطان] من تروجة إلى الإسكندرية ، وكان الصاحب بهاء الدين ابن حنا قد سبق إليها وحصل جملا كثيرة من المال : منها حمل بلغ خمسة وتسعين لفة من القماش السكندرى ، [ولم يعامل أحدا من أهلها بغير العدل]، ولم يضرب بها أحدا [بمقرعة][1]. فضرب السلطان خيامه[2] ظاهر المدينة ، ونادى ألا يقيم بالثغر جندى ولا ينزل أحد فى دار .

وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة دخل [السلطان] إلى المدينة من باب رشيد ، فتلقاه الناس [بالسرور والفرح والدعاء][3] . واستدعى [السلطان] بالخزائن والأمتعة ، وشرع فى تعبئة ما يعبيه للأمراء على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب بردّ مال السهمين[4] وصلة أرزاق الفقراء ، وسامح بما كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار عن كل قنطار يباع من ... ...[5] . ولعب بالكرة وخلع على الأمراء ، وأعطى الأتابك ثلاثة آلاف دينار ، وأعطى الأمراء على [حسب] مراتبهم ؛ وركب لزيارة الشيخ المعتقد محمد بن منصور ابن يحيى أبى القاسم القَبَّارى[6] ، فلم يمكنه من الطلوع اليه ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى عِلّيته؛ ثم مضى لزيارة الشيخ الشاطبى .

وحضر الى السلطان رجلان من أهل الثغر : أحدهما يقال له ابن البورى والآخر يعرف بالمكرم بن الزيات ، ومعهما أوراق تتضمن استخراج أموال ضائعة . فاستدعى السلطان فى يوم الثلاثاء سادسه الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء ، وأمر فقرئت الأوراق وصار

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٢) فى س " خامه " .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٤ أ) ، وقد كان ابن واصل حاضرا ذلك كله ، وعبارته فى هذا الصدد أكثر تفصيلا مما هنا . انظر (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٤) كذا فى س .

(٥) بياض فى ص يسع كلمة واحدة لعلها "البهار" ، فإنه كان أهم متاجر أهل الإسكندرية فى تلك العصور .

(٦) مضبوط هكذا فى س ، ويظهر أن النسبة الى قبار (fossoyeur) ، وهو الرجل الذى يتولى حفر القبور ودفن الأموات . انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.) . هذا وفى محيط المحيط أن القبار هم عمال الصيد الذين يجتمعون "لجر ما فى الشباك من الصيد" .

كلما ذكر له باب مظلمة سدّه ويعود على المذكورين بالإنكار، حتى انتهت القراءة . فقال : "اعلموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار، من التصقيع[1] والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقــويم النخل[2]، فعوضنى الله من الحلال أكثر من ذلك؛ وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة، ومن ترك شيئا لله عوّضه الله خيرا"؛ وأمر بإشهار ابن البورى .

وفى سابعه قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنـة وردت الى الباب العزيز، [عدّتها] فوق الألف وثلثمائة فارس (١٢٧ ب) من المغل والبهادرية، فكُتب بالإحسان اليهم . وفى يوم الخميس ثامنه جلس السلطان بدار العدل، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى[3] الفرنجيات .

وفى ثامن عشره سار [السلطان] مــن الإسكندرية يريد القاهرة ، فنزل تروجة وأمر عربانها بالسباق بين يديه ، فاجتمع ألف فارس من عرب تروجة ، وانضم اليها جمـلة من خيل العسكر . وعيّن [الســلطان] لهم المدى، ووقف على تل ، وأوقف الرماح وعليها الثياب الأطلس والعتابى وفيها المــال . فأقبلت الخيل فى الحلبـة ، وأخذ كل راكب سَبْق ما فرض له . ثم سار [السلطان] الى قلعة الجبــل ، فلما وصــل فوّض قضاء الثغر للفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد بن على البوشى المــالكى ، وكان زاهدا عابدا يأوى الى مسجد بمصر؛ وفوّض الخطابة للقاضى زين الدين أبى الفرج محمد بن القاضى الموفق بن أبى الفرج الإسكندرانى ، الذى كان حاكما بالثغر .

وفى آخر ذى القعدة نزل السلطان الى القاهرة، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفى، والأمير علاء الدين الحاج أيدغدى الركنى، والأمير حسام الدين بن بركه خان[4] . وفى ليلة الأربعاء خامس ذى الحجة توفى الأمير حسام الدين بن بركه خان ، فحضر السلطان جنازته ومشى فيهـا مع الناس .

(١) فى س "التسقيع"، بثلاث نقط تحت السين .

(٢) فى س "النحل" .

(٣) الخواطى جمع خاطيـة ، وهى المـرأة الداعرة ، وتســمى أيضا مخطيـة ، والجمع مخطيـات . (Dozy: Supp. Dict.Ar.) .

(٤) تقدم ذكر ما حدث لبعض هؤلاء الأمراء فى الصيد عند العريش . (انظر ص ٤٨١ ، سطر ١) .

وفى سادســه وصلت التتار المستأمنة، وأعيانهم كَرْمُون (١) وامطغية ونُوكيَه وجَبْرك وقيـان وناصعيه وطيشور ونبتو وصحى (٢) وجوجلان واجقـرقا وارقرق وكراى وصلاغيه ومتقـدم وصراغان . فركب السلطان الى تلقيهـم ، فنزلوا عنـد مشاهدته عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب، فأكرمهم وعاد الى القلعة .

وفى ثامنه خلع عليهم [السـلطان] ، ونزل الى تربة ابن بركه خان . ثم وردت الكتب بقدوم طائفة أخرى ، فاحتفل بهـم وركب لتلقيهم . ثم وردت طائفة ثالثة ، فاعتمد معهم مثل ذلك وأمّر أكابرهم ، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم .

واتفق أن الأمير بهـاء الدين أمير آخور ضرب بعض دلالى سـوق الخيل ، فمـات بعد ما حمل الى داره ؛ فغضب السلطان غضبا شديدا خاف منه ، فهرب الى بيت الأمير قلاون واستتر عنده . فدخل [قلاون] على الأتابك فى أمره ، وأخرج لأولاد الميت من ماله خمسة آلاف درهم ومائة أردب غلة وكسـوة ، فأبرءوه وأقروا أن أباهم مات بقضاء الله وقـدره . ودخل الأتابك الى السلطان وحدّثه فى ذلك ، فاشتد غضبه ، فقال له الأتابك : " تغضب والشرع معنا ؟ فإن كان قد قتـله عمـدا أو خطأ فقد أبرأ الأولياء " . وتحدث الأمراء فى العفو عنه فعُفِى ، وأُمر (١٢٨ ا) بعمل جامع من الثياب المفصلة يضرب على يمنة الخيمة السلطانيـة ، فعمل ونصبت محاربيه وأبوابه وعملت فيه مقصورة برسم السلطان .

وفى هذه السنة جدّدت دار العدل تحت قلعة الجبل ، وجلس بها السلطان فى يومى الخميس والاثنين لعرض العساكر . وفيهـا وردت هدية من بلاد اليمن . وفيهـا أُمر بتنصيب أربعة قضاة نوابا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، فاستناب حنفيا ومالكيا [وشافعيا] ، ولم يجد من يستنيبه من الحنـابلة فولى عاقـدا (٣) حنبليا . وفيهـا جهز السلطان عرب خفاجة

(١) مضـبوط هكذا فى س ، وقد رجعت الأسماء التاليـة على منطوقها فى (Quatremère: Op. Cit. I. 1. P. 222.) ، واكتفى بإثبات ضبط ما هو مضبوط منها فى س .

(٢) فى س "صحى" ، وهذا الاسم مترجم فى (Ibid : Op. Cit. I. 1. p. 222) الى (Sobhi) .

(٣) العاقد هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ، وهو دون القاضى فى الرتبة . انظر=

بالخلع إلى أكابر أهل العراق، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره يغريهم بهولاكو، وألبس عدة من أمراء خفاجة الفتوة، وجهز معهم الأمير عز الدين إلى شيراز . وفيها جهز السلطان فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين، وعدة أخشاب وغيرها من الآلات، برسم عمارة الحرم النبوى . وعُملت كسوة الكعبة على العادة، وحملت على البغال وطيف بها فى القاهرة ومصر، وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة، والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة . وسُفرت إلى مكة فى العشر الأوسط من شوال، وفُوضت عمارة الحرم لزين الدين بن البورى .

وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولا، ليسهل أخذ دمياط بعدها . فسار إلى تونس ونازلها حتى أشرف على أخذها، فبعث الله فى عسكره وباءً(١) هلك فيه هو وعدة من أكابر أصحابه، وعاد من بقى منهم .

ومات فى هذه السنة الأمير الكبير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترين الأزكشى(٢) الكردى بدمشق . وتوفى(٣) عز الدين أبو محمد عبد الرزاق بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف الرسعنى الحنبلى، شيخ البلاد الجزرية، بسنجار عن اثنين وسبعين سنة . وتوفى علم الدين

= (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أنه لا يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٣، ومابعدها)، فى باب ألقاب أرباب الأقلام، موظف بهذا اللقب . راجع أيضا نفس المؤلف والمرجع (ج ٤، ص ٣٤، وما بعدها) .

(١) تعرف هذه الحملة باسم الحملة الصليبية الثامنة، وقد تقدمت إشارة المقريزى لها عرضا فى ص ٣٦٤، وهى آخر الحملات الكبرى التى أرسلتها أوربا لتنفيذ أغراض الحروب الصليبية . وقد أدركت الوفاة قائدها (Louis IX) ملك فرنسا بعيد نزول جنودها قرب تونس، وذلك قبل أن تقوم الحملة بشئ مذكور . فقام على قيادتها أخوه (Charles of Anjou) ملك صقلية، غير أن القائد الجديد انصرف عن غرض الحملة الى ما تطلبه مصالح مملكته الصقلية، فاستدفع ملك تونس وهو المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب مبلغا من المال كغرامة حربية، واستأداه جزية سنوية تدفع الى خزانة مملكته . (Barker : The Crusades, pp. 87-89؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٢١) .

(٢) كذا فى س، وقد تقدم ورود هذا الاسم هنا برسم مخالف (انظر ص ٤٣٣، سطر ٣)، وهو فى ب (١٥٤ أ) "... عيسى بن جشقن بن الازكشى ..."، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. II. p. 224.) الى (Isâ ben-khaschken le curde) .

(٣) الوفيات التالية مكتوبة فى قاعدة الصفحة فى س، بدون أى إشارة الى الموضع المناسب لإثباتها بالمتن، على أنها واردة كما هنا فى ب (١٥٤ أ)، وأيضا فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 224)، وليس ثمت شك فى وقوعها هذه السنة . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٠٥ — ٣٠٧) .

أبو محمد القاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر المرسى اللورى بدمشق، وقد انتهت إليه مشيخة الإقراء، عن ستين[1] سنة .

* * *

سنة اثنتين وستين وستمائة : استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة مختومة مع خادم أسود تتضمن مرافعــة فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته، لأنه ما جعــل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح، ولا ولى حنبليا قاضيا، وذكر أشياء قادحة فيه . فبعث [السلطان] بها الى الشيخ، فأقسم أنه ماجرى منه شيء، "وإنما هذا الخادم طردته من خدمتى" . فقال السلطان : "ولو شتمتنى (١٢٨ ب) أنت فى حلّ"، وأمر فضرب الخادم مائة عصا .

وفى المحــرم نودى بالقاهرة ومصر أن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيّا بزى الرجال، ومَن فعلت ذلك[2] بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة . وطُلب الطواشى شجــاع الدين مرشــد الحموى الى قلعة الجبل ، وأنكر عليه السلطان اشتغال مخــدومه صاحب حماة باللهو، وقرّر معه إلزام الأجناد بإقامة اليزك وتكميل العدد ، وكتب له تقليدا[3] وسافر الى حماة . وقدم

(١) يظهر من العبارة التالية ، وهى من مخطوطة ابن واصل المتداولة فى هذه الحواشى (نفس المرجع، ص ٤٢٥ أ) أن مؤلف مفرج الكروب وقف عن الكتابة أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م)، وأن بقية هذه المخطوطة التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م) من تلخيص الكاتب الذى استملاه، وذلك من كتاب آخر لابن واصل أو غيره اسمه التاريخ . أما سبب انقطاع ابن واصل عن الإملاء، فالراجح أنه راجع الى ذهابه الى صقلية حوالى ذلك الوقت رسولا من عند السلطان بيبرس الى صاحبها الملك ما نفرد (Manfred)، وإقامته هناك عدة سنين . (انظر Enc. Isl. Art. Ibn Wāsil) . وهذا نص العبارة : " قال الفقير الى رحمة الله تعــالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى، انتهى الى هاهنــا إملاء القاضى الإمام العالم العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى (فى الأصل أحد) وستين وستمائة . وجرت أمور كثيرة، ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصرا من تمام التاريخ على حسب الطاقة ، ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك، إنه على كل شيء قدير وإليه المصير" .

(٢) فى س " فعل "، هذا وليس من المفهوم سبب تقليد النساء للرجال فى الملابس ، فى هذا العصر الأوّل من تاريخ المماليك، إلا إذا كان ماأشار اليه المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١٠٤) بخصوص عصر المماليك الجراكسة، موجودا أيضا فى عصر بيبرس .

(٣) فى س "تقليد" .

الأمير جمال الدين يشكر بن الدوادار المجاهد دوادار الخليفة ببغداد — وكان قد تأخر حضوره —، فأحسن اليه السلطان وأعطاه إمرة طبلخاناه .

وفى يوم الأحد الخامس من صفر اجتمع أهل العلم بالمدرسة الظاهرية بين القصرين عند تمام عمارتها[1] ، وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب فى إيوانهم . وفُوّض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلى، والتصدير لإفادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى. وذكروا الدروس ومدّت الأسمطة، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار يومئذ : —

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك[2] همة ... بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسن مفرّق ... فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النـ ... ـفيسة منها فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وأنشد عدّة من الشعراء أيضا [ومنهم السراج الوراق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب][3]، فخلع عليهم وكان يوما مشهودا . وجعل [السلطان] بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة، و بنى بجانبها مكتبا للسبيل، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف .

وفيه ورد الخبر مع الحاج بأنه خُطب للسلطان بمكة ، وأن الصدر جمال الدين حسين بن

---

(١) بدأ السلطان بيبرس بناء هذه المدرسة فى ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، على أنقاض قاعة الخيم ، وهى إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩) .

(٢) فى س "السلطان" . انظر (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٩) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (نفس المرجع والصفحة) ، حيث يوجد أيضا نص الأشعار التى أنشدت فى ذلك الحفل الافتتاحى .

الموصـلى ، كاتب الإنشاء المتوجه إلى مكة ، تسلم مفتاح الكعبة وقفله بالقفل المسير صحبته ، وأباح الكعبة للناس مدة ثلاثة (١٢٩ أ) أيام بغير شيء يؤخذ منهم . وفيه قرئ كتاب وقف الخان بمدينة القدس فى مجلس السلطان بقلعة الجبل، وحضر قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قراءته، وكتب به عدة نسخ . ووقف [السلطان] أيضا إصطبلين تحت القلعة، يعرف أحدهما بجوهر النوبى،(١) على وجوه البر . وفيه ورد الخبر بأنه رتب بمدينة الخليل السماط والرواتب للقيمين والواردين، وكان قد بطل ذلك من مدة أعوام كثيرة .

وفيه سار السلطان إلى وسيم(٢) ومضى إلى الغربية، فصار يسير منفردا فى خفية ويسأل عن والى الغربيـة الأمير بن الهمام وعن سـيرة نوابه وغلمانه ومباشريه ، فذكرت له عنه سيرة سيئة ، فقبض عليه وأدبه وأقام غيره، وشكى إليـه من ظلم بعض المباشرين النصارى ، فأمر به فشنق من أجل أنه تكلم بما يوجب ذلك . ودخل [السلطان] دمياط ، ثم عاد إلى أشموم، وسار من المنزلة إلى الشرقية . وفيه سأل الفرنج أن يؤذن لهم فى زراعة ما بيدهم من بلاد الشام وتقويتها بجملة من الغلال، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام، وأذن لهم فى ذلك فزرعوا .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه مات الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شـيركوه بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ابن مروان صاحب حمص، عن غير ولد ولا أخ ولا ولى عهد . فبعث [السلطان] إلى الأمير بدر الدين بيليك العـلائى أحد الأمراء، فتسـلمها فى سابع عشريه وحلف الناس بهـا للملك الظاهر، وتسلم الرحبة أيضا ، وبعث السلطان إليها عشرين ألف دينار عينا، وولى مدينة

(١) فى س "النوبى" ، ولعل هـذا الإصطبل كان مبنيا على جزء من الموضع المسمى فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١١٩) باسم "حكر جوهر النوبى" ، وموقعـه تجاه حارة الوزيرية فى شرق بستان العـدة بالقاهرة . وكان ذلك الحكر بستانا إلى نحو سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م)، ثم حكر و بنيت فيه الدور . أما جوهر النوبى فأمير خصى من أمراء الملك الكامل ، وهو أحد الذين ثاروا بالملك العادل الثانى وخلعـوه ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أخيه العادل قبض على جوهر المذكور فى سنة ٦٣٨ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الجيزة ، غربى ناحية إنبابه . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ، ص ٥٧ — ٦١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٢٩) .

حران الأمير جمال الدين الحاكى، وولى مدينة الرقة أميرا آخر . وورد الخبر بأن متملك جزيرة دَهْلَك[١]، ومتملك جزيرة سَواكِن[٢]، يتعرضان إلى أموال من مات من التجار . فسير [السلطان] اليهما أحد رجال الحلقة رسولا، ينكر عليهما .

وفى هذه السنة[٣] بلغ ثمن القُرْط[٤] الذى قضمته الخيول السلطانية و جمال المُناخات[٥] بأرض مصر، ما مبلغه خمسون ألف دينار . وفى هذه السنة ارتفعت الأسعار بمصر، فبلغ الأردب القمح نحو المائة درهم نقرة ، فأمر السلطان بالتسعير فاشتد الحال وعدم الخبز . و بلغ القمح مائة درهم وخمسة دراهم (١٢٩ ب) الأردب، والشعير إلى سبعين درهما الأردب، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، واللحم كل رطل بدرهم وثلث؛ و بلغ بالإسكندرية الأردب القمح ثلاثمائة وعشرين درهما من الوَرِق[٦] . ثم اشتد الحال بالناس حتى أكلوا و رق اللفت والكرنب

(١) بغير ضبط فى س، وهى أكبر الجزر المعروفة باسم أرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوّع . ولقد امتدّ سلطان الإسلام الى هذه الجزيرة إبان الفتوح العربية الأولى ، واستخدمها خلفاء الأمويين والعباسيين منفى للبعدين، ثم انسلخت من الخلافة العباسية وصارت تابعة لأمراء زبيد باليمن، وظلت كذلك حتى زالت تلك الدولة . ثم استقلت بشؤونها مدة طويلة حتى كان زمن المماليك بمصر، فعمل متملكوها على نمو العلاقات الحسنة بينهم وبين سلاطين المماليك، وذلك ردّا لمعادية الدولة الرسولية باليمن . (Enc. Isl. Art. Dahlak) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى سواكن الحالية وتقع على ساحل البحر الأحمر ، وقد وصفت بأنها جزيرة لقيانها فعلا فى وسط جزيرة يوصلها بالشاطىء لسان ضيق من الأرض . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٢ ؛ Enc. Isl. Art. Sawākin) .

(٣) عبارة س كالآتى : " وبلغ ثمن القرط الذى قضمته الخيول السلطانية و جمال المناخات فى هذه السنة بأرض مصر ... " .

(٤) القرط هو البرسيم (محيط المحيط)، وهو مترجم فى (Dozy : Supp. Dict Ar.) الى الألفاظ الفرنسية (luzerne, foin, fourrage) .

(٥) المناخات جمع مناخ، وهى هنا الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية ، كالإصطبلات لأصناف الخيل (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، ومنها مناخ الجمال البخاتى ومناخ الجمال النفر ومناخ الهجن والنياق . وكانت هذه المناخات، وكذلك إصطبلات الخيل وغيرها من أنواع الحيوان كالفيلة والسباع والفهود ، تابعة لإدارة الإصطبلات السلطانية . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص١٢٥ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٢٤ — ٢٢٥) .

(٦) بغير ضبط فى س، والدراهم الورق بضبط المتن — و يقال أيضا الوُرْق والوِرْق والوَرَق — هى الدراهم المضروبة، وتجمع على أوراق ووِرَاق؛ و يقال لهذه الدارهم أيضا الرِّقة . (محيط المحيط) .

ونحوه ، وخرجوا إلى الريف فأكلوا عروق الفول الأخضر . فلمـا كان يوم الخميس سابع ربيع الآخر نزل السـلطان الى دار العـدل وأبطل التسعير، وكتب الى الأهراء[1] ببيع خمسمائة أردب كل يوم لضـعفاء الناس ، ويكون البيع من ويبتين إلى ما دون ذلك حتى لا يشترى من يخزن . ونودى للفقراء فاجتمعوا تحت القلعـة ، ونزل الحجـاب اليهم فكتبوا أسماءهم، ومضى إلى كل جهة حاجب فكتب ما بقى فى القاهرة ومصر من الفقراء ، وأحضروا عدّتهم فبلغت ألوفا . فقال [السلطان] : "والله لو كانت عنـدى غلة تكفى هـذا العالم لفرّقتها" . ثم أخذ ألوفا منهم، وأعطى لنوّاب ابنه الملك السعيد مثل ذلك ، وأمر ديوان الجيش فكتب باسم كل أمير جماعة على قدر عدته ، وأعطى الأجناد والمفاردة من الحلقة والمقدمين والبحرية ، وعزل التركمان ناحية والأكراد ناحيـة . وأمر أن يُعطى كل فقـير كفايته مدّة ثلاثة أشهر،

(١) الأهراء السلطانية هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان ، احتياطا لأمثال الطوارئ الاقتصادية الواردة بالمتن ، وكانت لا تفتح إلا عنـد الضرورة . وكان لخاص السلطان أيضا شون ، وهذه يوضع بها ما يسـتهلك طول السـنة من الغلال والأحطاب والأتبان وما أشـبه ذلك . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ — ١٢٣) . ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص٤٦٤ ، وما بعدها) وصف للأهراء السلطانية فى زمن الخلفاء الفاطميين ، ونصـه : "وكانت أهراء الغلال السلطانيـة فى دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل ، وما وراءها الى قرب حارة الوزيرية . قال ابن الطوير ، وأما الأهراء فإنها كانت فى عدة (ص ٤٦٥) أماكن بالقاهرة ، هى اليوم إصطبلات ومناخات . وكانت تحتـوى على ثلاثمائة ألف أردب من الغلات وأكثر من ذلك ، وكان فيها مخازن يسمى أحدهما بغدادى ، وآخر القول ، وآخر القرافة . ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العـدول ، والمراكب واصلة اليها بأصناف الغـلات الى ساحل مصر وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك اليهـا بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانيـة ، وأكثر ذلك من الوجه القبلى . ومنهـا إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصـدقات وأرباب الجوامع والمساجد ، وجرايات العبيد السودان بتعريفات . و[منها] ما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفـة ، وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو ، حتى لا تقارب زبل الدواب ، ويحمـل دقيقها للخاص وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية . ومن الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول وجرايات السودان ، ومنهـا ما يستدعى بدار الضـيافة لأخباز الرسـل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول ..." . وكان فى زمن القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص٣٣) وظيفة تسمى "نظر الأهراء بمصر بالصناعة ، وهى شونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصـل اليها من النواحى من الغـلال وغيرها ، وما يصرف منها على الإصطبلات الشريفـة والمناخات السلطانية ، وغير ذلك" .

وأعطى للتجار طائفة من الفقراء، وأعطى الأغنياء على اختلاف طبقاتهم كل أحد بقدر حاله. وأمر أن يُفرّق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا فى كل يوم مائة أردب، بعد ما يعمل خبزا بجامع ابن طولون. ثم قال [السلطان]: "هؤلاء المساكين قد جمعناهم اليوم وانقضى نصف النهار، فادفعوا لكل منهم نصف درهم يتقوت به خبزا، ومن غد يتقرر الحال"؛ ففرّق فيهم جملة كبيرة. وأخذ الصاحب بهاء الدين طائفة العميان، وأخذ الأتابك جماعة التركمان، فلم يبق أحد من الخواص ولا من الحواشى ولا من الحجاب، ولا من الولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب وأصحاب المال، حتى أخذ جماعة من المساكين. وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة: "خذ مائة فقير أطعمهم لله". فقال [الأمير]: "قد فعلتُ ذلك، وأخذتُهم دائما". فقال [السلطان]: "ذلك فعلتَه ابتداء من نفسك، وهذه المائة خذها لأجلى"، فأخذ مائة مسكين أخرى. وشرع الناس فى فتح المخازن وتفرقة الصدقات، فانحط السعر عشرين درهما الأردب، وقلّت الفقراء. واستمر الحال الى شهر رمضان، فدخل المغل الجديد وانحل (١٣٠ أ) السعر فى يوم واحد أربعين درهما الأردب.

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل، رُفعت إليه قصة ضُمّان دار الضرب فيها بوقف الدراهم[(١)]، وسألوا إبطال الدراهم الناصرية، وأن ضَمَانهم مبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم. فأمر [السلطان] أن يحط من ضمانهم مبلغ خمسين ألف درهم، وقال: "لا تؤذى الناس فى أموالهم".

وفى العشرين من ربيع الآخر كانت زلزلة عظيمة هدمت عدّة أماكن. وفى ثالث عشريه رُسم بمسامحة بنات الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزى بما وجب للديوان

(١) فى س "رفعت اليه قصه ضمان دار الضرب فيها بوقف الدراهم"، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 233) العبارة كلها الى "on lui apporta un placet addressé par les fermiers de l'hôtel de la monnaie ; ils représentaient que la fabrication du dirhem était arrêtée . . . ." هذا وقد كانت دار الضرب من منشآت الفاطميين، وقد بنيت سنة ٥١٦ بجهة القشاشين، وسميت بالدار الآمرية نسبة الى الخليفة الآمر بالله. ومازالت دار الضرب هذه باقية حتى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى، فنقلت الى الموضع الذى عرف فيما بعد باسم درب الشمسى. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ١١ ص ٤٠٦، ٤٤٥).

فى تركة أيبهن[1] — وكان قد مات بدمشق فى رابع عشر المحرم — وهو مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، خارجا عن ماله من الأملاك والغــلال والخيل . وكتب [السلطان] بذلك الى الشام، وقصــد بذلك أن يفهم أمراءه أن من مات فى خدمته وحَفِظ يمينه، ينظر فى أمر ورثتــه ويبقى عليهم ما يخلفه . ومات الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، فأعطى ابنــه إقطاعه وهو مائة طواش . ولمـا أسر الفرنج الأمير شجاع الدين والى سَرْمِين[2]، أبقى [السلطان] إقطاعه بيد إخوته وغلمانه، كل ذلك استجلابا للقلوب[3] .

(١) فى س "ابيهم" .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى بلدة من أعمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٣) .

(٣) يفهم من كل هــذا أن الإقطاع فى العرف المملوكى — وفى عرف الدول الإسلامية جميعا — كان أمرا شخصيا بحتا، لادخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب، ثم يؤول جميعه الى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الإقطاع لمدة الحياة ، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم ، وسواء فى ذلك ما يسمى باسم إقطاع التمليك وهو الإقطاع العادى، أو إقطاع الاســتغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣ ، ص ١٠٤ — ١١٧) . وقد بين (G. Demombynes: La Syrie, Introd. p. CXIV.) ذلك كله بوضوح فى العبارة الآتية : "La dotation foncière (iqtâ) ne donne ni la propriété, ni la possession, ni la jouissance du fonds; elle fait seulement participer le titulaire au revenus du sol, dont elle lui confère l'impôt; le mouqta' est substitué au souverain pour la perception de celui-ci" وهذه الصفة الشخصية فقط تجعل الإقطاع فى البلاد الإسلامية مشابها للإقطاع الأوربى فى أوائل القرون الوسطى، أى حتى القرن العاشر الميــلادى (القرن الرابع الهجرى تقريبا)، إذ كان الإقطاع هبــة من الملك لأتباعه ، وليس ثمت حدود مقررة تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشــيئة الملك (precariae verbo regis) . انظـر (Camb. Med. Hist. II. p. 646 et seq.) . غير أن الإقطاع الأوربى تطور فيما بعد القرن العاشر، فصار للقطع ملكية انتفاع أو ارتفاق واستغلال معينة (dominium utile)، وصار بينه وبين المـالك الأصلى أو الأول (dominium eminens) عقد شامل لالتزامات كل من الطرفين . ومع أن توريث الخلف الشرعى للقطع لم يكن من شروط العقد الإقطاعى فى أوربا، فإن العادة كانت أن يخلف الوارث سلفه بإذن المـالك الأصلى، بعد تأدية مبلغ معين من المـال (relevium) بمثابة رسم دخول الى الإقطاع . انظر (Camb. Med. Hist. III. p. 458 et seq.) وفى هذه الظاهرة الأخيرة وحدها أحد الأشياء التى تجعل الإقطاع زمن المماليك مختلفا فى صميمه عن الإقطاع الأوربى المعاصر له، مع ما بينهما من الشبه العام . ويتضح من هذا أن ما أراد به السلطان بيبرس " استجلاب القلوب "، كان محاولة غير مقصودة للتقريب بين النظام الإقطاعى فى الدولة المملوكية ونظيره =

وفيه ورد الخبر أن هيتوم ملك الأرمن[1] جمع وسار الى هرقلة، ونزل على قلعة صرفند[2] . فخرج البريد من قلعة الجبل الى حماة وحمص بالمسير الى حلب ، فخرجوا وأغاروا على عسكر الأرمن، وقتلوا منهم وأسروا . فانهزم الأرمن واستنجدوا بالتتار، فقدم منهم من كان فى بلاد الروم — وهم سبعمائة فارس — ، فلما وصلوا الى حارم رجعوا من كثرة الثلج، وقد هلك منهم كثير .

وورد الخبر بأن خليج الإسكندرية قد انسد وامتلأت فوهته بالطين ، وقل الماء فى ثغر الإسكندرية بهذا السبب . فسيّر السلطان الأمير عز الدين أمير جاندار لحفره، و بعث الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الأستادار لحفر بحر جزيرة بنى نصر عند قلة ريها .

وفى جمادى الأولى سافر الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم الى الشام برسم تجهيز مهمات القلاع، وعَرْض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور ، و إلزام الأمراء بتكميل العَدة والعُدة[3]، و إزاحة الأعذار[4] بسبب الجهاد. وكتب على يده عدة تذاكر بما يعتمده، وأن يحمل من دمشق خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها. ورحلت جماعة من (١٣٠ ب) عرب خفاجة كانوا قد وردوا بكتب من جماعتهم بالعراق ، يخبرون فيها بأنهم أغاروا على التتار حتى وصلت

= فى أوربا . على أن ذلك التطور فى الإقطاع الإسلامى لم يكن الأول من نوعه ، فقد كانت العادة زمن السلطان نور الدين محمود بن زنكى، حسبا ورد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢١٦)، أنه " إذا مات الجندى [من أجناده] أعطى [السلطان] إقطاعه لولده، فان كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر . فكان أجناده يقولون الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها ، و به اقتدى كثير من ملوك مصر ... ". راجع أيضا (المقريزى : نفس المرجع، ج ١ ، ص ٩٥ — ٩٨؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٠ — ٥١).

(١) المقصود بمملكته الأرمن هنا بلاد قليقية ، وهى أرمينية الصغرى ، وكان ملكها هيتوم (Hethum I, 1226-1270) قد انضم الى هولاكو، رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب ، وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس . (Camb. Med. Hist. IV. p. 175, & Enc. Isl. Art. Armenia)

(٢) بغير ضبط فى س . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٦٩٢، فى Rec. Hist. Or.I) .

(٣) كذا فى س، بضم العين فقط، وقد ضبط لفظ العدة الأوّل بفتح العين .

(٤) فى س " اراحة الاعدار" ؛ وقد صححت من ب (ص ١٥٧ أ) .

غاراتهم باب مدينة بغداد ، ويخبرون بأحوال مدينة شيراز ، فأجيبوا وأحسن إليهم . وفيــه توجه قصادٌ إلى الملك بركه ؛ وأسْلَم عالم كبير على يد السلطان من التتار الواصلين ومن الفرنج المستأمنين والأسرى ومن النوبة القادمين من عند ملكها ، ففرّق فيهم فى يوم واحد الأمير بدر الدين الخازندار مائة وثمانين فرسا .

وفى جمادى الآخرة قبض على جاسوسين من التتار . وتجـز البرج الذى بناه السـلطان فى قارة[1]، وشرع فى بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات من عادية الفرنج . واهتم ملك الأرمن بالمسـير الى بلاد الشام، وأعدّ ألف قباء تترى[2] وألف سراقوج[3]، ألبسها الأرمن ليوهم أنهـم نجدة من التتر . فلمـا ورد الخبر بذلك خرج البريد إلى دمشق بخروج عسكرها إلى حمص، وخروج عسكر حماة، وألا يخرج عربان الشام فى هذه السنة إلى البرية . فخرجت العساكر، ووالت الغارات من كل جهــة، فانهزم الأرمن . ونزل العسكر على أنطاكية فقتل وأسر وغنم، وأغار العسكر أيضا ببـلاد الساحل على الفرنج حتى وصـل إلى أبواب عكا . وشرع [السـلطان] البناء فى شقيف تيرون، وكان قد خرب من سنة ثمان وخمسين وستمائة، فلما تم بناؤه حَمل إليه زردخاناه وذخائر ، وبعث إلى عســكر الساحل مائتى ألف درهم فرّقت فيهم . وورد البريد بأن جمـاعة من شـيراز ، ومن أمراء العراق وأمراء خفاجة، وصـلوا وافدين إلى الأبواب السلطانيــة .

وفى أوّل رجب رفعت قصة بأن على باب المشهد الحسينى مسجدا[4]، إلى جانبــه موضع من حقوق القصر قد بيع بســتة آلاف درهم حملت إلى الديوانــ . فأمر [السلطان] ردّها

(١) فى س " قارا " بغير ضـبط ، وهى قرية جنوبى حمص ، على مسافة ســتة وثلاثين ميلا منها ، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢ — ١٣ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، ق Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) فى س "قاترى" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 235) .

(٣) فى س "سراكوج"، وهى قلنسوة تترية، وتجمع على سراقوجات . (Dozy: Supp. Dict Ar.) .

(٤) فى س "مسجد" .

وعَمَـلِ الجميع مسجدا، وأمر بعمارته . ووقف أحد الجنـد بيتيم معه ذكر أنه وصيه، فقال السلطان لقاضي القضاة : "إن الأجناد إذا مات أحدهم استولى خشداشيته على موجوده، ويُجعل اليتيم من الأوشاقية . فإذا مات اليتيم أخذ الوصي موجوده، أو يكبر(١) اليتيم فلا يجـد شيئا ولا تقوم له حجة على موجوده، أو يموت الوصي فيـذهب مال اليتيم فى ماله . والرأى أن أحدا من الأوصياء لا ينفرد بوصية، وليكن نظر الشرع (١٣١ ا) شاملا، وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف" . وطلب [السلطان] نواب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك، فاستمر الحال عليه .

وفى ثالثـه قدم الوافدون مـن شيراز، ومقدمهم الأمير سيف الدين بكلك(٢)، ومعهم سيف الدين اقتبار الخوارزمى جمـدار جلال الدين خوارزم شاه، وغلمـان أتابك سعد وهم شمس الدين سـنقرجاه ورفقته . ووصـل صحبتهم مظهر الدين وشاح بن شهرى، والأمير حسام الدين حسين بن ملاح أمير العراق، وكثير من أمراء خفاجة . فتلقاهم السلطان بنفسه، وأعطى سيف الدين بكلك إمرة طبلخاناه، وأحسن الى سائرهم .

وفى شعبان أمر السلطان الأمراء والأجناد والمماليك بعمل العدد الكاملة، فوقع الاهتمام من كل أحد بعمل ذلك، وكثر الازدحام بسوق السلاح، وارتفع سعر الحديد وأُجرا الحدادين وصناع آلات السلاح . ولم يبق لأحد شـغل إلا ذلك، حتى صار العسكر لا ينفق متحصله فى شي سوى السـلاح، ولا يشـتغل أحد منهم إلا بنوع من أنواع الحرب كالرمح ونحوه، وتفننوا فى أنواع الفروسية . وورد كتاب أمير المدينة النبوية أنه سار مع كسوة الكعبة حتى علّقها على البيت .

وفى شهر رمضان تجهزت كسوة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وتعيّن سفرها مع الطواشى جمـال الدين محسن الصالحى . ووقع الشروع فى تجهيز الشمع والبخور وَالزَّيْت(٣) وَالطِّيب .

---

(١) فى س "يكبر" .

(٢) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 238) هذا الاسم إلى (Beklemek) .

(٣) هذا اللفظان مضبوطان هكذا فى س .

وخرج البريد إلى الأمير ناصر الدين القيمرى بالغـارة على قَيْسَارِيَّة[1] وعَثْلِيث[2]، فساق إلى باب عثليث ونهب وقتل وأسر، ثم ساق إلى قيسارية ففعل مثل ذلك بالفرنج . وكان الفرنج قد قصدوا يافا، فخافوا ورجعوا عنها . وفيه جرى السلطان على عادته فى إجراء الصدقات بمطابخ القاهرة ومصر برسم الفقراء، فكان يصرف فى كل ليلة من ليالى رمضان جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ؛ وجرى أيضا على عادته فى عتق ثلاثين نسـمة على عادة الملوك المـاضين[3]، سوى من أعتقه من ممـاليكه . وورد الخبر بأن الفرنج أخذوا أخيذة كبيرة للمسلمين، فكتب إلى نوّاب الشام بالاجتهاد فى ردّها؛ فورد كتاب الأمير ناصر الدين القيمرى بأن الفرنج ردّوها، وكانت تشتمل على عالم كبير من الناس وجملة من المواشى . فسمع فى ساعة ردها من اختلاف الأصوات بدعاء (١٣١ ب) الرجال والنساء وبكاء الأطفال، ماتكاد ترق له الحجارة . وقـدم البريد من البيرة بأن صارم الدين بكاش الزاهدى أغار على باب قلعـة الروم مرارا . وورد كتاب الملك شارل[4] أخى الفرنسيس ملك الفرنج، ومعه هدية وكتاب أستاداره : " بأن مخـدومه أَمَرَه أن يكون أَمْرُ الملك الظاهر نافـذا فى بلاده ، وأن أكون نائبَ الملك الظاهر كما أنا نائبه " .

---

(١) بغير ضبط فى س، وقيسارية المقصودة هنا بلد على ساحل فلسطين قبالة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية ، وكان يعرف بالحصن الأحمر ، واسمه فى الحوليات الصليبية (Castellum Peregrinorum) أى حصن الحجاج ، وقد زادت هيئـة الفرسان الداوية فى تحصينه فى أواخر أيام الحروب الصليبية ، وجعلتـه المركز الرئيسى لقواتها بالشام ، (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 403 ; Stevenson : Crusaders In The East .P. 303) . انظـر أيضا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣، ص ٦١٦) .

(٣) يفهم من هذه العبارة أن عتق هذا العدد كان عادة سنوية منتظمة فى الدولة المملوكية .

(٤) فى س " شارك " . والملك شارل المقصود هنـا هو (Charles d' Anjou) ملك صقلية ، وقد تقدمت الاشارة اليه والى أخيه لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا المتوفى فى تونس . (انظر ص ٥٠٢، حاشية ١) . أما الكتاب المشار اليه فكان الغرض منه عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية . (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 266)

وفى يوم الجمعة خامس عشريه قرئ مكتوب فى جامع مصر بإبطال ما قرّر على ولاية مصر من الرسوم، وهى مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم نقرة. وورد الخبر بأن الأشكرى[1] عوّق الرسل إلى الملك بركه بالهدية عن المسير إليه، حتى هلك أكثر ما معهم [من الحيوان][2]. فأحضر السلطان البطاركة والأساقفة، وسألهم عمن خالف الأيمان وما كتب به الأشكرى، فأجابوا بأنه يستحق أن يحرم من دينه. فأخذ [السلطان] خطوطهم بذلك، وأخرج لهم حينئذ نسخ أيمان الأشكرى، وقال: "إنه قد نكث بإمساك رسلى، ومال إلى جهة هولاكو". ثم جهز إليه الراهب الفيلسوف اليونانى[3]، ومعه قسيس وأسقف، بحرمانه من دينه؛ وكتب له كتابا أغلظ فيه. وكتب [السلطان] أيضا إلى الملك بركه [كتابا]، وسيّره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودى المتوجه بالهدية إلى الملك بركه. فلما وصلوا إلى الأشكرى أطلقهم[4] لوقته، فساروا إلى الملك بركه[5].

(١) سمى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٢) هذا الأشكرى باسم "الباسلوس كر ميخائيل"، وهو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus, 1259-1282)، والباسلوس معرب اللفظ اللاتينى (Basileus) ومعناه الإمبراطور، وقد تلقب به أباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الميلادى. راجع (Camb. Med .Hist.IV. pp . 726 et seq., 905).

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٣)، وقد تقدم ذكر ما احتوته تلك الهدية من أنواع الحيوان. (انظر ص ٤٩٧، حاشية ٣). هذا ويوجد فى نفس المرجع (ص ١١٣ — ١١٤) تفصيلات كثيرة فيما حدث لرسل السلطان فى هذا السفر، ومنها أن سبب تعويقهم أنه كان عند الإمبراطور وقت وصولهم رسول "من جهة هولاوون، فاعتذر اليهم [الإمبراطور] عن تأخير مسيرهم، لخوفه لئلا يطلع هلاوون على ذلك...".

(٣) ليس فى المراجع المتداولة فى الحواشى، ما يساعد على التعريف بالراهب المذكور، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. l.p. 240) العبارة الى " .. un moine philosophe grec . ".

(٤) الضمير عائد على الرسل الذين كانوا قد عوقوا قبلا.

(٥) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٦، وما بعدها) وصف لوصول السفارة المملوكية الى حضرة بركه خان، وقد ضمه كثيرا من عادات التتر وتقاليدهم، وصورة دقيقة لشخص بركه خان، ونصه مصححا من الحواشى المتعلقة به: "فلما قاربوا [معسكر بركه خان] التقاهم الوزير شرف الدين القزوينى، وهو يتحدث بالعربية والتركية، فأنزلهم فى منزلة حسنة وحمل اليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك. وأصبح الملك بركه نزل (كذا) فى منزلة قريبة، واستحضر الرسل. وكانوا قد عرفوهم ما يفعلونه عند دخولهم: وهو الدخول من جهة اليسار، وإذا =

وقدم البريد من البــلاد الشامية بأن عدّة من التتار ومن الأتراك والبغاددة قــد قصدوا البلاد مستأمنين، فأمر [السلطان] بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك، وقال : " أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهــة ما يستراب منه، والرأى أن نخرج إليهم، فإن كانوا طائعين عاملناهم بمـا ينبغى، وإلا فنكون على أهبــة . ومن احتاج من العسكر إلى شيء أعطيته، وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد، وجميع ما عنــدى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله" .

= أخذ (كذا) الكتب منهم ينتقلون الى جهة اليمين، ويكون الجلوس على الركبتين، وأن لا يدخل أحد الى خركاته بسيف ولا سكين ولا (ص ١١٧) عدة، ولا يدوس برجله عتبة الخركاه، وإذا قلع أحد عدّته يقلعها على الجانب الأيسر، وينزع قوسه من القربان ويفك وتره، ولا يدع فى تركاشه نشابا، ولا يأكل ثلجا، ولا يغسل ثوبه فى الأردو، وإن اتفق غسله ينشره خفية . ثم إنهم وجدوا الملك بركه فى خركاه كبيرة تسع خمسمائة فارس، وهى مكسوة لباد أبيض، ومن داخلها مسترة بصنداب وخطائى، مكللة بجواهر ولؤلؤ . وهو جالس على تخت مرخى الرجلين على كرسى، وعلى الكرسى مخدة، فإنه (فى الأصل فان) كان به وجع النقرش (كذا)؛ وإلى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طغطغاى خاتون، وله امرأتان غيرها وهما ججك خاتون وكهارخاتون ... (ص١١٨) وكان عمر الملك بركه الى ذلك التاريخ ستا وخمسين سنة، وصفته خفيف اللحية كبير الوجه فى لونه صفرة، يلف شعره عنــد أذنيه، فى أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة مثمنة، عليه قبــاء خطائى، وعلى رأسه سراقوج، وحياصة ذهب مجوهرة بسولو بلغارى أخضر، وفى رجليه خف كيمخت أحمر. ويلبس فى (ص ١١٩) وسطه سيفا، وفى حياصته قرون سود معوجة مقممة بذهب، وعنده خمسون أميرا على كراسى فى خركاته . فلما دخلوا عليه وأدوا الرسالة، أعجبه ذلك عجبا عظيما، وأخذ الكتاب وأمر الوزير بقراءته . ثم نقلهم عن يمينه، وأسندهم مع جنب الخركاه خلف الأمراء بين يديه، وأحضر لهم القمز وبعده العسل المطبوخ، ثم أحضر لهم لحما وسمكا فأكلوا . ثم أمر بإنزالهم عند زوجته ججك خاتون، ولمـا أصبحوا ضيفتهم الخاتون فى خركاتها، ثم انصرفوا آخر النهار الى منــازلهم . وصار السلطان بركه يطلبهم فى سائر أوقاته، ويسألهم عن الفيل والزرافة، وسأل عن النيل وعن مطر مصر، وقال سمعت أن عظما لابن آدم ممتد على النيل، يعبروا (كذا) (ص ١٢٠) الناس عليه، فقالوا هذا ما رأيناه ولا هو عندنا . وأقاموا عنده ستة وعشرين يوما، وأعطاهم شيئا من الذهب الذى يتعاملون به فى بلاد الأشكرى . ثم خلعت علــيهــم زوجته المذكورة، وأعطاهم جوابهم . وسيرهم ومعهم الرسل، وهم أربوقا وأزتيمور وتيمورتاش . وكان عنــد الملك بركه رجل فقير من أهــل الفيوم، اسمه الشيخ أحمد المصرى، له عندنا حرمة كبيرة . وكل أمير عنده له مؤذن وإمام، ولكل خاتون مؤذن وإمام، والصغار الذين عندهم لهم مكاتب ويتلون القرآن . وأقاموا (كذا) الرســل مدة غيبتهم الى سنة خمس وستين وستمائة" . انظر الترجمة الفرنسية لهذا النص فى نفس المرجع والصفحات، لتفسير ما به من الألفاظ الغريبة أو الغامضة .

فأشار الأمراء حينئذ بسلطنة ولده، ليكون مقيما بديار مصر فى غيبته . فلما كان يوم الخميس ثالث عشر شوّال، أركب السلطان ابنه الملك السعيد بشعار السلطنة، وخرج بنفسه فى ركابه وحمل الغاشية راجلا بين يديه، فأخذها منه الأمراء، ورجع إلى مقر ملكه . ولم تزل الأمراء والعساكر فى خدمته إلى باب النصر، ودخلوا به من (١٣٢ أ) القاهرة رجالة يحملون الغاشية ، وقد زينت [المدينة] أحسن زينة ، واهتم الأمراء بنصب القباب . فسار [الملك السعيد]، والأمير عز الدين أيدمر الحلى راكب إلى جانبه وقد تقرر أن يكون أتابكه ، والثياب الأطلس والعتابى تفرش تحت فرسه، حتى عاد إلى قلعة الجبل . ولم يبق أمير حتى فرش من جهته الثياب الحرير، فاجتمع من ذلك أحمال تفرقها المماليك السلطانية . وكتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر تقليد الملك السعيد، بتفويض عهد السلطنة له .

وفى يوم الاثنين سابع عشره اجتمع الأمراء والقضاة والفقهاء ، وقرئ التقليد المذكور، وشرع فى ختان الملك السعيد، فأمر [السلطان] الناس بالتأهب للعرض عليه بالأسلحة وآلات الحرب . وقدمت[1] طائفة من جهة التتار المستأمنة ، فكتب [السلطان] إلى أمراء خفاجة بخدمتهم . وظهر كوكب الذؤابة[2] بالشرق وذؤابته نحو الغرب ، وصار يطلع قبيل الفجر، ويتقدّم قليلا قليلا حتى صار يطلع مرتفعا ، وأضاء ذنبه كثيرا . ولم يتغير عن منزلة الهَقْعة[3]، وبعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل . واستمر من آخر رمضان إلى أوّل ذى القعدة، وكان يظهر له قبل بروزه شعاع عظيم فى الجو . وظهر أيضا فى الغرب مما يلى الشمال ، بعد عشاء الآخرة فى ليال[4] عديدة من أخريات رمضان وأوائل شوّال، خطوط مضيئة شبه الأصابع مرتفعة فى جو السماء . واحمرّت الشمس فى رابع شوّال قبيل الغروب، وذهب ضوءها حتى

(١) فى س "قدم" .

(٢) ترجم (Qnatremère : Op. Cit I. 1. p. 241) هـذا اللفظ الى (comète) أى النجم المذنب، بغير تعليق .

(٣) ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Ibid. Op. Cit. I. 1. p. 241) .

(٤) فى س "ليالى" .

صارت كأنها منكسفة إلى أن غربت؛ فلما كان بعـد عشاء الآخرة أصاب القمر مثل[1] ذلك . وأحضر من المقس ظـاهر القاهرة طفـل ميت ، له رأسان وأربع[2] أعين وأربع أرجل وأربع أيدى ، وُجِد بساحل المقس . وفيه قتل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل صاحب الكرك . وورد الخبر بوصول الرسل الى الملك بركه[3]، وإكرامه إياهم وتجهيزه لهم .

وفى أوّل ذى القعدة جلس السلطان لعرض العساكر عنـد طلوع الشمس، وقد ملأوا الدنيا : فساق كل أمير فى طُلْبه وهو لابس لامة حربه، وجرّوا الجنائب وعليها عُدد الحرب؛ وأمر السلطان ألا يلبس أحد فى هـذا اليوم إلا شعار الحرب . فما زال السلطان جالسا على الصُّفّة التى بجانب دار العـدل، والعساكر تسوق وهى لابسة، وديوان الجيش (١٣٢ ب) بين يديه ، والعساكر تعبر خمسة خمسة، ثم عبرت عشرة عشرة . وكاد الناس يهلكون من الزحام وحُمُوّ الحديد، فعبروا بغـير حساب . وهلك عدة من النـاس فى الزحام ، منهم أيبك مملوك الأمير عز الدين أيدمر الحـلى ، فدفن ثم نبش ودفن فى قبر آخر . فقال فى ذلك القـاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : —

ما نقـلوا أيبـك من قبره   لحـادث كلّا ولا عن ثبور
لكنه فى يوم عرض قضى   والعرض لا بد له من نشور

وأراد السلطان ركوب العسكر فى يوم واحد حتى لا يقال إن أحدا استعار شيئا ، فكان من يعرض يدخل من باب القـرافة، ويخرج من جهة الجبـل الى باب النصر إلى الدهلـيز المضروب هناك . فلمـا قرب غروب الشمس ركب السلطان بقباء أبيض لا غير ، وساق فى وسط العساكر اللابسة — ومعه يسيرٌ من سلاح داريته وخواصه — إلى الدهليز ، فنزل به ورتب المنازل، ثم عاد إلى القلعـة وقت المغرب . ثم إن الناس اهتموا باللعب ، ولَبِسوا

(١) أفزعت تلك الظواهر السماوية جميع من شاهدوها ، وقالوا إنها من علامات قرب اجتياح التتر لبلاد المسلمين مرة أخرى . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٧ أ) .

(٢) فى س "اربعه" ، فى العبارة كلها .   (٣) انظر ص ٥١٤ ، حاشية ٥ .

خيولهم التشاهير(١) والبراسم البحرية(٢)، والمراوات(٣) والأهلة الذهب والفضة، والأطلس الخطائى(٤). ونزل السلطان، وجنائبه تجر، فكان منظرا يبهر العيون حسنه. وكان الذى دخل فى المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى. وساق السلطان إلى ميدان العيد وقدامه(٥) جنائبه، وشرط لكل أمير يصيب القبق(٦) فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير، وخلعة لكل مفردى أو مملوك أو جندى. وساق هو والأمراء، ثم المفاردة والبحرية والظاهرية والحلقة والأجناد، ودخل الناس بالرماح بكرة النهار. ونزل السلطان وقت الصلاة للصلاة وإطعام الطعام، ثم ركب الناس ولبسوا، وركب السلطان لرمى النشاب وأعطى وخلع.

(١) التشاهير هى الأشرطة التى توضع حول صدر الحصان، وقد شرحها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "les bandes plus ou moins large, qui serrent la poitrine du cheval."

(٢) كذا فى س، وقد قرأها (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 243) " البراسم الحربية "، وترجمها الى (de caparaçons de guerre) أى السروج الحربية.

(٣) المراوات قطع من المعدن أوغيره، يزان بها سرج الحصان، وقد فسرها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "des plaques de métal ou autres,qui décoraient le harnais du cheval" ويظهر مما يلى (سطر ٣) أن المراوات كانت تخاط بقماش السرج.

(٤) الأطلس الخطائى نوع من الحرير، وأصل صناعته فى بلاد الخطا أى شمالى الصين، وكان فى زمن ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٨١٢) من مصنوعات تبريز أيضا. راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٥) انظر الحاشية التالية.

(٦) القبق — أو القباق — لفظ تركى معناه نبات القرعة العسلية (une courgette)، وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيضا. وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب، يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف، ويكون فى القرعة طير حمام. ثم يأتى اللاعبون للباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة. (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 243. N. 118; Dozy: Supp. Dict. Ar.). وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١١١) لعب القبق وصفا يختلف قليلا عن الوصف المتقدم، ونصه: " والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا، تنصب فى براح من الأرض، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة، لكى تمر من داخلها الى غرض هناك، تمرينا لهم على إحكام الرمى، ويعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك". وكان لرمى القبق ميدان خاص خارج القاهرة، وكان موضعه حسبما جاء بالمقريزى =

وفى هــذا اليــوم حضر رسل الملك بركه ، فشاهــدوا من كثرة العساكر وحسن زيهــم واهتمام الســلطان و بهجة الخيول وجلالة الفرسان ما بهر عقولهم ، ووقفوا بجانب الســلطان يشاهدون حركات العساكر و إصابة رميها . واستمر ذلك أياما .

وفى تاسعه خلع السـلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والحلقــة ، وأرباب العمائم والوزراء والقضاة وذوى البيــوت ، وحضروا بالخلع ، واستمر اللعب بقيــة النهــار . فسألت الرسل عن العساكر ، هل هى عساكر مصر والشام ، فقيل لهم : " هذا عسكر مصر فقط ، غير من فى الثغور مثــل إسكندرية ودمياط ورشيد وقوص ، (١٣٣ ا) والمجردين والذين سافروا فى إقطاعاتهم" . فكثر تعجّبهم من ذلك .

وفى عاشره عُمل السماط بقلعــة الجبل ، وحضر الملك السعيد وفى خدمته أولاد الملوك وأولاد الأمراء . فختن الملك الســعيد ، ثم ختن ابن الأمير عز الدين الحلى الأتابك ، وابن

=(المواعظ والاعتبار، ج٢ ، ص١١١ ، ومابعدها) " فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبــة النصر التى تحت الجبل الأحمر، ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق ، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . [وقد] بنى به مصطبة فى المحرم من سنة ست وستين وستمائة ، عنــدما احتفل برمى النشاب وأمور الحرب وحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب ونحو ذلك ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة فلا يركب منها الى العشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرّض الناس على الرمى والنضال والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهــذا شغله ، وتوفر الناس على الرمح ورمى النشاب . وما برح من بعده من أولاده ، والملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليــل بن قلاون ، يركبون فى الموكب لهــذا الميدان ، وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدّامهم ، وتنزل العساكر فيه لرمى القبق ... ... (ص١١٣)... وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان ، وللملوك فيه من الأعمال ما تقدّم ذكره ، الى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون . فترك النزول اليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش ، وصار ينزل هناك . ثم ترك [الناصر] تلك المصطبة فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعاد الى ميدان القبق هذا وركب اليه على عادة من تقدمه من الملوك ، الى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شىء حتى انسدّت طريقه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق به ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ... . وأنا أدركت هناك عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء ، تعرف بين الناس بعواميد الســباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة ، وما برحت قائمة هناك الى ما بعد سنة ثمــانين وسبعمائة ... " . راجع أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٤ أ) .

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الرومى، وابن الأمير سيف الدين سكز [١]، وابن حسام الدين ابن بركه خان، وابن الملك المجاهد ابن صاحب الموصل، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الثلاثة، وابن فخر الدين الحمصى، وعدّة من أولاد الأمراء . و[كان] ذلك بعدما عمل لعدّة من الأيتام وأبناء الفقراء بمصر والقاهرة كسوة، فأحضروا فى هذا اليوم وختنوا . ومنع السلطان الأمراء والخواص من التقدمة التى جرت العادة بها للملوك فى مثل هذا المهم ، فلم يقدّم أحد من الخاصة شيئا البتة .

ولما انقضى هذا المهم خرج السلطان الى الطَّرّانة [٢]، وسار إلى وادى هُبَيْب [٣] ونزل الأديرة [التى هناك] ، ومضى الى تروجة وسار منها إلى الحمامات ، وسلك إلى العقبة وضرب الحلقة برسم الصيد، وأدركه عيد النحر هناك . وجرد جماعة لأخذ عربان بلغه كثرة فسادهم، وأحضر هوارة وعرب سليم ، وألزمهم بإشهاد كتب عليهم بعمارة البلاد ، وألا يؤوا أحدا من أهل الفساد . ثم عاد الى ثغر الإسكندرية، وعمّ المفاردة والأمراء والخواص بتفرقة المال والقماش، ولعب الكرة بالميدان، وزار الشاطبى . ثم سار الى القاهرة، فنزل تروجة، ورسم بتقديم سيف الدين عطا الله بن عزاز على عرب برقة ، وألزمه بجباية زكاة المواشى وأخذ عُشر الزروع والثمار بفريضة الله ، فالتزم بذلك . وأنعم عليه بسنجق ونقارات ، وتوجه لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة .

ووصل السلطان إلى قلعة الجبل، فقدم شِحْنة [٤] تكريت بجماعة . وجهز [السلطان] الأمير أمين الدين موسى بن التركمانى، ومعه عدة من الرماة والمقاتلة، وخزانة مال وعدة خلع، وكثير

---

(١) كذا فى س .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشيد، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٣٤ ، وما بعدها) . انظر أيضا : P. Omar Toussoun). La Geographie de L'Egypte A L'Epoque Arabe I. 2. Planche 1).

(٣) بغير ضبط فى س، وهو وادى النطرون . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ، ص ٤٨ ، وما بعدها) .

(٤) الشحنة اسم وظيفة، وقد تقدّمت الإشارة اليها . (انظر ص ٤٠ ، حاشية ٥) .

من أمراء عربان الكرك وبحريتها ، ومبلغ من الغلال والذخائر . فساروا الى خيبر[1] واستولوا على قلعتهـا .

وكثر فى هذه السـنة قتل الناس فى الخليج ، وفُقِـد جماعة ، والتبس الأمر (١٣٣ ب) فى ذلك . ثم ظهر بعـد شهر أن امرأة جميلة يقال لهـا غازية كانت تخرج بزينتها ومعها عجوز ، فإذا تعـرض لهـا أحد قالت له العجوز : "لا يمكنها المصير الى أحد ، ولكن من أرادها فليأت منزلنا" ؛ فإذا وافى الرجل إليهـا خرج إليـه رجال فقتلوه وأخذوا ما معـه . و[كانت المرأة] فى كل قليل تنتقل من منزل إلى منزل ، حتى سكنت خارج باب الشعرية على الخليج . فأتت العجوز إلى ماشـطة مشهورة بالقاهرة واسـتدعتها إلى فرح ، فسارت [المـاشطة] معها بالحـلى على العادة ومعها جاريتها ، ودخلت المـاشطة وانصرفت جاريتها ، فقتل الجماعة المـاشطة وأخذوا ما كان معها . وجاءت جاريتها الى الدار تطلب مولاتها فأنكروها ، فمضت إلى الوالى وعرّفتـه الخبر ، فركب الى الدار وهجمها فإذا بالصبية والعجوز ، فقبض عليهما وعرضهما على العـذاب ، فأقرتا فحبسهما . واتفق أن رجلا جاءهما لتفقد أحوالهما ، فقُبض عليه وعوقب فدلّ على رفيقه ، فإذا هو صاحب أقمنة طوب فعوقب [أيضا] . فوجد أنهم كانوا إذا قتلوا أحدا ألقوه فى القمين حتى تحترق عظامه ، وأظهروا من الدار حفائر قد ملئت بالقتلى ، فسُمِّروا جميعا . ثم أطلقت المرأة بعـد يومين ، فأقامت قليلا وماتت . [ثم عملت الدار التى كانوا بها مسجدا ، وهو المعروف بمسجد الخنّاقة[2]] .

وفى هذه السـنة وقف السلطان عدّة قرى بأعمال الشام والقدس ، لصرف ريعها فى ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة ، ومبلغ فلوس . وأنشأ خانا وفرنا وطاحونا بالقدس ، وجعل النظر فى ذلك للأمير جمال الدين محمد بن نهار .

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعـة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السـديد ص ١٢٦) ، والقصة كلها واردة بذلك المرجع (ص ١٢٤ ـــ ١٢٦) ، وهى هناك أكثر تفصيلا .

وفيها قبض الأشكرى صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباد صاحب بلاد الروم : وسبب [وجود عز الدين عند الأشكرى هو][1] اختلافه مع أخيه [ركن الدين قلج أرسلان] ، حتى غلبه أخوه ففرّ منه ، وملك أخوه ركن الدين قلج أرسلان بلاد الروم . فمضى عز الدين إلى الأشكرى، فآواه وأنزله ومن معه من الأمراء، وقام بأمرهم مدّة، حتى بلغه أنهم قصدوا قتله وأخذ المملكة منه، فقبض عليهم واعتقل عز الدين، وكحل أصحابه كلهم فأعماهم .

[وفيها[2]] ولى محيي الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن الأستاذ الأسدى الشافعى قضاء حلب، عوضا عن ابن عمه كمال الدين أبى بكر أحمد[3] [المتوفى[4]].

ومات[5] فى هذه السنة من الأعيان الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى صاحب الكرك، مقتولا بقلعة الجبل، عن ثلاثين سنة . ومات الملك الأشرف موسى بن المنصور بن إبراهيم بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور ابن شيركوه بن شادى صاحب حمص، عن خمس وثلاثين سنة بها، وهو آخر من ملك حمص من أولاد شيركوه . ومات الأمير حسام الدين لاجين العزيزى الجوكندار بدمشق ، عن نحو خمسين سنة . وتوفى قاضى قضاة دمشق عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم بن جمال الدين

---

(١) فى س "وسببه"، وقد تقدمت الإشارة إلى ما حدث لعز الدين المذكور على يد الأشكرى (Theodore II Lascaris) إمبراطور الدولة البيزنطية . انظر ص ٤٠٨ ، حاشية ١ ، وهى التى منها أضيف ما بين الأقواس للتوضيح .

(٢ و ٣) العبارة الواردة هنا بين الرقين موجودة بهامش صفحة ١٣٢ ب فى س .

(٤) انظر الصفحة التالية، سطر ٣ .

(٥) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ أ فى س، (انظر ص ٤٨٦، حاشية ٢)، ولا شك فى مناسبة وضعها هنا تحت سنة ٦٦٢ هـ، فقد سبق ورود خبر وفاة كل من الملك المغيث عمر، والملك الأشرف موسى ، بين أخبار تلك السنة . (انظر ص ٥٠٥ ، سطر ١٣؛ ص ٥١٧، سطر ٣؛ وكذلك أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٠ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٣) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود فى ب (١٥٩ ب) ما عدا واحدة، وهى وفاة قاضى قضاة دمشق عماد الدين الحرستانى . (انظر سطر ١٤) .

أبى القاسم عبـد الصمد بن محمـد بن الفضل بن الحرستانى الدمشقى الشافعى ، وهو معزول و بيده خطابة الجامع وتدريس الحديث بالأشرفية ، عن خمس وخمسين سنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة بحلب كمال الدين أبو بكر أحمد بن زين الدين أبى محمـد عبد الله بن عبد الرحمن ابن علوان الأسدى الشافعى ، المعروف بابن الأستاذ ، عن إحدى وخمسين سنة. وتوفى شيخ الشيوخ بحماة شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى ، عن ست وسبعين سـنة ، فى ثامن رمضان ، ومولده فى جمادى الأولى سنة ست وثمـانين وخمسمائة . وتوفى الرجل الصالح أبو القاسم بن منصور بن يحيى القبارى بالإسكندرية ، عن خمس وسبعين سنة .

* * *

سنة ثلاث وستين وستمائة . فى المحرم توجه الملك الظاهر من قلعة الجبل الى الصيد فأقام بوسيم ، ثم سار إلى العباسة ورمى البندق ، وادّعى له[1] جماعة منهم الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث صاحب الكرك . فورد الخبر بنزول التتر على البيرة ، فجهز [السلطان] من فوره الأمير بدر الدين الخازندار على البريد ، ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشام . وركب السلطان من موضعه وساق إلى القلعـة ، وكانت الخيول على الربيع ، فلم يقم بقلعة الجبل بعد عوده من الصيد غير ليلة . وعين الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت[2] لتقدمة العساكر ، ومعـه من الأمراء الأمير فخر الدين الحمصى ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ، وعدّة من الأمراء والحلقة تبلغ أربعة آلاف فارس(١٣٤ ا) ؛

(١) المعنى المقصود هنا بفعـل " ادعى له " — وضمير الهاء عائد على السلطان بيبرس — أن الأمير فخر الدين عثمان المذكور انتسب اليـه واعتبره أستاذه فى الصيد . ذلك أن العادة فى دوائر الصيد كانت فى تلك الأزمنـة أن المبتدئ لا يصير فى زمرة هواة هذا الفن إلا بعـد الانتساب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم له ذلك قيل إنه ادعى لفلان ، أى انتسب اليـه . وكانت وسيلة "الادعاء" هذه أن ينجح المبتدئ فى إصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختـار الانتساب الى من يشاء من رجال الصـيد المعروفين ، سلطانا كان أو أميرا أو فقيها أو عاميـا . انظر (Quatremère : Op. Cit. II. 1. P. 75. N. 83).

(٢) فى س " سم الموب " ، وقد صحح الاسم كله من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣١) .

فخرجوا من القاهرة جرائد فى رابع شهر ربيع الأول . ثم عين الأمير جمال الدين المحمدى ، والأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى ، ومعهما أربعة آلاف أخرى ؛ فبرزوا ثانى يوم خروج الأمير عز الدين إيغان الى ظاهر القاهرة ، وساروا فى عاشره .

[وفى يوم السبت رابع ربيع الآخر] شرع(١) السلطان فى السفر ، وخرج بنفسه فى خامس شهر ربيع الآخر ومعه عساكر كثيرة . فوقع فناء فى الدواب هلك منها عدد كثير ، وصارت الأموال(٢) مطروحة ، والسلطان لا يقصر فى المسير . فلما شكى اليه قلة الظهر قال : "ما أنا فى قيد الجمال ، أنا فى قيد نصرة الإسلام" . ونزل [السلطان] غزة فى العشرين منه ، فورد الخبر بأن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقا ، فكتم ذلك ولم يعلم به سوى الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير سيف الدين قلاون فقط . وكتب [السلطان] للأمير إيغان : "متى لم تدركوا قلعة البيرة؟ وإلا سقت إليها بنفسى جريدة" ، فساق [الأمير إيغان] العسكر . ورحل السلطان من غزة ، ونزل قريبا من صيداء ، فركب للصيد فتقطر عن فرسه وانهشم وجهه ، فتجلد ورحل . وأتاه قسطلان(٣) يافا بتقادم .

ونزل السلطان يبنى(٤) فى سادس عشريه ، فورد البريد من دمشق وهو فى الحمام بالدهليز ، فلم يمهل وقرئ عليه الكتاب وهو عريان : فإذا هو يتضمن بأن بطاقة الملك المنصور صاحب حماة سقطت بأنه وصل إلى البيرة بالعساكر ، صحبة الأمير عز الدين إيغان وجماعة الأمراء — يوم الاثنين — ، وأن التتار عند ما شاهدوهم هربوا ، ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم ؛ وكان من حين كتابتها بالبيرة إلى حين وصولها يبنى أربعة أيام . ثم توالت كتب الأمراء بالبشارة ، فكتب بذلك إلى القاهرة وغيرها . واستشهد على البيرة الأمير صارم الدين

(١) فى س "فشرع" ، وقد أضيفت العبارة الافتتاحية لهذه الجملة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٢) . (٢) المقصود هنا الأموال التى ستحملها الدواب مع جيش السلطان .

(٣) معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ، ومعناه مستحفظ القلعة ، (انظر ص ٣٥ ، حاشية ٥ ؛ ص ٤٠ ، حاشية ٦) ، ويقابله فى الفرنسية (Châtelain) ، راجع (Dozy. Supp. Dict. Ar.) . هذا ولعل المقصود بقسطلان يافا فى تلك السنة هو صاحبها ومتملكها (John II d'Ibelin) ، وقد تقدمت الإشارة إليه فى ص ٤٦٤ ، سطر ٤ . (٤) فى س "يبنا" .

بكتاش الزاهدى، وترك موجودا كبيرا وبنتا واحدة؛ فرسم [السلطان] أن يكون جميع الإرث لها لا يشاركها فيه أحد . وكتب [السلطان] بعمارة ماخرب من البيرة، وحمل آلات القتال والأسلحة اليها من مصر والشام، وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج اليـــه أهلها فى الحصار لمدّة عشر ســنين . وكتب للأمراء ولصاحب حماة بالإقامة على البيرة، حتى ينظف الخندق من الحجارة التى ردمها العدوّ فيه؛ فكانت الأمراء تنقل الحجارة على أكتافها مدّة . وبعثوا بخبر ذلك إلى السلطان، وهو واقف على سور قيسارية ليهدمه بنفســه، وفى يده القَطَّاعة(1) وقد تجرّحت يده . فكتب جوابهم : "إنا بحمد الله ما تخصّصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى ســعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل (١٣٤ ب) والنهار، وناقل الأحجار ومُرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور، وما ثمّ ما تضيق به الصدور". وكتب [السلطان] إلى القاهرة باســتدعاء مائتى ألف درهم ومائتى تشريف، وإلى دمشق بتجهــيز مائة ألف درهم ومائة تشريف، وحمل جميع ذلك إلى البيرة . وكتب إلى الأمير إيغان بأن يحضر أهل قلعــة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجنــدى وعامى، وينفق فيهم المــال حتى الحرّاس وأرباب الضوء(2)؛ فاعتمد ذلك كله. وكتب إلى الديار المصرية بتبطيل المِزْر، وأن تعفّى آثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه، و[أن] يسقط ارتفاعه من الديوان، "ومن كان له على هذه الجهة شيء نعوّضه من مال الله الحلال"؛ فاعتمد ذلك، وعوّض المقطعون بدل ما كان لهم على جهة المزر .

ثم ركب [الســلطان] من العوجاء بعــد ركوب الأطلاب للتصيد فى غابة أرســوف، ورسم للأمراء من أراد منهم الصيد فليحضر، فإن الغابة كثيرة السباع . وساق إلى أرسوف

(١) القطاعة هى المطــرقة، تســتعمل لقطع الصــخر أو هــدم البناء، وجمعهــا قطاطيع . (محيط المحيط؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى س: "ارباب الضو"، وقد زيدت الهمزة على اللفظ الثانى بعــد مراجعة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 4. N. 5) حيث ترجمت العبارة الى الآتى : (les hommes prèposès a l' éclairage)، أى الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة، ويقال لهم الضوية والمشاعلية أيضا . (Dozy ; Supp. Dict. Ar.) .

وقيسارية ، فشاهدهما وعاد إلى الدهليز ، فوجد أخشاب المنجنيقات قد أحضرت صحبة زردخاناه ، فأمر بنصب عدّة مجانيق وعملها . وجلس [السلطان] مع الصناع يستحثهم ، فعمل فى يوم واحد أربع منجنيقات كبار سوى الصغار . وكتب إلى القلاع بطلب المجانيق والصناع والحجارين ، ورسم للعسكر بعمل سلالم . ورحل [السلطان] إلى قريب عيون الأَساور(١) من وادى عارَة وعَرعَرة(٢) ، فلما كان بعد عشاء الآخرة أمر العسكر كله فلبسوا آلة الحرب ، وركب آخر الليل وساق إلى قيسارية ، فوافاها بكرة نهار الخميس تاسع جمادى الأولى على حين غفلة من أهلها ، وضرب عليها بعساكره . وللوقت ألقى الناس أنفسهم فى خندقها ، وأخذوا السِّكك(٣) الحديد التى برسم الخيول — مع المَقاوِد والشُّبَح(٤) ، وتعلقوا فيها من كل جانب حتى صعدوا ، وقد نُصبت المجانيق ورمى بها . فحرقوا أبواب المدينة واقتحموها ، ففر أهلها إلى قلعتها ، وكانت من أحصن القلاع وأحسنها وتعرف بالخضراء . وكان قد حمل عليها الفرنج العُمُد الصوّان ، وأتقنوها بتصليب العمد فى بنيانها ، حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا عُلِّقت . فاستمر الزحف والقتال عليها بالمجانيق والدبابات والزحافات(٥) ورمى

(١) بغير ضبط فى س ، وهى منزلة قرب قيمون والرملة من أعمال فلسطين . (ابن شدّاد : النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ، حاشية ١ ، ٢ ، فى Rec. Hist. Or. III. ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٨) .

(٢) ضبط هذين الاسمين على منطوقهما فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 6) ، حيث ترجما الى (Arah et Ararah) .

(٣) السكك جمع سكة ، وهى الوتد الذى يربط به مقود الحصان . (محيط المحيط Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) هذا اللفظ مضبوط بضم الشين فقط فى س ، وهو جمع شبحة ، وهى السلسلة التى يربط بها قدم الحصان ، فى أحد طرفيها عروة تزرر فى القدم ، وفى طرفها الآخر رزة تدق فى الأرض . (محيط المحيط Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٥) فى س "الرجافات" ، والصيغة المثبوتة هنا من ب (١٥٩ ب) ، والزحافات مشروحة ضمنا فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى العبارة التالية : " ... برج الزحف ou آلة الزحف est une sorte de tour dans laquelle se trouvent des soldats munis d'arbaléte et de machines de guerre, et qui est placée sur un chariot que l'on pousse contre les murailles d'une place forte, que l'on assiege. ". هذا وليس فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، وما بعدها) فى باب آلات الحصار ذكر للزحافات ، على أنه أورد المجانيق ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر .

النشاب . وخرجت تجـريدة من عسكر السلطان إلى بيسان مع الأمير شهاب الدين القيمرى، فسيّر جماعة من التركمان والعربان (١٣٥ أ)[١] إلى أبواب عكا، فأسروا جماعة من الفرنج .

[هذا] والقتال مُلحٌّ على قلعة قيسارية ، والسلطان مقيم بأعلى كنيسة تجاه القلعة ليمنع الفرنج من الصـعود إلى علو القلعـة، وتارة يركب فى بعض الدبابات ذوات العجل التى تجرى حتى يصل إلى السور ليرى النقوب بنفسه . وأخذ [السلطان] فى يده يوما من الأيام ترسا وقاتل، فلم يرجع إلا وفى ترسه عدة سهام .

فلما كان فى ليـلة الخميس النصف من جمادى الأولى سلّم الفرنج القلعة بما فيها، فتسلّق المسلمون من الأسوار، وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها، وأُذّن بالصبح عليها . وطلع السلطان ومعـه الأمراء إليها، وقسّم المدينـة على الأمراء والمماليك والحلقـة، وشرع فى الهـدم ونزل وأخذ بيـده قطّاعة وهدم بنفســه . فلما قارب الفــراغ من هدم قيسارية بعث [السلطانُ] الأميرَ سنقر الرومى والأمير سيف الدين المستعرب فى جماعة ، فهدموا قلعـة كانت للفرنج عند المَلُّوحة[٢] قريب دمشق — وكانت عاتية[٣] — حتى دكّوها دكّا .

وفى سادس عشريه سار السلطان جريدة إلى عثليث ؛ وسيّر الأمير سـنقرا السلاح دار، والأمير عز الدين الحموى ، والأمير سنقرا الألفى، إلى حيفا . فوصلوا إليها، ففرّ الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها ، فدخلها الأمراء بعد ما قتلوا عدّة من الفرنج و بعد ما أسروا كثيرا ، وخربوا المدينـة والقلعـة وأحرقوا أبوابها فى يوم واحد ، وعادوا بالأسرى والرؤوس والغنائم

---

(١) توجد بين الصفحتين ١٣٤ ب ، ١٣٥ أ فى س ، ورقة منفصلة بها وفيات تابعة لسـنة ٦٦٤ هـ ، وستورد فى موضعها .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى حسبما ورد فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٨) قرية كبيرة من قرى حلب ، وتقع فى الجنوب الشرق منها ، على مسافة ثمانية عشر ميلا تقريبا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٣) فى س "عاتيه" ، وهى فى ب (١٦١ أ) "عالية" ، وقد غيرها (Quatremère : Op. Cit. I.2. p. 8. N.9) الى "عاصية" ، وترجمها على هـذا المعنى . على أنه يحتمل أن تكون الصيغة الواردة فى س هى المقصودة بالذات ، إذ يوجد فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى مادة عتب ما يفيد أن التعتيب هو التسقيف (toiture) ، ولعل المراد بلفظ عاتية هنا مأخوذ من هذا المعنى .

سالمين . ووصل السلطان إلى عثليث فأمر بتشعيثها وقطع أشجارها ، فقطعت كلها وخربت أبنيتها في يوم واحد . وعاد الى الدهليز بقيسارية ، وكمّل هـدمها حتى لم يدع لها أثرا . وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزرد خاناه من دمشـق . وورد عدّة من الفرنج للخـدمة ، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات .

وفي تاسع عشريه رحل السلطان من قيسارية ، وسار من غير أن يعرف أحد قصده ، فنزل على أرسوف مستهل جمادى الآخرة ، ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر، وحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقّفه بالأخشاب (١) . وسلّم أحدهما للأمير سنقر الرومى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، والأمير شمس الدين الذكز الكركى (١٢٥ ب) ، وجماعة [غيرهم] . وسلّم الآخر للأمير سيف الدين (٢) قلاون ، والأمير علم الدين الحلبي الكبير ، والأمير سيف الدين كرمون ، وجماعة [غيرهم] . وعمل [السلطان] طريقا من الخندقين الى القلعة ، وردمت الأحطاب فى الخندق ، فتحيّل الفرنج وأحرقوها كلها . فأمر السـلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر ، وعمـل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساترا لها ، وعمل فى الحائط أبوابا يرمى التراب منها وينزل فى السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق . وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك ، وولى أمره للأمير عز الدين أيبك الفخرى . فاستمر العمل ، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده فى الحفر وفى جرّ المنجنيقات ورمى التراب ونقل الأحجار ، أسوة غيره من الناس . و[كان] يمشى بمفـرده وفى يده ترس ، تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح ، وتارة على حافة

(١) يوجد فى محيط المحيط فى مادة ذنب ، وصـف لنوع من أنواع الأسربة التى تحتفر فى حصار المدن ، واسمه طريق ذنب الفار ، وهو " سرب كثير التعاريج يحتفر فى حصار المدن والحصون ، ليتوصـل به اليها من غير أن يصيب السالكين فيه ما يرشقهم به أهلها " .

(٢) فى س "الدكز" ، انظر . (Zetterstéen : Op. Cit. p. 141) . هذا وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 8) هـذا الاسم الى (Aldekiz) ، ونحا (Blochet) هذا النحو فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٢٩) .

البحر يرامى مراكب الفرنج . و[كان] يحتز فى المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمى من فوقها، ورمى فى يوم واحد ثلاثمـائة سهم بيـده . وحضر فى يوم إلى السرب وقعـد فى رأسـه خلف طاقة يرمى منها ، فخرج الفرنج بالرماح وفيهـا خطاطيف ليجبذوه (١) ، فقام وقاتلهم يدا بيد — وكان معه الأمير سنقر الرومى، والأمير بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار، فكان سنقر يناوله الحجارة — حتى قتل فارسين من الفرنج، ورجعوا على أسوأ حال . وكان يطوف بين العساكر فى الحصار بمفرده، ولا يجسر أحد ينظر إليه ولا يشير إليه بأصبعه .

وحضر فى هذه الغزاة جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء وأصناف الناس، ولم يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت النساء الصالحات يسقين المـاء فى وسط القتال، ويعملن فى جَرِّ المجانيق . وأطلق السلطان الرواتب من الأغنام وغيرها لجماعة من الصلحاء، وأعطى الشيخ على البكا (٢) جملة مال . ولا سُمِـع عن أحد من خواص السلطان أنه اشتغل عن الجهاد فى نوبته بشغل ، ولا سيَّر أميرٌ غلمانَه فى نوبته واستراح . بل كان النـاس فيها سواء فى العمل ، حتى أثَّرت (٣) المجانيق فى هـدم الأسوار ، وفرغ من عمل الأسربة التى بجانبى الخندق ، وفتحت فيها أبواب متسعة .

فلمـا تهيأ ذلك وقع الزحف على أرسوف فى يوم الخميس ثامن رجب ، ففتحها الله فى ذلك اليوم عنـد ما وقعت الباشورة (٤) . فلم يشعر الفرنج إلا بالمسلمين قد تسلّقوا وطلعوا الى (١٣٦ أ) القلعـة، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الباشورة، وحَفَّت (٥) بهـا المقاتلة وطَرَحت النـيران فى أبوابها . هـذا والفرنج تقاتل، فدفع السلطان سنجقه للأمير سنقر الرومى وأمره أن يؤمن الفرنج من القتل ، فلمـا رآه الفرنج تركوا القتال . وسُـلِّم السنجق للأمير علم الدين

---

(١) فى س " ليجبدوه " ، والجبذ فى اللغة الجذب ، وفعل جبذ مرادف لفعل جذب . (محيط المحيط) .

(٢) كذا فى س، وهو مترجم الى (Bakka) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 9) .

(٣) فى س " ارت" . انظر (Ibid : Op. Cit. I. 2. p. 10. n. 10) .

(٤) تقدم شرح هذا اللفظ فى ص ٥٠١ ، حاشية ٤ .

(٥) المعنى أن المقاتلة من المسلمين أطافوا بالقلعة وأحدقوا بها . (محيط المحيط) .

سنجر المسرورى المعروف بالخياط الحاجب، ودُلّيت له الحبال من القلعة فربطها فى وسطه والسنجق معــه ، ورُفع إليها فدخلها وأخذ جميع سيوف الفرنج وربطهم بالحبال وساقهم إلى السلطان ، والأمراء صفوف وهم ألوف .

وأباح السلطان القلعــة للناس ، وكان بها من الغلال والذخائر والمــال شىء كثير، وكان فيها جملة من الخيول والبغال لم يتعرّض [السلطان] لشىء منه، إلا ما اشتراه ممن أخذه بالمــال. ووجد فيها عدّة من أسرى المسلمين فى القيود فأطلقوا، وقيد الفرنج بقيودهم . وعين [السلطان] جمــاعة مع الأسرى من الفرنج ليسيروا بهــم ، وقسم أبراج أرسوف على الأمراء، وأمر أن يكون أسرى الفرنج يتولون هدم السور؛ فهدمت بأيديهم .

وأمر [الســلطان] بكشف بلاد قيسارية وعَمَــلِ متحصلها ، فعملت بذلك أوراق ؛ وطَلَب قاضى دمشق وعدوله ووكيل بيت المــال بها، وتقــدم بأن يُمَلَّك الأمراء المجاهدون من البــلاد التى فتحها الله عليــه ما يأتى ذكره . وكتبت تواقيع كل منهم من غير أن يطلعوا على ذلك ، فلمــا فَرَغت التواقيع فُرّقت على أربابها ، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك، ونسخته : " أما بعد حمــد الله على نصرته المتناســقة العقود ، وتمكينه الذى[1] رفلت به الملة الإسلامية فى أصفى البرود، وفتحه الذى إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت لأمرٍ ما يسود من يسود . والصلاة والســلام على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار بالسيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، وعلى آله وصحبــه صلاة تتواصل بالعشىّ والإبكار . فإن خير النعمة نعمة وردت بعد اليأس، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس؛ فكم بها نعمة وصلت للأمة المحمدية أسبابا، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبوابا، وهزمت من التتار والفرنج العدوين ، ورابطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإســلام تذلّ الفرنج بغزوهم فى (١٣٦ ب) عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المــانعة خلال الديار والأمصار ، وتقود مَنْ فَضَــلَ عن شِبَع السيف الساغب إلى حلقات الإسار .

(١) فى س "التى" .

ففرقة منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا ، وفرقة تبنى ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينا ، وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعا شاهقة وتتسنّم هضابا سامقة . فهى بحمد الله البانية الهادمة ، والقاسمة الراحمــة . كل ذلك بمن أقامه الله وجرّده سيفا فَقَرَى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيرا فسار إلى مواطن الظفر وسَرَى ، وكوّنته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت تعظيما له ما هذا بَشَرا . وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس ، جعل الله سيوفه مفاتح للبلاد ، وأعلامه أعلاما من الأسنة على رأسها نار بهداية العباد ، فإنه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بمـا فيها . و إذا عامله الله بلطفه شَكَر ، و إذا قدر عفى وأصلح فوافقه القدر ، و إذا أهدت إليــه النصرة فتوحات قسمها فى حاضريها لديه متكرما وقال الهدية لمن حضر ، و إذا خــوّله الله تخويلا وفتــح على يديه قلاعا جعل الهــدم للأسوار ، والدماء للبتّـار ، والرقاب للإسار ، والبلاد المزروعة للأولياء والأنصــار . ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الملائكة فى الصحائف لِصفَاحِه[(1)] من الأجور ، و [ما] تطوى عليه طويات السير التى غدت بمـا فتحه الله من الثغور باسمه باسمةَ الثغور .

فتى جعــل البـــلاد من العطايا * فأعطى المُدْنَ واحتقر الضياعا

سمعنـا بالكـرام وقــد أرانا * عيـانا ضعف ما فعـــلوا سمـاعا

إذا فعــل الكــرام على قيــاس * جميلا كان ما فعــل ابتـداعا

” ولمـا كان بهذه المثابة ، وقد فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره وضاعف ثوابه ، وله أولياء كالنجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوَبْل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا ، رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ ، وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، و يقسم عليهــم الأشعة من أنوار شمسه ، و يبقى للولد منهــم وولد الولد ، ما يدوم إلى آخر الدهر و يبقى على الأبد ، و يعيش الأبنــاء فى نعمته

(١) الصفاح جمع صفح ، وهو عرض السيف ، وربما أريد هنا به السيف كله . هذا ويقال للسيف أيضا الصفيحة = وهي السيف العريض ، وكذلك المصفحة ويجمع على مصفحات . (محيط المحيط) .

كما عاش الآباء، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد . فخرج الأمر (١٣٧ ا) العالى لا زال يشمل الأعقاب والذرارى، وينير إنارة الأنجم الدرارى، أن يُمَلَّك أمراؤه وخواصه الذين يُذكرون، وفى هـذا المكتوب يُسطرون، ما يُعيّن من البلاد والضياع، على ما يُشرح ويبين من الأوضاع : وهو الأتابك فارس الدين أقطاى الصالحى عَثِّيل[1] بكمالها ، الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى النصف من زِيتا[2] ، الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى نصف طُوْرُكَرَم، [الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نصف طور كرم][3]، الأمير شمس الدين الذ كر[4] الكركى ربع زيتا، الأمير سيف الدين قلج البغدادى ربع زيتا، الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحى أَفْرَاسِينْ بكمالها ، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحى باقة[5] [الشرقية] بكمالها ، الأمير عز الدين أيدمر الحلبى الصالحى نصف قَلَنْسُوَة، [الأمير شمس الدين سنقر الرومى نصف قلنسوة]، الأمير سيف الدين قلاون الألفى الصالحى نصف طَيِّبة الاسم ، الأمير عز الدين إيغان سم الموت نصف طيبة الاسم ، الأمير جمال الدين [أقوش] النجيبى نائب سلطنة الشام أم الفَحْم بكمالها من قيسارية، الأمير علم الدين سنجر الحلبى الصالحى بَتَان[6] بكمالها ، الأمير جمال الدين أقوش المحمدى الصالحى نصف بُورِين ، الأمير فخر الدين الطنبا الحمصى نصف بورين، الأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى الناصرى نصف بِزّين[7]، الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى الصالحى نصف بِزّين، الأمير فخر الدين عثمان

---

(١) ضبط هذا الاسم من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٩) . ويتلى هنا جملة أسماء الجهات التى أقطعها السلطان بيبرس لأمرائه ، وهى قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف ، وليس لأحدها تعريف فى معجم البلدان لياقوت ، وقد قوبلت جميعها وضبطت حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) ، كما صححت منه أيضا أسماء الأشخاص الواردة معها . انظر أيضا (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 13 et seq.; Smith : The Historical Geography Of The Holy Land. Index).

(٢) فى س " زيبا " .

(٣) أضيف ما بين الأقواس فى سائر هذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) كذا فى س . انظر ص ٥٢٨ ، حاشية ٢ . (٥) فى س "بامه" . (٦) فى س "بيان" .

(٧) فى س " بيرين " .

ابن الملك المغيث ثلث حلْبة(١)، [الأمير شمس الدين سلار البغدادى ثلث حلبة]، الأمير صارم الدين صراغان ثلث حلبة(٢)، الأمير ناصر الدين القيمرى نصف البرج الأحمر، الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى نصف البرج الأحمر، الأمير سيف الدين إيتامش السعدى نصف يمّا(٣)، الأمير شمس الدين آقسنقر السلاح دار نصف يمّا، الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة نصف دَنّابة(٤)، الملك المظفر صاحب سنجار نصف دنابة(٥)، الأمير بدر الدين محمد بى ولد الأمير حسام الدين بركه خان(٦) دير القُصُون(٧) بكمالها، الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار نصف الشُوَيكة، الأمير سيف الدين كرمون أغا التترى نصف الشويكة، الأمير بدر الدين الوزيرى نصف طُبَرْس(٨)، الأمير ركن الدين منكورس الدويدارى(٩) نصف طبرس، الأمير سيف الدين قشتمر العجمى عَلّار(١٠) بكمالها، الأمير علاء الدين أخو الدويدار نصف عرْعَرا، الأمير سيف الدين قَفْجق(١١) البغدادى نصف عرعرا، الأمير سيف الدين دبَكل(١٢) البغدادى نصف فَرْعُون، الأمير علم الدين (١٣٧ ب) سنجر الأزكشى نصف فرعون، الأمير علم الدين طرطج الأسدى(١٣) أَقْتَابَة(١٤) بكمالها، الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان سِيْدا بكمالها، الأمير علاء الدين كندغدى الظاهرى أمير مجلس الصُّفْرا(١٥) [بكمالها]، الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى نصف أَرْتاح، الأمير شمس الدين سنقر الألفى نصف أرتاح، الأمير علم الدين طيبرس الظاهرى نصف باقة الغربية، [الأمير علاء الدين التنكزى نصف باقة الغربية]، الأمير عز الدين الأتابك الفخرى القصير بكمالها، الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الظاهرى أَخْصاص بكمالها، الأمير ركن الدين بيبرس المغربى نصف قَقّين، الأمير شجاع الدين طغريل الشبلى أمير مهمندار نصف كفر راعى، الأمير علاء الدين كندغدى الحُبيشى مقدم الأمراء البحرية

(١ و ٢) فى س " جلمة ". (٣) فى س " تمـا " . (٤ و ٥) فى س " ذنابه "، بضم الذال فقط. (٦) كذا فى س، وقد أغفل (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 14) هذا اللفظ فى ترجمته، وأورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ١٤١) الاسم كله كالآتى : " الأمير ناصر الدين بن بركتخان " .

(٧) فى س " العصفور" . (٨) فى س "طرس" . (٩) كذا فى س . (١٠) كذا فى س .

(١١) فى س "نجق" . (١٢) فى س "بكل" . (١٣) فى س "طردج الامدى" .

(١٤) فى س "سباهيا" . (١٥) فى س "الصبر الفوقا" .

نصف كفر راعى، الأمير شرف الدين بن أبى القاسم نصف كُسْتا(١)، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى نصف كستا، الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادار العالية نصف بُرْنيكِيَّة(٢)، الأمير علم الدين سنجر الحلى الغزاوى نصف برنيكية(٣)، الأمير علم الدين سنجر نائب أمير جاندار نصف حانُوتا من أرسوف، الأمير سيف الدين بيدغان الركنى قُرْدِنْسِيا(٤) بكمالها من قيسارية، الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الكرك ثلث حَبْلَة من أرسوف، الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومى ثلث حبلة، الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهرى ثلث حبلة، الأمير بدر الدين بكّاش الفخرى أمير سلاح ثلث جُلْجُولِيَّة، الأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ثلث جلجولية، الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومى ثلث جلجولية .

وكُتب من كتاب التمليك الشرعى الجامع نسخ، وفُرّقت على كل أمير نسخة، وخُلع على قاضى دمشق وعاد إلى بلده. ونُقلت المنجنيقات إلى القلاع، وهى الكرك وعجلون ونحوهما .

ورحل السلطان من أرسوف بعد استكمال هدمها فى يوم الثلاثاء ثالث عشرى شهر رجب إلى غزة . وسار منها إلى مصر، فخرج الملك السعيد والأتابك عز الدين الحلى نائب السلطنة إلى لقائه ببركة الحجاج، فلقوه [هناك] . ودخل [السلطان] من القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر شعبان والأسرى بين يديه حتى خرج من باب زويلة ، وصعد إلى قلعة الجبل فاستراح . وعَرَض ما حصّله الأمير عز الدين الحلى، والصاحب بهاء الدين بن حنا، من الخزائن . ولم يترك أحدا من أمير ولا وزير ولا مقدم ولا مفردى، ولا [أحدا من] خواصه ولا بَرْدَارِيته(٥)، وبَرْدَدَارِيته(٦) وسائر حواشيه، (١٣٨ ا) حتى عمّ الجميع بالخلع . وأحسن إلى رسل

(١) فى س "كسفا"، فى الحالتين . (٢ و ٣) فى س "برديكة" .

(٤) فى س "افراد نسيفا" .

(٥) فى س "بردارية" . انظر ص ٤٩٤، حاشية ٣ .

(٦) جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٨ وما بعدها)، فى باب ألقاب أرباب الوظائف من الأتباع والحواشى والخدم، أن البردار "هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة، متحدثا على أعوانه والمتصرفين فيه ... وأصله (٤٦٩) فرددار ... وهو مركب من لفظين فارسيين ، أحدهما فردا ومعناه الستارة ، والثانى دار ومعناه ممسك، والمراد ممسك الستار؛ وكأنه فى أوّل الوضع كان يقف بباب الستارة، ثم نقل الى الديوان" .

الملك بركه ، وكتب إلى اليمن و إلى الأنبرور بالبشارة ، وأخرج جمـلة من الدراهم والغـلة والكساوى تصدّق بها على الفقراء .

وكان قد كثر الحـريق بالقاهرة ومصر فى مدّة سفر السلطان ، وأشـيع أن ذلك من النصارى . ونزل بالناس من الحريق فى كل مكان شـدّة عظيمة ، ووُجد فى بعض المواضع التى احترقت نفط وكبريت . فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهـدهم وأَمَر بإحراقهم . فجُمع منهم عالم عظيم فى القلعة، وأحضرت الأحطاب والحَلْفَاء، وأمر بإلقائهم فى النـار ؛ فلاذوا بعفوه وسألوا المنّ عليهـم . وتقدم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر فشفع فيهم، على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت، وأن يحمـلوا إلى بيت المـال خمسين ألف دينار . فأفرج عنهم [السلطان]، وتولى البطرك(١) توزيع المـال، والتزموا أن لا يعودوا إلى شيء من المنكرات، ولا يخرجوا عما هو مرتّب على أهل الذمة، وأطلقوا(٢) .

وكان الأمير زامل بن علىّ لا تزال الفتنة بينه وبين الأمير عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن فضـل بن ربيعـة . فلمـا طلعت العساكر إلى الشام مع الأمير طيبرس قبضوا على زامل بالبلاد الحلبية ، وحُمـل إلى قلعة عجلون . ثم نُقل إلى القاهرة واعتقل، ثم أُفرج عنـه وصار يلعب مع السلطان فى الميـدان . وحضر الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وأحمد بن حجى والأمير هارون ، وأصلح السلطان بينهم وبين زامل، وردّ على زامل إقطاعه وإمرته ، وأذن لهم فى السفر . فساروا حتى دخلوا إلى الرمل، فساق(٣) زامل وهجم على بيوت عيسى وأفسد ، وقبض على قصّاد السلطان المتوجهين إلى شيراز، وأخذ منهم الكتب وسار بهـا إلى هولاكو وأطمعه فى البـلاد ؛ فأعطاه [هولاكو] إقطاعا بالعراق . وسافر [زامل]

(١) اسم بطرك الأقباط تلك السـنة ، حسبما جاء فى (Butcher : The Story Of The Church Of Egypt. I. p. XIV, II. p. 165 et seq.) اثناسيوس الثالث .

(٢) أخبار هذه الحرائق واردة بتفصيل أكثر مما هنا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٣٣ وما بعدها) .

(٣) فى س "ساق" .

إلى الحجاز فنهب وقتل، وعاد إلى الشام . وكان السلطان قد أعطى إقطاعه لأخيه أبي بكر، فضاقت عليه الأرض، وكتب يطلب من السلطان العفو . فقرر [السلطان] معه الحضور إلى مدة عيَّنها له، وأنه متى تأخر عنها فلا عهد له ولا أيمان؛ فلما تأخر عن المدة المعينة وحضر بعدها قبض عليه، واعتقل بقلعة الجبل .

وفى خامس عشريه جلس السلطان بدار العدل، وطلب تاج الدين بن القرطى[1] . فلما حضر قال [السلطان له] : " أضجرتنى مما تقول . عندى مصالح لبيت مال المسلمين، فتحدث الآن بما عندك " . فتكلم [القرطى] فى حق (١٣٨ ب) قاضى القضاة، وفى حق صاحب سواكن، و[قال] إن الأمراء الذين ماتوا أخذ ورثتهم أكثر من حقوقهم . فأمر السلطان بإحضار زِيَار[2]، وأراه لمن حضر وقال : " من يصبر على هذا الزيار يُسْتَكْثَر[2] عليه إقطاع، أو يستكثر على ورثته موجود يخلفه لهم؟ "، وأنكر عليه وأمر به لحبس . وتحدث [السلطان] فى أمر الجند، وأنهم إذا كانوا فى البيكار[3] وفى مواطن الجهاد لا يصل إليهم شاهد، فيُشْهِد أحدهم أصحابه [عند موته][4]، فإذا حضروا لاتقبل شهاداتهم، وتضيع أموال الناس بهذا السبب . وقال : " الرأى أن كل أمير يعين من جماعته من فيه دين وخير ليسمع قوله، وكل[5] مقدم وكل جماعة من الجند يعين من فيها ممن هو من أهل الخير والصلاح، لتسمع أقوالهم، حتى تحفظ أموال الناس" . فسرّ الأمراء بذلك، وشرع قاضى القضاة فى اختيار الناس الجياد من الجند لذلك .

وجلس [السلطان] فى تاسع عشريه بدار العدل، فوقف شخص وشكا أن من سكن

---

(١) كذا فى س، وهو فى ب (١٦٤ ا) "تاج الدين القرطبي"، وقد ترجمه (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 17) على هذه الصيغة .

(٢) الزيار — أو الزيارة — وجمعه زيارات، آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق، وهو مترجم الى (arbalète) فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. P. 17) . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) تقدم شرح هذا اللفظ فى ص ١٠٥، حاشية ١ .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 18.) .

(٥) هذا اللفظ مكرر فى س .

فى شىء من الأملاك الديوانيــة لا يُمكّن من الخـلو ، فأنكر [السلطان] ذلك وأمر بتمكين الساكن من الخلو عند انقضاء الإجارة . ووردت رسل الأنبرور، ورسل الملك الأشكرى، بالهـــدايا .

وفى سابع شهر رمضان قدمت العساكر من البيرة، مع الأمير جمال الدين المحمدى، والأمير عز الدين إيغان . وقدمت هـدية ملك الكرج (١) . وورد الخبر باستيلاء عز الدين السكندرى نائب الرحبـة على قرقيسياء (٢) ، وقتلوا من كان فيها من التتر والكرج ، وأسروا نيفا وثمـانين رجلا فى نصف شهر رمضان .

وفيه رسم بتحصـيل المراكب لتغرق فى بحر أشموم ، فلما كان ثانى شوّال سار السـلطان إلى أشموم بنفسه، وقسّم عمل البحر على الأمراء ، وعمل بنفســه وحمل القفة مملوءة بالتراب على كتفه ، والناس تشاهده . فوقع الاجتهاد فى الحفر، واستمّر السلطان على العمل بنفســه فى كل يوم ، و[صار] يركب فى المراكب وتُغرّق المراكب قدامه . فتنجّز العمل فى ثمـانية أيام، وتكامل الحفر فى بحر أشموم ، وفى الجهة التى من ناحية جوجر (٣) . وسار [السـلطان] إلى منزلة ابن حسون ، وعاد إلى قلعـة الجبل فى حادى عشريه . ورسم بإبطال حراسـة

---

(١) كانت مملكة الكرج قد انضوت تحت حكم المغول منــذ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م)، وكان ملكها صاحب الهدية الواصلة الى القاهرة هذه السنة داود أولو (David Ulu)، أى داود الضخم . وقد اشترك داود هذا وجنوده الكرجية فى وقعة هولاكو على بغـداد ، ووقعة انهزام التـتر فى عين جالوت على يد السلطان قطز . ثم حدث أن ثار داود ضـدّ الحكم التترى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م)، فتخلى عنه معظم أمرائه وصالحوا التتر، وهرب هو بعد هزيمته الى بلدة (Kutais) ، حيث كان ابن عمه داود نارين (David Narin) ، أى داود الماهر . وحوالى ذلك الوقت نشبت الحرب بين هولاكو و بركه خان، فرأى هولاكو ترضية داود الضخم و إعادته الى مملكه وتبعيتــه للغول، وقد ظل داود حتى وفاته ســنة ١٢٦٩ م راضيا بتلك التبعيــة فى الظاهر، غير أنه كان فى نفس الوقت يكيد لهولاكو عنــد كل من الملك بركه خان والسلطان بيــبرس ، على النحو المشار اليــه بالمتن . (Allen:A Hist. Of The Georgian People. pp. 109 et seq).

(٢) فى س "قرقيسيا" بغير ضبط ، وكثيرا ما ترد هذه الصيغة المقصورة فى الشعر، وتسمى أيضا قرقيساء، وتقع عند ملتقى نهير الخابور بالفرات. (ياقوت : معجم البلدان ج ٤، ص ٦٦). هذا و يوجد بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية : "قرقيسيا هى حصن الزبا التى اخذت جذيمه الابرش" .

(٣) انظر ص ٤٠٣، حاشية ١ .

النهار[1] بالقاهرة ومصر وكانت جملة كبيرة، وكُتب توقيع بإبطالها، وكُتب أيضا بمساحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية[2] أربعة وعشرين ألف درهم نقرة[3] عن رسوم الولاية[4] والمال المستخرج برسم النقيدى[5]. وتوجه شجاع الدين بن (١٣٩ ا) الداية الحاجب إلى الملك بركه رسولا، ومعه ثلاث عُمَر اعتمر بها عنه بمكة، عُملت فى أوراق مذهبة، وشىء من ماء زمزم ودهن بلسان وغيره.

وفى آخره نزل بالسلطان وعك، فتداوى بالصدقة وأعطى الفقراء مالا جزيلا.

وفى ذى القعدة قدم الراهب كرنانوس[6] بكتاب الملك الأشكرى. وكان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ويضع من قدره ويحطّ عليه عند السلطان، بسبب تشدّده فى الأحكام وتوقّفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه. فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة، فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف. فعند ما قُرئت أخذ الأمير أيدغدى يحطّ على الفقهاء وينقصهم، فقال السلطان للقاضى تاج الدين: "يا قاضى! هكذا تكون القضاة؟". فقال [تاج الدين]: "يامولانا! كل شاة معلّقة بعُرقوبها". قال "فكيف الحال فى هذا؟"

(١) أشار المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٠٦) الى "حراسة النهار" بما لا يزيد عما هو وارد هنا، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 19.) هذين اللفظين الى (La garde du jour).

(٢) فى س "المرتا"، وبقية اللفظ مطموس تماما فى س، لكنه وارد فى ب (١٦٤ ب).

(٣) معظم هذه الكلمة ضائع فى س، وهى تامة فى ب (١٦٤ ب).

(٤) عرّف المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٨٩) رسوم الولاية المذكورة هنا، بأنها "كانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين، فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق و بيوت الفواحش. ولهذه الجهة ضامن، وتحت يده عدة صبيان، وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس".

(٥) كذا فى س، و يفهم مما يلى ص ٥٤٣، سطر ١٤، أن النقيدى اسم موضع قرب فم خليج الإسكندرية.

(٦) فى س "كرمانوس"، وقد صحح على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 19)، حيث يوجد رسم آخر لهذا الاسم وهو (Germanos)، وقد تقدمت الإشارة الى هذا الراهب فى ص ٥١٤، سطر ٧.

قال : " إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة" . فقال السلطان : " فإذا لم يكن مع الورثة شيء؟" قال [القاضي]: " يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن" . فغضب السلطان من ذلك ، وما تمّ الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : "يا مولانا السلطان ! سألتُ هذا القاضي أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل" . فسأل السلطان القاضي عما قاله ، فقال : "نعم". قال السلطان: "أنا أمرتُه بذلك ، فكيف رددتَ أمرى؟" قال : "يامولانا! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه" . فقال السلطان : " تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى؟ " قال : "نعم" . قال [السلطان] : " لاتدفعه إلا لمن نختاره(١) " . ثم تقدم بعض الأمراء وقال : " شهدتُ عند القاضي فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته" ، فسأل السلطان القاضي عن ذلك فقال : "ما شهد أحد عندى حتى أثبته"، فقال الأمير : " إذا لم تسمع قولى فمن تريد؟ " قال السلطان : " لم لا سمعت قوله(٢)؟ " فقال : "لا حاجة فى ذكر ذلك" . فقال الأمير أيدغدى : "ياقاضى! مذهب الشافعى لك ، ونولّى من كل مذهب قاضيا(٣)" . فصغى السلطان لقول أيدغدى (١٣٩ ب) وانقضى المجلس ، إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولّى السلطان القاضي صدر الدين سليمان بن أبى العز ابن وُهَيب(٤) الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية ، والقاضي شرف الدين عمر بن عبد الله ابن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر بن عبدالله بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى المالكى ، والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، [ليكونوا] قضاة القضاة بديار مصر . وجعل [السلطان] لهم أن يولّوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ؛ وأبقى على

(١) فى س " نختاره " .

(٢) بعض ألفاظ العبارات الواردة هنا بين الشولات المقلوبة زائل أو مطموس تماما فى س ، ولكنها كلها واضحة فى ب (١٦٥ أ) . (٣) فى س " قاضى " . (٤) مضبوط هكذا فى س .

ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والحاكمات المختصة ببيت المال ، وكتب لكل منهم تقليدا وخلع عليهم . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه ، ويلبس كل منهم الطَّرحات [1] فى أيام الخدمة السلطانية . ورسم [السلطان] أيضا لمجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم بخطابة القاهرة .

وفى رابع عشرى ذى الحجة قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الرومى واعتقل ؛ وتقدم إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ألا يجتمع بأحد ، فاحتجب عن الاجتماع بالناس .

وفيها تولى الأمير نور الدين على بن مجلى الهكارى نيابة حلب ، عوضا عن أيدكين الشهابى .

وفيها نزل السلطان من قلعة الجبل بالليل متنكرا ، وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعرّاها سروالها بيده ، ولم يجسر أحد ينكر عليه . فلما أصبح [السلطان] قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقدمين ، والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة .

---

(١) الطرحات جمع طرحة ، وهى من مميزات لباس قضاة القضاة فى عصر المماليك بمصر ، وقد وصفها القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢) فقال : "ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره" . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 21. N. 23) ، حيث يفهم أن تلك الطرحة التى امتاز بها قضاة القضاة فى مصر ، وكذلك العمامة والشاش ، كانت كلها من قماش أسود . هذا ويوجد بالقلقشندى (نفس المرجع والجزء ، ص ٤١ — ٤٢) وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى تلك الأزمنة ، ونصه : "ويختلف ذلك (أى ملبوس رجال الدين) باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء (ص ٤٢) منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعى . ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها الى أسفلها مزررة بالأزرار . وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان الفوقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، ويلبسون الخفاف الأديم الطائفى بغير مهاميز" .

وفيها ولى السلطان إمرة عرب آل فضل لعيسى بن مهنا ، فسار وطرد التتار عن البيرة وحران[٢] . وفيها هلك القان[١] هولاكو بن طولوخان بن جنكزخان — فى تاسع عشر شهر ربيع الأوّل ، بالقرب من كورة مراغة — بالصرع ، عن نيف وستين سـنة ، منها مدّة سلطنته عشر سنين[٣] . وقام من بعده ابنه أباغا[٤] ، وجهز جيشا لحرب الملك بركه خان ، فانهزم هزيمة قبيحة .

ومات[٥] فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الياروقى ، نائب السلطنة بديار مصر ودمشق ، وهو معزول ، بالقصير من عمل مصر ، عن أربع وستين سنة . وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على السنجارى الشافعى ، وهو مصروف ،

---

(١) تقدمت الإشارة الى لفظ القان (ص ٣٠٧ ، حاشـية ٤) ، غير أن الصيغة الصحيحة لهـذا اللقب ، فيما يخص هولاكو وخلفاءه على المملكة المغولية بفارس ، أن يكتب إيلخان (Ilkhan) أى الخان التابع . وكان هولاكو قد اتخذ هـذا اللقب تعيينا لمركزه من مقام أخيه قوبيلاى خان الخان الأعظم على جميع الممالك المغولية بآسيا ، ولصق هـذا التلقيب بسلالة هولاكو ، وأطلق اسم دولة إيلخانات على البلاد التى حكموها . (Lane - Poole : Muh. Dyns. P. 217 et seq.) .

(٢) يوجد بين المراجـع المتـداولة هنا خلاف طفيف على تاريخ موت هولاكو ، ففى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٤٥) أنه مات فى سابع ربيع الآخر ، وفى أبى الفـداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٠ ، فى Rec. Hist. Or. I.) تاسع ربيع الآخر ، وفى (Enc. Isl. Art. Hulagu) يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر .

(٣) يوجد بهامش الصفحة فى س وصف لمملكة هولاكو ، ونصه مصححا : "كان بيد هولاكو إقليم خراسان وكرسيه نيسابور ، وعراق العجم — و يعرف ببلاد الجبل — وكرسيه أصفهان ، وعراق العرب وكرسيه بغداد ، وآذربيجان وكرسيه تبريز ، وخوزستان وكرسيه تستر — ويسميها العامة شستر ، وفارس وكرسيه شيراز ، وديار بكر وكرسيها الموصل ، والروم وكرسيه قونيـة " . و يظهر أن المقريزى نقل هـذه العبارة من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، أو من مرجع آخر مشابه له فى العبارة .

(٤) الصيغة المتواترة لهذا الاسم فى الكتب العربية هى الواردة بالمتن هنا ، غير أنه وارد فى المراجع الفرنجية مثل (Enc. Isl. Art. Abaka) بما يقابل القاف بدل الغين ، هـذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السـديد ، ص ١٤٧) أنه كان لهولاكو عدا أباغا هذا ستة عشر ولدا ذكورا .

(٥) الوفيات التالية إلى آخر السـنة واردة بورقة منفصلة بين الصفحتين ١٣٩ ب ، ١٤٠ أ فى س ، بغير إشارة إلى موضعها المناسب ، على أنه لا شك فى وقوعها هنا . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٧ — ٣٨) .

بالقاهرة عن نيف وستين سنة . وتوفى نجم الدين أبو المظفر فتح بن موسى بن حماد القصرى المغربى، قاضى سيوط بها .

* * *

سنة أربع وستين وستمائة . فى المحرم عقد الأمير سيف الدين قلاون عقده على ابنة الأمير سيف الدين كرمون التترى الوافد . فنزل السلطان من قلعة الجبل ، وضرب الدهليز بسوق الخيل ، عند ما دخل الأمير قلاون عليها . وقام [السلطان] بكل ما يتعلق بالأسمطة، وجلس على الخوان ، ولم يبق أحد من الأمراء حتى بعث إلى قلاون الخيل و بقج الثياب . وأرسل إليه السلطان تعابى[1] قماش وخيلا وعشرة مماليك ، فقبل [قلاون] التقدمة واستعفى من المماليك، وقال : "هؤلاء خوشداشيتى فى خدمة السلطان"، فأُعفى .

وفيه كتب إلى دمشق بثلاثة[2] تقاليد : أحدها بتقليد[3] شمس الدين عبد الله محمد بن عطا الحنفى قاضى القضاة، والآخر بتقليد زين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى قاضى القضاة المالكية ، والثالث بتقليد شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى قاضى القضاة الحنابلة . فصار بدمشق أربعة[4] قضاة، وكان قاضى القضاة الشافعى شمس الدين أحمد بن خلكان ، فصار الحال كما هو بديار مصر، واستمر ذلك[5] . واتفق أنه لما قدمت عهود القضاة الثلاثة[6] لم يقبل المالكى ولا الحنبلى ، وقبل الحنفى . فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بذلك، وأخذ ما بأيديهما من الوظائف إن لم يفعلا، فأجابا . ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ، فورد المرسوم بإلزامه فأجاب، وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية على القضاء . وقال بعض أدباء دمشق لما رأى اجتماع قضاة كل واحد منهم لقبه شمس الدين :

---

(١) التعابى جمع تعبية ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 23) تعابى قماش إلى (des robes) أى ثياب ، وترجمها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) إلى (pièces d'étoffe) أى قطع من قماش .

(٢) فى س " بثلاث " . (٣) فى س "تقليد" . (٤) فى س "اربع" .

(٥) العبارة الآتية ، الى آخر سطر ٦ بالصفحة التالية ، واردة على ورقة منفصلة بين صفحتى ١٤٧ ب، ١٤٨ أ فى س ، وليس من سبب الى ذكر هذا سوى أن تلك الورقة موضوعة هناك خطأ . (٦) فى س "الثلاث" .

أهل دمشق استرابوا * من كثرة الحكام
إذ هم جميعا شموس * وحالهم فى ظـلام

وقال آخـــر :

بدمشق آية قدظهرت * للنـاس عـــاما
كلما وُلِّى شمس قاضيا * زادت ظـــلاما

وكان استقلالهم بالقضاء فى سادس جمادى الأولى .

وفيه وردت رسل الأنبرور، ورسل الفنش[(١)]، [ورسل[(٢)] ملوك الفرنج]،ورسل ملك اليمن[(٣)]، ومعهم (١١٤٠) هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية . فأخذت منهم الحقوق [الديوانيـة] عن الهدية، [إفسادا لنواميس الإسماعيلية، وتعجيزا لمن اكتفى شرّهم بالهدية] .

وفى ثامن صفر كانت وقعـة بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردى نائب حمص ، وبين البرنس [بيمند بن بيمند[(٤)]] ملك الفرنج بطرابلس، انهزم فيهـا الفرنج . وفيـه كُتب إلى دمشق بعمل مراكب ، فعُملت وحملت إلى البيرة . وفيه توجّه السلطان إلى الإسكندرية، واهتم بحفر خليجها وباشر الحفر بنفســه ، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس ، حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج . ثم عدى [السلطان] إلى بر أَبْيار[(٥)]، وغرّق هناك

(١) كذا فى س ، ولعل المقصود بهذا الاسم هو (Alphonse of Seville)، الذى عقد مع بيبرس معاهدة تجارية سنة ٦٦٩ هـ ، (١٢٧٠ م) . انظر (Lane - Poole : A Hist. Of Egypt. p. 266) . هـذا وفى (Rec. Hist. Or. II. 1. p. 223. N. 1) أن لفظ الفنش خطأ قلمى ، وأن المقصود هو "البرنس" صاحب طرابلس . انظر حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من العينى (عقد الجمان، ص ٢٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) كان ملك اليمن فى تلك السنة السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول ، وقد امتد حكمه سنين كثيرة ، (٦٤٧ — ٦٩٩ هـ ، ١٢٥٠ — ١٢٩٥ م) . انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ٢٧٥) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، حيث توجد فى هذا الصدد معلومات أكثر تفصيلا . أما ملك الفرنج المقصود هنا فهو (Bohemond, Seigneur de Tripoli) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الغربية بقسم محلة منوف ، وتقع على بحر سيف شرق كفر الزيات . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ٢٨ ، وما بعـدها) . وكانت أبيار فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٨) قرية بجزيرة اسمها بنو نصر . (انظر ص ٥١٠ ، سطر ٨) .

عدّة مراكب، وألقى فوقها الحجارة . ثم عاد الى قلعة الجبل؛ وحفر بحر مصر بنفسه وعسكره، ما بين الروضة والمنشاة بجوار جرف الروضة ؛ وجهز المحمل وخلع على المتوجّه به إلى الحجاز ، وهو الأمير جمال الدين ... ...[1] نائب دار العــدل ، وسيّر معــه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسُيّرت الغلال لجرايات الصناع .

وفى جمادى الأولى قدم فخر الدين بن جلبان[2] من بلاد الفرنج بعدة من الأسرى ، قد أفتكّهم بمال الوقف المسـيّر من جهة الأمير جمال الدين النجيبي نائب دمشق . فحضر عدّة من النساء والأطفال ، فسـيّرت[3] النسـاء إلى دمشق ليزوّجهن القاضى من أكفائهن . وفيه سافر الأمير جمـال الدين بن نهار المهمندار الصالحى لبناء جسر على [نهر] الشَّرِيعَـة[4]، ورسم لنائب دمشق بحمـل كل ما يحتاج إليه من الأصناف . وفيه كمل بناء الدار الجديدة عند باب السر المطل على سوق الخيل من قلعة الجبل، فعمل بها دعوة للأمراء .

وفى جمادى الآخرة سار الأمير أقوش السفيرى ، ومعه أربعون ديوانا لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب، فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التى فرضها الله، وأخذ منهم الحقوق .

وفى ثالث رجب اهتم السلطان بأمر الغزو، وسـير إلى أعمال مصر بإحضار الجنـد من إقطاعاتهم ، فتأخروا . فأرسل سـلاح داريته إلى سائر الأعمال ، فعلّقوا الولاة بأيديهم ثلاثة أيام تأديبا، لكونهم ما سارعوا إلى إحضار الأجناد؛ فحضروا بأجمعهم .

وخرج السلطان فى مستهل شـعبان ، ورحل فى ثالثـه وسار إلى غزة . وقـدم الأمير أيدغدى العزيزى ، والأمير قلاون ، فى عدّة من العسكر إلى العوجاء . ومضى السلطان إلى الخليل ثم إلى القدس، ومنع أهـل الذمة من دخول مقام الخليل، وكانوا قبل ذلك يدخلون ويؤخذ منهـم مال على ذلك ، فأبطله واستمر منعهم . وسار [السلطان] إلى عين جالوت .

(١) بياض فى س .

(٢) فى س "حلبان"، والرسم المثبت هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 25) .

(٣) فى س "فسير" . (٤) انظر ص ٢٨١ ، حاشية ٤ .

ووصـــل العسكر إلى حمص ، وأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد، وأخذوا قلعـة عرقة[1] [وحلباء][2] والقليعات[3] وهدموها . (١٤٠ ب) فلما ورد الخـبر بذلك جرّد السلطان الأمير علاء الدين البندقدار، والأمير عز الدين أوغان[4]، فى عدّة من العسكر إلى صور . فأغاروا على الفرنج، وغنموا وأسروا كثيرا . وتوجه الأمير إيتامش إلى صيداء، وسار السلطان إلى مدينة عكا ؛ وبعث الأمير بدر الدين الأيدمرى ، والأمير بدر الدين بيسرى، إلى جهـة القرن[5]؛ و[أرسل] الأمير فخر الدين الحمصى إلى جبـل عاملة . فأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة ، وكثرت المغانم بأيديهم حتى لم يوجد من يشترى البقر والجاموس . وصارت الغارات من بلاد طرابلس إلى أرسوف . ونزل عسكر السلطان على صور، وأقام السلطان فى جهـة عكا ، والأمير ناصر الدين القيمرى فى عثليث ؛ فطلب أهـل عكا من الأتابك التحدث فى الصلح . فاهتم السلطان بأمر صـفد ، وأحضر العسـاكر المجردة ؛ ورحل الأمير بكتاش الفخرى أمير سـلاح بالدهليز السلطانى ونزل على صـفد ، وتبعه الأمير البنـدقدار والأمير عز الدين أوغان فى جماعة، وحاصروها .

[هـذا] والسلطان مقيم على عكا حتى وافتـه العساكر، وعمـل عدّة مجانيق . ثم رحل والعساكر لابسـة ، وساق إلى قرب باب عكا، ووقف على تل الفضول . ثم سار إلى عين جالوت، ونزل على صفد[6] يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وحاصرها . فقدم عليه رسول متملك صور،

(١) فى س "عرقا"، وهى فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٥٣) بكسر العين، وموقعها شرق طرابلس على مسافة أربعة فراسخ، وتسمى فى الحوليات الصليبية بأسماء مختلفة مثل (Arca, Arcados, Archis) . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 397 et seq.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٣) بغير ضبط فى س، وهى اسم حصن قرب طرابلس . (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٤) كذا فى س، انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 27)، حيث ترجم هذا الاسم إلى (Ighan).

(٥) بغير ضبط فى س، ولعلها قرن الحامرة إحدى قرى دمشق . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 481)

(٦) كانت صفد إحدى معاقل هيئة الفرسان الداوية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land . p. 260 et seq)

ورسول الفداوية[1]، ورسول صاحب بيروت، ورسل صاحب يافا، ورسل صاحب صهيون. وصار [السلطان] يباشر الحصار بنفسه؛ وقدمت المجانيق[2] من دمشق إلى جسر يعقوب — وهو منزلة من صفد — وقد عجزت الجمال عن حملها، فسار إليها الرجال من الأجناد والأمراء لحملها على الرقاب من جسر يعقوب. وسار السلطان بنفسه وخواصه، وجرّ الأخشاب مع البقر هو وخواصه، فكان غيره من الناس إذا تعب استراح ثم يعود إلى الجر، وهو[3] لا يسأم من الجر ولا يبطله، إلى أن نُصبت [المجانيق] ورُمى بها فى سادس عشريه؛ وصار [السلطان] يلازم الوقوف عندها وهى ترمى.

وأتت العساكر من مصر والشام، فنزلوا على منازلهم إلى أن كانت ليلة عيد الفطر. فخرج[4] الأمير بدر الدين الأيدمرى للتهنئة بالعيد، فوقع حجر على رأسه، فرسم السلطان بألا يجتمع أحد لسلام العيد، ولا يبرح [أحد] من مكانه خشية انتهاز العدوّ غِرّة العسكر. ونودى يوم عيد الفطر فى الناس: "من شرب خمرا أو جلبها شُنق".

وفى ثانيه وقع الزحف على (١٤١ ا) صفد، ودفع الزرّاقون النفط. ووعد السلطان الجارين أنه من أخذ أوّل حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثانى والثالث إلى العشرة. وأمر حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته. فكان بين الفريقين قتال عظيم استشهد فيه جماعة، وكان الواحد من المسلمين إذا قُتل جَرّه رفيقه ووقف موضعه. وتكاثرت النقوب ودخل النقابون إليها، ودخل السلطان معهم. وبذل [السلطان] فى هذا اليوم من المال والخلع كثيرا، ونصب خيمة فيها حكماء وجرائحية وأشربة ومآكل[5]، فصار من يُجرح من العربان والفقهاء والفقراء وغيرهم يحضر إليها.

---

(١) كذا فى س، ولعل المقصود "الداوية"، على أن (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 28) اعتبر أن المقصود بهذه التسمية فرقة الإسماعيلية بالشام.

(٢) فى س "المناجنق".

(٣) الضمير عائد على السلطان.

(٤) فى س "نخرج". (٥) فى س "ما اكل".

وفى ثامنه كانت بين [الفريقين](١) أيضا مَقَاتِل(٢) . وفى ليـلة رابع عشره اشتد الزحف من الليل إلى وقت القائلة ، فتفرّق الناس من شدة التعب . فغضب السلطان من ذلك، وأمر خواصـه بالسُّوق إلى الصواوين و إقامة الأمراء والأجناد بالدبابيس ، وقال : " المسلمون على هذه الصورة، وأنتم تستريحون؟"، فأُقيموا . وقبض [السلطان] على نيف وأربعين أميرا ، وقيّدهم وسجنهم بالزردخاناه ؛ ثم شُفع فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضـعهم . وضُربت الطبلخاناه واشـتد الأمر إلى أن طلب الفرنج الأمان ، فأمّنهـم [السلطان] على ألا يخرجوا بسلاح ولا لامة حرب ولا شيء من الفِضّيات(٣)، ولا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم؛ [وأن يُفتشوا عند خروجهم(٤)، فإن وُجد مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض العهد] .

ولم تزل الرسل تتردد بينهم إلى يوم الجمعة ثامن عشره، [ثم] طلعت السناجق الإسلامية، وكان لطلوعها ساعة مشهودة . [هـذا] والسلطان راكب على باب صـفد حتى نزل الفرنج كلهم ، ووقفـوا بين يديه فرسم بتفتيشهم : فوجد معهم ما ينـاقض الأمان من السـلاح والفضيات، ووجد معهم عدّة من أسرى مسلمين أخرجوهم على أنهم نصارى . فأَخِذ ما وُجِد معهم وأُنزلوا عن خيـولهم، وجعلوا فى خيمة ومعهم من يحفظهم . وتسلم المسلمون صفد ، وولى السلطان قلعتها الأمير مجد الدين الطورى، وجعل الأمير عز الدين العلائى نائب صفد. فلمـا أصبح حضر إليه الناس ، فشكر اجتهادهم واعتذر إليهم مما كان منه إلى بعضهم ، وأنه ما قصد إلا حثّهم على هذا الفتح العظيم ، وقال : "من هذا الوقت تحالل"، وأمرهم فركبوا. وأُحضرت خيالة الفرنج وجميع من أُخرج من صفـد، فضربت أعناقهم على تل قرب صفد حتى لم يبق منهم سوى نفرين : أحدهما الرسول ، فإنه اختار أن يقيم عند السلطان ويسلم ،

---

(١) فى س " بينهما" . (٢) فى س "مقاتل" .

(٣) فى س "الفضيات"، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 30) هذا اللفظ الى (usten-sile d'argent) ، غير أنه يفهم من عبارة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٤٩) فى هذا الصدد أن المـال هو المقصود بالفضيات هنا .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٤٩) .

فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعا وقربه؛ والآخر (١٤١ ب) تُرِك حتى يخبر الفرنج بما شاهده[١]. وصعد السلطان إلى قلعة صفد، وفرق على الأمراء العدد الفرنجية والجوارى والمماليك، ونقل إليها زردخاناه من عنده. وحمل [السلطان] على كتفه من السلاح إلى داخل القلعة، فتشبّه به النـاس ونقلوا الزردخاناه فى ساعة واحدة. واستدعى [السلطان] الرجال من دمشق للإقامة بصفد، وقرر نفقة رجال القلعة فى الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم نقرة. واستخدم على سائر بلاد صفد، وعمل بها جامعا فى القلعة وجامعا بالربض؛ ووقف على الشيخ على المجنون نصف وربع الحباب[٢]، والربع الآخر على الشيخ إلياس. ووقف قرية منها على قبر خالد بن الوليد بحمص.

(١) كان الشخص الذى أسلم فارسا من الداوية، وكان الثانى من فرسان الإسبتار. (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) وفى نفس المرجع والصفحة أنه لم يكن هناك إخلال بشروط التسليم من جانب جنود حامية صفد، وإنما السلطان بيبرس هو الذى نكث بعهده، وأنه فعل ذلك طبقا للبدأ الصليبى القائل بأنه لا أمان لكافر. ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٤٨، وما بعدها) فى هذا الصدد روايتان، تدل إحداهما على أن جنود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط، وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان، ونصه : "ثم نزل العسكر على صـفد فى ثامن رمضان ... ، وفتحها يوم الثلاثاء خامس عشر شوال، بعد أن طلبوا الأمان. وشرط عليهم ألا يستصحبوا (١٤٩) معهم مالا ولا سـلاحا، وأن يفتشوا عند خروجهم، فإن وجد مع أحد منهم شىء من ذلك انتقض العهد ... ، ووقف السلطان على بابها فأخرج من كان بها من الداوية والإسبتار وغيرهم ... . ثم قيل إن جماعة من الفرنج فتشوا، فوجد معهم أشياء من الأموال، فأمر السلطان بضرب رقابهم ... (١٥٠) ... وحكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائى أن السـلطان لم يحلف لأهل صفد، وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التترى، وأوقف الأمراء فى خدمته. فحلف لهم كرمون، وعمل عليهم الوزير الذى كان لهم (كذا) وكان نصرانيا، فنزلوا عن يمين كرمون. فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليـه اليمين، فضربت رقابهـم عن آخرهم، وكانوا نحوا من ألفى فارس. فلما قتلوا سير (فى الأصل سيروا) أهـل عكا رسولا يقول للسلطان تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء الى عكا لأجل البركة؛ فنزل السلطان الرسول عنده، ثم إنه أخذ (١٥١) جماعة من العسكر وساق من أوّل الليل، فما أصبح الصبح إلا وهو على باب عكا. فلما فتحوا باب عكا وخرجوا لقضاء حوائجهـم، ساق [السلطان] عليهم فقتل منهم خلقا كثيرا، وعاد فى فوره. فلما وصل [السـلطان] الى الدهليز طلب الرسول وقال [له] ما تريد، فأعاد الرسالة. فقال [له] عد اليهم فقد عملنا عندهم شهداء، وكفينا كم مؤونة النقل وكلفته.

(٢) بغير ضبط فى س، أو ياقوت (معجم البـلدان، ج ٤، ص ٨١). وهى إحدى بلاد وادى القرى، بين دمشـق والمدينة، ويمربها حاج الشام. وقد ورد هذا اللفظ فى ب (١٦٧ ب) "الحساب"، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 31) الى (revenus) أى الدخل. هـذا ويوجد فى س فوق لفظ الحباب حرفا "وا"، ولعـل المقريزى كان يقصـد أن يضيف بعض أسماء بلاد أخرى قريبـة من الحباب مثل وادى القرى والحجر (ياقوت : نفس المرجع والصفحة)، ثم أغفل ذلك أو نسيه، ويقوّى هذا الفرض الجملة التالية.

وفى سابع عشريه رحل [السلطان] من صفد إلى دمشق، فنزل الجسورة[(١)] وأمر ألا يدخل أحد من العسكر إلى دمشق، بل يبقى العسكر على حاله حتى يسير إلى سِيس[(٢)]. ودخل [السلطان] إلى دمشق جريدة، فبلغه أن جماعة من العسكر قد دخلوا إلى دمشق، فأخرجهم مكتَّفين بالحبال. وأقام الملك المنصور صاحب حماة مقدّما على العساكر وسيرهم معه، وفيهم الأمير عز الدين أوغان، و[الأمير] قلاون؛ فساروا فى خامس ذى القعدة إلى سيس.

وفى ثالث ذى القعدة مات كرمون أغا. وفى ثامنه أنعم السلطان على أمراء دمشق وقضاتها وأرباب مناصبها بالتشاريف، ونظر فى أمر جامع دمشق، ومنع الفقراء من المبيت فيه، وأخرج ما كان به من الصناديق التى كانت للناس.

وفى عاشره جلس الأتابك — هو والأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق — لكشف ظلامات الناس والتوقيع على القصص، بدار السعادة. وخرج السلطان للصيد فضرب عدّة حلق، وسار إلى جَرُود[(٣)] ثم إلى أَفَامِيَة[(٤)]. وجهّز [السلطان] إلى مصر شخصا كان [قد] حضر إلى دمشق [و] ادّعى أنه مبارك بن الإمام المستعصم [وصحبته جماعة[(٥)] من أمراء العربان]، فلم يعرفه جلال الدين بن الدوادار ولا الطواشى مختار، وتبيّن كذبه [فسيّر إلى مصر تحت الاحتياط]. وجهّز [السلطان] بعده شخصا آخر أسود إلى مصر، ذكر أنه من أولاد الخلفاء، [فسيّر[(٧)] إلى مصر أيضا، وكان قد وصل إلى دمشق فى ذى القعدة].

(١) فى س "الحسورة"، وقد صححت الى الرسم الوارد بالمتن من (Lane-Poole: A Hist. Of Egypt. p. 278; Quatremère. Op. Cit. I. 2. p. 13)

(٢) بغير ضبط فى س، وصحة هذا الاسم سيسية، غير أن عامة أهلها يقولون سيس، وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قليقية)، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٧).

(٣) فى س "حرود" بغير ضبط، وهى من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٥).

(٤) بغير ضبط فى س، وهى إحدى بلاد حمص، وتسمى أيضا فامية. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٣).

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨ — ٣٩)

(٦) فى س "جلا الدين". (٧) يتضح من العبارة كلها أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بإقامة الحاكم بأمر الله فى الخلافة بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ. (انظر ص ٤٧٧، سطر ١، وما يليه).

وفيه استولى السلطان على هُونين[1] وتِبْنِين وعلى مدينة الرملة ، فعمرها وصيّر لها عملا وولّى فيها . وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة ، وأمر بتأديب من أكلها . وقدم رسول الاسبتار ملك الفرنج ، يسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة[2] . فقال السلطان : "لا أجيب إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماة وهى أربعة آلاف دينار ، وما لكم من القطيعة على بلاد أبى قبيس[3] وهى ثمانمائة دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهى ألف ومائتا دينار ومائة مدّ حنطة وشعير نصفين" . فأجابوا إلى إبطال ذلك ، وكُتبت الهدنة وشُرط فيها الفسخ للسلطان متى أراد ، ويعلمهم قبلُ بمدّة . وورد الخبر بأن فرنج عكا وجدوا أربعة من المسلمين فى (١٤٢ أ) طين شيحا[4] فشنقوهم ، فرسم السلطان بالإغارة على بلاد الفرنج ، فقتلت العساكر منهم فوق المائتين ، وساقوا جملة من الأبقار والجواميس وعادوا[5] . وورد كتاب والى قوص أنه وصل إلى عيذاب ، وبعث عسكرا إلى سواكن ، ففرّ صاحب سواكن ، وعادوا إلى قوص وقد تمهدت البلاد ، وصارت رجال السلطان بسواكن .

وفى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة جلس الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة بديار مصر ، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة ، بدار العدل على العادة . وإذا بإنسان يخرق

(١) بغير ضبط فى س ، وهو بلد فى جبال عاملة قرب بانياس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٩٦ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 456) ، وهو المسمى (Chateauneuf) فى المراجع الفرنجية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) .

(٢) المقصود بهذا بلاد فرقة الإسماعيلية بالشام . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 32) .

(٣) فى س "بو قبيس" بغير ضبط ، وهذه الصيغة المختصرة كثيرة الورود فى الحوليات الصليبية ، وأبو قبيس حصن فى مقابلة شيزر . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 352 ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٣) .

(٤) لعل المقصود هنا الأرض الزراعية الواقعة قرب جبل شيحان ، وهو جبل مشرف على جميع المرتفعات التى حول بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٩) . انظر أيضا (Quatremère : Op Cit. I. 2. p. 32. N. 36) .

(٥) فى س "عادت" .

الصفوف — وبيده قصــة — حتى وقف قدام الأمير، ووثب عليــه بسكين أخرجها من تحت ثيابه، وطعنه فى حلقه . فأمسك الأمير بيده بجرحها ، ورفسه برجله ونام على ظهره . فوقع [المجرم] وقصد أن يضرب الأمير ضربة أخرى، أو يضرب الصاحب، فرجعت السكين فى فؤاد الأمير صارم الدين المسعودى ، فمات من ساعته . فقام الأمير فخــر الدين والى الجيزة وقبض عليــه ورماه، فوقع على قاضى القضاة ، وأخذته السيوف حتى هلك . وحُمل الأمير عز الدين الحلى إلى داره بالقلعة ، وحضر المزينون إليه فوجدوا الجرح بين البلعوم والمنحر . وكان الذى ضربه جندارٌ به شعبة من جنون، وتعاطى أكل الحشيشة فقوى جِنّــه . وكتب بهذا الحــادث إلى السلطان، فوافاه الخبر وهو راجع من أفامية، فشقّ عليه ذلك وقال : "والله يهون على موت ولدى بركه ، ولا يموت الحلى" . فقال له الأتابك : "ياخوند! والله طيّبتَ قلوبنا إذا كنت تشتهى لو فديتَ غلاما من غلمانك بولدك وولىّ عهدك". ثم ورد الخبر بعافية الحلى مع مملوكه، فخلع عليه السلطان وأعطاه ألف دينار، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم نقرة، وأحسن إلى ورثة الصارم المسعودى .

وأما الملك المنصور ومن معه، فإنهم ساروا إلى [حصن] دَيْرَبَسّاك(1) ودخلوا الدَّرْبَنْد(2)، وقد بنى التّكفور(3) هيتوم بن(4) قنسطنطين بن باساك ملك الأرمن على رءوس الجبــال أبراجا —

(١) فى س "درب بساك" بغير ضبط ، وهو وارد برسم "دربساك" فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١ ، فى Rec. Hist. Or. I)، وموقعه قرب أنطاكية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٤٦) .

(٢) الدربند — والجمع دربندات — لفظ فارسى ، ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة ، وقد تقدمت الإشارة اليه فى ص ٢٤٨ ، حاشــية ٣ ، والمراد هنا الطرقات المؤدية إلى بلدة سيس ، وقد وصفه ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد، ص ٢٣١ — ٢٣٢) بالآتى : "وباب الدربند الذى بسيس يعرف بالدروب ، ويعــرف (٢٣٢) بالعواصم ..." .

(٣) التكفور لفظ أرمنى معناه الملك المتوّج (roi, celui qui porte la couronne)، وقد أطلقه الأرمن على ملوكهم ، كما أنه يطلق أحيانا على ملوك الدولة البيزنطية . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 153 .

(٤) كذا فى س، وهو فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) "هيتوم ابن قسطنطين بن باسيل" . هذا ويوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٦ ، فى Rec. Hiot. Or. II. 1.) أخ لهذا الملك اسمه فاساك (Vassak)، ولعل هذه الصيغة الأخيرة هى الأقرب للصحيح .

وهو الذى تزهّد فيما بعد(١)، وترك الملك لولده ليفون(٢) — فاستعدّ ووقف فى عسكره . فعندما التق الفريقان أسِر ليفون [ابن](٣) ملك سيس ، وقتل أخوه وعمه ، وانهزم عمه(٤) الآخر، وقتـل ابنه [الآخر]، وتمزّق الباقى من الملوك — وكانوا اثنى عشر ملكا — ، وقُتلت أبطالهم وجنودهم . وركب العسكر أقفيتهم وهو يقتل و يأسر و يحرق، وأخذ العسكر قلعة حصينة للديوية(٥)، فقُتلت الرجال وسُبيت النساء وفرّقت على العسكر، وحُرقت القلعة بمـا فيها من الحواصـل . ودخلوا سيس (١٤٢ ب) فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا أياما يحرقون و يقتلون و يأسرون . وسار الأمير أوغان إلى جهة الروم ، والأمير قلاون إلى المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس ، فقتلوا وأسروا وهـدموا عدّة قلاع وحرقوا؛ [هـذا] وصاحب حماة مقيم بسيس . ثم عادوا إليه و[قد] اجتمع معهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى، حتى أبيع الرأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه .

فورد الخبر بذلك والسلطان فى الصيد بجرود(٦)، فأعطى المبشر ألف دينار وإمرة طبلخاناه. ودخل السلطان إلى دمشق، وتجهّز وخرج للقاء العسكر فى ثالث عشر ذى الحجة . فشُكِى إليه

---

(١) عبارة س كالآتى : "وكان قد تزهد وترك الملك لولده ليفون فاستعد ووقف فى عسكره ... "، و يفهم من إيراد العبارة بهـذا الوضع الزمنى أن هيتوم ملك الأرمن كان قد تزهد وترك الحكم لولده قبـل مجىء جيوش بيبرس الى بلاده بعدّة سنين، مع أن المعروف أن هيتوم هو الذى وقف بجيوش المـاليك، وقد وقع ابنه ليفون المذكور هنا أسيرا فى الموقعة التى وقعت بسيس . (انظر سطر ٢) . وقد ظل هيتوم ملكا على أرمينية الصغرى حتى سنة ١٢٧٠م (٦٦٩هـ)، وصالح السلطان بيبرس ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) ، على شروط منها أن يسلم الى السلطان بلاد "بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد"، وفى مقابلها يطلق السلطان سراح ليفون . وقد سلم هيتوم الحكم الى ولده العائد بعد ذلك ، وانزوى فى دير حيث عاش حتى سنة ١٢٧٥ م (٦٧٤ هـ) . (انظر أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ Camb. Med. Hist. IV. p. 175) .

(٢) اسم هذا الابن لمـا ملك ليون الثالث (Leon III)، وقد امتد حكمه من ١٢٧٠ الى ١٢٨٩م (٦٦٩ — ٦٨٨ هـ) . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٥٢) .

(٤) فى س "أمر"، انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٥) لعلها قلعة العامدين المذكورة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.)، وهى حصن بأرمينية الصغرى . (Ibid ; Op. Cit. Index) .

(٦) فى س "مجرود"

وهو بقارا[1] من أهلها [وهم نصارى][2] : أنهم يتعدون على أهل الضياع، و يبيعون من يقع إليهم إلى الفرنج بحصن عكا، فأمر العسكر بنهبهم فنهبوا، وقتـل كبارهم وسبى النساء والأولاد . وقدم عليـه العسكر المجهز إلى سيس، وقدّموا له نصيبه من الغنائم ففرّق الجميع على عساكره؛ وأحسن إلى متملك سيس[3] ومن معه من الأسرى. وعاد [السلطان] إلى دمشق فى رابع عشريه — ومتملك سيس بين يديه — ، وخلع على الأمراء والملوك والأجناد، فامتلأت دمشق بالمكاسب، وأبيع من الجواهر والحلى والدقيق والحرير ما لا يحصى كثرة، ولم يتعرض السلطان لشىء من ذلك. وعاد صاحب حماة إلى مملكته، بعدما أنعم عليه السلطان بكثير من الخيول والأموال والخلع[4] .

و[فيها] قدمت رسل الملك أبغا بن هولاكو بهدايا وطلب الصلح . وفيها أمر [السلطان] بجمع أصحاب العاهات، فجُمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة، ونُقلوا إلى مدينة الفيوم وأُفردت لهم بلدة تغلّ عليهـم ما يكفيهم، فلم يستقروا بها وتفرقوا ورجع كثير منهم إلى القاهرة . وفيها اشتد إنكار السلطان للمنكر، وأراق الخمور وعفّى آثار المنكرات، ومنع الخانات[5] والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشـام؛ فطهرت البقاع مـن ذلك . وقال القاضى ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور بن أبى بكر بن قاسم بن مختار بن المنير قاضى الإسكندرية، لمـا وردت إليه المراسيم بالإسكندرية وعفّى متوليها أثر المحرمات :

(١) تقع هذه البلدة، وهى قارة المذكورة فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢ — ١٣)، على الطريق من دمشق الى حمص .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١، فى Rec. Hist. Or. I.). انظر (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٠؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٥٢، وما بعدها) حيث توجد تفاصيل كثيرة فى هذا الصدد .

(٣) المقصود بمتملك سيس هنا ليفون (Leon III)، المذكور فى ص ٢٥٢، سطر ١

(٤) فوق هـذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة أراد المقريزى اسـتدراكها هنا؛ غير أنه لا يوجد بين العبارات الواردة بهامش الصفحة ما يصح أن يثبت بعد اللفظ المشار اليه؛ هذا فضلا عن أن كل العبارات المذكورة قد أدمجت فى مواضعها المناسبة .

(٥) الخانات — والمفرد خانة — أماكن العبث والاستهتار (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2, p. 36) إلى (les cabarets, les lieux de débauche) .

ليس لإبليس عندنا أرب * غـــير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَهُ الخمرَ والحشيشَ معا * حَرَمْتَـــهُ ماءه ومرعاه

وقال أبو الحسين الجزار :

قد عُطِّل الكوب من حَبابه * وأُخْـلِيَ الثغر من رضابه
وأصبح (١) الشـيخ وهو يبكى * على الذى فات من شبابه

وفيها قدم علىّ (٢) بن الخليفة المستعصم من الأسر عند التتار .

ومات (٣) فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى، بعد فتح صفد. وتوفى الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أمين الدين أبى الغنائم (٤) سالم بن الحسن ابن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى الدمشقى، ناظر الدواوين بها، عن تسع وستين سنة. وتوفى جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الكريم الموقانى المقدسى الشافعى، المحدث الأديب .

* * *

سنة خمس وستين وستمائة . فى المحرم بعث السلطان الأمير سيف الدين بكتمر الساقى، والأمير شهاب الدين بوزبا، فى عدة من العسكر ورجال جَبَلِيّة (٥) . فقطعوا أقصاب الفرنج، وعادوا إلى صفد . وفيه قدمت نجدة للفرنج من قبرس (٦)، [وعدّتها] نحو ألف (١٤٢ أ) ومائة

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية، ونصها مصححا : "وفيها نزل السلطان الملك الظاهر إلى القاهرة فى الليل متنكرا، فرأى بعض الشرط وقد عرى امرأة سراويلها ولم يقدر أحد ينهاه، فلما أصبح قبض جماعة من المقدمين والولاة وأصحاب الأرباع والخفراء، وقطع أيدى الجميع"، وقد تقدم هذا كله بلفظه وترتيب عبارته فى هامش ص ١٣٩ ب من س، وأثبت بالمتن فى موضعه (انظر ص ٥٤٠، سطر ٩، وما يليه) .

(٢) انظر ص ٥٤٩، حاشية ٧ .

(٣) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س بين الصفحتين ١٣٤ ب، ١٣٥ أ، وقد وضعت هناك خطأ . انظر (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٩؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٤، وما بعدها).

(٤) فى س "الغنام" .

(٥) المقصود بهذا الوصف أهل البلاد الجبلية بالشام، مثل جبل القدس وجبل الخليل وجبل نابلس . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 38. n. 43) .

(٦) أرسل هذه النجدة تلك السنة (Hugh of Antioch, Regent of Cyprus) . انظر (King. The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) .

فارس ، وأغاروا على بلد طبرية . فخرج العسكر إلى عكا ، وواقع الفرنج فقتلوا منهم كثيرا ، وانهزم الباقى إلى عكا وعمل فيها عزاء من قُتل[1] .

وفى ثانيه خرج السلطان من دمشق بعساكره إلى القَوَار [يريد الديار المصرية[2]] ، وسار منه جريدة إلى [الكرك ونزل ببركة] زَيْزاء ، [وركب ليتصيد] فتقطّر عن فرسه فى ثامنه ، وتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه ، وأكثر من الإنعام على جميع عساكره وأمرائه بجميع كلفهم من غلات الكرك ، وعمّ بذلك الخواص والكتّاب ، وفرّق فيهم جملا كثيرة من المال . واستدعى [السلطان] أمراء غزة وأحسن إليهم ، وطلب الأميرَ عز الدين أيدمر نائب الكرك وأعطاه ألف دينار وخلع عليه ، وسيّر الخلع إلى أهل الكرك . ثم سار فى محفة على أعناق الأمراء والخواص إلى غزة ، وسار منها إلى بلبيس ، فتلقاه ابنه بركه فى ثالث صفر ومعه الأمير عز الدين الحلى ، وزيّنت القاهرة . فلم يزل [السلطان موعوكا] إلى غرة شهر ربيع الأوّل ، فركب الفرس وضربت البشائر لعافيته ، وسار إلى باب النصر فأقام هناك إلى خامسه . وصعد [السلطان إلى] القلعة ، وقدم عليه رسول التكفور هيتوم[3] صاحب سيس يشفع فى ولده للسلطان ، ففكّ قيده فى ثانى عشريه وكتب له مُوادَعة[4] على بلاده إلى سنة ، وركب مع السلطان لرماية البندق فى بركة الجب[5] .

---

(١) بلغت خسارة الإسبتارية وحدهم فى تلك الوقعة ثلاثة وأربعين . انظر (King : Op. Cit. p. 262) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٥٦ وما بعدها) .

(٣) اسم رسول هيتوم الى السلطان بيبرس هذه السنة فاساك (Vassak) ، وهو أخو هيتوم المذكور . (العينى : عقد الجمان ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٤) المقصود بالموادعة المسالمة والمصالحة والمهادنة . (محيط المحيط) .

(٥) توجد قبالة هذه العبارة فى س ورقة ملصقة بين الصفحتين ١٤٢ ب ، ١٤٣ ا ، وبها فذلكة تفسيرية لتاريخ مملكة هيتوم المذكور ، ونصها مصححا : " اترناحور (كذا) وناحور أخو إبراهيم الخليل عليه السلام ، دخلوا فى دين النصرانية قبل ظهور الملة الإسلامية . وكانت سكناهم بأرمينية ، وقاعدتها خلاط كرسى المملكة ، ويقال لملكهم تكفور . فلما ملك المسلمون أرمينية وضربوا عليهم الجزية ، ثم خربت خلاط ، انتقلوا الى سيس وأدوا الضريبة . وأول من أعلمه من ملوكهم مليح بن أليون فى زمن نور الدين الشهيد ، و[قد] ملك أذنة والمصيصة وطرسوس من الروم . ثم قام بعده جماعة الى أن ملك هيتوم هذا ، وترهب ونصب ابنه ليفون عوضه ، فكان من أمره ما ذكر ، وأسر وضربت سيس " . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٠ وما بعدها) .

وفى آخر ربيع الأول بعث السلطانُ الأتابكَ [فارس الدين أقطاى المستعرب] (١)، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا، لكشف مكان يعمله جامعا بالحسينية، فسارا واتفقا على مناخ الجمال السلطانية، فلما عادا قال السلطان: "[لا والله! لا جعلت الجامع مكان الجمال، و] أولى ما جعلت ميدانى الذى [ألعب فيه الكرة، — و] هو نزهتى — جامعا". وركب [السلطان] فى ثامن ربيع الآخر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة إلى ميدان قراقوش، ورتّب بناءه جامعا، وأن يكون بقية الميدان وقفا عليه (٢). وعاد إلى المدرسة التى أنشأها بين القصرين، وقد اجتمع بها الفقهاء والقراء، فقال: "هذا مكان جعلته لله تعالى، فإذا مِتّ لا تدفنونى هنا، ولا تغيّروا معالم هذا المكان"، وصعد إلى القلعة.

وفيه وردت مكاتبة المنصور صاحب حماة، يستأذن فى الحضور إلى مصر ليشاهد عافية السلطان، فأجيب إلى ذلك وقدم فى سابع عشريه. فخرج السلطان إلى لقائه بالعباسة، وبعث إليه وإلى من معه التشاريف، وعاد إلى القلعة. فسأل المنصور الإذن بالمسير إلى الإسكندرية فأذن له، وسار معه الأمير سنقرجاه الظاهرى، وحملت له الإقامات حتى عاد.

(١٤٣ ب) وفى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة، وكانت قد بطلت منه منذ ولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك بن درباس، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٣). [وقد ظل كذلك] إلى أن سكن الأمير عز الدين أيدمر الحلى بجواره، فانتزع كثيرا من أوقاف الجامع كانت مغصوبة بيد جماعة، وتبرّع له بمال جزيل، واستطلق له من السلطان مالا، وعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيّضه وبلطه ورمّ سقوفه، وفرشه واستجدّ به مقصورة وعمل فيه منبرا. فتنازع الناس فيه هل تصحّ

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٩ — ٣٠٠).

(٢) الجامع المقصود هنا هو الجامع الظاهرى، ويوجد بالمقريزى (نفس المرجع والجزء، ص ٢٩٩ — ٣٠٠)، وكذلك ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٦٠ — ١٦١) تفصيلات بصدده أكثر مما هنا.

(٣) يرجع ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٥٦، وما بعدها) بتاريخ إبطال الجمعة من الجامع الأزهر إلى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، أى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى.

إقامة الجمعــة فيه أم لا ، فأجاز ذلك جمــاعة من الفقهاء ، ومنع منــه قاضى القضــاة تاج الدين ابن بنت الأعز وغيره . فشكى الحلىُّ ذلك إلى السلطان ، فكلّم فيه قاضى القضاة فصمّم على المنع ، فعمل الحـلى بفتوى من أجاز ذلك وأقام فيه الجمعة . وسأل السلطان أن يحضر فامتنع من الحضــور ما لم يحضر قاضى القضــاة ، فحضر الأتابك والصاحب بهاء الدين وعدّة من الأمراء والفقهاء، ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضــاة تاج الدين . وعمل الأمير بدر الدين بيليــك الخازندار بالجــامع مقصورة، ورتّب فيها مدرّسا وجمــاعة من الفقهاء على مذهب الشافعى ، ورتّب محدثا يسمع الحــديث النبوى والرقائق[1]، ورتب سبعة[2] لقراءة القرآن العظيم، وعمل على ذلك أوقافا تكفيه .

وفى جمادى الآخرة وصلت رسل الدعوة بجملة من الذهب، وقالوا : "هذا المــال الذى كنا نحمــله قطيعــة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق فى المجــاهدين" . وقد كان أصحاب بيت الدعوة فيما مضى من الزمان يَقْطَعُون مصانعات[3] الملوك ، ويجبون القطيعة من الخلفاء ، ويأخذون من مملكة مصر القطيعــة فى كل ســنة ، فصاروا يحمــلون القطيعة للملك الظاهر لقيامه بالجهاد فى سبيل الله .

وفيه عمرت قلعة قاقُون[4] عوضا عن قيسارية وأرسوف، وعمرت الكنيسة التى كانت للنصــارى هناك جامعا، وسكن هناك جمــاعة فصارت بلدة عامرة بالأسواق . وفيــه اهتم

(١) الرقائق — والمفرد رقيقــة ، ويقال الرقاق أيضا ومفرده رقيق — لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقا رحيما؛ فيقال باب الرقائق ، وباب الرقاق ، والتسمية الثانية أكثر شيوعا . (أحمد أمين) .

(٢) فى س "سبعا" .

(٣) الراجح أن المقصود بالمصانعات هنا أموال الرشوة والمداراة ، ففى محيط المحيط "صانعــه مصانعة رشاه وداراه وداهنه" . انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar.) ، حيث توجد عدّة أمثلة لاستعمال فعل "صانع" بهذا المعنى ، ومنها : " صانعهم أهلها بعشرين ألف دينار" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى حصن بفلسطين قرب الرملة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٨) ، واسمها فى الحوليات الصليبية (Caco, Chaco, Quaquo) . انظر (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 475) .

السلطان باستخراج الزكاة من سائر الجهات : فاستخرج من بلاد المغرب زكاة مواشيهم وزكاة زروعهم ، واستخرج من جهات سواكن وجزائرها الزكاة . وبعث [السلطان] إلى الحجاز الأمير شكال بن محمد ، فطلب العِدّاد من الأمير جماز أمير المدينة النبوية ، فدافعه فمضى إلى بنى خالد يستعين بهم على عرب جماز ، ثم (١٤٤ ا) خاف وبعث إلى السلطان يطلب إرسال من يستخلفه على استخراج حقوق الله .

وفى سابع عشريه توجه السلطان فى جماعة من أمرائه إلى الشام ، وترك أكثر العساكر [بالديار المصرية][1] . و[كان] معه المنصور صاحب حماة ، فنزل [السلطان] غزة ، ومضى صاحب حماة إلى مملكته بعد زيارة القدس . فقدمت رسل الفرنج على السلطان بغزة ، ومعهم الهدايا وعدّة من أسرى المسلمين ، فكسا الأسرى وأطلقهم . ورحل [السلطان] إلى صفد ، فورد الخبر [عليه هناك] بتوجه التتار إلى الرحبة ، فسار إلى دمشق [مسرعا] فدخلها فى رابع عشر رجب . وجاء الخبر بقدوم التتار إلى الرحبة ، وأن أهلها قتلوا وأسروا منهم كثيرا وهزموهم ، فأقام بدمشق خمسة أيام ، وعاد إلى صفد فى رابع عشريه . [ورتّب السلطان أمر عمارة صفد] ، وقسّم خندقها على الأمراء ، وأخذ لنفسه نصيبا وافرا عمل فيه بنفسه ، فتبعه الأمراء والناس فى العمل ونقل الحجارة ورمى التراب وصاروا يتسابقون . فوردت عليه رسل الفرنج يطلبون الصلح ، فرأوا الاهتمام فى العمارة .

ثم إنه [بلغه فى بعض تلك الأيام أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى ظاهرها إلى ضحوة ، فسَرَى ليلة ببعض عسكره ، و][2] أمر بالركوب خفية فركب وقد اطمأن الفرنج ، فلم يشعروا به إلا وهو على باب عكا ، ووضع السيف فى الفرنج ، وصارت الرءوس

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٤ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)

(٢) كان مما فعله السلطان لإخفاء هذه السرية ، التى كانت مكونة من فرقتين من الخيالة ، أنه ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land, p. 262).

تحمل إليه من كل جهة . وكان الحر ، فعملت عباءة على رمح ليستظل بها ، وبات تلك الليلة وأصبح على حاله ، ثم عاد إلى صفد . وقدمت رسل سيس بالهـدية ، فرأوا رسل الفرنج ورأوا رءوس القتلى على الرماح . وقدمت الأسرى من هذه الغارة فضربت أعناقهم ، وطلب [السلطان] رسل الفرنج وقال لهم: "هذه الغارة فى مقابلة غارتكم على بلاد الشقيف"، وردّهم من غير إجابتهم إلى الصلح .

ثم ركب [السلطان] فى حادى عشرى شعبان وساق من صفد إلى عكا ، فما علم به الفرنج حتى وقف على أبوابها : فقسّم البنائين والجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار لهدمها ، فاقتسموا ذلك وشرعوا فى الهـدم وقطع الأشجار . وعمـل [السلطان] اليزك بنفسه على باب عكا ، وصار واقفا على فرسه وبيده رمح مدّة أربعة أيام ، حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار . ثم رجع إلى صفد، فوردت رسل سيس ورسل بيروت(١)، فأجيبوا عن مقاصدهم .

وفى شهر رمضان وردت رسـل صور(٢) يطلبون استمرار الهـدنة ، فأجيبوا إلى الصلح ، وكُتبت هدنة لمدّة عشر سنين لصور وبلادها — وهى مائة قرية إلا قرية — ، بعد ما أحضروا دية السابق شاهين الذى قتلوه لأولاده(٣) — وهى خمسة عشر ألف دينار صورية ، قاموا بنصفها وأُمهِلوا بالباقى — ، وأحضروا [أيضا] عدّة أسرى مغاربة(٤) . وقدمت (١٤٤ ب) رسـل بيت

(١) أتى رسـل بيروت تلك السنة من قبل صاحبتها الأميرة (Isabel d'Ibelin) ، وكان سبب مجيئهم حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٥ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، أن أخا هذه الأميرة كان "قد غدر بمركب للأتابك ، فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرس ، فطالبهم السلطان بمـال التجار ، فالتزموا به والتزموا إطلاق التجار ، وتقرر الصلح". انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 262 ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٢) كان صاحب صور تلك السنة (Philip de Montfort) . انظر (King: Op. Cit. p.262) .

(٣) كان السابق شاهين المذكور غلاما للسلطان بيبرس ، وكان قد قتل فى صور ، فاشترط السلطان لأجل استمرار الهدنة أن تدفع صور دية لأولاد القتيل ، كما ورد بالمتن . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٤) فى س "مغاربة" ، والصيغة المثبتة هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 42) . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) ، حيث ورد هذا اللفظ برسم "المغازية" .

الإسبتار من الفرنج يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب ، فأجيبوا وتقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة أشهر [وعشرة أيام](١) وعشر ساعات ، وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وعن حماة وشيزر وأفامية وعن أبي قبيس(٢) ، وقد تقدم ذلك ، وبطل أيضا ما كان على عِيْناب(٣) ، وهو خمسمائة دينار صورية وعن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم .

وقدم الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة من المدينة النبوية يشكو من الشريف جماز أمير المدينة ، وأن الإمرة كانت نصفين بين أبيه ووالد جماز . فكُتب لجماز أن يسلمه نصف الإمرة ، وكُتب له تقليد بذلك وبنصف أوقاف المدينة النبوية التي بالشام ومصر وسُلّمت إليه ؛ فامتثل جماز ما رُسم به .

وفي ذي الحجة نَزَحت بئر السقاية التي بالقدس حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلمَ الأميرَ علاء الدين الحاج الركني نائب القدس . فأحضر [الأمير] بنائين وكشف البناء ، فأفضى بهم في قناة إلى تحت الصخرة ، فوجدوا هناك بابا مقنطرا قد سُدّ ، ففتحوه فخرج منه ماء كاد يغرقهم . فكُتب بذلك إلى السلطان ، وأنه لما نقص ماء السقاية دخل الصناع فوجدوا سدّا نقب فيه الحجارون قدر عشرين يوما ، ووُجد سقف مُقَلْفَط(٤) فنُقِب فيه قدر مائة وعشرين ذراعا بالعَمَل(٥) ، فخرج الماء وملأ القناة .

(١) ليس لما بين القوسين وجود في س ، ولكنه في ب (١٧١ أ) ، وفي النويري (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٢) في س "بوقبيس" .

(٣) كذا في س بهذا الضبط والنقط ، وهي في النويري (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) "عاب" ، ولعلها عينتاب المعروفة ، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 42) إلى ذلك .

(٤) هذا اللفظ اسم مفعول من قلفط ، وهو تحريف فعل جلفط ، ومعناه سدّ دروز ألواح السفينة بالخيوط أو بالخرق والقير ، وتسمى المواد المستعملة لهذا الغرض باسم الجلفاط أو الجلفاط . (محيط المحيط) . ومن فعل قلفط — أو جلفط — أخذ الفعل الفرنسي (calafter) ، ومعناه سدّ . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 43. n. 51) .

(٥) المقصود بذلك الذراع المعماري ، الذي تقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، وقياسه ثلاثة أشبار بشبر الرجل المعتدل . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٦) .

وفى هـــذه السنة أنشأ السلطان قنطرة على بحر أبى المنجا بناحية بيسوس[1]، وتولى عملها الأمير عز الدين أيبك الأفرم، فجاءت من أعظم القناطر . وفيها أنشأ السلطان القصر الأبلق بدمشق بالميـــدان[2] الأخضر [على نهـــر بَرَدَى] ، فتولى عمل ذلك الأمير أقوش النجيبى نائب دمشق، فعمره بالرخام الأبيض والأسود، و[جعـــل] جانبا عظيما [منـــه] تحف به البساتين والأنهار من كل ناحيـــة، ولم يعمل بدمشق قبله مثله . ومازال عامرا تنزله الملوك ، إلى أن هدمه تيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة، عند حريق دمشق وخرابها .

وفيهـــا جلس منكوتمر[3] بن طغان بن باتوقان بن دوشى خان بن جنكزخان على كرسى مملكة القفجاق بمدينة صَرَاى، عوضا عن الملك بركه[4] خان بن دوشى خان بن جنكزخان، بعـــد وفاته [هذه السنة][5] . وكان بركه خان قد مال إلى دين الإسلام، وهو أعظم ملوك الططر، وكرسى مملكته مدينة صراى .

وفيها[6] مات قاضى القضاة تاج الدين [أبو محمد] عبد الوهاب بن خلف [بن أبى القاسم] العلامى [الشـــافعى]، المعروف بابن بنت الأعز، فى سابع عشرى شهر رجب، [عن إحدى

(١) كذا فى س ، وهى قرية صغيرة بمديرية القليوبية الحاليـــة ، وموقعها على الشاطئ الشرقى لفـــرع دمياط ، وكانت من مراكز الطير المرتبـــة من القاهرة إلى دمياط ، واسمها الحالى باسوس . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٢٥) .

(٢) فى س "والميدان" ، وقد عدل هـــذا اللفظ بحرف الجر ، وأضـــيف ما بين الأقواس بعد مراجعـــة (Enc. Isl. Art. Damascus) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٠) .

(٣) انظر الحاشية التالية .

(٤) فى س ، وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، "بركه خان ابن صاين خان بن دوشى خان..." . انظر (Enc. Isl. Art. Berke) ، حيث جاء أيضا أن بركه خان توفى ولم يترك ولدا ، فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) المذكور هنا ، وهو ابن ابن أخيه باطوخان .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Berke) .

(٦) هـــذه الوفاة مكررة فيما يلى ، (انظر الصفحة التالية ، حاشية ٣) ، وقـــد أضيف ما بين الأقواس مما جاء بالرواية الثانية من الزيادات .

وخمسين سنة[1]] . فولى قضاء القاهرة والوجه البحرى تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى، وولى قضاء مصر محيى الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن على بن صدقة بن حفص، المعروف بابن عين الدولة، فى يوم الخميس تاسع شعبان، بمرسوم ورد عليه عقيب وفاة تاج الدين ابن بنت الأعز، بأن يتولى قضاء مصر والوجه القبلى . وفيها حج الأمير الحلى، وتصدق بمال بعثه به السلطانُ الملك الظاهر، وحج الصاحب محيى الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .

ومات[2] فى هذه السنة الأمير ناصر الدين حسين بن عزيز القيمرى، نائب السلطنة بالساحل[3] . وتوفى شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان — المعروف بأبى شامة — المقدسى الشافعى، بدمشق عن ست وستين سنة[4] .

* * *

(١٤٥ ا)سنة ست وستين وستمائة . فى صفر وردت الزكاة والعشر من المدينة النبوية، وعدتها مائة وثمانون جملا ومبلغ عشرة آلاف درهم، فاستقل السلطان ذلك وأمر برده . فورد

(١) توجد بالنويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢، وما بعدها) ترجمة وافية للقاضى ابن بنت الأعز، ومنها أن "العلامى" نسبة الى قبيلة بنى علامة وهى بطن من لخم، وأنه اشتهر باسم "ابن بنت الأعز" نسبة الى جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر، أحد وزراء السلطان الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب .

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٤٤ ب، ١٤٥ أ، وليس ثمت شك فى مناسبتها هنا . (انظر النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢، وما بعدها ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٧، وما بعدها) .

(٣) يلى هذا فى س ذكر وفاة قاضى القضاة ابن بنت الأعز، التى سبق ذكرها أول وفيات هذه السنة، (انظر ص ٥٦١، سطر ١١)، ونص هذه الرواية الثانية مصححا كالآتى : "وتوفى قاضى القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز العلامى الشافعى فى ليلة الأحد ثامن عشرى رجب عن إحدى وخمسين سنة".

(٤) توجد فى آخر (Rec. Hist. Or. V. p. 207 et seq.) ترجمة طويلة لشهاب الدين أبى شامة، وهو مؤلف كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية المتداول هنا بالحواشى، وقد عرف بأبى شامة لأنه كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة .

بنو صخر وبنو لام وبنو[1] عنزة من عرب الحجاز ، والتزموا بزكاة الغنم والإبل ، فبعث السلطان معهم شادين لاستخراج ذلك . وفيه قُسّمت عمارة صفد على الأمراء ، وأخذ السلطان لنفسه نصيبا وافرا ، وأقيم فى عمارة القلعة وأبراجها الأمير سيف الدين الزينى . وعُمل لهـا أبواب سرّ إلى الخندق ، فلما كملت كتب على أسـوارها : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْـدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أُولَئِـكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أمر بتجديد هـذه القلعة وتحصينها ، وتكميل عمارتها وتحسينها ، بعد ما خلّصها من أسر الفرنج الملاعين ، وردّها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أوّل مرّة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدّل الكفر بالإيمـان والناقوس بالأذان والإنجيـل بالقرآن ، ووقف بنفسـه حتى حمـل تراب خنادقها وحجارتهـا منـه بنفسه وبخواصـه على الرءوس ، السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس . فمن صارت إليه هـذه القلعة من ملوك الإسـلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من أجره ، ولا يُخـله من الترحّم فى سرّه وجهره . فقـد صار يقال عمر الله صرحها ، بعد ما كان يقال عجّل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين " .

وفيه كتب [السلطان] إلى الملك منكوتمر القائم مقام الملك بركه ، بالتعزية والإغراء بولد هولاكو . وفيه رسم [السلطان] بعمارة مسجد الخليل عليـه السلام ، فتوجه الأمير جمال الدين ابن نهار لعمل ذلك ، حتى أنهى عمارته . وفيه سار السلطان من صفد إلى القاهرة ، فدخل قلعة الجبل سالمـا فى ... ...[2] . وقدمت رسل [السلطان المظفر شمس الدين يوسف[3] بن عمر بن رسول ملك] اليمن ، بعشرين فرسا عليها لامة الحرب ، وفيـلة وحمارة وحش عتابيـة اللون وعدّة تحف وطرف . فجُهزت له خلعـة وسنجق ، وهـدية فيها قميص من ملابس السلطان كان قد سأل فيه ليكون له أمانا ، وسيّر [إليه] أيضا جوشن[4] وغيره من آلة الحرب ، وقيل

(١) فى س "بنوا" ، فى الأحوال الثلاث . (٢) بياض فى س . (٣) انظر ص ٥٤٣ ، حاشية ٣ .

(٤) الجوشن هنا الدرع (محيط المحيط) ، ويقابله فى الفرنسية لفظ (cuirasse) . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49) .

له : "قد سيّرنا إليك آلة السلم وآلة الحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد"، وكُتب له : "المقام العالى المولوى السلطانى"[1]، وكَتب له السلطان بخطه "المملوك"[2] .

وفيه اجتاز السلطان (١٤٥ ب) على السَّدِير[3] قرب العباسة ، فأعجبه فاختار منه مكانا بنى فيه قرية سماها الظاهرية ، وعمر بها جامعا . و بينا هو فى الصيد [هناك] إذ بلغه حركة التتار على حلب ، فعاد إلى القلعة وأمر بخروج الخيام ، فلم يعجبه خيام جماعة فأدّبهم وجرسهم . وخرج البريد إلى الشام بتجهيز العساكر ، فلما خرجوا وساروا إلى بانياس أخرج البريدى كتبا مختومة باسم الأمير علم الدين الحصنى والأمير بدر الدين الأتابكى ، وفيها منازلتهم للشقيف ؛ فلم يشعر الفرنج إلا بالعساكر على قلعة الشقيف .

وسار السلطان من مخيمه بباب النصر فى ثالث جمادى الآخرة إلى غزة ، فبلغه عن جماعة من الجمالين أنهم تعرّضوا إلى زرع فقطع أنوفهم ، و بلغه عن الأمير علم الدين سنجر الحموى أنه ساق فى زرع ، فأنزله عن فرسه وأعطاه بما عليه من السرج واللجام لصاحب الزرع . ثم رحل[4] [السلطان] إلى العوجاء .

فلما كان يوم العشرين منه ساق السلطان من العوجاء إلى يافا ، وحاصرها حتى ملكها من يومه ، وأخذ قلعتها وأخرج من كان فيها ، وهدمها كلها وجمع أخشابها و رخامها

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ — ٣٧٠) خمس صيغ لافتتاح المكاتبات الصادرة من سلاطين المماليك بمصر الى ملوك بنى رسول باليمن ، ومنها الصيغة الواردة هنا بالمتن ، وكلها تدل بوجه عام على أن ملوك بنى رسول كانوا غالبا فى المرتبة الثالثة من كبار ملوك الدول الإسلامية . ويوضح ذلك ما جاء فى القلقشندى (نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٦) فى باب ألقاب المكتوب اليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية ، ونصه : " الطبقة الأولى ما يصدر بالمقام ، وأعلاها المقام الأشرف ... ... ، ودونه المقام الشريف ... ... ، ودونه المقام العالى .. .. " . انظر أيضا ص ٤٥٣ ، حاشية ١ .

(٢) جرى المصطلح فى دولة المماليك أن ينعت السلطان نفسه بهذا اللفظ فى المكاتبات الصادرة منه الى الملوك الكبار . انظر (القلقشندى : نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49 n. 58) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو وادبين العباسة والخشبى ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٦) .

(٤) فى س " ورحل " .

وحمـله فى البحر إلى القاهرة . فعُمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهرى بالحسـينية ، ومن الرخام محرابه . وأمر [السـلطان] ببناء الجوامع بتلك البـلاد ، وأزال منها ومن [قرية] لُدّ [(1)] المنكرات ، ورتّب الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها . ورسم أن المـال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره ، وجعله لمأكله ومشربه . وأعطى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس منها قرية ، وأعطى الأمير علم الدين سنجر الحموى قرية ، [و] ملّكهما إياهما. وأنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها ، وقرّر عليهم خيلا وعدة ، فتجدّد له عسكر بغير كلفة . وفيه رسم بتجديد عمارة الخليل عليه السلام ، ورسم أن يكون عمل الخوان الذى يُمَدّ [(2)] ناحيةً عن مسجد الخليل .

وجهز [السلطان] عسكرا إلى الشقيف [(3)] ، ثم سار إليها بنفسه فنزل عليها فى يوم الأربعـاء تاسع عشر شهر رجب ، وقدِم الفقهاء والفقراء للجهاد . ونصب [السلطان] عليها ستة وعشرين منجنيقا ، وألحّ عليها حتى أخذها يوم الأحد سلخ رجب ، وأخرج منها نساء الفرنج وأولادهم

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٤) .

(٢) فى س "يمد ماحيه" ، والمقصـود بذلك أن يكون مكان إقامة الخوان بعيـدا عن الحرم . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٢) ، حيث العبارة فى هذا الصدد كالآتى : "وعمل مكان الخوان ناحية عن الحرم" .

(٣) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٦٤ ، وما بعدها) تفصيل لحيلة توسل بهـا السلطان للاستيلاء على الشقيف ، ونصه : "رحل [السلطان] ...... طالبا للشقيف ، فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب ، فوقع على كتاب من جهة الفرنج الذين بعكا يتضمن إعلام النواب بالشقيفين [أن] المسـلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به ، فجدّوا فى أمركم . فلما اطلع السلطان على ذلك انفتح له باب فى أخذه ، فاستدعى من يكتب بالفرنجى وأمره أن يكتب كتابا يذكر فيه أمارات بينهم وبين أهل عكا استفادها من الكتاب الذى وقع له ، ويحذر المكمندور (كذا ، والمتواتر لفظ الكمندور ، وهو معرب اللفظ الفرنسى commandeur ، أى المقدّم) المقيم بالشقيف من (١٦٥) الوزير [كليام] المقيم عنده ومن جماعة كانت أسماؤهم فى الكتاب ، وكتابا آخر للوزير [كليام] يحذره من المكمندور ، ويأمره إن احتاج إلى مال [أن] يأخذه من ملك كان اسمه فى الكتاب ، وأوصل الكتب إليها بحيلة . فلما وقف أهل الشقيف على الكتب وقع الخلف بينهم مع شدة الحصار الذى كانوا فيه ، فألجأهم الخلف بينهم إلى أن سيروا إلى السلطان الملك الظاهر وقرروا معه تسليم الحصن ، على ألا يقتلوا من فيـه . فتسلم [السلطان] الحصن فى تاسع وعشرين [من] رجب ، وكان قد ملك الباشورة بالسيف ، واصطنع المكمندور . وكان عدة من بالحصن أربعمائة وثمانين مقاتلا ، فركبهم الجمال إلى صور ، وبعث معهم من يحتفظ بهم" . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٢ — ٩٣) .

إلى صور، وقيّد الرجال كلهم وسلّمهم للعساكر. وهدم [السلطان] قلعة استجدّها الفرنج [هناك]، واستناب على القلعة الأخرى الأمير صارم الدين قايماز الكافرى، ورتّب بها الأجناد والرجّالة، وقرّر فيها قاضيا[1] وخطيبا، وولى أمر عمارتها الأمير سيف الدين بلبان الزينى وفيه وردت كتب من (١٦٤ ا) الكرج[2].

وفى شعبان وصل رسول صاحب بيروت بهدية وتجار كانوا قد أخذوهم فى البحر من سنين، فما زال السلطان حتى خلّصهم وخلّص أموالهم[3].

وفى عاشره رحل السلطان من الشقيف الى قرب بانياس، وبعث الأثقال الى دمشق. وجهّز الأمير عز الدين أوغان بجماعة لجهة، وجهز الأمير بدر الدين الأيدمرى فى جماعة الى جهة أخرى، فخفظت العساكر الطرقات.

ثم سار [السلطان] إلى طرابلس وخيّم عليها فى النصف منه، وناوش أهلها القتال وأخذ برجا كان هناك، وضرب أعناق من كان فيه من الفرنج[4]. وأغارت العساكر على من فى تلك الجبال، وغنموا شيئا كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف، وأحضروا المغانم والأسرى الى السلطان فضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس، وقسّم الغنائم فى العسكر.

ورحل [السلطان عن طرابلس][5] فى رابع عشريه، فتلقّاه صاحب صافيتا وأنطرسوس بالخدمة، وأحضر ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فشكره السلطان ولم يتعرّض لبلاده. ونزل [السلطان] على حمص، وأمر بإبطال الخمر والمنكرات. ثم دخل الى حماة ولا يعرف أحد

---

(١) فى س "قاضى". (٢) انظر ص ٥٣٧، حاشية ١. (٣) انظر ص ٥٥٩، حاشية ١.

(٤) اقتصرت حركات جيوش السلطان هنا على مهاجمة البلاد المحيطة بطرابلس، ولم يستطع الأمير بيوند السادس (Bohemond. VI)، وهو صاحب طرابلس وأنطاكية، أن يوجه أى مقاومة ضد السلطان الظاهر بيبرس. راجع (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 263). انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٣ — ٩٤)، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة.

(٥) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٤). ويلاحظ أن عبارة السلوك هنا، وفيما سبق من أخبار إغارات السلطان بيبرس على المدن الصليبية، مشابه تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب.

أى جهة يقصـد ، فرتّب العسـكر ثلاث فرق : فرقة صحبـة الأمير بدر الدين الخازندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان ، وفرقة مع السـلطان . فتوجه الخازندار الى السُّـوَيدِيّة (١) ، وتوجه إيغان الى درب بساك ، فقتلوا وأسروا . ونزل السلطان أفامية ، ووافاه الجميع على أنطاكية .

وأصبح أول شهر رمضان والسلطان مغير على أنطاكية (٢) ، وأطافت العساكر بهـا من كل جانب ، فتكملوا بخيامهـم فى ثالثه . وبعث [السلطان] الى الفرنج يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهـم ، [وفاوضهم فى ذلك] (٣) مدّة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون ، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالا شديدا . وتسوّر المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا المدينة ففرّ أهلها الى القلعة ، ووقع النهب والقتل والأسر فى المدينة ، فلم يُرْفع السيف عن أحد من الرجال وكان بها فوق المـائة ألف . وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفرّ منها أحد ، واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والأولاد ، فبعثوا يطلبون الأمان فأمّنوا . وصعد السلطان اليهم ومعه الحبال ، فكُتّفوا وفرّقوا على الأمراء ، والكُتّاب بين يدى السلطان ينزلون الأسماء .

وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند ، وله معها طرابلس ، وهو مقيم بطرابلس . وكتبت البشائر بالفتح الى الأقطار [الشامية والمصرية والفرنجية ، وفى الجملة كتاب (٤) الى صاحب أنطاكية — وهو يومئذ مقيم بطرابلس — وهو من إنشاء ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالى] .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى حصن وميناء لأنطاكيـة ، واسمهـا فى الحوليات الصليبية (Port Simon, Le Soudin) . راجع (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 540) . (٢) فى س "واصبح اول رمضان مغيرا عليها" ، وقد عدلت الجملة على النحو المثبوت هنا من أجل البدء فى فقرة جديدة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤) ، حيث وردت تلك الأخبار بتفصيل .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل : (كتاب النهج السديد ، ص ١٦٧) . ويوجد بهذا المرجع (ص ١٦٧ ، وما بعدها) ، وكذلك بالعينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٩ ، وما بعدها ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، والنويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤ ، وما بعدها) ، نص للكتاب المرسل الى صاحب أنطاكية ، ومن هذا المرجع الثالث نقله وترجمه الى الفرنسية (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 190 et seq) . ولهذا الكتاب ترجمة باللغة الألمانية فى (Weil: Geschichte der chaliphen. IV. pp. 63-67) ، وأخرى بالإنجليزية فى (Yule : Marco Polo. I. P. 2.5) راجع (Lane-Poole : A. Hist of Egypt In The Middle Ages. p. 269. n. I) ، وانظر النص العربي لهذا الكتاب فى ملحق رقم ٢ ، فى آخر هذا الجزء .

وسلم السلطان القلعة إلى (١٤٦ ب) الأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير [بدر الدين] بيسرى [الشمسى][(١)]، وأمر بإحضار المغانم لتقسّم، وركب وأبعد عن الخيام وحمل ما غنمه وما غنمته مماليكه وخواصه، وقال : "والله ما خبأت شيئا مما حمل إلىّ ولا خلّيت مماليكى يخبئون شيئا ، ولقد بلغنى أن غلاما لأحد مماليكى خبأ شيئا لا قيمة له فأدّبته الأدب البالغ ، وينبغى لكل أحد منكم أن يخلّص ذمته، وأنا أحلّف الأمراء والمقدمين، وهم يحلّفون أجنادهم ومضافيهم" . فأحضر الناس الأموال والمصاغ الذهب والفضة حتى صارت تلاًّ بها، وقسّمت فى الناس، وطال الوزن فقسّمت النقود بالطاسات . وقسّمت الغلمان على الناس ، فلم يبق غلام إلا وله غلام، وتقاسم النساء والبنات والأطفال، وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم . وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه ، وقصّر الناس فى إحضار الغنائم فعاد [السلطان] مغضبا ، فلم تزل الأمراء به يلتزمون بالاجتهاد والاحتراز ويعتذرون اليه، حتى وقف على فرسه وماترك شيئا حتى قسّمه .

ثم ركب [السلطان] الى القلعة وأحرقها، وعمّ بالحريق أنطاكية ، فأخذ الناس من حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف كثرة . وأقيمت الأسواق خارج المدينة، فقدم التجار من كل جهة . وكان بالقرب من أنطاكية عدة حصون ، فطلب أهلها الأمان ، فتوجّه اليهم الأمير بيليك الأشرفى [و] تسلمها فى حادى عشره، وأسر من فيها من الرجال .

وكان التكفور[(٢)] [هيتوم] ملك سيس لم يزل يسأل فى إطلاق ولده ليفون ، ويعرض فى فدائه الأموال والقلاع . وكان التتر قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب، لما ملكوها من الملك الناصر ، فاقترح السلطان على ملك سيس إحضار سنقر عوضا عن ولده ، وردّ القلاع التى أخذها من مملكة حلب، [وهى بَهَسَنا[(٣)] ودَرْبَسَّاك ومَرْزَبان ورَعْبَان

(١) كل هذا الاسم من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٦) .

(٢) فى س "تكفور ملك سيس" .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.)، وضبط من ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٠؛ ج ٢، ص ٦٤٧، ٧٩١؛ ج ٣، ص ٩٥) .

وشِيح الحـــديد][1] ؛ فسأل [هيتوم] المهلة سنة إلى أن يبعث إلى الأُرْدو[2] . فلما كان فى هـــذه الأيام ، بعث [هيتوم] إلى السلطان بأنه وجد ســـنقر، و[أنه] أجيب إلى إطلاقه، فكتب إليه بإحضاره . فأَحْضَر[3] [هيتوم] كتاب سنقر إلى السلطان بأماير، إلا أنه غيّر قوله فى تسليم القلاع ، فكُتب إليه : " إذا كنت تقسو على ولدك وولىّ عهدك، فأنا أقسو على صـــديق ما بينى و بينه نسب ، ويكون الرجوع منك لا منى . ونحن خلف[4] كتابنا، فمهما شئت[5] افعل بســـنقر الأشقر" . فلما وصلت إليـــه الكتب من أنطاكية خاف ، وتقرّر الصلح على تسليم قلعة بَهَسْنَا[6] ودر بساك (١٤٧ ا) وكلّ ما أخذه من بلاد الإسلام، وأن يردّ الجميع بحواصلها كما تسلمها، ويطلق سنقرَ الأشقر، ويطلق السلطانُ ولَده وابن أخيه وغلمانهما، وأنه يحضر رهينة حتى يتســـلم السلطان القلاع ؛ فكتبت الهـــدنة بأنطاكية . وتوجه الأمير بلبان الرومى الدوادار، والصدر فتح الدين بن القيسرانى كاتب الدرج، لاستحلافه . وتوجه الأمير بدر الدين بجكا الرومى لإحضار الملك ليفون من مصر على البريد فى ليـــلة الثالث عشر من رمضان ؛ فوصـــل إلى القاهرة وخرج منها ثانى يوم دخوله بالملك ليفون، فوصـــل إلى دمشق ليـــلة الاثنين سادس عشريه، فكان بين خروجه من أنطاكية وعوده إلى دمشق ثلاثة عشر يوما . وحلف التكفور هيتوم صاحب سيس فى سابع عشريه، فانتظم الصلح[7] .

---

(١) سمى العينى (عقد الجمان، ج ٥ ، ٢٣ ، فى Rec Hist. Or. II. 1) هذا البلد باسم "شيح الحديد" .

(٢) الأردو لفظ مغولى معناه المعسكر، وقد استعمل فى المراجع العربية والفارسية فى هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس، (le campement impérial du souverain des Mongols de l'Iran)، انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣) .

(٣) هذه الجملة ليست واضحة تماما فى س، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2 P. 55) الى الصيغة التالية : (En même temps, Bibars reçut de cette écrite en chiffres) .

(٤) فى س "حلف" .

(٥) فى س "سيت" .

(٦) بغير ضبط فى س، وهى قلعة بين مرعش وسميساط . (ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ، ص ٧٧٠) .

(٧) انظر ما يلى ص ٥٧٠ ، سطر ٥ .

ورحل السلطان من أنطاكية إلى شيزر، وسار منها على البرّية إلى حمص وهو يتصيد، فدخل حماة فى ثلاثة نفر: وهم الأمير بيسرى، والأمير بدر الدين الخازندار، والأمير حسام الدين الدوادار؛ ونزل العسكر حماة. ثم سار السلطان من حمص إلى دمشق، فدخلها فى سادس عشريه، والأسرى بين يديه و[ليفون ابن](١) صاحب سيس فى خدمته، فأحسن إليه. وحلف [ليفون] للسلطان فى ثالث شوّال على النسخة التى حلف عليها أبوه، وهو قائم مكشوف الرأس؛ وسار إلى بلاده فى حادى عشره صحبة الأمير بجكا على البريد، حتى قرّره فى مملكته. ووصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم، وما زالوا إلى أن تسلم نوّاب السلطان القلاع من أهل سيس، فأعيدت الرهائن إليهم بما أنعم عليهم. وعند ما وصل ليفون إلى سيس أطلق سنقر الأشقر، وبعث به إلى السلطان. فتلقّاه [السلطان] وهو فى الصيد من غير أن يعرف أحد بقدومه، وقدم به وهو مختف وأنزله عنده فى الدهليز، وبات معه. فلما أصبح [الصباح] واجتمع الناس فى الخدمة، خرج السلطان ومعه * سنقر الأشقر، فبهت الناس لرؤيته. وأخرج له السلطان المال والخلع والحوائص، والخيل والبغال والجمال والمماليك، وسائر ما يحتاج إليه. وحمل إليه الأمراء التقادم، وبالغ [السلطان] فى الإحسان إليه، وبنى له دارا بقلعة الجبل. ولما حضر [سنقر] إلى القاهرة أعطاه [السلطان] إمرة، وعمله من خواصه.

وفى ثالث عشره تسلّم الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى أستادار السلطان حصن بغراس من الفرنج [الداوية](٢)، و[كانوا] قد فرّوا عنها [وتركوا الحصن(٣) خاليا] حتى لم يبق بها سوى عجوز واحدة، فوجدها [الأمير شمس الدين] عامرة بالحواصل والذخائر.

(١) انظر ما يلى بالسطر التالى، وسطر ٩ أيضا.

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان، ص ٢٤٣، فى Rec. Hist.Or. II. 1.).

(٣) أضيف مابين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.).

وفيه وردت رسل [صاحب][1] عكا بهدية ، فحصـل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولهـا ثلاث ضـياع ، وأن تكون (١٤٧ب) مدينـة عكا و بقية بلادها مناصـفة هى و بلاد الكِرْمِل[2]، وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبليات للسـلطان، وأن الهدنة لعشر سنين، وأن الرهائن تطلق . و بعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون[3] نفسا من أسرى أنطاكية، وتوجّه القاضى محيى الدين بن عبـد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث[4] لاستحلافه، فدخلا عكا فى عشرى شـوّال ، وقد وصّاهما السـلطان ألا يتواضـعا له فى جلوس ولا مخاطبـة . فلمـا دخلا كان الملك على كرسى ، فلم يجلسا حتى وضع لهما كرسـيين جلسا عليهـما قبالته ؛ ومدّ الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضـيا حتى مدّ الملك يده وأخذه، ولم يوافق على أشـياء فتركوه ولم يحلف .

وفى ثامن عشر ذى القعدة خرج السلطان من دمشـق وسار إلى القاهرة ، فخرج الملك السعيد إلى أم البارِدة[5] وهى السعيدية ، وعيّد مع السلطانـ بها . وسارا إلى قلعة الجبـل فى حادى عشر ذى الحجة، وحمل [السلطان] عن الناس كلفة الزينة .

وفيها مات السلطان ركن الدين قلج أرسـلان بن كيخسرو بن قلج أرسـلان بن مسعود ابن قلج أرسـلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق، ملك الروم . وقام من بعده ابنه غياث الدين كيخسرو، وعمره أربع سنين؛ فقام بأمر المملكة معين الدين سليمان

---

(١) كان صاحب عكا تلك السنة ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٦ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، "اوك بن هرى (كذا) ابن أخت صاحب قبرص" (Hugh III of Cyprus) ، وأبوه (Henry, Son of Bohemond IV of Antioch) ، وأمه (Isabella, daughter of Hugh I of Cyprus) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East p. 342. n.9; King : The Knights Hospitallers In The Holy Land, pp.264 - 265).

(٢) بغير ضبط فى س، والكرمل حصن بالجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦٧) .

(٣) فى س "عسرين" .

(٤) فى س "شىث" .

(٥) كذا فى س، انظر ص ٤٠١ ، حاشية ٥ .

البَرْوَاناه(1) . وكان موت ركن الدين خنقا بالوتر، وذلك أن(2) معين الدين البرواناه اتفق مع الططر المقيمين معه على قتل ركن الدين، فخنقوه(3) .

ومات(4) فى هذه السنة من الأعيان كمال الدين أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن الشهيد أبى صالح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى كاتب الإنشاء، ظاهر صور من الساحل . وتوفى الصاحب عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن منصور بن محمد بن وداعة الحلبى وزير دمشق، بالقاهرة . وتوفى الأديب عفيف الدين أبو الحسن على ابن عدلان بن حماد بن على الموصلى بدمشق، عن ثلاث وثمانين سنة . ومات الأمير عماد الدين أبو حفص عمر بن هبة الله بن صديق الخلاطى الأديب الفاضل بحماة، عن ثمان وستين سنة . وتوفى الشيخ المعتقد أبو داود مُسَلَّم السُلَمى(5) شيخ الطائفة المسلمية، فى يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الأول، ودفن بالقرافة؛ وكان فى ابتداء أمره قاطع طريق، وأخذ عن الشيخ مروان أحد أصحاب الشيخ مرزوق، وقدم القاهرة، وعنى به الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا .

---

(1) البرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب (chambellan)، وقد أطلق فى دولة السلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر (le principal ministre) . راجع (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 57. n. 69) وكان الوزير معين الدين المذكور هنا متسلطا فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان كما يلى هنا بالمتن . انظر أيضا ص ٤٠٨، حاشية ١، وكذلك (Enc. Isl. Arts. Kilidj Arslān IV; Mu'in al-Din Sulaimān Parwāna) .

(2) فى س "ابن" .

(3) يلى هذا فى س عبارة طويلة أولها : "وفيها تنكز الخان ..."، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ، ثم أدرك غلطه فكتب فوقها "ينقل الى سنة ثمان وسبعين [وستمائة]"، وهذا خطأ أيضا والصحيح ثمان وستين وستمائة، وقد أدمجت فى موضعها تحت تلك السنة . (انظر ص ٥٨٨، حاشية ٢،١) .

(4) الوفيات التالية الى آخر السنة واردة على ورقة لصقت خطأ بين الصفحتين ١٤٩ ب، ١٥٠ أ فى س، وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٢٣؛ ابن شاكر : فوات الوفيات، ج ٢، ص ٩٥) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود البتة فى ب (١٧٤ ب)، أو فى (Quatremère : Op. Cit I. 2. p. 58) .

(5) هذان اللفظان مضبوطان هكذا فى س .

* * *

سنة سبع وستين وستمائة . فى أول المحرم ركب السلطان حتى شاهد جامعه بظاهر القاهرة، وسار لفتح بحر أبى المنجا، وعاد إلى القلعة . وفيــه احتفل السلطان برمى النشاب وأمور الحرب ، وبنى مسطبة بميدان العيد خارج باب النصر من القاهرة؛ وصار ينزل كل يوم من الظهر ويرمى النشاب، فلا يعود من الميـــدان إلى عشاء الآخرة . و[أخذ السلطان] يحرّض النـــاس على الرمى والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله ، وتوفّر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب . وفيه قدمت الرسل من جميع الأقطار تهنئ السلطان بمـا فتحه الله عليـــه .

وفى يوم الخميس تاسع صفر جلس الملك السعيد بركه فى مرتبـة الملك، وحضر الأمراء فقبّـلوا الأرض ، وجلس الأمير عز الدين الحلى و[الأمير فارس الدين][1] الأتابك بين يديه ، والصاحب بهاء الدين وكتّاب الإنشاء والقضاة والشهود . وحلف له الأمراء وسائر العساكر .

وفى ثالث عشره ركب [الملك الســعيد] الموكب كما يركـب والده، (١٤٨ ا) وجلس فى الإيوان وقرئت عليه القصص . وفى العشرين منه قرى بالإيوان تقليده[2] بتفويض السلطنة إليه، واستمر جلوسه فى الإيوان مكان والده لقضاء الأشغال، و[صار] يوقّع ويطلق ويركب فى الموكب . وأقام الســلطان الأمــير بدر الدين بيليك الخازندار نائبا عنه، عوضا عن الأمير عز الدين الحلى .

وفى ثانى عشر جمـادى الآخرة خرج السلطان ، ومعه الأمير عز الديـــن الحلى وأكابر الأمراء، فى عدّة من العسكر يريد بلاد الشام ، وترك أكثر العسكر عند الملك الســعيد . فلما وصل إلى غزة أنفق فى العسكر، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها . فقدم [عليه] كتّاب متملك سيس بأن رســول أبغا بن هولاكو قدم ليحضر إلى السلطان، فبعث إليه الأمير ناصر الدين

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٦٨).

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٦٨ ، وما بعــدها) نص هذا التقليد. وذكر أنه كان من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان . (انظر ملحق رقم ٣ ، فى آخر هذا الجزء) .

ابن صيرم مشدّ حلب ليتسلمه من سيس، ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدّث مع أحد. فسار به إلى دمشق، ولم يحتفل به عند وصوله إلى دمشق، وأُنزل فى قلعتها. فورد الخبر بذلك، فركب السلطان من أرسوف وترك الأثقال بها، وأخذ معه الأمراء ودخل إلى دمشق. وأُحضر الرسول [إليه]، فكان من جملة كتابه: "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلّصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا". وكان فى المشافهة: "أنت مملوك وأُبعْتَ فى سيواس(1)، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض؟" فأجيب وأعيد الرسول.

وفى أوّل شعبان مات الأمير عز الدين الحلى بدمشق. وفيه خرج السلطان من دمشق، وودّع الأمراء كلهم وسيرهم إلى مصر؛ ولم يتأخر عنده من الأمراء الكبار سوى الأمير الأتابك، والمحمدى، والأيدمرى، وابن أطلس خان، وأقوش الرومى. فسار بهم إلى قلعة الصبيبة ثم الى الشقيف وصفد، وكتب بحضور الأثقال الى خربة اللصوص من أرسوف، فأحضرها الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار، وقدم السلطان إليها فأقام بها أياما.

وخطر للسلطان أن يتوجه إلى ديار مصر [خفية](2)، فكتم ذلك وكتب إلى النوّاب بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته، ورتّب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه وتخرج علائم على بياض تكتب عليها الأجوبة. فلما كان فى رابع عشره أظهر [السلطان] أنه تشوّش فى بدنه، واستدعى الحكماء الى الخيمة، ووقع احتفال فى الظاهر (١٤٨ ب) بتوعكه، وأصبح الأمراء فدخلوا عليه وشاهدوه مجتمعا على هيئة متألم؛ وكتب الى دمشق باستدعاء الأشربة.

(١) يجب أن تسدّ هذه العبارة فراغا فى ترجمة السلطان الظاهر بيبرس، إذ أن كل المعروف عن أصله وحداثته لا يعدو أنه ولد فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٣م) ببلاد القبشاق، وأنه بيع بدمشق للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار. (انظر ص ٣٥٠، حاشية ٢؛ ص ٤٣٦؛ Enc. Isl. Art. Baibars I.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.)، هذا وعبارة المقريزى هنا مشابهة فى ترتيبها ولفظها لما يقابلها فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٩، وما بعدها).

وتقدّم [السلطان] إلى الأمير بدر الدين الأيدمرى، والأمير سيف الدين بكتوت جرمك الناصرى، بالتوجه الى حلب على خيل البريد وصحبتهما بريدى، فتوجهوا ليلة السبت سادس عشره؛ و [كان السلطان قد] أوصاهم أنهم إذا ركبوا يأتوا خلف الدهليز، حتى يتحدّث معهم مشافهة. وجهز [السلطان] الأمير آقسنقر الساقى على البريد الى مصر، وأعطاه تركاشه وأمره أن يقف خلف خيمة الجمدارية من وراء الدهليز، فوقف حيث أمر. ولبس السلطان جوخة مقطّعة، وتعمّم بشاش دخانى عتيق، وقصد أن يخرج ولا يعلم به الحراس، فوجد قماش نوم لبعض المماليك، فاستدعى خادما من خواصه وقال له: "أنا خارج بهذا القماش، احمله وامش قدّامى، فإن سألك أحد فقل هذا بعض البابية[1] معه قماش بعض الصبيان، حصل له مرض وما يقدر يحضر الخدمة الليلة، وهذا غلامه خارج اليه بقماشه". فخرج [السلطان] بهذه الحيلة ولم يفطن به أحد؛ وكان قد أسرّ الى الأمير شمس الدين الفارقانى أنه يغيب مدة أيام عيّنها.

ولما خرج[2] [السلطان] من الدهليز مشى الى الجهة التى واعد آقسنقر الساقى اليها، و [كان قبل ذلك] قد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيّرها مع الأمير بهاء الدين أمير آخور، [وأمره أن] يقف بها فى مكان. فأخذ آقسنقر الخيل، وسيّر بهاء الدين أمير آخور الى التل، فوجد الأيدمرى ورفقته. فصار اليهم السلطان، واختلط بهم فى السّوْق وهم لا يعرفونه[3]، فلما طال سَوْقهم قال السلطان للأيدمرى: "تعرفنى؟" فقال: "أى والله!"

(١) البابية جمع بابا، وهو حسبما ورد فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٧٠) "لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك. وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء... وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه، من تنظيف قماشه وتحسين هيئته، أشبه الأب الشفيق، فلقب بذلك". انظر أيضا (Quatremère : Op, Cit. I. 2. pp. 194-195).

(٢) عبارة المقريزى هنا مضطربة قليلا، ونصها: "ولما خرج من الدهليز مشى الى الجهة التى واعد آقسنقر اليها، وقد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيرها مع الأمير بهاء الدين أمير اخور وقف بها فى مكان فأخذ آقسنقر الخيل ثم سير اليه أمير آخر (كذا) سار به فوجد الأيدمرى و رفقته..."، وقد أصلحت العبارة وأضيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٠).

(٣) فى س "لا يعرفوه".

وأراد أن ينزل عن فرسه ليقبّل الأرض، فمنعه . وقال [السلطان] لجرمك : " تعرفنى ؟ " فقال : " إ ش هذا ياخوند ؟ "، فقال له : " لا تتكلم " . وكان معهم الأمير علم الدين شُقير مقدّم البريدية ، فصارت جملتهم خمسة أنفس ، ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص .

فساقوا الى القصير المعينى ووافوه نصف الليل، فدخل السلطان الى الوالى ليأخذ فرسه، فقام اليه بنحو خمسين راجلا ليهاوشه وقال : " الضيعة ملك السلطان، مايقدر أحد يأخذ منها فرسا، تروحوا و إلا قتلناكم". فتركوه وساقوا الى بيسان، وأتوا دار الوالى وقالوا: "نريد خيلا للبريد "، فأنزلهم . وقعد السلطان عند رجلى الوالى وهو نائم ، ثم التفت الى الأيدمرى وقال : " الخلائق على بابى، وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت (١٤٩ ا) إلىّ، ولكن الدنيا نوبات" . وطلب [السلطان] من الوالى كوزا، فقال : "ماعندنا كوز . إن كنت عطشان[1] اخرج واشرب من برّاً "، فأحضر اليه الأيدمرى كُرَازا[2] شرب منه . وركبوا وصبحوا جينين، فوجدوا بها خيلا للبريد عرجاء مُعقَّرة[3]، فركب السلطان منها فرسا لم يكد يثبت عليه من رائحة عقوره . وساروا فلما نزلوا تل العجول بقى كل منهم ماسكا فرسه، فلما وصلوا الى العريش قام السلطان والأمير جرمك وتَقَّيا الشعير، وقال السلطان لجرمك :" أين السلطنة والأستادار وأمير جاندار ؟ وأين الخلق الوقوف فى الخدمة ؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم، وما يدوم إلا الله سبحانه " . ولم يبق معهم من الجنائب الأربعة إلا الذى على يد السلطان يقوده، ووصل معه الى الصالحية .

---

(١) فى س " عطشانا " .

(٢) الكُرَاز — والكَرَّاز أيضا — القارورة ، أو كوز ضيق الرأس، والجمع كرزان . (محيط المحيط) . ويستعمل الكراز لحفظ الماء صالحا للشرب (fraiche) ، وأصل اللفظ من لهجة العراق، وقد انتقل الى إسبانيا واللغة الإسبانية، حيث يقال (alcarraza) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) المراد بوصف خيل البريد بهذا الوصف أنها كانت مجرحة الظهر، إذ يقال تعقّر ظهر الدابة أى دبر وتقرح ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit: I. 2. p. 64) لفظ معقرة الى (couverts de plaies) .

وصعدوا الى القلعة ليلة الثلاثاء الثلث الأول من الليل ، فأوقفهم الحرّاس حتى شاوروا الوالى . ونزل السلطان فى باب الإسطبل وطلب أمير آخور، وكان قد رتّب مع زمام الأدر[1] أن لايبيت إلا خلف باب السر، فدقّ السلطان باب السر وذكر للزمام العلائم التى بينه و بينه، ففتح الباب ودخل السلطان ورفقته. وأقاموا يوم الثلاثاء والأربعاء، وليلة الخميس الحادى والعشرين من شعبان ، ولا يعلم بالسلطان أحد إلا الزمام فقط . وصار [السلطان] يتفرج فى الأمراء بسوق الخيل : فلما قُدِّم الفرس للملك السعيد يوم الخميس على العادة قَدَّم أمير آخور للسلطان فرسا آخر، وعند ما خرج الملك السعيد ليركب ما أحسّ إلا والسلطان قد خرج إليه، فرعب منه وقبّل له الأرض . وركب السلطان وخرج على غفلة والوقت بغلس ، فأنكر الأمراء ذلك وأمسكوا قبضات سيوفهم، ونظروا فى وجه السلطان حتى تحققوه، فقبّلوا له الأرض . وساق السلطان إلى ميدان العيد ، وعاد الى القلعة وقضى أشغال الناس . وأقام بقية يوم الخميس و يوم الجمعة، ولعب بالكرة يوم السبت . وتوجّه يوم الأحد الى مصر، ورمى الرجال بالشوانى قدّامه، وركب فى الحراريق وعاد الى القلعة . فلما كان ليلة الاثنين خامس عشرى شعبان، ركب [السلطان خيل] البريد من القلعة، وعاد إلى معسكره بخربة اللصوص .

وأما ما جرى فى معسكر (١٤٩ب) السلطان بالخربة ، فإن الأمير شمس الدين الفارقانى لما أصبح ، وقد فارق السلطان الدهليز ، أظهر للأمراء أن السلطان منقطع لضعف حصل له ، واستدعى الأطباء وسألهم عما يصلح للتوعك الذى يشكو صداعا وخَدَرا[2] وتكسّلا

(١) صحة هذا الاسم المركب بالإضافة "زمام دار"، وخطأ المقريزى وغيره من الكتّاب فى رسمه كما بالمتن راجع الى الاعتقاد بأن لفظ "دار" عربى، ولذا كان جمعه على "ادر" (انظر ما يلى بنفس الحاشية) . أما الزمام دار فتحريف من الزنان دار، "وهو لقب على الذى يتحدّث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان، وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما زنان ... ... ومعناه النساء، والثانى دار ومعناه ممسك ... ، فيكون المعنى ممسك النساء بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم، إلا أن العامة والخاصة قد قلبوا النونين فيه بميمين ، فعبروا عنه بالزمام دار ... ... ظنا أن الدار على معناها العربى ، والزمام بمعنى القائد ... ." (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥ ، ٤٥٩ — ٤٦٠) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 65. n. 77) .

(٢) الخدر تشنج يعترى العضو فلا يطيق الحركة . (محيط المحيط) .

وعطشا ؛ وأوهمهم أن السلطان يشكو ذلك ، فوضعوا له ما يوافق . وأمر [الأمير شمس الدين] الشراب دارية فأحضروا الشراب، ودخل إلى الدهليز بنفسه ليوهم العسكر صحة ذلك، إلى أن وصل السلطان ليلة الجمعة تاسع عشريه الى قرب الدهليز .

فأمر [السلطان] الأيدمرى وجرمك بالتوجه الى خيامهما ، وأخذ على يده جراب البريد وفى كفه فوطة(١)، ومشى على قدميه الى جهة الحراس، فمانعه حارس وأمسك طوقه، فانجذب منه السلطان ودخل باب الدهليز . وبات [السلطان]، فلما أصبح أحضر الأمراء وأعلمهم أنه كان متغير المزاج؛ وركب فضربت البشائر لعافية السلطان . ومشى كل ما وقع على العسكر، ولم يعلم به سوى الأتابك والأستادار والدوادار وخواص الجامدارية .

وكانت فى هذه المدة ترد المكاتبات وتكتب أجوبتها كما رتب السلطان ، والأحوال جميعها ماشية كأنه حاضر لم يختل شىء من الأمور، وقصد بما فعل أن يكشف حال مملكته، ويعرف أحوال ابنه الملك السعيد فى مصر، فتم له ما أراد .

وكتب [السلطان] بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر فطهرت كلها من المنكر، ونهبت الخانات(٢) التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها، وسلبت جميع أحوال(٣) المفسدات وحبسن حتى يتزوجن، ونفى كثير من المفسدين . وكتب [السلطان] إلى جميع البلاد بمثل ذلك ، وحط المقرر على هذه الجهة من المال ، وعوض المقطعين جهات(٤) حلالا .

وورد الخبر بحصول زلزلة فى بلاد سيس خرب منها قلعة سرفند(٥) وعدة قلاع، وهلك كثير من الناس حتى سال النهر دما ، وتلفت عدة جهات . وورد الخبر بأن الفرنج شنعوا بموت

(١) الفوطة هنا مرادف البقجة، وهى قطعة من قاش من الحرير الإسكندرى، تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة الى حضرة السلطان . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 218. N. 98) .

(٢) فى س "الحانات". انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 67. n. 79) .

(٣) الأحوال جمع حال، ومعناها هنا الأموال (argent, richesses). انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٤) فى س " جهاتا " . (٥) بغير ضبط فى س . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

السلطان، وحضر رسولهم يطلب المهادنة : وكان قـد هرب من المماليك السلطانية أربعة وصاروا إلى عكا، فبعث [السلطان] بإحضارهم فامتنع الفـرنج من إحضارهم إلا بعوض ؛ فأنكر السلطان ذلك وأغلظ عليهم، فسيروا المماليك وقد نصّروهم . فعند ذلك قبض [السلطان] على رسل الفرنج وقيّدهم ، وكتب إلى النواب بوقوع الفسخ، وأغار عليهـم (١) (١٥٠ ا) الأمير أقوش الشمسى وقتـل وأسر منهم جماعة . وركب السلطان فى العشرين من رمضان وساق إلى صور، وقتل وأسر جماعة، وعاد الى الخيم وأمهل مدة، ثم جرد طائفة لأخذ المَغَلّ وقطع الميرة عن صور .

وفى سادس عشريه تسلّم نواب السلطان بَلاطُنُس (٢) [من عزالدين عثمان صاحب صهيون (٣)]، وهى حصن عظيم . وفيه سارت العساكر من البيرة إلى كَرْكَر (٤) فأحرقوا وغنموا ، وأخذوا قلعة كانت بينها وبين تَخْتا (٥)، وقتلوا رجالها وغنموا كثيرا، وأخرجوا منه الخمس للديوان .

وفيه كان خلف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه الشريف بهاء الدين إدريس أميرى مكة (٦)، ثم اتفقا فرتّب لهما السلطان عشرين ألف درهم نقرة فى كل سـنة، على ألا يؤخذ بمكة من أحد مكس، ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض لتاجر، وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر، وتضرب السكة باسمه . وكُتب لهما تقليد بالإمارة، وسُلمت أوقاف الحرم التى بمصر والشام لنوابهما .

(١) توجد بين الصفحتين ١٤٩ ب، ١٥٠ ا فى س، ورقة منفصلة بهـا وفيات تابعة لسنة ٦٦٦ هـ، وقـد أدرجت هناك . (انظر ص ٥٧٢، حاشية ٤) .

(٢) بغير ضبط فى س، و بلاطنس حصن بساحل الشام مقابل اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٧١٠) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٣، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، و يوجد فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٢٦٢) عدة مواضع بهذا الاسم ، وكركر المقصودة هنا حصن على الفرات بين آمد وملطية ، واسمها فى المراجع الفرنجية (Guerguer, Gargar) أى الحصن المنيع . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة قديمة على نهر تختاصو (Khiakhta—Su)، وتقع على مسافة أربعين ميلا تقريبا من الجنوب الشرقى من ملطية .(Enc. Isl.Art.Kiakhta) .

(٦) يلى هذا فى س لفظ "قبلا" ، وهو مشطوب .

وفيه سلم السلطان للشريف شمس الدين قاضى المدينة النبوية وخطيبها ووزيرها — وقد حضر فى رسالة الأمير عز الدين جماز أمير المدينة — الجمال التى نهبها أحمد بن حجى لأشراف المدينة، وهى نحو الثلاثة آلاف جمل، وأمره أن يوصلها لأربابها . وفيها قدم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى شيخ خدام الحجرة النبوية ، فأكرمه السلطان وضرب له خيمة بشقة[1] على باب الدهليز ، وناله زيادة على مائتى ألف درهم نقرة ؛ وسافر صحبة القاضى والجمال مع الركب الشامى، وجهز من الكسوة لمكة والمدينة .

وفيه قدم رسول الفرنج من بيروت بهدية وأسارى مسلمين ، فأطلقوا بباب الدهليز ، وكتبت لهم هدنة . وفيه وصل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا إلى الدهليز ومعه جماعة من أمراء العرب ، فأوهمه السلطان أنه يريد الحركة إلى العراق ، وأمره بالتأهب ليركب إذا دعى، وأمره فانصرف إلى بلاده؛ وكان السلطان فى الباطن إنما[2] يريد بحركته الحجاز .

وفيه أعطى [السلطانُ] ناصرَ الدين محمد ولد الأمير عز الدين أيدمر الحلى إمرة أربعين فارسا ؛ ورسم للأمير قلاون والأمير أوغان والأمير بيسرى والأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح أن يباشروا الحوطة على مال الحلى لورثته، ولم يتعرض السلطان لشىء من موجوده مع كثرته .

ودخل شوال والسلطان على عزم الحركة للحجاز، فأنفق فى العساكر جميعها، وجرد عدة مع الأمير (١٥٠ ب) أقوش الرومى السلاح دار ليسيروا مع السلطان . وجرد البقية مع الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار إلى دمشق ، فنزلوا بظاهرها وأقاموا بها . ثم توجه السلطان إلى الحج، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار[3]، وقاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى، وفخر الدين ابن لقمان ، وتاج الدين بن الأثير، ونحو ثلاثمائة مملوك وأجناد من الحلقة . وسار [السلطان] بهم إلى الكرك كأنه يتصيد، ولم يجسر أحد يتحدث بأنه متوجه إلى الحجاز . وذلك أن الأمير

(١) الشقة هنا قطعة من قماش الكتان أو شعر الماعز ، توضع واحدة منها أو أكثر حول الخيمة أو على بابها لتمييزها من سائر الخيم ، وجمعها شقاق وأشقاق . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) يلى هذا لفظ "كان"، وهو مشطوب .

(٣) فى س "الخزندار" .

جمال الدين ابن الداية الحاجب كتب إلى السلطان : "إنى أشتهى أتوجّه صحبة السلطان إلى الحجاز"، فأمر بقطع لسانه، فما تفوّه أحد بعدها بذلك .

وسار السلطان من القوّار يوم الخميس خامس عشريه ، ووصل إلى الكرك مستهل ذى القعدة . وكان قد دبّر أموره خفية من غير أن يطلع أحد على ذلك ، حتى أنه جهز البشماط(١) والدقيق والروايا والقرب والأشربة، والعربان المتوجهين معه والمرتبين فى المنازل، ولا يشعر الناس بشىء من ذلك . فلما وصل [الكرك] وجد الأمور كلها مجهزة، فأعطى المجردين معه الشعير بقدر كفايتهم . وسار الثقل فى رابعه ، وتبعهم [السلطان] فى سادسه ومعه المجردون، فنزل الشوبك و رسم بإخفاء خبره، وتوجه فى حادى عشره . وسار البريد إلى مصر، فجهزت الكتب إليه مع العربان من جهة الكرك، فكتبت أجوبتها من هناك .

ووصل [السلطان] إلى المدينة النبوية فى خامس عشريه، فلم يقابله جماز ولا مالك أميرا(٢) المدينة، وفرّا منه . ورحل منها فى سابع عشريه، وأحرم فدخل مكة فى خامس ذى الحجة، وأعطى خواصه جملة من المال ليفرقوها سرّا ، وفرّق كساوى على أهل الحرمين . وصار كواحد من الناس، لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله، وهو منفرد يصلى و يطوف و يسعى . وغسل البيت، وصار فى وسط الخلائق، وكل من رمى إليه إحرامه غسله وناوله إياه . وجلس على باب البيت، وأخذ بأيدى الناس ليطلعهم إلى البيت ، فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمى السلطان إلى الأرض، وهو مستبشر بجميع ذلك . وعلق كسوة البيت بيده وخواصه، وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين .

هذا وقاضى القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفى مرافقه طول الطريق، يستفتيه و يتفهم منه أمر دينه . ولم يغفل [السلطان] مع ذلك تدبير الممالك، وكتاب الإنشاء تكتب عنه فى المهمات ؛ وكتب إلى صاحب اليمن [كتابا] ينكر عليه أمورا، و يقول فيه : "سطرتها من مكة المشرفة، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة" — يعنى بالخطوة المنزلة ، و يقول

(١) البشماط هو البقسماط . (محيط المحيط) . (٢) فى س "امرى" .

له : "الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل نفسه فى الذبّ عن حوزة (١٥١ ا) الدين، فإن كنت ملكا فاخرج التق التتار" .

وأحسن [السلطان] إلى أميرى مكة، [وهما الأمير نجم الدين[١] أبى نمى والأمير إدريس بن قتادة]، وإلى أمير ينبع وأمير خُلَيْص[٢] وأكابر الحجاز . وكتب منشورين لأميرى مكة ، فطلبا منه نائبا تقوى به أنفسهما ، فرتّب الأمير شمس الدين مروان نائب أمير جاندار بمكة، يرجع أمرهما إليه ويكون الحل والعقد على يديه . وزاد أميرى مكة مالا وغلالا فى كل سنة بسبب تسبيل البيت للناس، [وزاد أمراء الحجاز إلا جماز ومالك أميرا المدينة، فإنهما انتزحا من بين يديه] .

وقضى السلطان مناسك الحج وسار من مكة فى ثالث عشره ، فوصل الى المدينة فى العشرين منه، فبات بها وسار من الغد ، فجدّ فى السير ومعه عدّة يسيرة حتى وصل الى الكرك بكرة يوم الخميس سلخه . ولم يعلم أحد بوصوله إلا عند قبر جعفر الطيار بمؤتة ، فالتقوه هناك . ودخل [السلطان] مدينة الكرك وهو لابس عباءة، وقد ركب راحلة ، فبات بها ورحل من الغد .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير عز الدين أيدمر الحلى الصالحى نائب السلطنة، عن نيف وستين سنة، بدمشق فى [أول شعبان][٣] . ومات الأمير أسد الدين سليمان بن داود ابن موسك الهذبانى، بعد ما ترك الخدمة تعففا ، وله فضل ونظم جيد . وتوفى مجد الدين أبو محمد عبد المجيد بن أبى الفرج بن محمد الرُّوذْرَاوَرِى[٤] بدمشق . وتوفى نور الدين أبو الحسن

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥١ — ٥٢)، ويلاحظ أن عبارة السلوك هنا مشابهة تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب .

(٢) بغير ضبط فى س، وهو حصن بين مكة والمدينة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٧) .

(٣) موضع ما بين القوسين بياض فى س، وقد أضيف التاريخ من ص ٥٧٤، سطر ٩ هنا . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٤) .

(٤) فى س "الرودراوروى" . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٨٢) .

على بن عبد الله بن إبراهيم، الشهير بسيبويه المغربى النحوى، عن سبع وستين سنة بالقاهرة، وله شعر جيد . وتوفى شيخ الأطباء بدمشق شرف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن حيدرة الرحبى، وله شعر جيد .

* * *

سنة ثمان وستين وستمائة . فيها صلى الملك الظاهر صلاة الجمعة غرة المحرم بالكرك، وركب فى مائة فرس و بيد كل فارس فرس، وساق الى دمشق . [هذا] والناس بمصر والشام لا يعرفون شيئا من خبر السلطان : هل هو فى الشام أو الحجاز أو غيره، ولا يستطيع من مهابته والخوف منه أحد يتكلم . فلما قارب السلطان دمشق سير(1) أحد خواصه على البريد بكتب إلى دمشق، وفيها البشارة بسلامته وقضاء الحج . فأحضر الأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق الناس لسماع كتب البشارة، فبينا هم فى القراءة إذ بلغهم أن السلطان فى الميدان، فساروا إليه فإذا هو بمفرده، وقد أعطى فرسه لبعض مناديه سوق الخيل، فقبّل النائب له الأرض . وحضر الأمير آقسنقر الأستادار والأمراء المصريون، فأكل [السلطان] شيئا وقام يستريح، وانصرف الناس . فركب [السلطان] فى نفر يسير وتوجه الى حلب، وحضر أمراء دمشق للخدمة فلم يجدوا السلطان . ودخل السلطان الى حلب والأمراء فى الموكب، فساق اليهم وبقى ساعة ولا يعرفه أحد، حتى فطن به بعضهم فنزلوا وقبّلوا الأرض . ودخل [السلطان] دار نائب السلطنة وكشف القلعة، وخرج من حلب ولم يعرف به أحد . فوصل دمشق فى ثالث عشره، ولعب فيها بالكرة، وركب فى الليل وسار الى القدس، وزار الخليل وتصدّق. وكان العسكر المصرى قد سار به الأمير آقسنقر الفارقانى من دمشق ونزل بتل العجول، فخرج السلطان من القدس إلى تل العجول . وكل ذلك فى عشرين يوما (١٥١ ب)، ما غيّر [السلطان] فيها عباءته التى حج فيها .

ثم سار [السلطان] من تل العجول بالعساكر فى حادى عشريه إلى القاهرة، فخرج الملك السعيد إلى لقائه بالصالحية، وعاد معه إلى قلعة الجبل . فأقام [السلطان] بها إلى ثانى

(1) فى س "وسير" .

عشر صفر، ثم خرج منها ومعه الأمراء والمقدمون، فركب فى الحراريق إلى الطرّانة . ودخل [السلطان] البرية وضرب حلقة، فأحضر إلى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمسة عشرة نعامة: أعطى عن كل غزال بَغْلَطاق[(١)] بسنجاب، وعن كل نعامة فرسا ثمينا بسرجه ولجامه .

ودخل [السلطان] إلى الإسكندرية فى حادى عشريه، وكان الصاحب بهاء الدين بن حنا قد سبق إليها وحصل الأموال والقماش . فخلع السلطان على الأمراء ، وحمل إليهم التعابى والنفقة ، ولعب الكرة ظاهر الإسكندرية ، وتوجّه إلى الحمامات ونزل باللّيونة[(٢)] وابتاعها من وكيل بيت المال .

فبلغه هناك حركة التتار، وأنهم واعدوا فرنج الساحل، فعاد إلى قلعة الجبل . فورد الخبر بغارة التتار على السّاجُور[(٣)] بالقرب من حلب ، فجرّد [السلطان] الأمير علاء الدين البندقدار فى جماعة من العسكر، وأمره أن يقيم فى أوائل البلاد الشامية على أهبة . وسار [السلطان] من قلعة الجبل فى ليلة الاثنين حادى عشرى ربيع الأول ومعه نفر يسير ، فوصل إلى غزة، ثم دخل دمشق فى سابع ربيع الآخر، ولحق الناس فى الطريق مشقة عظيمة من البرد، فخيّم على ظاهر دمشق . ووردت الأخبار بانهزام التتار عند ما بلغهم حركة السلطان ، وكأنْ قد ألقى الله فى أنفس الناس أنّ[(٤)] [السلطان] وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة فى هزيمة الأعداء، وأنّ اسمه يردّ الأعداء من كل جانب . فورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب[(٥)] ،

---

(١) البغلطاق — أو البغلوطاق — لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكام — أو بأكام قصيرة جدا — يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من القطن البعلبكى الأبيض، أو من السنجاب (petit - gris) كالمذكور هنا ، أو من الحرير اللامع (satin) ؛ وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٩٩ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 75 n. 63) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من أعمال مريوط . (ابن دقماق : كتاب الانتصار، ج ٥ ، ص ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط فى س ؛ وهو نهر بجهات منبج، وتقع عليه عينتاب وتل باشر. (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527 ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٨) .

(٤) فى س "انه" .

(٥) يذكر النويرى (نهاية الأرب ج ٢٨ ، ص ١٠٠) أن الفرنج الذين وصلوا من الغرب تلك السنة كانوا من عند ملك أرجونة (Aragon) . وهذا نص ما ورد به مصححا " فى هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل إليهم سفائن من جهة الريدركون أحد ملوك الغرب ، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه ، يقول فيها إنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه فى البلاد الإسلامية ، وإنه واصل لمواعدته ... ... " .

و بعثوا إلى أبغاين هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس فى سفن كثيرة، فبعث الله على تلك السـفن ريحا أتلفت عدّة منها ، ولم يسمع بعـدها لمن بقى فى الأخرى خبر . وورد الخبر أنه قد خرج فرنج عكا وخيّموا بظاهرها، وركبوا وأعجبتهم أنفسهم بمن قدم إليهم من فرنج الغرب، وتوجهت(١) طائفة منهم إلى عسكر جينين(٢) وعسكر صفد .

فخرج السلطان من دمشق على أنه يتصيّد فى مَرْج بَرْغُوث(٣)، وبعث من أحضر إليه العدد ومن أخرج العساكر كلها من الشام، فتكاملوا عنده بكرة يوم الثلاثاء حادى عشريه بمرج برغوث . وساق بهم إلى جسر يعقوب فوصل آخر النهار، وساق بهم فى الليل فأصبح فى أول المرج . وكان [السلطان] قد سيّر (١٥٢ ا) إلى عساكر عين جالوت وعساكر صفد بالإغارة فى ثانى عشريه، فإذا خرج إليهم الفرنج انهزموا منهم، فاعتمدوا ذلك . ودخل السلطان الكمين، فعند ما خرج [جماعة من](٤) الفرنج لقتال عسكر صفد تقدّم إليهم الأمير إيغان، ثم بعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام . ثم ساق الأمـير أيتمش السعدى، والأمير كندغدى أمـير مجلس، ومعهما مقدمو الحلقة؛ فقاتل الأمراء الشـاميون أحسن قتال . وتبـع السلطان مقدمى الحلقة، فما أدركهم إلا والعـدو قد انكسر، وصارت الخيـالة بخيلها مطرحة فى المرج . وأسر [السلطان] كثيرا من أكابرهم، ولم يعدم من المسلمين سوى الأمير فخر الدين الطونبا الفائزى؛ فسارت البشائر الى البلاد .

وعاد السلطان إلى صفد والرءوس بين يديه، وتوجّه منها إلى دمشـق فدخلها فى سادس عشريه، والأسرى ورءوس القتـلى قُدّامه . وخلع على الأمراء، ثم سار إلى حماة وخرج منها إلى كفر طاب، ولم يعلم أحد قصده . وفرّق العساكر وترك الثقل، وأخذ خِيار عسكره وساق

(١) فى س "توجه" . (٢) فى س "حنين" .

(٣) فى س "مرج بزغوث" بغـير ضبط ، ومرج بزغوث جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب . (انظر ما يلى، سطر ٧ ، وأيضا أبا شامة، كتاب الروضتين، ص ٣٨٤، فى Rec. Hist. Or. IV) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١٠٠)، وكان مقـدم تلك الجماعة من الفرنج، حسبما فى نفس المرجع والجزء والصفحة، "كندا وفر المسمى زيتون" .

إلى جهة المَرْقَب[١]، فأصابته مشقة زائدة من كثرة الأمطار، فعاد إلى حماة وأقام بظاهرها تسعة عشر يوما . وتوجّه على جهة المرقب، فانتهى إلى قريب بلاد الإسماعيلية، وعاقته الأمطار والثلوج فعاد .

ثم ركب [السلطان] فى ثالث جمادى الآخرة بمائتى فارس من غير سلاح، وأغار على حصن الأَكْرَاد[٢]، وصعد الجبل الذى عليه حصن الأكراد ومعه قدر أربعين فارسا . فخرج عليه عدّة من الفرنج ملبّسين، فحمل عليهم وقتل منهم جماعة، وكسر باقيهم وتبعهم حتى وصل إلى خنادقهم، وقال وهو يستخف بهم : "خلّوا الفرنج يخرجوا، فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض"، وعاد إلى مخيمه، ورعى الخيول مروجها وزروعها .

[وفى أثناء ذلك حضر إلى خدمة[٣] السلطان كثير من أصحاب البلاد المجاورة]، فلم يبق أحد إلا وقدم على السلطان : مثل صاحب حماة، وصاحب صهيون، إلا نجم الدين حسن بن الشعرانى صاحب قلاع الإسماعيلية، فإنه لم يحضر بل بعث يطلب تنقيص القطيعة التى حملوها لبيت المال، بدلا مما كانوا يحملونه[٤] الى الفرنج . وكان صارم الدين[٥] مبارك بن الرضى — صاحب العُلَيْقة[٦] — قد تغيّر السلطان عليه من مدّة، فدخل صاحب صهيون بينه وبين السلطان

---

(١) بغير ضبط فى س، وهو بلد — وحصن أيضا — بساحل الشام، بينه وبين أنطرسوس ثمانية أميال، واسمه فى الحوليات الصليبية (Castrum Merghatum). انظر (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٠ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 504 et seq.) .

(٢) يقع هذا الحصن على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب، بين بعلبك وحمص . ويقال له قلعة الحصن أيضا، وهو الذى اتخذته هيئة الفرسان الإسبتارية مركزا رئيسيا لهم بعد سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين، ومن هذا سمى (Krak de Chevaliers). انظر (ياقوت : معجم البلدان، ج٢، ص ٢٧٦ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 414 et seq.) .

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها والتى تليها بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٧٦) .

(٤) فى س "يحملوه" .

(٥) كان صارم الدين هذا صهرا للشيخ نجم الدين حسن بن الشعرانى . (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٧٦) .

(٦) بغير ضبط فى س، وهى إحدى حصون الإسماعيلية بالشام . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems, pp 352, 507.)، حيث توجد أسماء جميع حصون الإسماعيلية، وستضبط أسماء هذه الحصون فيما يلى من نفس المرجع بغير تعليق .

فى الصلح، وأحضره إلى الخدمة . فقلّده السلطان بلاد الدعوة استقلالا ، وأعطاه طبلخاناه، وعزل نجم الدين [حسن بن الشعرانى] وولده (١٥٢ ب) من نيابة الدعوة، وتوجّه [صارم الدين إلى مَصْياف كرسى بلاد الإسماعيلية] فى سابع عشرى (١) [جمادى الآخرة]، وصحبته جماعة [لتقرير أمره] .

ويقال بل الذى قام فى حقّه (٢) الملك المنصور صاحب حماة، و [إنه] شفع فيه إلى أن عفى عنه السلطان، وحضر بهدية فأكرمه السلطان، وكتب له منشورا بالحصون كلها : وهى قلعة الكَهْف وقلعـة الخَوَابِى والمِينَقَة (٣) والعُلَيْقَة والقُدْمُوس والرُّصافة ، ليكون نائبا عن السلطان ؛ وكتب له بأملاكه التى كانت بالشام، على أن تكون مَصْيَاف و بلادها خاصا للسلطان . و بعث [السلطان] معه نائبا بمصياف، [وهو] الأمير عز الدين العديمى [أحد مفاردة الشام، وجرّد معه جماعة من شيزر وغيرها]، فلما وصلوا إلى مصياف امتنع أهلها من تسليمها لصارم الدين، وقالوا : "لا نسلمها إلا لنائب السلطان"، فقال العديمى : "أنا نائب السلطان" . فلما فتحوا الباب هجم صارم الدين عليهم وقتـل منهم جماعة، وتسلّم الحصن فى نصف رجب . فلم يجد نجم الدين و ولده بدّا من الدخول فى الطاعة ، فسألا فى الحضـور فأجيبا ، وحضر نجم الدين حسن وعمره تسعون ســنة ، فرقّ له السلطان وولّاه النيابة شريكا لصارم الدين بن الرضى ، وقرّر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم نقرة فى كل سنة ؛ وتوجه [نجم الدين] وترك ابنــه شمس الدين فى الخدمة . وتقرّر على صارم الدين بن مبارك بن الرضى فى كل سنة ألفا (٤) دينار ، فصارت الإسماعيلية يؤدّون المـال بعد ما كانوا يجبون من ملوك الأرض القطائع .

ثم رحل السلطان من حصن الأكراد إلى دمشق، فدخلها فى ثامن عشريه . وقدم الخبر بأن الفرنسيس (٥) وعدّة من ملوك الفـرنج قد ركبوا البحر ولا يُعلم قصـدهم، فاهتمّ [السلطان]

---

(١) فى س "سابع عشر نه" . (٢) ضمير الهاء عائد هنا على صارم الدين بن الرضى .

(٣) فى س "المنيعة" . (٤) فى س "الفى" .

(٥) المقصود بالفرنسيس ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) ، وكان قد أعدّ لتلك السنة حملة أريد بها أولا معاودة الكرة على الديار المصرية ، ثم حوّلت وجهتها إلى تونس حيث انتهت بموته دون أن تحقق أى غرض =

بالثغور والشوانى، وسار إلى مصر فدخلها فى ثانى شوّال . وفيه تمت عمارة الجامع الظاهرى بالحسينية خارج القاهرة، فرتّب السلطان أوقافه، وجعل خطيبه حنفى المذهب، ووقف عليه حكر ما بقى من الميدان . وفيه بعث [السلطان] عدة رسل بهدايا إلى بلاد الفرنج .

وفى هذه السنة قتل الشريف إدريس بن قتادة بخليص، بعد أن ولى مكة منفردا أربعين يوما؛ فاستبدّ ابن أخيه أبو نمى بإمرة مكة وحده . وفيها مات الطواشى جمال الدين محسن الصالحى النجمى، شيخ الخدام بالمسجد النبوى .

وفيها[1] تنكّر الخان منكو تمر بن طغان، ملك التربلاد الشمال، على الأشكرى ملك قسطنطينية . فبعث [الخان] جيشا من التتر حتى أغاروا على بلاده، وحملوا عز الدين كيقباد بن كيخسرو — وكان محبوسا كما تقدّم فى قلعة — ، وساروا به وبأهله إلى منكو تمر، فأكرمه وزوّجه وأقام معه حتى مات فى سنة سبع وسبعين . فسار ابنه مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم، كما يأتى ذكره إن شاء الله[2] .

وفيها انقرضت دولة بنى عبد المؤمن[3] بقتل الواثق أبى العلاء إدريس — المعروف بأبى دبّوس — بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فى محرم على يد بنى مرين . وبنو مرين قبيلة من البربر — يقال لهم حمامة — كان مقامهم قبلى تازا[4]، فخرجوا عن طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ، وتابعوا الغارات حتى ملكوا مدينة فاس ، سنة

= صليبى . وقد ذكر المقريزى هذه الحملة استطردا تلو أخبار الحملة الصليبية التى انتهت بوقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ، (انظر ص ٣٦٤، سطر ١٠، وما بعده) ، ثم أوردها مرة أخرى تحت سنة ٦٦١ هـ خطأ (انظر ص ٥٠٢ ، سطر ٨ - ١٠)، ولم يفطن الناشر إلى هذا الخطأ فأوردها هناك، مجاريا فى ذلك ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٢١—١٢٢؛ و(Quatremére : Op. Cit. I. 1.p. 224) .

(١ و ٢) الفقرة الواردة هنا بين الرقين موجودة فى س على هامش ص ١٤٧ ب ، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ، وأدرك هو ذلك فكتب فوقها "ينقل الى سنة ثمانوسبعين [وستمائة]"، وهذا خطأ أيضا والصحيح ثمان وستين وستمائة كما هنا . راجع (Enc. Isl. Arts. Kaika'us II, Mangū Timur.) ؛ وانظر أيضا (ص ٤٠٨، سطر ٢٠) . (٣) فى س "المومنين" .

(٤) فى س "تازه" . (انظر ص ٣٠٠، حاشية ١) .

بضع[1] وثلاثين وستمائة : وأوّل من اشتهر منهم أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن حمامة، ومات سنة ثلاث وخمسين . فملك بعده يعقوب بن عبد الحق، وقوى أمره وحصر مراكش وبها أبو دبوس، وملكها وأزال ملك بنى عبد المؤمن فى أوّل سنة ثمان وستين هذه، وملك مراكش .

ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة بدمشق محيى الدين أبو الفضل يحيى بن محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين أبى الحسن على بن المجد أبى المعالى محمد بن زكى الدين أبى الفضل [يحيى بن][2] على [بن عبد العزيز العثمانى] المعروف بابن الزكى القرشى الأموى الشافعى، عن اثنين وسبعين سنة بالقاهرة . وتوفى الوزير الصاحب زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن بكر بن مالك القرشى الزبيرى ، عن اثنتين وثمانين سنة بالقاهرة، بعد عزله ومحنته، وله شعر جيد . وتوفى زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى الحنبلى، وقد انتهى اليه علو الإسناد، عن ثلاث وتسعين سنة بدمشق . وتوفى الولى العارف داود الأعزب بناحية تَفَهْنا[3]، فى ليلة الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة، وبها دفن ؛ وقبره مشهور يتبرّك الناس بزيارته، ومناقبه كثيرة وكراماته شهيرة قد جُمعت فى مجلد . وتوفى الولى العارف تقى الدين أبو المكارم عبد السلام بن سلطان بن ... ...[4] الماجرى من هوارة، فى يوم الأحد ثامن ذى الحجة، بناحية قليب[5]، وله كرامات كثيرة، وأخذ الطريق

---

(١) كذا فى س ، والمعروف أن بنى مرين ملكوا مدينة فاس لأوّل مرة سنة ٦٤٦هـ ، (١٢٤٨ م) . انظر (Enc. Isl. Arts. Fās, Marinids ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٩٦) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٣) ، حيث ورد أن وفاة قاضى القضاة هذا كانت بفسطاط مصر فى رابع عشر شهر رجب من هذه السنة ، وأنه دفن بالقرافة ، وأن مولده كان بدمشق فى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بمركز زفتا من مديرية الغربية ، وتقع على طريق السكة الحديدية بين بنها وزفتى ، وتسمى أيضا تفهنا العزب . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) بياض فى س .

(٥) فى س "قليب" ، وقد ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 82) هذا اللفظ إلى (Kalib) و (Kalioub) مع التشكك .

عن الشيخ أبى الفتح الواسطى عن الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى، وقبره يُزار بقليب ويتبرّك به .

* * *

سنة تسع وستين وستمائة . فى المحرم ورد كتاب يسو نوغاى قريب الملك بركه ملك التتار، وهو أكبر مقدمى جيوشه، يخبر فيه أنه دخل فى دين الإسلام، فأجيب بالشكر والثناء عليه . وفيه (١٥٣ أ) ورد الخبر بمسير الفرنسيس(١) وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها ، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج ؛ وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته، وأمرهم حَفْرَ الآبار فى الطرقات برسم العساكر ؛ وشرع فى تجريد العساكر . فورد الخبر بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات العربان(٢) إلى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس فى خامس صفر .

وفى سابعه توجّه السلطان إلى عسقلان، ليهدم ما بقى منها خوفا من مجىء الفرنج إليها، فنزل عليها وهدم بنفسه ما تأخر من قلعتها وأسوار المدينة حتى سوّى بها الأرض ، وعاد إلى قلعة الجبل فى ثامن ربيع الأول . وفى حادى عشريه هلك الملك المجير هيتوم(٣) بن قنسطنطين متملك سيس .

وفى عاشر جمادى الآخرة سار السلطان من القاهرة — ومعه ابنه الملك السعيد — إلى الشام، فدخل دمشق فى ثامن رجب ، وخرج إلى طرابلس فقتل وأسر . واتصلت الغارات إلى صافِيتا، وتسلم [السلطان] صافيتا من الفرنج [الديوية](٤) وأنزلهم منها، وعدتهم سبعمائة رجل سوى النساء والأطفال ، وتسلّم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد [مثل تل خليفة وغيره] .

---

(١) انظر ص ٥٨٧، حاشية ٥ .

(٢) فى "العرب" . (٣) فى س "هينوم" .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذا الفقرة من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٠) ، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة .

وفى تاسع[1] [رجب] نازل السلطان حصن الأكراد، وقدم عليه صاحب حماة ، وصاحب صهيون، وصاحب دعوة الإسماعيلية الصاحب نجم الدين . وفى آخره نصب [السلطان] عدة مجانيق على الحصن ، إلى أن أخذ القلعة عنوة فى سادس عشر[2] شعبان . فطلب أهلها الأمان فأمّنهم [السلطان] على أن يتوجّهوا إلى بلادهم، فخرج الفرنج منهـا فى رابع عشريه . ورتّب [السلطان] الأمير صارم الدين الكافرى نائبا بحصن الأكراد، وأمر بعمارته[3] .

وبعث صاحب أنطرسوس — [وهو مقـدّم[4] بيت الداوية] — يطلب الصلح [من السلطان]، فصولح على أنطرسوس خاصة، خارجا عن صافيتا و بلادها . واسترجع [السلطان] منهم[5] جميع ما أخذوه فى الأيام الناصرية،وعلى أن جميع مالهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه ، وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان و بين

---

(١) فى س "تاسعه"، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١٠١) .

(٢) فى س " عشره " . وفوقها إشارة الى لفظ "شعبان" بهامش الصفحة ، وهو بخط المتن ، وواضح من هذا أن المقريزى أضاف الشهر ونسى حذف الهاء . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠١) .

(٣) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم الحصن إلى رئيس فرسان الإسبتار ، وهو صاحب حصن الأكراد، خطابا أورده العينى (عقد الجمان، ص٢٣٧ — ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، وهذا نصه "إلى إفرير (frére) أول جعله الله ممن لا يعترض على القـدر ، ولا يعاند من مخر لجيشه النصر والظفر ، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقـدر ، ولا يحمى منه (٢٣٨) محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته، وكنت الموفق لو أخليته . وتكلفت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيـه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن و يبق ، أو يخدم سعيدا ويشق". هذا وفى الجملة الأخيرة من هذا الكتاب تورية ، فإن المقصود بلفظ "سعيدا" هنا ابن السلطان بيبرس وولى عهده ، وهو الذى حاصر الحصن فعلا . (نفس المرجع ، ص ٢٣٨) . أما رئيس هيئة الفرسان الإسبتار تلك السنة فهـو (Hugh Revel) ، انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، وكذلك (Stevenson: Crusaders In The East p. 343) .

(٥) الضمير هنا عائد على الداوية والإسبتارية معا . انظر (Stevenson : Op. Cit. p. 343 ؛ وكذلك ما يلى ، ص ٥٩٥ ، حاشية ١) . هـذا وعبارة المقريزى هنا مشابهة فى ألفاظها وترتيبها لما يقابلها فى العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1) .

الإسبتار، وعلى ألا تجدّد عمارة فى المرقب . فتمّ الصلح، وأخلى الفرنج عدة حصون تسلمها السلطان .

وفى سابع عشر رمضان نازل السلطان حصن عَكّار(١) ونصب عليه المجانيق ، [(٢)وجدّ أهله فى المناضلة] (١٥٣ ب) وقاتلهم [السلطان قتالا شديدا] ، فقتل الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى وهو يصلّى فى خيمته بحجر منجنيق أصابه . ولما كان فى تاسع عشريه سأل الفرنج الأمان ، ورفعت السناجق السلطانية على الأبراج، وخرجوا منه فى سلخه . وعيّد السلطان بالحصن، ورحل إلى مخيمه بالمرج، وكتب إلى متملك طرابلس يحذره وينذره(٣) .

وفى رابع شوّال ركب السلطان بجميع عساكره جريدة من غير ثقل يريد طرابلس، وساق [إليها] . فبينا هو عازم [على ذلك]، إذ ورد عليه الخبر بأن ملك الإنكتار(٤) وصل إلى عكا فى أواخر رمضان، بثلاثمائة فارس وثمانى بطس وشوانى ومراكب تكملة ثلاثين مركبا، غير ما سبقه صحبة أستاداره(٥)، وأنه يقصد الحج إلى القدس . فغيّر [السلطان] عزمه ونزل قريبا من

(١) بغير ضبط فى س ، وهو حصن مبنى على جبل يسمى بنفس الاسم ، وموقعه شمالى طرابلس . انظر (Le Strange:Palest. Under Moslems. pp. 80,390) . ويسمى هذا الحصن أيضا باسم حصن ابن عكار ، وقد أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٢ — ١٠٣) أن قيام صاحب طرابلس حديثا بعمارته كان السبب فى إغارة السلطان بيبرس عليه وأخذه .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١٠٣) نص كتاب التحذير والإنذار الذى أرسله السلطان بيبرس إلى صاحب طرابلس بعد الاستيلاء على حصن عكار، وهو منقول من هذا المرجع فى ملحق رقم ٤ بآخر هذا الجزء من كتاب السلوك .

(٤) فى س " الانكار" ، والصيغة المثبتة هنا بالمتن أقرب الى الاسم الأصلى (Angleterre) ، وهى المتداولة فى مؤلفات المؤرخين المسلمين زمن الحروب الصليبية . (انظر ص ٣٦٤ ، حاشية ٥) . هذا و"ملك الانكتار" الذى وصل عكا تلك السنة هو الأمير (Edward) الذى صار فيما بعد ملكا على إنجلترة باسم (Edward I) ، وكان هذا الأمير قد انضم للحملة الصليبية التى توجهت إلى تونس ، وقد وصل إلى شواطىء تونس بعد وفاة (Louis IX) ملك فرنسا ، وبعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب الأمير الإنجليزى اختتام الحملة الصليبية على النحو الذى انتهت اليه ، فانصرف الى الشام ووصل عكا كما بالمتن . (King:The Knights Hospitallers. In The Holy Land. p.268).

(٥) كان برفقة الأمير الإنجليزى أخوه (Prince Edmund) وأيضا (Count of Brittany) ، ولعل الثانى هو الذى كان يملأ الوظيفة المذكورة هنا . انظر (King : Op. Cit. p. 268) .

طرابلس ، وبعث إليهم[1] الأتابك والأمير الدوادار فاجتمعا بصـاحبها ، وجرت أمور آخرها أنهم سألوا السلطان الصلح فكتبت الهدنة لمدة عشر سنين؛ وجهز الأمير فخرالدين ابن جلبان، والقاضى شمس الدين الإخنائى[2] شاهد الخزانة، بثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى. وعاد السلطان إلى مخيمه، وسار إلى حصن الأكراد فدبر أمر عمارته؛ ورتب أحوال تلك الجهات .

وفى حادى عشره استولى السلطان على حصن العُلَيْقَة من حصون الإسماعيلية، واستخدم به الرجال . ورحل إلى دمشق فدخلها للنصف منـه ، ورحل منها فى رابع عشريه ، فنزل صفد وحمـل منها المجانيق إلى القُرَيْن[3] ، وساق اليـه ونازله حتى أخذه فى ثانى ذى القعدة . وركب منه فما أصبح إلا على أبواب عكا مُطِلّا ، فما تحرك أحد من الفرنج ، فعاد إلى مخيمه بالقرين، وهدم القلعة فى رابع عشرى ذى القعدة؛ ورحل منه إلى قريب عكا، ونزل اللَّجُّون[4].

وكان [السلطان] قد كتب إلى مصر بتسفير الشوانى لقصـد قبرس[5]، فسارت فى شوال حتى قاربت قبرس، فانكسرت كلها . وشـعر بهم أهل قبرس فأسروا جميع من كان فيهـا من الرجال، وبعث صاحب قبرس كتابا إلى السلطان يقرّعه فيـه بأن شوانى مصر — وهى إحد

(١) الضمير هنا عائد على أهل طرابلس وصاحبها . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٣) .

(٢) فى س "الاختايي"، ولعل النسبة الى إخنا، وهى حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٦) مدينة قديمة قرب الإسكندرية .

(٣) بغير ضبط فى س، وهو حصن فى أرض معليا قرب صفد، (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 495) واسمه فى الحوليات الصليبية (Montfort) أو (Starkenburg)، وكان المركز الرئيسى لهيئة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) فى الشرق . انظر (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271) .

(٤) بغير ضبط فى س، ويوجد بالشام وفلسطين أكثر من بلد بهذا الاسم، (Le Strange: Palest. Under Moslems. Index) والمقصود هنا بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلا، ويبعد عن الرملة أربعين ميلا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥١) .

(٥) أصل مشروع غزو قبرص، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٩، ومابعدها، فى Rec. Hist. Or. II. 1.)، أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد (انظر ص ٥٩١، سطر ١) أن صاحب جزيرة قبرص كان قد ركب بجيشه الى عكا نجدة لأهلها، فأراد السلطان أن يغتنم هـذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا فى ستة عشر شينيا ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٩٧، وما بعدها) .

عشر شينيا — خرجت إلى قبرس فكسرها الريح، وأخذتها [وأسرت من فيها][1] . فلما قرأه السلطان قال : " الحمد لله ! منذ ملكنى الله تعالى الملك ماخُذلت لى راية، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره " وكتب إلى القاهرة بإنشاء عشرين شينيا ، و إحضار خمس شوانى كانت بقوص[2]، وكتب إلى قبرس جوابا أرعد فيه وأبرق[3] .

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٢) فى س "بعوص" . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٣) يوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٠ ، وما بعدها ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) رواية مفصلة لما حدث فى هذا الصدد ، ونصها : " فلما وصلت [الشوانى] الى مرمى النمسون (Limassol) تحت قبرس جنحها الليل ، وتقدم الشينى الأول داخلا على أنه يقصد الميناء ، فصادف الشعاب فى الظلماء فانكسر ، وتبعه الشوانى واحدا فواحدا ولم يعلم بما أصابه ، فانكسروا فى دجى الليل جميعا ، وأسرهم أهل قبرس . وكان ابن حسون المقدم قد أشار برأى تطير (فى الأصل نظير) الناس منه ، وهو أن يطلى [الشوانى] بالقار ، و يعمل عليها الصلبان ليشبه على الفرنج بشوانيهم ، فتَرَكَّن من مَوَانيهم (مضبوطة هكذا) ، فاقتضى تغير (فى الأصل تعبير) شعارها ما أراد الله من انكسارها . وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان ، يخبر بأن شوانى مصر وصلت الى قبرص ، وكسرها الريح وأخذتها (كذا) وهى أحد عشر شينيا . فأمر [السلطان] بأن يكتب إليه جوابه ، فكتب إليه هذه المكاتبة :

الى حضرة الملك أوك ، ذكر بيالى (كذا ، انظر حاشية ١ بالأصل) جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده (٢٤١) بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير ، وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرّفتنا أن الهوى (كذا) كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتجح و به يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتلك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد ، وخشب الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشىء فى يوم واحد عدة قطايع ، ولا ينشىء (كذا) لكم من حصن قطعة ؛ ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم فى مائة عام قلعة . وكل من أعطى مقدافا قدف (كذا) ، وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو غرف (كذا ، ولعلها عرف) . و إن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ، وأين الذين يطعنون بالمقاديف فى صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح فى صدر الصفوف ، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن يقف به فى الوصول ؛ وفرق بين من يتصيد على الصفور من الخيل العراب (كذا) ، وبين من إذا (٢٤٢) افتخر قال تصيدت بغراب . فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة ؛ و إن استوليتم على سكان ، فكم أخلينا بلادكم من سكان ؛ وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم ، ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم " . انظر أيضا (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٥ — ٥٦) .

وقدمت رسل صاحب[1] صور (١٥٤ ا) تطلب الصـلح ، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج من بلاد صور عشرة بلاد فقط ، ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها، وبقية البـلاد تكون مناصفة، ووقع الحلف على ذلك .

وسار السلطان إلى القاهرة، ودخل قلعة الجبـل فى ثانى عشر ذى الحجة، فبلغه أن الشهرزورية قد عزموا على سلطنة الملك العزيز عثمان بن صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد جعله أحد أمراء مصر[2]. فقبض عليه وعلى عدة أمراء منهم الأمير بهاء الدين يعقوبا[3]، وقبض أيضا على عدة أمراء كانوا قد اتفقوا على قتله[4] وهو بالشقيف : منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبى، والأمير أقوش المحمدى، والأمير أيدغدى الحاجبى، والأمير إيغان سم الموت، والأمير سنقر المساح، والأمير بيدغان الركنى، والأمير طرطح الآمدى؛ وسجنهم بقلعة الجبل .

و[فيـه] جهز [السلطان] الأمير آقسنقر الفارقانى بعسكر الى الشام . وفيـه وردت هدية صاحب اليمن ، وفيها تحف ودبّ أسود وفيل . وفيه أكثر السلطان من الركوب إلى مصر لمباشرة عمل الشوانى ، حتى كانت ضعفى ما انكسر . وفى سابع عشريه أمر [السلطان] بإهراق الخمور ، وأبطل ضمانهـا وكان فى كل سنة ألف دينـار ، وكتب بذلك توقيعا قرئ على المنابر . وفيه خلع السلطان بالميدان، وفرّق على ألف وسبعمائة شخص أثمـان خيل، وفرّق ألفا وثمانمائة فرس ، كل ذلك وهو جالس حتى فرغ . وفيه لازم [السلطان] الصناعة بمصر

(١) كان صاحب صور تلك السنة (John de Montfort)، ويلاحظ أن السلطان كان قد عقد هدنة فى السنة الفائتة مع كل من هيئتى الإسبتار والداوية . (King: The Knights Hospitallers In the Holy Land, p. 272) .

(٢) انظر ص ٤٩٣ ، سطر ٢ .

(٣) كذا فى س، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٤) .

(٤) الضمير هنا عائد على السلطان بيبرس. انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦)، حيث توجد تفصيلات وافية فى صدد كل هذه الحوادث .

عدة أيام لرمى النشاب . و [فيـه] ورد الخبر بأن الفرنج أغاروا على جهة الشاغور، وأخذوا غلة وخربوا وأحرقوا[1] غلالا .

وفيهـا عزل شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان عن قضاء الشافعية بدمشق ، وأعيد عز الدين أبو المفاخر محمـد بن عبد القادر بن عبد البـاقى بن خليل بن مقلد بن جابر، الشهير بابن الصائغ . وفيها وصل سيل عظيم إلى دمشق ، فأخذ كثيرا من النـاس والدواب ، وقلع الأشجار وردم الأنهار، وخرب الدور وارتفع حتى نزل مرامى السور، وذلك زمن الصيف . وفيها ولى قضاء المـالكية بمصر نفيس الدين أبو البركات محمد بن المخلص ضياء الدين أبى الفخر هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المـالكى . ولم يحج [أحد] فى هذا العام من مصر، لا فى البرّ ولا فى البحر. وهجم مكة سيل عظيم فى شعبان حتى دخل الكعبة .

[ومات[2] فى هذه السنة من الأعيان الأمير علم] الدين سنجر الصيرفى، فى سادس صفر بدمشق . وتوفى قاضى القضاة المـالكى شرف الدين عمر بن عبـد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر بن عبـد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى ، فى ليلة الخـامس والعشرين من ذى القعدة، عن أربع وثمانين[3] سنة . وولى بعـده قضاء المـالكية بالقاهرة نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضى المخلص ضياء الدين هبة الله أبو الفخر بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر .

---

(١) كان فرنج عكا هم الذين قاموا بهذه الإغارة ، وقد حفزهم إلى تلك الحركة وغيرها غياب السلطان بيبرس فى مصر.
(Stevenson: Crusaders In The East. p. 344).

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٣ ب ، ١٥٤ أ فى س . والسطر الأول منها — وهو الوارد هنا بين القوسين — محجوب بين ملتصق الصفحتين ، لكنه فى ب (١٨١ ب) . هذا وليس ثمت شك فى وقوع هـذه الوفيات تلك السنة ، انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٢٨ — ٣٣١) .

(٣) المقطع الثانى من هذا اللفظ محجوب فى س ، وكذلك كلمة سنة ، للسبب المذكور بالحاشية السابقة ، ولكنهما فى ب (نفس الصفحة) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧) .

وتوفى الشريف إدريس بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة ، قتيــلا بظاهر مكة ؛ فانفرد بعده أبو نمى بن أبى سعد . وتوفى قاضى حماة شمس الدين أبو الظاهر إبراهيم بن المسلم ابن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور البارزى الجهنى الحموى الشافعى، عن تسع وثمانين سنة بحماة. وتوفى الأديب تاج الدين أبو المكارم محمد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر ابن شـقير المغربى الحنفى بدمشق، عن ثلاث وستين سـنة . وتوفى قطب الدين أبو محمـد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين (١) المرسى الصوفى بمكة، عن نحو خمسين (٢) سنة .

* * *

سنة سبعين وسبعمائة . أهلت والسلطان متشدد فى إراقة الخمور و إزالة المنكرات، فكان لذلك يوما مشهودا . وفيه أفرج [السلطان] عن الأمير سيف الدين بيدغان الركنى، وأعطاه إقطاعا بالشام . ثم أحضره بعـد قليل، هو وسيف الدين ملاجا الركنى (٣)، واشتراهما ورتبهـا سلاح دارية . (١٥٤ ب) وورد الخـبر باختلاف الحـال بين عيسى بن مهنا و بين العربان،

---

(١) توجد فى ابن العماد (شـذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠) ترجمة طويلة لابن سبعين هـذا، وهو الفيلسوف المعـروف، وكانت بينـه وبين الإمبراطور فردريك الثانى مراسلات فلسـفية مشهورة . انظـر (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 226) .

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٦ — ٥٧)، ضمن وفيات هذه السنة، وفاة سليل من أبناء البيت الأيوبى اسمه الملك الأمجد تقى الدين عباس، ونصه : "وفيها كانت وفاة الملك الأمجد تقى الدين أبى الفضائل عباس بن السـلطان العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل . وكان محترما عند الملوك الأيوبية، معظما عند السلطان الملك الظاهر، لا يرتفع عليه أحد فى المجلس ولا الموكب . وكان رحمـه الله تعالى دمث الأخلاق سمحا كريما عاقلا حازما ، وكانت وفاته بدمشق فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة (٥٧)، ودفن بسفح قاسيون، وليس له عقب" .

(٣) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit I. 2. p. 92) هذه العبارة إلى (il les acheta tous deux, et leur donna le rang de Silah-dâr) ، وهذا لا يخرج عن المدلول الحرفى المفهوم . إنما الغريب هنا أن "يشترى" السلطان أميرين من أمراء المماليك كأنهما رقيقان، إذ المعروف فى تاريخ الدولة المملوكية أن المماليك كانوا يعتقون صغارا، وأنهم كانوا لا يصلون إلى رتبة الإمارة — كأمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو أكثر — إلا بعد تحريرهم وتنقلهم فى الوظائف والولايات والنيابات بمصر والشام .

وأنه يريد التوجه إلى التتـار . فخشى السلطان أنّه إن استدعاهم لا يحضروا ، وإن توجّه إلى الشام تسحّبوا ؛ فكتم أمره .

ونزل [السلطان] إلى الميدان فى سابعه ، وفرّق فى خواصه مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، واثنى عشر ألف دينار عينا ، ونيفا وستين حياصة . وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع ، ولازم النزول إلى الصناعة فى كل يوم حتى تنجّزت الشـوانى . ونزل الأمير آقسنقر الفارقانى بمن معه من العسكر على جينين .

فلمـا كان ليلة السابع عشر منه توجّه السلطان بعـد المغرب ، ومعه جماعة يسـيرة من خواصه ، وأخفى حركته . ورسم بأن أحدا من المجردين معه لا يشـترى عليقا ولا مأكولا ، وقرّر لهم ما يحتاجون اليه . وسار إلى الزّعقة [1] ، ثم عرج منها فى البرية إلى الكرك ، ودخلها من غير أن يعلم به أحد فى سادس صفر ، ونزل بقلعتهـا . وقرّر [السلطان] فى نيابة الكرك علاء الدين أيدكين الفخرى ، ونقل الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك إلى نيابة الشام . ولم يظهر [السلطان] ذلك حتى تسـلم أيدكين نيابة الكرك فى ثامنه ، واستدعى عز الدين أيدمر وأفهمه أنه طلبه لنيابة حصن الأكراد .

وسار [السلطان] إلى دمشـق ، فدخلها فى ثالث عشره من غير أن يعلم أحد بحضوره ، وكان قبل دخوله إلى دمشق قد كتب القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر بين يديه ثمانين كتابا فى يوم وليـلة ، إلى النواب والأمراء : بتفويض نيابة الشام لعـز الدين أيدمر الظاهرى ، عوضا عن أقوش النجيبى . وسيّر [السلطان] تشريفا للنجيبى نائب دمشق ، وأمره أن يتوجه إلى مصر ويسلم الأمر لعز الدين أيدمر ، فاعتمد ذلك .

وأنفق السلطان فيمن خرج معه مالا وافرا [2] وخيولا ، وركب بهم فى ليلة السادس عشر منه ،

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعـة قرب الحدود بين مصر والشام ، يمر بهـا القاصد من مصر إلى الكرك (G. - Demombynes : La Syrie. p. 6. n. 2).

(٢) فى س "وفرا" ، والصيغة الواردة هنا من ب (١٨٥ ب) .

ونزل خارج حماة بالجَوْسَق[1]؛ ونزل صاحب حماة فى خيمة . ورتب السلطان أستادارا[2] وأمير جاندار وحاشية السلطنة، فإنه كان [قد] خرج من مصر جريدة، وقام[3] له صاحب حماة بالأسمطة. وقدم عليه [وهو بحماة[4]] جماعة من أكابر العرب فأكرمهم، وكتم عنهم أمره [وما أظهر لهم شيئا]؛ وكتب إلى عيسى بن مهنا يطلب منــه خيولا عيّنها له ليطمّنه، وكتب إليــه : "إنك بعثتَ وأنا بمصر تطلب الحضــور، فكتبتُ إليك لا تحضر حتى أطلبك، وقــد حضرتُ إلى حماة فإن أردتَ الحضور فاحضر" . فحضر [عيسى] وسأله السلطان عمــا نقل عنه، فقال : "نعم! والصدق أنجى من الكذب"، فأحسن [السلطان] إليه وإلى أكابر (١٥٥ أ) العرب .

وفى سادس عشريه قدم شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة الإسماعيلية ، فقبض عليه وعلى أصحابه وسـيروا إلى مصر؛ واستمرت مضايقة حصونهم حتى تسلم نواب السلطان حصن الخَوَابِى وحصن العُلَيْقَة .

وفى أول شهر ربيع الأول ركب السلطان من ظاهر حماة بعد عشاء الآخرة ، من غير أن يعلم أحد قصــده، وسار على طريق حلب . ثم عرج من شيزر وأصبح على حمص، وتوجه إلى حصن الأكراد وحصن عكّار وكشف أمورها . وسار إلى دمشق، وكتب إلى مصر كتابا يقول فيه لأكابر الأمراء : "ولدكم"، ولبقيتهم : "أخوكم ووالدكم يسلّم عليكم و يتشوق إليكم، و إيثاره ألا يفارقكم . و إنمــا قدمنا راحتكم على راحتنا ، فطالمــا تعبوا واســترحنا . ونعلمهم بالمتجدّدات ليكونوا لها كالمشاهدين، وكمشاركينا فى أكثر المجاهدين : فمنها حديث الإسماعيلية وحديث العربان، وقــد ورد الخبر بحركة التتار[5]، ولو عدنا لجفلت أهل البلاد . وأما الفرنج

(١) الجوسق معرب اللفظ الفارسى كوسك ، ومعناه القصر ، ويجمع على جواسق ، و يجىء فى الشعر مجموعا على جواسيق أيضا . (محيط المحيط) .

(٢) فى س "استادار" . (٣) فى س "واقام" .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٧ — ٥٨)، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٥) الإشارة هنا إلى إغارة التتر على عينتاب وعمق الحارم ، وكان السلطان حين ذاك مقيما بدمشق . (أبو الفــداء المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٤ فى .Rec. Hist. Or. I) .

فعملوا سلالم من حديد[1]، وعزموا على مهاجمة صفد ووردوا بيروت[2]؛ فلما وصلنا البلاد انعكست آمالهم . ومما يدلّ على التمكين تارة بالسيف وتارة بالسكين، أن صاحب مَرَقِيَة[3] الذى أخذنا بلاده توجه الى التتار مستصرخا، وسيرنا وراءه فداوية، وقد وصل أحدهم وذكر أنهم قد قفزوا عليه وقتلوه . وبلغتنا حركة التتار . وأنا والله لا أبيت إلا وخيلى مشدودة، وأنا لابس قماشى حتى المهماز " .

وورد الخبر بأن التتار أغاروا على عين تاب، وتوجهوا على العمق[4] فى نصف ربيع الأول، فكُتب إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف فارس . وخرج البريد من دمشق فى الثالثة من يوم الأحد ثامن عشره، فدخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادى عشريه ؛ فخرج بيسرى والعسكر بكرة يوم الأربعاء المذكور . وقدم التتار إلى حارم وقتلوا جماعة، وتأخر العسكر الحلبى إلى حماة، ووصل آقسنقر بالعسكر من جينين . فجفل أهل دمشق، وبلغ ثمن الجمل ألف درهم، وأجرته إلى مصر مائتى درهم . ودخل الأمير بيسرى بالعسكر المصرى إلى دمشق فى رابع ربيع الآخر، فخرج السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرّد الأمير آقسنقر ومعه عدة من العربان إلى مرعش، وجرّد الحاج طيبرس الوزيرى والأمير عيسى بن (١٥٥ ب) مهنا إلى حرّان والرّها . فوصل العسكر إلى حرّان وقتل من بها من التتار، وهزم باقيهم .

فورد الخبر بأن الفرنج قد أغاروا على قاقون بمواعدة التتار، وقتل الأمير حسام الدين أستادار، وجرح الأمير ركن الدين الجالق، ورحل بجكا العلائى والى قاقون . فخرج السلطان من حلب، ومنع أحدا أن يتقدّم حتى لا يعلم الفرنج خبره، ودخل إلى دمشق وبين يديه عدّة من التتار المأسورين من حران . وسار الأمير أقوش الشمسى بعسكر عين جالوت، فولى

(١) فى س "حرير" والصيغة المثبتة بالمتن منقولة من ب (١٨٠ ب) .

(٢) فى س "ووروا بيروت"، وهى فى ب (١٨٠ ب) "ووروا بيزوت"، ولم يستطع (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 100) أن يجد لها معنى أو اسما جغرافيا معقولا، فنقلها فى ترجمته بحروفها العربية .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى قلعة بساحل الشام قرب حمص . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠١) .

(٤) المقصود هنا عمق الحارم . انظر العينى (عقد الجمان، ص ٢٤٥، فى Rec. Hist.Or. II. 1.) .

الفرنج منهزمين من قاقون، وتبعهـم العسكر فاسترجعوا منهـم عدّة من التركمان ، وقتلوا كثيرا حتى أنه عدّ ما تلف من خيل الفرنج وبغالهم فكان خمسمائة رأس .

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث جمادى الأولى، ومعـه عساكر مصر والشام للغارة على عكا . فتكاثرت الأمطار عليه فى مرج برغوث ، وزاد الأمر عن الوصف، فكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلّون[1] به . فرد [السلطان] عسكر الشام وسار إلى مصر، فدخل قلعة الجبل فى ثالث عشريه .

وقدمت هدية صاحب تونس، وفى مكاتبته تقصير فى المخاطبة، ففرّقت هديته على الأمراء، وكتب إليه بالإنكار عليـه فى التظاهر بالمنكرات واستخدام الفرنج، وكونه لم يخرج إلى الفرنج[2] لمـا نازلوه ، وكان مسـتخفيا ؛ وقيل له : " مثلك لا يصـلح أن يلى أمور المسـلمين " ، وخُوّف وأُنذر . وقدمت رسـل رجار[3] وهو يشفع فى صاحب عكا ، والسلطان فى الصناعة جالس بين الأخشاب والصناع ، والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشوانى وهى تمدّ ، فراعهم ما شـاهدوا .

وفى رجب خرج السلطان متصيّدا بجهـة الصالحية ، فورد الخبر بحركة التتار فعـاد إلى القلعة، وخرج فى ثالث شـعبان إلى الشام . وأتتـه رسل الفرنج بعكا — وهو بالسَّواد[4] — تطلب الهـدنة، فسار و بعث إليهـم الأمير فخر الدين أياز المقرى، والصـدر فتح الدين ابن القيسرانى كاتب الدرج ، فى حادى عشرى رمضان . ونزل السـلطان بمروج قيسارية، فعقد الهدنة مع الفرنج لمدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات من التـاريخ المذكور . وخرج أهل عكا لمشاهدة العسكر، فركب السلطان ولعب هو وجميع العسكر بالرمح .

(١) فى س "يستظلوا" .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى حوادث الحملة الصليبية التى تقدم ذكرها فى ص ٥٩٠ ، سطر ٥ ، وما بعده .

(٣) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 102) هذا الاسم الى (Roger)، بغير تعليق .

(٤) فى س "السواده"، والسواد المقصود هنا موضع بنواحى البلقاء . (ياقوت : معجم البـلدان ، ج ٣ ص ١٧٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 235) .

ورحل [السلطان] إلى دمشق فدخلها ثانى شوّال، وحضرت رسل التتار فى طلب الصلح، فجهّز [السلطان] إليهم الأمير مبارز الدين الطورى أمير طبر، والأمير فخر الدين المقرى الحاجب، ومعهما الرسل وهدية لأبغا بن هولاكو وغيره . فساروا فى خامس عشره ، فلما قدما على أبغا أكرمهما (١٥٦ ا) وأخلع عليهما وأعادهما .

وفيه كثر اشتغال السلطان بعمل النشّاب بيده ، فاقتدى به جميع الأمراء والخواص، وكتب إلى الملك السعيد وسائر النوّاب بذلك، فلم يبق أحد إلا وهو متوفّر على العمل . فعمل السلطان جملة نشّاب بيده ، نحتها وريّشها وفصّلها .

فلما ضحّى [السلطان] توجّه إلى حصن الأكراد، ووصل إليه فى حادى عشرى ذى الحجة، وشاهد العمارة [به]، وأمر جميع من معه من الأمراء بنقل حجارة المنجنيق إلى داخل القلعة، ونقل معهم بنفسه ؛ ثم نزل وعمل بيده فى مرمّة مكان بالخندق، وحفر [بنفسه] . ثم سار إلى حصن عكّار، وعمل فى عمارته بيده أيضا، وأمر برمى المنجنيقات ليعرف مواضع سقوط أحجارها . وعاد إلى حصن الأكراد، وخلع على من به من الأمراء وأرباب الوظائف؛ وخرج يتصيّد، فكان الذى خلعه خمسمائة تشريف على من أحضر إليه الصيد .

وفى هذه السنة امتحن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن على ابن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقدسى الحنبلى : وذلك أن القضاة الأربعة[1] الذين ولّاهم [السلطان] الملك الظاهر بديار مصر، كان كل منهم يستنيب قضاة عنه فى النواحى، وكان لتقى الدين شبيب الحرّانى أخ ينوب عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى بالمحلّة[2]

---

(١) فى س "الاربع" .

(٢) بغير ضبط فى س ، والمقصود بهذا الاسم هنا مدينة المحلة الكبرى التى كانت مقر ولاية الغربية ، وكان قد غلب عليها اسم المحلة فقط حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى . هذا وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤١٠) أن هذه المدينة كانت تعرف باسم محلة الدقلا ، وقد ذكر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٤٨) أنها كانت تسمى أيضا باسم محلة شرقيون ، وأن هذه التسمية الثانية ناشئة من تكوين المدينة نفسها ، لأنها "ذات جنبين ، أحدهما سندفا والآخر شرقيون" .

فعزله . فغضب شبيب لذلك ، وكتب ورقة للسلطان بأن عنـد قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام ، بجملة كبيرة وقد ماتوا . فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك ، فأنكر وحلف وورّى فى يمينه ، فأمر السلطان بالهجم على داره ، فوُجد فيهـا كثير مما ادّعاه شبيب : بعضه قـد مات أهله ، وبعضه لقوم أحياء . فأخذ [السلطان] ممـا وجد الزكاة لمدة سنين ، وسلّم لمن كان حيّاً وداعته . وغضب السلطان عليه واعتقله ، وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان .

وسار [السلطان][1] إلى الشام [وقاضى القضاة شمس الدين الحنبـلى فى الاعتقال بمصر] ، فتسلّط شبيب عليه وادّعى أنّه حَشوِى[2] ، وأنه يقدح فى السلطان ، وكتب بذلك محضرا . فأمر الأمير بدر الدين بيليـك نائب السلطنة بعقـد مجلس ، فعُقـد فى يوم الاثنين حادى عشره ، وحضر الشهود ، فنكل بعضهم وأقام بعضهم على شهادته . فأَخْرق[3] النائب بمن شهد وجرّسهم[4] ، وذلك أنه تبيّن له تحامل تقى الدين شبيب على القاضى ؛ واعتُقل شبيب ووقعت الحوطة على موجوده ، وأعيد القاضى إلى (١٥٦ ب) اعتقاله بقلعة الجبل ، فأقام معتقلا سنتين ، ولم يولّ السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا .

---

(١) أضـيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٩) ، ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة كثيرا لما يقابلها فى النويرى .

(٢) ترجم (Quatremère: Op.Cit. I. 2. p.105. n. 123) هذا اللفظ الى (parleur inconsidéré) أى شخص معدوم القيمة أو المنفعة ، وقد دلّل على هذا المعنى بأمثلة عديدة منها "الحشوية من العوام" . على أنه يوجد فى محيط المحيط ، مايفهم منه أن الحشوى نسبة الى مذهب معين ، ونصه : "الحَشْوِيّة نسبة الى الحشو ، ... أو الحَشَوِيّة نسبة الى الحشا ، [وهم] طائفة تمسكوا بالظواهر ، وذهبوا الى التجسيم وغيره" .

(٣) المعنى أن النائب عاقب الشهـود بالضرب أو غيره ، وتوجد فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 105. n. 125) أمثلة عديدة لاستعمال فعل "أخرق" مقرونا بالباء بهذا المعنى ، ومنها : "كان قصد الوزير الإخراق به بالضرب" .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 105 et n. 126) هذا الفعل إلى (le naïb . les fit promener ignominieusement) ، وهذا مطابق لما جاء فى محيط المحيط ، ونصـه : "جرّس بالقوم سمّع بهم وأشهر عيوبهم ونقائصهم ، والعامة تقول جرّصهم بالصاد" . هذا ويظن (Quatremère : Op. Cit.) أن استعمال هذا الفعل بمعنى التشهير راجع الى أن جرسا كان يدق على طول الطريق أمام المحكوم عليهم .

وفيها قدم الشريفان جماز وغانم بن إدريس مكة، وملكاها أربعين يوما؛ ثم قدم أبو نمى فملكها منهما . وفيها ولدت زرافة بقلعة الجبل فى جمادى الآخرة، فأرضعتها بقرة . و[فيها] ولدت امرأة بدمشق فى بطن واحد سبعة[1] بنين وأربع بنات، وكانت مدة حملها أربعة أشهر وعشرة أيام؛ فماتوا كلهم وعاشت الأم .

ومات[2] فى هذه السنة من الأعيان تاج الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن رضى الدين أبى عبد الله محمد بن عماد الدين أبى حامد محمد بن يونس الموصلى الشافعى، عن اثنتين وسبعين سنة ببغداد. وتوفى كمال الدين أبو الفضل سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد الإربلى الشافعى، بدمشق عن سبعين سنة . وتوفى عماد الدين أبو عبد الله محمد بن سنى الدين أبى الغنائم[3] سالم ابن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى[4] الدمشقى، بها عن سبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو الحسن على بن عثمان بن على بن سليمان الإربلى الأديب الشاعر، وقد ترك الجندية وتنسّك، عن ثمان وستين سنة، بطريق الفيوم . ومات ببلد الخليل عليه السلام الشيخ على البكا، الرجل الصالح، فى أول شهر رجب، وله كرامات كثيرة .

* * *

سنة إحدى وسبعين وستمائة . فى خامس المحرم دخل السلطان إلى دمشق، وقد تواترت الأخبار بحركة التتار . فركب خيل البريد من دمشق فى ليلة سادسه بعد عشاء الآخرة، ومعه الأمير بيسرى، والأمير أقوش الرومى، وجرمك السلاح دار، وجرمك الناصرى،

(١) فى س " سبع " .

(٢) ليس للوفيات الآتية وجود هنا فى س، بل هى واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٠ ب، ١٦١ أ، حيث وضعت خطأ . هذا وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات هنا، فبعضها مذكور تحت تلك السنة فى ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٣١ — ٣٣٣)، وهى واردة كما هنا فى ب (١٨٤ أ) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 108. n. 129) .

(٣) فى س " العسام "، والصيغة المثبتة هنا من ب (١٨٤ أ) .

(٤) فى س " النعلى " . انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٣٢)، حيث ورد هذا اللفظ برسم " الثعلبى " .

وسنقر الألفى السـلاح دار، وعلم الدين شقير مقـدّم البريد . وساق فدخل قلعـة الجبـل فى يوم السبت ثالث عشره على حين غفـلة ، [و] لم يشعر الناس إلّا وقد دخل باب القلعة راكبا . ثم ركب إلى الميـدان ولعب بالأكرة ، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشـام . وكتب [السلطان] إلى الأمراء [المقيمين](1) بدمشـق ، [وذكر فى الكتب] أنه سطرها من البـيرة بحكم أنه توجّه لتدبير أمورها ، وسـيّر علائم بخطه ليكتب عليهـا من دمشـق أجوبة البريد للأطراف؛ وكان الأمير سيف الدين الدوادار قد أقام بقلعـة دمشـق ليجهّز الكتب والبريدية .

وفى يوم الاثنـين خامس عشره ركب السـلطان إلى مصر، وركب فى البحـر ولعبت الشوانى قدّامه . وفى ليـلة الأربعاء سابع عشره(2) جُهّز العسكر المجرد إلى الشـام . وفى ليـلة تاسع عشره توجّه السلطان إلى الشام بمن حضر معه على البريد، فدخل قلعة دمشق ليلا .

وفى صفر قدمت رسل الملك أبغا ورسل الروم ، فلم يُحتفل بهـم، وأُمِرُوا أن يضربوا جُوكا(3) قـدّام نائب حلب وقدّام صاحب حماة . وكان مجيؤهم(4) بأن يحضر سـنقر الأشقر حتى يمشى فى الصلح، ثم غيّروا كلامهـم وقالوا : "يمشى السلطان أو من يكون بعـده فى المنزلة الى أبغا لأجل الصلح"، فقال السلطان للرسل : "بل أبغا إذا قصـد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته" . وأمر [السلطان] بلبس العساكر فلبسوا عُدَد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق، والرسل تشاهـد ذلك؛ ثم سُفّروا فى رابع ربيع الأوّل . وفيـه تسلم السلطان

(1) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعـد مراجعة النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤١) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 109. n. 131) .

(2) فى س "عشرنه" ، وكذلك فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤١) . انظر ما يلى بنفس السطر، وكذلك (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 109) .

(3) فى س "جوك" بغـير ضبط ، وهو لفظ تترى معناه الجلوس على الركبتين كعادة المغول فى حضرة ملوكهم ، ومعنى العبارة كلها أنه طلب الى الرسل المذكورين أن يؤدّوا لنائب حلب وصاحب حماة مثـل ما يؤدّون لملوكهم من شـعائر الاحترام والخشـوع . انظر (Quatremère : Op. Cit I. 2. p. 109. n. 132; Dozy : Supp. Dict. Ar.) ؛ وكذلك ص ٥١٤، حاشية ٥) .

(4) فى س "مجيهم" .

صهيون من سابق الدين وفخر الدين، ولدى سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكبرس بعد موته (١)؛ [وكان هذا] بوصيته (٢) لها بذلك. فأمّرهما [السلطان] وأحسن إليهما، وقدم أهلهما الى دمشق.

و[فى خامس (٣) جمادى الأولى] ورد الخبر بنزول التتار على البيرة ونصبهم (٤) المجانيق عليها، وأنهم قد حفظوا مخاوض (٥) الفرات ونزلوا عليها، ليعوقوا من يصل إليهم. فجهز السلطان الأمير فخر الدين الحمصى بعدّة من عسكر مصر والشام إلى جهة حارم، وجهّز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس (١٥٧ (٦) ا) الوزيرى فى جماعة، ورحل [هو] من ظاهر دمشق [فى ثامن عشر جمادى الأولى]، ومعه مراكب مفصّلة (٧) محمولة. وجدّ [السلطان] فى المسير حتى وصل الى الفرات، فوجد التتار على الشط، فألقى المراكب التى حملها معه فى الفرات وأشحنها بالمقاتلة، فتراموا هم والتتار. واقتحم الأمير قلاوون (٨) [الألفى الصالحى] الفرات، فخاض ومعه عدّة وافرة، وصدم التتار صدمة فرّقهم بها ومزّقهم. فألقت الأطلاب أنفسها فى الفرات، وساقوا فيها عوما الفارس الى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة ومجاديفهم رماحهم، وعليهم وعلى

(١) كذا فى س، وقد توفى منكبرس هذا — واسمه منكورش أيضا — تلك السنة. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٤، فى Rec. Hist. Or. I).

(٢) ضمير الهاء عائد على منكبرس.

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١١ وما بعدها)، حيث توجد تفصيلات وافية عما حدث للسلطان بيبرس مع التتر تلك المرة.

(٤) فى س "نصب".

(٥) فى س "مخاض". انظر محيط المحيط.

(٦) يوجد بين الصفحتين ١٥٦ ب، ١٥٧ ا فى س ورقة منفصلة، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٤ هـ، وقد أثبتت فى موضعها المناسب تحت تلك السنة. (انظر ص ٦٢٤، حاشية ٤).

(٧) كانت تلك المراكب للصيادين ببحيرة قدس القريبة من حمص، وقد فصلت وحملت على ظهور الجمال الى نهر الفرات كما بالمتن. (ابن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد، ص ٢١٢).

(٨) كان الأمير قلاون، حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١٣)، "أول من أرمى نفسه من الفرات ...، ثم تبعه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى، ثم تبعهما السلطان بنفسه مع العساكر...".

خيولهم الحديد . وازدحموا فى المـاء ، فكان لقعقعـة السلاح وأمواج المـاء هول مفزع . وطلع السلطان فى أولهم ، وصـلّى فى منزلة العدو ركعتين شكرا لله تعـالى ؛ وبثّ العساكر يمينا وشمـالا ، فقتلوا وأسروا عددا كثيرا .

وبات العسكر ليـلة الاثنين ، فورد الخبر بهـزيمة التتار عن البيرة مع مقدمهـم دربای [٣] ، وتركهم الأثقال والأزواد ، وأن أهل البيرة أخذوا ذلك فتقوّوا به . وأقام السلطان ينتظر من يلاقيه من التتار فلم يأت أحد ، فعدى بجميع عساكره فى الفرات كما فعلوا أول مرة ، ونزل بهم فى ذلك ما لا يوصف من كثرة المشقة ، وعَظُم الهول حتى طلعت العساكر الى البرّ . وسار [السلطان] الى البيرة ، وخلع على نائبها وأعطاه ألف دينار ، وعمّ بالتشاريف والإنعام أهـل البيرة ، وفرّق فيهم مائة ألف درهم فضـة ، وجرّد هناك عدّة من العسكر زيادة على من كان فيها ؛ وسار الى دمشق فدخلها فى ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه .

وخرج [السلطان] الى مصر ، فوصـل قلعة الجبل فى خامس عشريه ؛ وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطى ، وأنزله بدار الوزارة وأجرى عليـه الرواتب . ثم استدعاه وشرب معـه القمز [١] ، وقد حضر أكابر الأمراء لذلك ، فلمـا ناوله السلطان الهنّاب [٢] بيـده وهو مملوء قال [عز الدين] : "ياخوند ! قد شبنا وشاب نبيذنا" . وعمّ [السلطان] بالخلع الأمراء والوزراء والقضاة والمقدمين ؛ وجهّز رسـل الملك منكوتمر ورسـل الملك الأشكرى ورسل الدعوة ، فساروا فى شعبان .

---

(١) كذا فى س ، بنقطتين تحت الياء ، وهو مترجم فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 111) إلى (Derbaï) ، ووارد فى (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 4 64) بصيغة (Deriaï) . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٥ ، حاشية ١) .

(٢) القمزّ نبيذ يعمل من لبن الخيل ، واللفظ تترى الأصل ، وقد كان السلطان بيبرس شغفا بهذا النوع من الشراب . انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.) ، وما به من المراجع ؛ (Lane-Poole: A Hist. of Egypt. p. 273) .

(٣) فى س "الهاب" بغير ضبط ، والهناب قـدح الشراب ، و يقابله فى الفرنسـية (hanap) ، وفى الإيطالية (anappo) ، وفى الألمـانية (napf) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وما هناك من المراجع) .

وفى ثانى عشر شوّال قبض على الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى شيخ السلطان ، [وكان السلطان قد استدعاه الى القلعة ، وأحضر جماعة ليحاققوه[1] على أشياء كبيرة بدت منه كاللواط والزنا وغيره ، فأمر السلطان باعتقاله] ، وسجن بقلعة الجبل .

وفى ثانى عشرى ذى الحجة استولى السلطان على بقية حصون الدعوة الإسماعيلية : وهى المَيْنَقَة[2] والقُدْمُوس والكَهْف ؛ وأقيمت هناك الجمعة وتُرُضِّى عن الصحابة بها ، وعُفِّيت المنكرات منها ، وأُظهرت شرائع الإسلام وشعائره .

وفى هذه السنة سار والى قوص من أسوان حتى قارب دمقلة من بلاد النوبة ، وقتل وأسر ثم عاد . وفيها استولى (١٥٧ ب) السلطان على عامة مدن برقة وحصونها . وفيها حصل الاحتفال بأمر الشوانى ونصب المجانيق على أسوار الإسكندرية ، فكمل هناك نصب مائة منجنيق ، وذلك لكثرة الإشاعة بحركة الفرنج لقصد ثغور ديار مصر . وفيها فتحت قلعة كَيْنُوك[3] من بلاد الأرمن ، على يد الأمير حسام الدين لاجين العنتابى . وفيها تجزّت عمارة صخرة بيت المقدس . وفيها نزل السلطان يعوم فى النيل وهو لابس زردية مُسْبَلَة[4] ؛ وعمل بسطا كبيرة ، وأركب فوقها الأمير حسام الدين الدوادار ، والأمير علاء الدين أيدغدى الأستادار ، وجرّها وجرّ فرسين — وهو يعوم لابس الزردية — من البرّ الى البرّ[5] .

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٧) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١ — ٤٢) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٢) فى س " المنيعة " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وفى (Quatremère Op. Cit. I. 2. p. 113. n. 137) ، أن هذه البلدة هى بلدة الحدث ، وعلى هذا يكون موقعها بين ملطية وسميساط ، و يقال لها الحمراء أيضا . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 113) هذه العبارة الى "Il était revêtu d'une cuirasse flottante" ، أى أن زردية السلطان كانت واسعة مرخاة وتطفو على الماء .

(٥) قبالة هذه العبارة فى هامش الصفحة فى س إشارة الى هذه الحادثة ، وهى مكتوبة بخط مخالف ونصها : "عوم السلطان الظاهر (كذا) فى البحر" .

ومات[١] فى هذه السنة من الأعيان شهاب الدين أبو صالح عبيد الله بن الكمال أبى القاسم عمر بن الشهيد شهاب الدين أبى صالح عبـد الرحيم بن عبـد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى، بها عن اثنتين وستين سنة . وتوفى فخرالدين أبو محمد عبد القاهر بن عبد الغنى بن محمد ابن أبى القاسم بن محمد بن تيمية الحرانى الحنبلى، عن نحو ستين سنة بدمشق . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن قرناص الحموى . وتوفى الشريف شرف الدين أبو عبد الله محمد بن رضوان الحسينى ، الناسخ الكاتب المجوّد المؤرخ ، عن تسع وستين سنة[٢] .

* * *

سنة اثنتين وسبعين وستمائة . فى المحرم نُقض باب القصر المعـروف بباب البحر تجاه المدرسـة الكاملية بين القصرين، [لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية]، فوُجد فيه صندوق فى داخله صورة من نحاس أصفر، [مُفَرّغ] على كرسى شكل هرم ارتفاعه قدر شبر بأرجل نحـاس، والصنم جالس عليه ويداه مرتفعتان تحملان[٣] صفيحة دورها ثلاثة أشـبار مكتوبة [بالقبطى، و إلى جانب الكتابة فى الصفيحة شكل له قرنان يشـبه شكل السنبلة ، و إلى الجـانب الآخر شكل ثانٍ وعلى رأسـه صليب، وشكل ثالث فى يده عكّاز وعلى رأسه صليب] . ووجد [مع هذا الصنم][٤] فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان ، قد تكشّط أكثر ما فيه من الكتابة وبقى فيه بيبرس[٣]؛ فتعجّب من ذلك .

---

(١) ليس للوفيات الآتيـة وجود هنا فى س، على أنهـا واردة فى ورقة منفصـلة بين الصفحتين ١٥٩ ب ، ١٦٠ أ ، حيث لصقت خطأ . انظـر (ابن العماد شـذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ — ٣٣٥؛ وكذلك النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٢ — ٤٣) .

(٢) فى هـذه السنة أيضا، حسبما ورد فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٢) كانت وفاة الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الفائز إبراهيم بن الملك السلطان العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب، وقد توفى فى معتقله بجب خزانة البنود بالقاهرة، ودفن بالقرافة بجوار ضريح الإمام الشافعى .

(٣) فى س "مرتفعه تحمل" .

(٤) أضـيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعد مراجعة المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٣)، حيث توجد تفصيلات وافية بصدد هذه الموجودات . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 114. n. 141).

(٥) فى س "بيرس" . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

وفيه وردت الأخبار بحركة الملك أبغا ، نخرج السلطان من قلعة الجبل فى ليلة سادس عشريه ، ومعه الأمير سنقر الأشقر، والأمير بيسرى، والأمير أتامش السعدى . فلما وصل [السلطان] عسقلان كتب الى القاهرة بخروج العساكر جميعها والعربان من ديار مصر ، صحبة الأمير بيليك الخازندار؛ ورسم بأن كل من فى سائر مملكته له فرس فإنه يخرج إلى الغزاة، وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجّالة يركبون الخيل على قدر حالهم ، ويقوم من بالقرية بكافة من يتوجّه . ودخل السلطان إلى دمشق فى سابع عشر صفر .

نخرج من عساكر مصر فى حادى عشره عدّة أربعة آلاف فارس، صحبة مقدميهم : وهم الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وجمال الدين أقوش الرومى ، وعلاء الدين قطليجا (١) ، وعلم الدين ططح (٢) . ثم خرج فى ثامن عشره الأمير بيليك الخازندار بطائفة كبيرة، فورد مرسوم السلطان على الأمير بيليك بالنزول قريبا من يافا . وعند ما قارب عسكر مصر دمشقَ ركب السلطان من دمشق فى نحو أربعين نفسا جرائد بغير (١٥٨ ا) ركبدار، وقد طلب العسكر وقارب المنزلة . فاعترض السلطان العسكر، وكان قد تلثّم هو وجماعته، فظنّهم الجحاب من بعض التركمان، فأمروهم بالترجّل فأبوا . وساق السلطان بمفرده، وجاء خلف السناجق وحسر لثامه عن وجهه، فعرفه السلاح دارية . ودخل [السلطان] وساق فى موكبه، فنزل الناس وقبّلوا الأرض ، وسار حتى نزل ورتّب العسكر. وأصبح [السلطان] فركب فى موكبه، وقضى أشغال الناس إلى أن أمسى، [ثم] ركب بمن حضر معه إلى دمشق ، وأصبح راكبا فى موكبه . وفى مدّة غيبته كان الأمير سيف الدين الدوادار يرتب الأمور بدمشق، ويكتب الأجوبة على علائم فوق أوراق بيض .

(١) كذا فى س ، واسمه "عز الدين قطليخا" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٨) ، وأورده النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٤) على أنه "شمس الدين أقش المعروف بقطليخا" .

(٢) كذا فى س ، وهو وارد "طرطج" فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع والصفحة)، "وطردح" فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

وفيه فرّ الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج[1] [من التتار إلى السلطان بيبرس] . وكان [الملك] فرج [فى أوّل أمره] أمير طشت[2] السـلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وكان له سميساط ، و بعـد وفاة جلال الدين مَلَك قلعة كِيْران[3] وعدّة قلاع بناحية نَقْجَوان[4] . ثم وصل [الملك فرج هذا] إلى [بلاد السلاجقة] الروم ، فأُقطِع بها ناحية أَقْصَرا[5] . وكان بهادر قد كاتب السلطان [بيبرس وراسله وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدوّ] ، فعلم به التتار فأمسكوه وحملوه إلى الأردو ، فهرب وحضر إلى البيرة ، ووصل إلى دمشق و بها الملك الظاهر ، فأكرمه وأعطاه بمصر إمرة عشرين فارسا .

وخرج السلطان من دمشق إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشرى جمادى الآخرة . فتواترت الأخبار بحركة التتار ، فرُسِم للأمير عيسى بن مهنا أمير العرب بالغارة ، فأغار ووصل إلى الأنبار فى ثامن عشر شـعبان . فظنّ التتار أن السلطان [قد] قدم ، فانهزموا إلى أبغا ، فرجع إلى بلاده .

وفى نصف شعبان أفرج عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى . وفى شهر رمضان رسم للعسكر بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان فى أحسن زيّهم وقت الحرب ، وركب السلطان فى مماليكه ودخلوا فى الطعن بالرماح . ثم أخذ [السلطان] الحلقة ورمى النشاب ، وجعل لمن أصاب من الأمراء فرسا من خيله الخـاص بتشاهيره ،

(١) فى س " فرح " ، وقد صحح هـذا الاسم ، وأضيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة كلها ، بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة بصدد هـذا الملك الشريد . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 116. n. 143) .

(٢) فى س " اميرطست " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى مدينـة بآذربيجان بين تبريز و بيلقان . (ياقوت : معجم البـلدان ، ج ٤ ، ص ٣٣٢) .

(٤) بغـير ضبط فى س ، وهى بلدة من نواحى أرّان وتسـمى أيضـا نخجوان ، ويذكر ياقوت أيضا (نفس المرجع والجزء ، ص ٨٠٢) أن النسبة من نقجوان "نشـوى" ، وقد سأل فى آذربيجان عن سبب ذلك الاشتقاق الغريب فلم يستطع أحد أن يخبره بعلته .

(٥) فى س "اقصر" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 116) .

والحلقة والبحرية بغلطاق . فاستمر ذلك أياما ، تارة يكون اللعب فيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة بالدبابيس؛ وفرّق [السلطان] فيها من الخيل والبغالطيق جملة . وساق السلطان يوما على عادته فى اللعب ، وسلّ سيفه فسلّت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد واصطدموا ، فكان منظرا مهولا . وأطلق [السلطان] من التشاريف ما عمّ به سائر من فى خدمته : من ملك وأمير ووزير ، ومقدمى الحلقة والبحرية ، ومقدمى المماليك والمفردية ، ومقدمى البيوتات السلطانية ، وكل صاحب شغل ، وجميع الكتّاب والقضاة ، وسائر أرباب الوظائف .

وفى يوم عيد الفطر خُتن الأمير نجم الدين خضر ابن السلطان وعدّة من أولاد الأمراء ؛ وجرى السلطان على عادته فى عدم تكليف النـاس ، فلم يقبل من أحد هـدية (٥٨ ا ب) ولا تقدمة ، ولم يبـق من لا شمله إحسانه من سائر الطوائف ، إلا المغانى وأرباب الملاهى فإنه لم تنفق لهم فى طول أيامه سلعة ، ولا نالهم منه رزق البتة .

وفى ثانى عشر شهر رمضان سار الملك السعيد من قلعة الجبل فى عدّة من الأمراء جريدة إلى الشام ، من غير أن يعـلم به أحد . فدخل دمشـق فى سادس عشريه على حين غفـلة من النـائب ، بحيث لم يشعر به العسكر إلا وهو بينهم فى سوق الخيـل ، فقبّلوا له الأرض . ودخل [الملك السعيد] إلى القلعـة وأراد لعب القبق خارج دمشق ، فمنعته كثرة الأمطار . وفى ليلة عيد الفطر خلع [الملك السعيد] على أمراء الشام والمقدمين والمفاردة والأكابر ، وخرج يتصـيّد بالمرج ، وسار الى الشقيف وصـفد ، وتوجّه الى القـاهرة فوصـل قلعة الجبـل فى حادى عشرى شوال .

وفى هذه السنة كان بمصر وأريافها وباء ، هلك فيه خلق كثير أكثرهم النساء والأطفال . وحصل فى بلاد الرملة وبلاد القدس مرض وحميات ، فقدم رجل نصرانى الى الأمير غرس الدين بن شاور والى الرملة ، وقال [له] : "هذه الآبار قد حاضت ، كما جرى فى السنة التى جاء التتار فيها الى الشام . وإن الفرنج بعثوا الى قرية عابود[1] فى الجبل ، [و] أخذوا من مائها وصبّوه

(١) فى س "عاور" بغير ضبط أو نقط ، وعابود قرية جبلية بنواحى بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٥) .

فى الآبار فزال الوخم" ، وأشار بعمل ذلك . فبعث والى الرملة الى القرية المذكورة ، وأخذ من مائها وصبّه فى الآبار التى بيافا ، وكان المـاء قد كثر فيها فنقصت إلى حدّها المتعارف . وكُتب إلى السلطان بذلك ، وقيل [له] : "إن هذه الآبار إناث تحيض ، وآبار الجبل ذكور ومنها آبار قرية عابود(1) المذكورة" .

وفيها ولى تقى الدين أبو عبدالله محمد بن......(2) بن يحيى الرقى قضاء الشافعية بحلب ، بعد وفاة محيى الدين محمد بن الأستاذ .

ومات فى هذه الســنة من الأعيان الأمير فارس الدين أقطاى الصغير المستعرب الصالحى النجمى ، أتابك العساكر بديار مصر ، عن سبعين ســنة فى تاسع جمـادى الأولى . ومات الأمـير حسام الدين لاجين الأيدمرى المعـروف بالدرفيل ، دَاوَدَار السلطان . وتوفى قاضى حلب محيى الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن الأسـتاذ الشافعى بها ، و[قد] قدم القاهرة ودرّس بالمَسْرُورِية(3) . وتوفى قاضى قضاة دمشق كمال الدين أبو الفتح عمر بن شدّاد بن عمر بن على التفليسى الشافعى ، عن سبعين سنة بالقاهرة . وتوفى مؤيد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن القلانسى التميمى ، خارج دمشق عن ثلاث وسبعين سنة ، بعد ما قدم القاهرة . وتوفى النحوى جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطـائى الجَيَّانى(4) بدمشق ، عن بضع وسبعين ســنة . وتوفى تقى الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن أبى اليسر التنوخى المعرّى ، المحـدث الأديب كاتب الإنشاء ، عن ثلاث وثمانين سنة بدمشق . وتوفى المسند نجيب الدين أبو الفرج عبد اللطيف

(1) فى س "عابور" . (2) بياض فى س .

(3) المسرورية اسم مدرسـة كانت فى الأصل دارا لشمس الخواص مسرور ، فجعلت مدرسة بعد وفاته . وكان مسرور هـذا ممن اختص بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، فقدّمه على حلقته ولم يزل مقـدّما الى الأيام الكاملية ، ثم انقطع الى الله ولزم داره حتى مات . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨) .

(4) فى س "الحيانى" ، والجيانى نسبة الى بلدة جيان التى تبعد سبعة عشر فرسخا عن قرطبة بالأندلس . (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٩ — ١٧٠) .

بن عبد المنعم بن على بن نصر الحرّانى ، مدرّس دار الحديث الكاملية ، عن خمس وثمانين سنة بالقاهرة . وتوفى جمال الدين أبو عيسى عبد الله بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد بن علاق الأنصارى ، عن ست وثمانين سنة . وتوفى أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى بالإسكندرية ، عن بضع وثمانين سنة . ومات ببغداد العلامة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى الإمام المشهور ، فى [ذى الحجة](1) . و [قد] خدم أولا صاحب الألموت ؛ ثم خدم هولاكو وحظى عنده ، وعمل له رصدا بمراغة ، وصنّف كتبا عديدة ؛ وكان مولده فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

* * *

سنة ثلاث وسبعين وستمائة . فى المحرم قدم الملك المنصور [محمد] صاحب حماة إلى قلعة الجبل ، ومعه [إخوه](2) الملك الأفضل على ، وولده المظفر تقى الدين محمود . فأنزل بمناظر الكبش ، وعندما حلّ بها وصل اليه الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار بالسماط ، فمدّه بين يديه ووقف كما يقف بين يدى السلطان . فلم يدعه الملك المنصور يقف وما زال به حتى جلس ، فلما فرغ السماط قُدِّمت الخلع والتعابى وغيرها .

وفى ثامن صفر توجّه السلطان من قلعة الجبل ، وسار (١٠٩ ا) إلى الكرك فأقام بها ثلاثة عشر يوما ، وكشف أحوال الشوبك ، وعاد إلى قلعة الجبل فى ثانى عشرى ربيع الأول .

---

(١) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيفت "ذى الحجة" من ابن ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٠) ، حيث توجد ترجمة أطول مما هنا لنصير الدين المذكور .

(٢) أضيف ما بين الأقواس من (Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket) ، والمنصور محمد هذا سليل الملك المظفر تقى الدين عمر ، الذى أقطعه عمه صلاح الدين الأيوبى حماة سنة ٥٧٤ هـ (١١٨٧ م) . وقد ظلت حماة بيد أبناء هذا الفرع الأيوبى ، وكان صاحبها أيام غارات التتر على الشام المنصور محمد المذكور ، فخضع لهولاكو والتتر ، ثم انقلب بعد هزيمتهم الى مصادقة سلاطين المماليك والاعتراف بسيادتهم ، كما هو واضح من المتن . هذا والأفضل على هو أبو المؤيد أبى الفداء ، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر المتداول فى هذه الحواشى ، وقد ولد أبو الفداء هذا سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢ م) بدمشق ، وتولى حماة بعد عدّة سنين من انتهاء ولاية المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد عليها . (Enc. Isl. Arts. Ham¯h, & Abu-l-Fida') .

ثم توجّه الى العباسة ومعه الملك السعيد ، فصرع الملك السعيد أوزة خبية[(١)] . وقيل له : "لمن تدعى؟" فقال : "لمن أدعو بحياته ، ومن أتقرّب الى الله بدعواته ، الذى حسبى افتخارا أن أقول والدى ، ومن يتمرّن لصرع أعدائه ساعدى"؛ فقبّله السلطان ووهبه من كل شىء .

[وفيها تحيّل السلطان على استخلاص[(٢)] رؤساء الشوانى الذين أسروا بقبرس على ميناء نمسون]:
وكان الفرنج لمـا كسرت الشوانى على قبرس وأسروا من فيها ، بعث السلطان الأمير فخر الدين المقرى الحـاجب إلى صور لابتياع الأسرى ، فتغالى الفرنج فى الرؤساء وباعوا القوّاد والرماة لطائفة منهـم . ففادوا بهم أسرى أطلقهم السلطان ، وبقى الاحتفاظ على الرؤساء وهم ستة : منهـم رئيس الإسكندرية ورئيس دمياط ؛ فحبسوهم بعكا فى قلعتها . فبعث السلطان إلى الأمير سيف الدين خطلبا — وهو بصفد — يأمره بالتحيّـل فى سرقتهم؛ فأرغب الموكلين بهم بالمـال حتى وصل اليهم ببارد[(٣)] ومناشير، وسُرقوا من جبّ قلعة عكا، وساروا فى مركب إلى خيل قد أعدّت لهم ، فركبوها ووصلوا إلى القـاهرة . ولم يشعر بهم الفرنج حتى قدموا على السلطان ، فكانت بعكا لأجلهم فتنة بين الفرنج .

وقدم كتاب متملك الحبشة وهو الحطّى[(٤)] يعنى الخليفة ، يخاطب السلطان فيـه [بعبارة] : "أقل المـاليك يقبّل الأرض وينهى" ؛ وسأل فيه أن يُجهّزله مِطْران[(٥)] من عنـد البطرك ،

---

(١) كذا فى س بغير نقط على التاء ، وفى النويرى (نهـاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٧) ، أن الملك السعيد صرع "اوزه جنيه" . انظر أيضا العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) حيث ورد أن الملك السعيد صرع "طيرا من الطيور الواجبة" ، وهـذه العبارة الأخيرة مترجمـة بالفرنسية فى نفس المرجع والصفحة إلى "un des oiseaux fixés comme but" ، أى أحد الطيور المعينة للرماية .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) فى س "بمارد" .

(٤) انظر ص ٦١٦ ، سطر ٢٨ .

(٥) يقابل هـذا اللفظ فى الفرنسية (métropolitain) ، ومرادفه فى اللغات الأوربية الأخرى قريب من هـذا ، وفى القلقشـندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣) أن المطران كان فى عصره هو القاضى الذى يفصـل فى الخصومات بين أهل طائفته .

فأجيب[1] . وسار السلطان إلى الإسكندرية ، وأمر ببناء ما تهدّم من المنار ، وعاد إلى قلعته . وكتب [السلطان] بأن تخرج عساكر حلب للغارة ، فخرجت وأغارت على بلاد سيس ، وغنموا وقلعوا أبواب رَبَض مرعش .

وفى ثالث شعبان توجّه السلطان من قلعة الجبل إلى الشام ، فدخل دمشق فى سلخه ، وخرج منها فى سابع رمضان فدخل حماة ، ثم صار منها بالعساكر والعربان . وجرّد [السلطان] الأمير

(١) يوجد فى مفضل بن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٩ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد ، وهى تحت سنة ٦٧٢ هـ ، ونصها : "وفيها ذكر [محيى الدين] بن عبد الظاهر [فى كتابه السيرة الظاهرية] أن فى هذه السنة ورد كتاب ملك الحبشة على السلطان الملك الظاهر ، طىّ كتاب صاحب اليمن ، وهو يقول إن سلطان الحبشة قد قصد الملوك فى إيصال كتابه الى السلطان . وكان ضمن كتاب ملك الحبشة يقول أقل المماليك محر املالك (كذا) يقبل الأرض و ينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر (٢٢٠) خلد الله ملكه ، إن رسولا وصل من جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده . فليرسم مولانا السلطان للبطرك أن يعمل لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما ، لا يحب ذهبا ولا فضة ؛ ويسيره الى مدينة عوان (كذا ولعلها سوان أى أسوان ، أو لعلها عدن ، وهذا الفرض الثانى معتمد على الجملة التالية هنا) . فأقل المماليك يسير الى نوّاب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه ، وهو يسيره الى أبواب السلطان ؛ وما أخّرت الرسل الى الأبواب ، إلا أنى كنت فى بيكار ، فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين ، و إنما (كذا) النصارى فكثير لا يعدّوا ، كلهم غلمانك وتحت أمرك ، والمطران الكبير يدعو لك ، وهذا الخلق كلهم (٢٢١) يقولون آمين . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفّرهم كما يحبون ، والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض ، وبلادنا وخمة أى من مرض بها ما يقدر أحد يدخل اليه ، ومن يشم رائحته يمرض ويموت . قال ابن عبد الظاهر ، فرسم [السلطان] بكتب الجواب ، فكتبت : ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكته حطى ملك أمحرة ، أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على مالهم من البلدان ، نجاشى عصره وفريد مملكته فى دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دولة دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، سلطان الامحرة ، حرس الله نفسه ، وبنى على الخير أسه — ، فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب (٢٢٢) المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده حتى يعود اليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف مسلمين ، فالله تعالى يكثر فى عسكرنا المسلمين . وأما وخم بلاده ، فالآجال مقدّرة من الله تعالى ، وما يموت أحد إلا بأجله ، ومن فرغ أجله مات . قال ابن عبد الظاهر ، لما ذكرنا مكاتبة صاحب الحبشة أردنا أن نذكر شيئا من بلاده : أما أمحرا فإنه إقليم من أقاليم الحبشة ، وهو الإقليم الأكبر وصاحبه يحكم على أكثر الحبشة ، مثل بلاد الداموت والحرلى . وصاحب بلاد أمحرا يسمى حطى يعنى الخليفة ، وكل من يملكها يلقب بهذا اللقب ؛ ومن ملوك الحبشة (٢٢٣) يوسف بن ارسماية ، وهو صاحب بلاد حداية وشوا وقلحور وأعمالها ، وقومهم ملوك المسلمين . وأما الزيلع وقبائلها فما فيها ملوك ، إلا أنهم سبع قبائل ، وهم مسلمون وخطباؤهم يخطبون بأسماء مقدميهم السبعة" . انظر أيضا (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٥ — ٤٦ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 122. n. 151) .

عيسى بن مهنا ، والأمير حسام الدين العنتابى ، بعسكر إلى البيرة ، وجهّز الأمير قلاون الألفى ، والأمير بيليك الخازندار ، [بعسكر إلى بلاد سيس] (١) ؛ فساروا وهجموا المَصِّيصة (٢) على الأرمن ، وقتلوا من بها . وكانت المراكب قد حُملت معهم على البغال وهى مفصّلة ، ليعدوا فيهـا من [نهر] جَهَان (٣) والنهر الأَسْوَد (٤) ، فلم يُحتج اليها .

(١) أضيف ما بين القوسين بعــد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٢٥ ، وما بعدها) ، وفى نفس المرجع تفسير لتولية السلطان اهتمامه هــذه السنة صوب هذه الجهات ، ونصه : "(٢٢٦) وكان سبب خروج السلطان هــذه المرة ما ذكره عز الدين ابن شداد ، فى الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، وذلك أن معين الدين البرواناه كتب إلى السلطان الملك الظاهر يحرضه على الدخول إلى البلاد ويقصد (كذا) الروم . وذلك أنه لمـا ضاق ذرعه من (٢٢٧) من أجاى (Atchaï) بن هولاوون ، [وهو] أخو أبغا ، وعزم اجاى على قتله ، فحمله الخوف على مكاتبــة السلطان فى السنة الخالية . وسير [أيضا] إلى أبغا وذكر له أمورا توجب أن يستدعى أجاى إليه ، فسير أبغا وطلب أجاى فتوجه نحوه ، فوافق خروجه من البلاد دخول السلطان إلى الشام . فأفاق البرواناه على نفسه ، فسير يقول للسلطان اقصد هذه السنة سيس ، وفى السنة الآتية أملّكك البلاد . فقصد السلطان سيس" حسبا فى المتن . انظر أيضا (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 471 et seq.) ، حيث توجد أسباب أخرى .

(٢) بغير ضــبط فى س ، وهى مدينــة على شاطىء نهر جيحان ، وتسمى فى الحوليات الصليبيــة (Mamistra) (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124) ؛ وهى تقارب طرسوس ، وبينها وبين أذنة تسعة أميال . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٧ ، وما بعدها .(Le Strange: Palest. Under Moslems, pp. 505 et seq .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهذه التسمية عامية ، والصحيحة نهر جيحان ، واسمه فى الخرائط الأوربية (Pyramus) . ويخرج هــذا النهر من بلاد الروم عند زبطرة (Zabatrah) ، وتقع عليه المصيصة ويصب فى البحر الأبيض المتوسط على مسافة قريبة منها . (ياقوت : معجم البــلدان ، ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 62) . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ، ص ٢٢٩ ، وما بعدها) ، حيث يوجد الوصف التالى لهذا النهر ، ونصــه : "وأما نهر جاهان فهو نهر جيحان ، والأرمن تجعل الحاء هاء . وهــذا النهر أجل الأنهار الثلاثة ، وهم (كذا) شيحان وجيحان وبردان ، وهى أنهار طرسوس والمصيصة وأدنة ؛ [وقد] ذكر ذلك هبة الله ابن الإكليلى فى كتاب صفة الأرض ، قال ويخرج من بلاد الروم ثم يقصــد إلى البحر المــالح ، وأما نهر جيحون فهو النهر الذى يخدر متبحرا إلى خوارزم . وأول نهر جيحان جوفا (كذا) ينحدر نحو الجنوب حتى يمر بمدينة سيسمة من بلاد الروم ، ويمر بين جبلين منحرفا عن المغرب (٢٣٠) إلى أن يصير إلى مدينتين كانتا للروم يقال لهما ترسا وزبطرة ، فيمر فيهـا بينهما ، ثم يمر بين جبلين راجعا إلى البحر الشامى . وطول هــذا النهر من أوله إلى مصبه سبعمائة وثلاثون ميلا ، والجبال المحيــطة بسيس وبلادها هو جبل اللكام ، طوله مائة ميل ، والميــل من الأرض منتهى مدّ البصر ، والفرسخ ثلاثة أميال" .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسم هــذا النهر عند الترك ، وفى الخرائط الأوربية أيضا "قراصو" (Kara Sou) ، ومنبعه فى بلاد الروم ، ومجراه غربى بلاد المصيصة وطرسوس ، وهو أحد فروع الفرات الأعلى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٣٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 60) .

ووصل السلطان على الأثر، بعـد ما قطع بعساكره النهر الأسود وقاسوا مشقة، وملكوا الجبال وغنموا منهـا ما لا يحصى كثرة ، ما بين أبقار وجواميس وأغنام . فدخل [السلطان] إلى سيس (١٤٩ ب) وهو مُطَّلب فى تاسع عشريه وعيَّد بها ، وانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره و بساتينه . و بعث إلى دَرْبَنْد الروم[١]، فأحضر إليه من سبايا التتار عدّة نساء وأولاد . وسيّر إلى طرسوس ، فأحضر إليه منها ثلاثمائة رأس من الخيل والبغال . و بعث إلى البحر عسكرا فأخذ مراكب، وقتل من كان فيهـا . وانبثّت الغارات فى الجبـال ، فقتلوا وأسروا وغنموا . و بعث [السلطان] إلى أَيَاس[٢] العساكر، و [كانت] قد أخليت[٣]، فنهبوا وحرقوا وقتلوا جماعة ؛ وكان قـد فرّ من أهلها نحو الألفين — ما بين فرنج وأرمن — فى مراكب ، فغرقوا بأجمعهـم فى البحر . واجتمع من الغنائم ما لا يحصره قلم لكثرته ؛ ووصـلت العربان والعسكر إلى البيرة وسـاروا إلى عين تاب وغنموا ، فانهزم التتار منهم وعادوا .

فرحل السلطان من سيس إلى المصيصة[٤] من الدربند ، فلمـا قطعه جعل الغنائم بمرج أنطاكية حتى ملأته طولا وعرضا . ووقف بنفســه حتى فرّقها، ولم يترك صاحب سيف ولا قلم حتى أعطاه، ولم يأخذ لنفسـه منها شيئا . فلمـا فرغ من القسمة سار إلى دمشق ، فدخلها فى النصف من ذى الحجة .

وفيها ولى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم ، بعد وفاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعى .

---

(١) بغـير ضبط فى س ، واسم هـذا الموضع فى المراجع الأوربية (Passus Portellae) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 154 ؛ ابن أبى الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ص ٢٣١) .

(٢) بغير ضـبط فى س ، وهى ثغر بأرمينية الصـغرى على شاطىء البحر الأبيض المتوسـط : Le Strange) Palest. Under Moslems. p. 405) .

(٣) فى س " اخلت " .

(٤) يرى (Quatremère : Op. Cit. I. 2, p. 124, n. 154) أن هنا هفوة قلميـة ، وأن المقريزى أراد أن يكتب "أنطاكية" فكتب المصيصة .

ومات(١) فيها من الأعيان قاضي القضاة الحنفي بدمشق شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عطاء بن الحسن بن عطاء الأذرعي، عن ثمـان وسبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو بكر محمد بن علي بن موسى بن عبد الرحمن الخزرجي المحلي النحوى الأديب . وتوفى الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمـد بن محمود بن أحمد الأسـدى الدمشقي المعروف باليغمورى ، بالمحلة من أعمال القاهرة، عن نيف وسبعين سـنة . وتوفى الحافظ وجيه الدين أبو المظفر منصور بن مسلم بن منصور بن فتوح بن العماد الهَمْدَانى(٢)، الإسكندرى المـالكى المؤرخ، عن ست وستين سنة بالإسكندرية .

* * *

سنة أربع وسبعين وستمائة . فى ثامن المحرم وصل الأمير سيف الدين بلبان الدوادار إلى طرابلس فى تجمـل كبير، ومعه كتاب السلطان إلى متملكها ، فما زال حتى قرر عليه فى كل سنة عشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيرا(٣) .

وفى رابع عشريه خرج الأمير بدر الدين الخازندار من دمشـق لإحضار الملك السعيد ، ومعه أولاد الأمراء ، فوصل الى قلعة الجبل وخرج بالملك السعيد على خيل البريد فى سلخه ، فوصل إلى دمشق فى سادس صفر، وتلقّاه السلطان ودخل به إلى قلعة دمشق(٤) .

---

(١) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ١٥٩ ب، ١٦٠ أ ، وهى من غير شك متعلقه بهذه السـنة . (انظر النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٧) . هـذا ويوجد أيضا بين هاتين الصفحتين فى س ورقة منفصلة أخرى ، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧١ هـ، وقد أوردت هناك . (انظر ص ٦٠٩) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى همدان إحدى القبائل اليمنية الكبرى . (Enc. Isl. Art. Hamdān؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٤١) .

(٣) تقدم ذكر عقد معاهدة صلح بين السلطان بيبرس وصاحب طرابلس (Bohemond VI)، سنة ٦٦٩ هـ (انظر ص ٥٩٣)، وسبب هذه المعاهدة الجديدة المذكورة هنا أن صاحب طرابلس توفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥م)، فاقتضى ذلك تجـديد الحلف مع الأمير الجـديد (Bohemond VII) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. p. 345؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١٠٨) .

(٤) كان السبب فى استدعاء السلطان ولده الملك السعيد الى دمشق هو الشروع فى تزويجه بغازية خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاون الصالحى ، وقد تمّ الزواج تلك السنة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٥ ، فى Rec. Hist. Or. I؛ النويرى : نهاية الأرب : ج ٢٨ ، ص ٤٧ — ٤٨) . انظر أيضا ما يلى، ص ٦٢٣ .

وفى صفر هـذا توجه السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ملك المغرب لجهـاد الفرنج ، فقتـل الطاغية (١) فى المعركة فى نحو ستة آلاف، ولم يقتل من المسلمين إلا نحو ثلاثين رجلا . و بلغت الغنائم من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا (٢) ، و بلغ الأسرى سبعة آلاف أسير . وعجزت القـدرة عن إحصاء الغنم ، حتى أبيعت الشاة بدرهم، وحمل الكراع (٣) على أربعة عشر ألف وستمائة جمل .

وفيها نبش عمال بنى مرين قبور خلفـاء الموحّدين، وأخرجوا عبد المؤمن بن على وابنـه يعقوب المنصـور من قبريهما . وقطعت رأساهما (٤) ، وضربت أعناق من كان بجبل تينمل (٥) ، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم . وفيها بنيت فاس الجديد (٦)، وصارت دار ملك بنى مرين .

وفى ثالث عشرى جمـادى الأولى أخذ السلطان القُصَـيْر (٧) حصن أنطاكية ، وحمل أهله

(١) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p.125) هذا اللفظ الى (le prince des chrétiens) بغير تعليق ، على أنه يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٩٦) ما يساعد على التعريف بهذا "الطاغية"، إذ ورد به أن السلطان أبا يوسف حارب " النصارى بالأندلس أربع مرات حتى أذعن له شانجة بن أدفونش وسأله فى عقد السلم له ، فعقد له على شروط اشترطها عليه" .

(٢) فى س " عشرون " .

(٣) الكراع هنا ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .(Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 126. n. 156) .

(٤) فى س " راسيهما " .

(٥) كذا فى س ، وهـو بلد بجبال مراكش فى الجنـوب الغربى من مدينة مراكش نفسها ، واسمـه فى (Timnlel, Tinamallal) (G.-Demombynes : Masālik El Absār, Index) .

(٦) تتكون مدينة فاس المعروفة بمراكش من بلدين ، وهمـا فاس البالى — أى القـديم ، ويسمى المدينة — وفاس الجديد ، وهو الذى بدأ بناءه يعقوب بن عبد الحق ، فى شوال سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) ، كما بالمتن . وقد أطلق على هذا البلد الجديد اسم المدينة البيضاء ، ثم غير إلى فاس الجديد تمييزا له من فاس البالى . (Enc. Isl. Art. Fās) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة جنوبى أنطاكية ، وكانت لهيئة الفرسان الداوية (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 489) انظر أيضا (Stevenson : Crusaders In The East. Map.) . هذا و يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٣٦ أ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة متعلقة بتلك القلعة ، منها أنها كانت "للبطرك من داخل البحر، وبها نائب من جهة البطرك اسمه سير كلتام (Sir William) ، وهو رجل جيد يحب الخير". انظر أيضـا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أما البطرك المذكور فهو بطريق أنطاكية (The Latin Patriarch of Antioch) ، وكان قد ترك ميدان النضال يأسا من مقاومة السلطان ، فلق حتفه فى تلك الموقعة . راجع (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 274) .

الى الجهات التى قصـدوها . وقدم الخبر بورود التتار الى البـيرة ، فجمع [السلطان] العساكر وأنفق[1]، وخرج من دمشق إلى حمص، فجاء الخبر برجوع التتار فعاد إلى دمشق .

وفى هذه الأيام اختلفت أمراء الروم على البرواناه، ففارقه جماعة من قيسارية ؛ وقـدم منهم الى السلطان الأمير ضياء الدين محمود بن الخطير، والأمير سنان الدين موسى بن طرنطاى، ونظام الدين أخو مجد الدين الأتابك، بعيالاتهم يريدون الانتماء (١٦٠ ا) اليه ؛ فجهّزهم [السلطان] الى القاهرة . ثم إن محمود بن الخطير سعى بهم، فاعتقلوا بقلعة الجبل مدة ثم أطلقوا .

وفى مستهل رجب توجّه السلطان من دمشق إلى مصر، فدخل قلعة الجبل فى ثامن عشره . وقدمت هدية [صاحب] اليمن ، ومن جملتها كَرْكَدّن وفيل وحمار وحش عتابى ؛ فسيّر [السلطان] إليـه هدية مع رسله . وجهز [السلطان] هدية للملك منكوتمر مع الأمير عز الدين أيبك الفخرى، وجهز رسل الملك الأشكرى[2]، ورسل الفذش[3]، ورسل جنوة .

و [فيها] حضر ابن أخت ملك النوبة واسمه مشكد[4]، متظلّما من داود ملك النوبة . فجرّد السلطان معه الأمير آقسنقر الفارقانى، بعدة من العسكر وأجناد الولاة والعربان، ومعه الزرّاقون[5] والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه . فخرج فى مستهلّ شعبان حتى عدى أسـوان ، وقاتل [الملك داود ومن معه من] السودان، فقاتلوه على النُّجُب، وهزمهم وأسر منهم كثيرا . وبعث

---

(١) فى س " نفق " .

(٢) المقصود هنا (Alphonso of Seville) ملك أشبيلية ، وكان بينه وبين السلطان بيبرس معاهدة تجارية منذ ٦٦٩هـ(١٢٧٠ م) . انظر (Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266 ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٨ ، ٦٩)، حيث توجد تفاصيل كثيرة بشأن هذه السفارة .

(٣) ضبط هذا الاسم من القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٥) .

(٤) كذا فى س، واسم هذا الأمير "شكندة" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٣٤) . انظر أيضا (النويرى : نهاية الأرب، ج٢٨، ص١٠٨ — ١٠٩ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 127. n. 157). هـذا ويوجد فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع، ص ٢١١، ٢٣٤، وما بعدها) تفصيلات كثيرة بصـدد علاقات السلطان بيبرس بملوك تلك البلاد وأمرائها ، وكل ما هنا بالمتن من الإضافات مأخوذ من هذا المرجع .

(٥) فى س "الزراقين" .

[الأميرُ آقسنقر] الأميرَ عز الدين الأفرم ، فأغار على قلعة الدّو(١) وقتل وسبى ؛ ثم توجه [الأميرُ سنقر] فى أثره يقتل و يأسر حتى وصل إلى جزيرة ميكائيل — وهى رأس جنادل النوبة — فقتل وأسر . وأقرّ [الأمير آقسنقر] قَرَ الدولة صاحب الجبل(٢) — وبيده نصف بلاد النوبة — على مابيده ، ثم واقع الملك داود حتى أفنى معظم رجاله قتلا وأسرا . وفرّ [داود] بنفسه فى البحر وأسر أخوه شنكو(٣) ، فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام ، والسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلّهم فى الطاعة ، وأسرت أم الملك [داود] وأخته .

وأقيم مشكد فى المملكة ، و ألبس التاج وأجلس فى مكان داود ، وقررت عليه القطيعة فى كل سنة : وهى فيلة ثلاثة(٤) ، وزرافات ثلاث ، وفهود إناث خمس ، [و] صهب جياد مائة ، [و] أبقار جياد منتخبة(٥) مائة . وقرّر أن تكون البلاد مشاطرة : نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ؛ وأن تكون بلاد العلي(٦) و بلاد الجبل للسلطان — وهى قدر ربع بلاد النوبة — لقربها من أسوان ؛ وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة من القديم . وعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو القتل فاختاروا الجزية ، وأن يقوم كل منهم بدينار عينا فى كل سنة . وعملت نسخة يمين بهذه الشروط ، وحلف عليها مشكد وأكابر النوبة ؛ وعملت [أيضا] نسخة للرعية بأنهم يطيعون(٧) نائب السلطان ما دام طائعا ، و يقومون(٨) بدينار عن كل(٩) بالغ . وخربت كنيسة

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128).

(٢) فى س "صاحب الخيل" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128 n. 158) ، وكذلك مايلى سطر ١٠ . (٣) كذا فى س ، واسم هذا الأمير "سنكوا" فى النويرى (نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص١٠٨).

(٤) فى س "ثلاث" . (٥) فى س "متحبه" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2 p. 128) .

(٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128, et n. 159) . هذا وقد أورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٥) فى هذا الصدد ما يساعد على التعريف بهذه البلاد ، ونصه : "وقرروا أيضا أن تكون دو وابريم ، وهما قلعتان حصينتان قريبتان من أسوان بينهما سبعة أيام ، خاصا للسلطان" .

(٧) فى س "يطيعوا" . (٨) فى س "يقوموا" .

(٩) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) نص هذين اليمينين ، وهما منقولان من هذا المرجع فى ملحق رقم ٥ فى آخر هذا الجزء ، انظر أيضا (Quatremère ; Op. Cit. I. 2. 129. n. 160) . هذا ونص اليمين الأول فقط موجود فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ ، وما بعدها) .

سوس(١)، [التى كان يزعم داود أنها تحدّثه بما يؤدّيه] ، وأُخِذ(٢) ما فيها من الصلبان الذهب وغيرها ، فجاءت مبلغ أربعة آلاف وستمائة وأربعين دينارا ونصف ، وبلغت الأوانى الفضة ثمانية آلاف وستمائة وستين دينارا . وكان داود قد عمرها على أكتاف المسلمين الذين أسرهم من عيذاب وأسوان . وقُرّر على أقارب (١٦٠ ب) داود حمل ما خلفه من رقيق وقماش الى السلطان ، وأطلقت الأسرى الذين كانوا بالنوبة من أهل عيذاب وأسوان ، وردّوا الى أوطانهم . وغنم العسكر من الرقيق شيئا كثيرا ، حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم ، وفضل بعد القتل والبيع عشرة آلاف نفس . وأقام العسكر بمدينة دمقلة سبعة عشر يوما ، وعادوا الى القاهرة فى خامس ذى الحجة بالأسرى والغنائم . فرسم [السلطان] للصاحب بهاء الدين بن حنا أن يستخدم عمالا على ما يستخرج من النوبة من الخراج والجزية بدمقلة وأعمالها ، فعُمل لذلك ديوان .

وفى ثانى عشره اجتمع القضاة والأمراء والأعيان بقلعة الجبل ، وعُقد للملك السعيد على غازية(٣) خاتون ابنة الأمير قلاون الألفى ، بوكالة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة عن الملك السعيد . فتقبل العقد عن الأمير قلاون الأمير آقسنقر الفارقانى ، على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجّل منها ألفا دينار . وكتب الصداق بخط القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر وإنشائه ، ومن جملته : " هذا كتاب تحاسدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره ، وتنافست مطالع الأنوار ومشارق الأنوار على تسطيره . وأضاء نوره بالجلالة وأشرق ، وهطل نوره بالإحسان وأغدق ، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف هذا ما تصدّق ، وقال العرف هذا ما أصدق(٤) " .

وفيه شنق السلطان الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز — وكان قد تمكّن منه تمكنا عظيما — من أجل أنه شرب الخمر ، وعلّقه تحت قلعة الجبل .

(١) كذا فى س ، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) .

(٢) فى س "واخذوا" . (٣) فى س " غاريه " . انظر ص ٦١٩ ، حاشية ٤ .

(٤) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٩ — ٧٠) هذا النص كاملا غير مجمل كما هنا .

وعند ما انقضى أمر العقد، ركب السلطان من يومه على الهجن فى نفر يسير، وسار إلى الكرك فدخلها فى ثالث عشريه، وهو يريد القبض على الأمير سابق الدين عبية[1]. فلما بلغه حضور السلطان قدم عليه، فرعى له ذلك وزاد إقطاعه. ونظر [السلطان] فى أمر أهل الكرك، وقطع أيدى ستة منهم اتهموا بأنهم قد عزموا على إثارة فتنة؛ ورتّب رجالا بها عوضا عمن كان فيها[2].

وفيها أقام حجاج مصر بمكة ثمانية عشر يوما، وبالمدينة النبوية عشرة أيام، وهذا لم يعهد مثله.

ومات فى [هذه السنة][3] من الأعيان الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير، أحد الأمراء الأكابر بدمشق، فى ثالث عشر ربيع الأول. ومات الأمير حسام الدين قياز الكافرى، نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات. وتوفى[4] سعد الدين أبو العباس الخضر بن التاج أبى محمد عبد الله بن العماد أبى الفتح عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى، شيخ الشيوخ بدمشق، بها عن نيف وثمانين سنة. وتوفى تاج الدين أبو الثناء[5] محمود بن عابد[6] بن الحسين ابن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى، بدمشق عن ست وتسعين سنة. وتوفى زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن جبريل، كاتب الإنشاء بقلعة الجبل فى ... ...[7]. وتوفى

---

(١) فى س، "عيبه" وهو مترجم فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 134) الى (Aïbah).

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س، يسع كلمتين تقريبا.

(٣) فى س "فيها".

(٤) الوفيات التالية واردة هنا كما فى ب (١٨٩ ب — ١٩٠ أ)، وهى فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٦ ب، ١٥٧ أ، وقد أشير الى ذلك فى موضعه. انظر (النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٧١ — ٧٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤٢ — ٣٤٤).

(٥) فى س "الثنا"، وفى ب (١٩٠ ب) "البقا".

(٦) فى س "عايذ"، وفى هامش الورقة عبارة تصحيحية لهذا الاسم، وهى بخط مخالف، ونصها: إنما هو عابد بالباء الموحدة والدال المهملة". انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤٤).

(٧) بياض فى س.

كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن على بن إسحاق بن على بن شيث الأموى[1] . ... وتوفى الأديب أبو الحسن على بن أحمد بن العُقَيب[2] العامرى ببعلبك .

* * *

سنة خمس وسبعين وستمائة . فى المحرم سار السلطان من الكرك، فدخل إلى دمشق فى رابع عشره . وقدم عليه عدّة من أمراء الروم مغاضبين للبرواناه، وهو معين الدين سليمان بن على بن محمد بن حسن . [وكان] منهم الأمير حسام الدين بَيْنْجار[3] الرومى ، وبهادر ولده ، وأحمد بن بهادر ، واثنا عشر من أمراء الروم بأولادهم ونسائهم ، من جملتهم قرمشى[4] وسكّاى[5] ابنا قراجين بن جيغان نوين . فأحسن السلطان إليهم ، وبعث حريمهم إلى القاهرة ، وأجرى عليهم الأرزاق . ثم وصل الأمير سيف الدين جندر[6] بك صاحب الأُبُلُسْتَين[7] ، والأمير مبارز الدين [سوار بن الجاشنكير][8] ، فى كثير من أمراء الروم ؛ فتلقاهم السلطان بنفسه وأكرمهم . ثم كتب [السلطان] الى الأمراء بمصر يستشيرهم فى بعث عسكر الى الروم ، وأن يحضر الأمير بيسرى والأمير (١٦١ ا)[9] أقش بما يتفق الرأى عليه ، فحضرا على البريد ؛ ووصل [أيضا]

(١) بياض فى س ، يسع ثلاثة ألفاظ تقريبا .

(٢) هذا الاسم مضبوط هكذا فى س .

(٣) فى س " بيجار " . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٤) كذا فى س ، واسمه "جاورجى" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٥) فى س "سكاى" ، واسمه " نيكاى " فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) فى س "حندر" . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) . هذا وفى : D'Ohsson (Op. Cit. III. p. 480) أن اسم هذا الأمير (Haïdar-Bey) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان ، وهى قريبة من أفسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٤) . انظر أيضا (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 277).

(٨) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) .

(٩) يوجد بين الصفحتين ١٦٠ ب ، ١٦١ أ فى س ورقة بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٠ هـ ، وقد أوردت فى موضعها المناسب هناك . (انظر ص ٦٠٤ ، حاشية ٢) .

الأمير سنقر الأشقر . وتتابع وصول حريم أمراء الروم ، فأكرمهم السلطان وجهّزهم الى القاهرة . وسار [السلطان] الى حلب ، وجرّد منها الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى فى عسكر، فوصلوا الى عين تاب .

وعاد السلطان من حلب الى مصر، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشر ربيع الأول؛ ورسم بتجهيز مهمات العرض: فأخذ الناس فى التجهيز، وغلت الخيول والأسلحة، وعدم صنّاع صقل العدد من القاهرة لاشتغالهم بالعمل عند الأمراء ، وعزّ وجود صنّاع النشاب ومقوّمى الرماح .

وفى خامس جمادى الأولى وقع العرض، فركبت العساكر بكمالها فى يوم واحد وقد لبسوا أجمل العدد، وقصد السلطان ركوبهم فى يوم واحد حتى لا يستعير أحد من أحد شيئا . وفرّق السلطان على مماليكه العدد الجليلة ،وركب الأمراء الروميون ومن حضر من الرسل، وعرض الجميع على السلطان . ونزلوا من الغد فى الوطاقات للعب ، وقد لبس المماليك السلطانية الجواشن والخوذ، وعملت الأبرجة الخشب على الفيلة ، ودخلوا فى الحلقة وساقوا . ثم نُصب القبق بالميدان الأسود [تحت القلعة](1) ورموا النشاب ، وأنعم السلطان على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس من الجنائب الخاص ، بسرجه و لجامه وتشاهيره بالمراوات الفضة وغيرها؛ وأنعم على من أصاب من المماليك والأجناد بالخلع . [كل ذلك] والسلطان يسعى ، وقد تنوّع فى لامات حربه ، وصار يأخذ بقلوب الناس ويحسن اليهم . وساق [السلطان] بالرمح أحسن سَوْق حتى تعجّبوا من فروسيته ، الى أن انقضى النهار على هذا .

وفى اليوم الثالث ركب السلطان ، ولعب الناس ورموا فى القبق ، والسلطان يطاعن بالرمح . وفى الغد ترتّب العسكر من جهتين ، واصطدما وتطاعنت الفرسان ؛ [وكان] السلطان بينا يراه الناس آخرا قد شاهدوه أوّلا ، [وهو] لا يسأم من الكرّ والفرّ ، وشاهد الناس منه ومن الملك السعيد مايبهر العقول . وتواصل الطعن بغير جراح ، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف .

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٥٧) .

وفى يوم الثـلاثاء أنعم [السلطان] على جميع الأمراء والمقدّمين والقضـاة والمتعمّمين بالتشاريف، ولبس السلطان تشريفا كاملا بشربوش، ثم أنعم به على الأمير سيف الدين قلاون الألفى؛ ولعبوا على عادتهم . وحصل الاهتمام (١٦١ ب) بأمر السماط، ونقل له من أصناف الحوائج ما لا يعدّ، وسيق من الأغنام ألوف كثيرة . ومُدّت الأسمطة، وحضر السلطان والناس فى خدمته إلى أن أخذوا حاجتهم من الطعام والحلاوات، ثم نُقـل جميع ذلك وأُخذ . وحضرت التقادم، فقبل السـلطان منها اليسير مثل تفصيلة (١) أو رمح أو شىء لطيف، وما قام من مجلسه حتى أنعم بذلك فى وقته . ودخل الملك السعيد على ابنة الأمير قلاون .

وشرع السلطان فى السفر لأخذ بلاد الروم، وبعث إلى الأمراء الروميين الخيول والخيام وكل ما يصلح من أمور السـفر . وتقرّر الأمير آقسنقر الفارقانى نائب الغيبة بقلعة الجبـل، ومعه الصاحب بهـاء الدين بن حنا، ليكونا فى خدمة الملك السعيد . وتعين الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين لوزارة الصحبة (٢) .

وخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس العشرين من رمضان، ورحل فى يوم السبت ثانى عشريه ومعه الأمراء والعساكر الإسـلامية يريد البـلاد الشامية . فدخل دمشـق يوم الأربعاء سابع عشر شوّال، وخرج منها إلى حلب فى العشرين منه، فوصل إلى حلب مستهلّ ذى القعدة، وخرج منها يوم الخميس ثانيـه إلى حَيْلان (٣) . وجرّد [السلطان] الأمير نور الدين

(١) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 138) هـذا اللفظ إلى (robe) أى ثوب . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) يكون صاحب هـذا المنصب وزيرا متنقلا، يرافق السلطان فى أسـفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شؤونها معه، وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة حيث مقرّ عمله . ويتضح هذا الترتيب من عبارة المتن، فإن الصاحب بهاء الدين بن حنـا هو الوزير وقد تركه السلطان بيـبرس بالقاهرة، وعين الصاحب زين الدين ليكون وزير الصحبة . ولهذا التقسيم أشباه فى كثير من الوظائف السلطانية، وقد نشأت من نفس السبب الذى اقتضى وجود وزيرين، ومن هذه وظيفة ناظر الصحبة، ومشدّ الصحبة، ومستوفى الصحبة . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 139. n. 171) .

(٣) بغير ضـبط فى س، وهى من قرى حلب، تخرج منها عين فوّارة كثيرة المـاء، تسيح الى حلب وتدخل اليها من قناة، وتتفرق الى الجامع والى جميع مدينة حلب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢) .

على بن محلى[١] نائب حلب ليقيم على الفرات بعسكر حلب، ويحفظ معابر الفرات لئلا يدخل أحد من التتار إلى بلاد الشام؛ ووصل [إلى الأمير نور الدين][٢] الامير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وكان السلطان منذ خرج من مصر إلى أن وصل إلى حلب ، لم يمر بمملكة إلا أخذ معه عسكرها وخزائنها وأسلحتها . فترك بعض الثقل بحيلان ، وسار منها يوم الجمعة ثالثه إلى عين تاب، وقطع الدربند و بات فى وطاة[٣] . وتوجّهت العساكر جرائد على الأمر المعهود ، وخفّفوا كل شيء . وتقدّم الأمير سنقر الأشقر جاليشا[٤] فى عدة من العسكر، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار [ومقدمهم يسمى كراى[٥]] ، فانهزموا قدّامه وأسر منهم جماعة ، [وكان ذلك يوم الخميس تاسع الشهر] . و بلغ ذلك الملك [أبغا] ، فجهّز جماعة من عرب خفاجة لينازلوا عسكر حلب على غرّة . فبلغ ذلك نائب حلب وهو على الفرات، فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم، وأخذ منهم ألفاً ومائتى جمل .

وورد الخبر على السلطان بأن عسكر التتار [ومقدمهم تناوون] ، وعسكر الروم [ومقدمهم معين الدين البرواناه]، قد اتفقوا جميعا على لقائه . فرتّب عساكره وتأهّب للقاء ، وطلع بعساكره على جبال (١٦٢ ا) تشرف على صحراء هوتى[٦] من بلد أبلستين. وترتّب المغل أحد عشر طلبا، كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم عنهم وجعلوه طلبا بمفردهم [لئلا يكون مخامرا عليهم] . وأقبلوا فانصبّت الخيول الإسلامية عليهم من الجبل انصباب السيل،

(١) كذا فى س ، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١١١)، وهو فى ب (١٩١ ا) "مجلى" .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٨) .

(٣) المقصود بالوطاة هنا الأرض السهلة (une plaine) غير الجبلية ، على أن الصحيح أن يقال "وطاء" . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 140. n. 172 ؛ محيط المحيط؛ وكذلك ص ٥٧١ ، سطر ٣) .

(٤) فى س " جاليش " ، ومعناها هنا حسب ترجمة (Quatremère : Op. Cit .I. 2. p. 140) (l'avant garde) أى الطليعة .

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها والتى تليها من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٩ ، وما بعدها) .

(٦) فى س "صحرا هوتى"، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١١١) "صحرا هونى"، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٩) "صحراء البلستين" .

ووقفوا وقفة رجل واحد . وقدّم السلطان عدة من مماليكه وخواصه، فقاتلوا قتالا شديدا، ثم ردفهم بنفسه، وحمل وحملت العساكر معه حملة شديدة . فترجّل التتار عن خيولهم، وقاتلوا قتال من يطلب الموت حتى عظم القتل فيهـم ، فولّى طائفة منهم وأدركهـم العسكر فأحاط بهم . ونجا معين الدين سليمان البرواناه زعيم الروم، فانهزم أصحابه، وصار [هو] إلى قيسارية [فوصلها] بكرة يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة ، [وأشار على سلطانها غياث الدين كيكاوس بن كيخسرو و جماعة الأمراء بالخروج منها، فإن التتر المنهزمين متى دخلوا قيسارية قتلوا كل من فيهـا حنقا على المسلمين] . ثم أخذ [البرواناه](١) السلطانَ غيـاث الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم، و [جماعة من] أعيان البلد، وسار [بهم] إلى تَوْقَات(٢)، [و بينها و بين قيسارية مسيرة ثلاثة أيام] .

وأما السلطان فإنه نزل بعد هزيمة التتار فى منزلتهم، وأحضر اليه من أسر من أمراء المغل، فعفى عنهم وأطلقهم. وقتل فى المعركة الأمير ضياء الدين بن الخطير، والأمير سيف الدين قيران العلائى أحد مقـدمى الحلقة ، وسيف الدين قفجاق(٣) الجاشنكير ، وعدة من العسكر ؛ وجرح جمـاعة . وقتل [تناوون](٤) مقدم التتار فى المعركة . وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار، وأبقى من أسر من أمراء الروم وأعيانهم معه : وفيهم أم البرواناه، وابنه [مهذب الدين علىّ] وابن ابنته .

وجرّد [السلطان] الأمير سنقر الأشقر فى جماعة، لإدراك المنهزمين [من التـتر وللتوجّه إلى قيسارية] ، وكتب معـه كتابا الى أهل قيسارية بالأمان و إخراج الأسـواق والتعامل

---

(٢) فى س "واخذ" .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى بلدة واقعة بين قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٩٥) .

(١) فى س "قصباق" ، وهو فى ب (١٩١ ب) "قنجاق"، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ص ٢٦١) "قليج" .

(٢) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٥، فى Rec. Hist. Or. I.) ، حيث ورد هـذا الاسم "تناون" .

بالدراهم الظاهرية . فمرّ [الأمير سنقر] بفرقة من التتار معهم البيوت ، فأخذ منهم جانبا، وأدركه الليل فتفرّق من بقى منهم .

ورحل السلطان فى يوم السبت حادى عشره يريد قيسارية الروم[(١)]، فاستولى فى طريقه على عدّة بلاد . وفى يوم الأربعاء خامس عشره تلقّاه أهل قيسارية من العلماء والأكابر والنساء والأطفال ، واحتفّ به الفقراء الصوفية وتواجدوا ، إلى أن قرب من دهليز السلطان غياث الدين[(٢)] صاحب الروم وخيامه، وقد نصبت فى وطاة بالقرب من المناظر التى كانت لملوك الروم . فترجّل وجوه العساكر المصرية والشامية على طبقاتهم، ومشوا بين يديه إلى أن وصلها ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل . وأقبل الروم[(٣)] من كل جهة ، وضُربت نوبة آل سلجوق على عادتها، وحضر أصحاب الملاهى كما هى عادة الروم، فنُهُوا عن الضرب بالآلات[(٤)] وعن الغناء [أيضا] ، وقيل لهم : هذه الهيئة لا تتفق عندنا ، وما هذا موضع (١٦٢ب) الغناء ، بل موضع الشكر" . وشرع السلطان فى إنفاق المال، وعيّن لكل جهة شخصا ؛ وكتب إلى أولاد قرمان[(٥)] أمراء التركمان ، وأكّد عليهم فى الحضور، واستمال النازحين ، فما خرج البرواناه عن المطاولة إلى أن علم السلطان منه أنه لا يحضر .

---

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، ونصها مصححا : "قيصرية ويقال أقصرا ، هى وقونية مدينتا بلاد الروم ، يقال إن عدد بلادهما وما يليهما ستمائة ألف وست وأربعون ضيعة ، من ذلك قلاع أربعمائة [و] أربع وخمسون قلعة ، ومدن كبيرة بأسوار ستة وأربعون مدينة " .

(٢) فى س "صا الدين" ، وهفوة المقريزى هنا قلمية . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 143).

(٣) يلى هذا اللفظ فى س عبارة "اهل بلاد الروم" ، وهى مشطوبة .

(٤) فى س "بالات" .

(٥) تأسست دولة بنى قرمان (Karaman Oghlu) بجهات أرمناك وقسطمونى بجنوبى آسيا الصغرى ، فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهى أهم الدول التركمانية التى نشأت زمن تفكك دولة الروم السلاجقة ، ومؤسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرمان ، وهو وعمه وإخوته هم المقصودون هنا بالمتن ، (Enc. Isl. Art. Karaman Oghlu ; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 184-185) . انظر أيضا (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٣٦٥ ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٦٦) .

وركب [السلطان] فى يوم الجمعة سابع عشريه وعلى رأسه جِتْر بنى سلجوق، ودخل قيسارية دار السلطنة، وعبر القصور وجلس على تخت آل سلجوق. وأقبل الناس للهناء وقبّلوا الأرض، وحضر القضــاة والفقهاء والوعاظ والقرّاء والصــوفية وأعيان قيسارية وذوو المراتب، على عادة الملوك السلجوقية فى أيام الجمع. ووقف أمير المحفل — وهو عندهم ذو حرمة ومكانة، ويلبس أكبر ثوب وعمامة —، فرتّب المحفــل على قدر الأقدار، وانتصب قائمــا بين يدى السلطان منتظرا ما يشير به. وقرأ القرّاء أحسن قراءة، ورفعــوا أصواتهم بالتلحين العجيب إلى أن فرغوا، فأنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح فى السلطان. ومُدّ سماط الطعام فأكل من حضر، ثم أحضرت دراهم عليها الصكة الظاهرية. وتهيّأ السلطان لصلاة الجمعة، وقام السلطان إلى الجــامع، وخطب الخطيب بنعوته وصلّى، وخطب له الخطباء بجــوامع قيسارية وهى سبعة.

فلما قضى السلطان صلاة الجمعة، حُمِــل اليه ما تركته كُرْجى[1] خاتون امرأة البرواناه من الأموال التى لم تقدر على حملها معها، وما خلّفه ســواها ممن انتزح معها. وظهر لها ولزوجها معين الدين سليمان البرواناه موجود نفيس، فأخذ السلطان ذلك.

وبعث البرواناه يهنىء السلطان [بيبرس][2] بجلوسه على تخت الملك، فكتب إليه أن يفــد عليه ليقرّه مكانه، فبعث يسأل النظرة إلى خمسة عشر يوما. ورجا [البرواناه] بذلك أن يصل الملك أبغا — وكان قد أرسل يستحثّه على القدوم بنفسه — ليدرك الملك الظاهر وهو ببلاد الروم. فلما بلغ السلطان ذلك خرج من قيسارية فى ثانى عشريه، بعد ما أعطى الأمراء والخواص الخيول والأموال. و[لمــا وصل السلطان إلى خان كيقباد] بعث إلى الأرمن [بجهة الرمانة] الأمير طيبرس الوزيرى، فحرق وقتل وسبى [من بها من الأرمن] وعاد؛ [وسبب ذلك أنهم كانوا قد أخفوا جماعة من التتر]. فسار السلطان إلى الأبلستين، ومرّ على مكان المعركة ليرى رمم القتلى من التتار، فذكر أهل الأبلســتين أنهم عدّوا من القتلى ســتة آلاف وسبعمائة

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 144).

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٦٧ وما بعدها).

وستين، وضاع الحساب بعد ذلك . فأمر السلطان بجمع من قُتل من عساكره ودُفنوا ، وتَرَك منهم قليلا بغير دفن، وقصد بذلك نكاية التتار فى إظهار كثرة من قُتل منهم وقلة من قُتل من عسكره، ثم رحل (١) .

(١) توجد بين الصفحتين ١٦١ ب ، ١٦٢ أ فى س ورقة منفصلة ، بها ملخص لما وقع للسلطان بيبرس من يوم أن ترك حلب إلى أن دخل قيسارية بآسيا الصغرى ، وهو مكتوب على وجهى الورقة بخط صعب القراءة مع مشابهته لخط المتن ، وقد كتب فوقه على أحد الوجهين بقلم ثلث مخين العبارة الآتية : " يغنى عن الوصايا المجددة والاشارات " ، وفيما يلى نص الملخص المذكور مصححا ، ماعدا ما تعذرت قراءته فقد أشير إلى موضعه :

"رحل الملك الظاهر من حلب يريد بلاد الروم حتى خرج من الدربند ، وبات فى وطاة . فتقدم سنقر الأشقر فى الجاليش ، فوقع فى ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراى ، فانهزموا من بين يديه فأسر وقتل منهم جماعة ؛ وبات التتر على تعبئة . فلما كان يوم الجمعة عاشر ذى القعدة سنة [خمس وسبعين] تابع الصخر (؟) بقربهم ، فعبأ السلطان عساكره وطلع بهم من جبال مشرفة على أبلستين . وكان التتر ليلتهم تلك باتين على نهر زبان ، وهو أصل نهر جهان وأصل اسمه جيحان . فرتب المغل أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا بمفرده . فوقعت الحرب ، فقتل كثير من التتر وفر الباقون ، فأخذ أكبرهم (؟) ، وغنمت منهم عدة غنائم وأسر كثيرا (كذا) . ووصل البرواناه مدينة قيصرية سحر يوم الأحد ثانى عشره ، وأخذ زوجته وأمها والسلطان غياث الدين صاحب الروم إلى أبغا بن هلاون وتوجهوا الى توقات ، وهو حصن [يبعد] عن قيصرية أربعة أيام ، وتبعه أمراء الروم إلا قليلا منهم . ورحل السلطان الملك الظاهر ، وكتب الى أصحاب حصن سمنـد وإلى قلعة درندة وإلى قلعة دالوا ، فكلهم أطاع . فلما كان يوم الأربعاء نصفه ركبت العساكر ، وقد خرج أهل قيصرية للقاء السلطان فأكرمهم . وكان شعار السلطان غياث الدين صاحب الروم وحزامه (؟) وشعار سلطنته قد بقى جميعه فى وطاة ، فرحل الناس بأجمعهم فى ركاب السلطان ، ونزل ملك (موضع هذا ألفاظ ممحوة محوا تاما) سلجوق على باب دهليزه ، وحضر أصحاب الملاهى فلم يمكنوا ومنعوا . وحكم السلطان ونفذ أشغال سلطنته ، ثم ركب يوم الجمعة سابع عشريه ، ونصب جتر بنى سلجوق على رأسه ، ودخل قيصرية بكرة النهار وقد فرشت دار السلطنة لدولته (؟) وهى تخت بنى سلجوق بجلوسه (؟) . فجلس السلطان فى مرتبة الملك ، وأتاه الناس يهنئون ، وأقبل القضاة والفقهاء والصوفية ، وذوو المراتب من أصحاب العمائم على عادة بنى سلجوق فى كل جمعة . ووقف أمير المحفل وهو كبير عنـدهم ، فرتب المحفل على قدر الأقدار ، ووقف ينتظر ما يرسم [السلطان] له به . وشرع القراء فى قراءة القرآن حتى فرغوا ، فصرح أمير المحفل علو (؟) ثم أنشد بالفارسية طو يلا . ثم مد السماط وأكل الناس وقام السلطان الى موضع راحته ، فأقام قليلا وخرج الى مخيمه ، وتوجه لصلاة الجمعة بقيصرية ، حتى انقضت الصلاة . فدعى للسلطان (موضع ألفاظ تعذرت قراءتها) باسمه ، وأحضرت اليه الدراهم فى هذا اليوم . واستولى [السلطان] على موجود (؟) معين الدين سليمان وزوجته كرجى خاتون ، ثم رحل يوم الاثنين عشريه ، بعـد ما أعطى الأمراء والخواص كلما جهز اليه . واستصحب [السلطان] معه أكابر الروميين حتى نزل أبلستين ، وعبر على مكان المعركة ، وأخبره رجل أنه عد من قتلى المغل ستة آلاف وسبعمائة وسبعين وضاع الحساب . ثم رحل [السلطان] بعد يومين" .

ودخل السلطان إلى الدربنـد فى رابع ذى الحجة، وأصاب الناس فيـه مشقّة (١٦٣ ا) عظيمة؛ ونزل بحارم فى سادسه وعيّد هناك . فورد كتاب الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان ، يتضمّن أنه جمع التركمان وحضر فى عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل مُتَرْكَشَـة(١) للخدمة، فوجد السلطان قد عاد؛ وحضر أيضا أمراء بنى كلاب، ووفود التركمان . [ثم رحل السلطان(٢) طالبا دمشق] .

وقدم الملك أبغا بن هولاكو بالتتار لمحاربة السلطان، فوافاه البرواناه [فى الطريق]. و[كان] السلطان قد(٣) رحل فتبعه [أبغا] ، وسار إلى الأبلستين حتى عاين القتلى بالمعركة ، وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل، مع كثرة رمم التتار(٤) التى هناك، فشقّ عليه ذلك. وكان قد وُشى إليه بالبرواناه أنه هو الذى كاتب الملك الظاهر حتى أقدمه إلى بلاد الروم، فحنق لقلة عدد قتلى الروم. وعاد [أبغا] إلى قيسارية ، فنهبها وقتل من ببلاد الروم من المسلمين . وأغار التتار مسيرة سـبعة أيام ، فيقال إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتى ألف نفس، ولم يقتل أحد من النصارى. وشمل القتل من أرزن الروم إلى قيسارية، فيقال إن عدة القتلى كانت خمسمائة ألف . ثم سار أبغا ومعـه السلطان غياث الدين(٥) صاحب الروم ، ووكل بالبرواناه من يحفظه . وسار السلطان [بيبرس] من حارم إلى أنطاكية، ونزل بمروجها .

ومات فى(٦) [هذه السنة] من الأعيان الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت ، أحد أمراء مصر، وهو بقلعة الجبل مسجونا ، فدفن خارج باب النصر. وفيهاج الصاحب تاج الدين

(١) الجنـود المتركشة هى التى تكون حاملة تركاشها ، والتركاش جعبة النشاب ، ويقابله فى الفرنسـية لفظ (carquois)، ويجمع على تراكيش ، وهو معرب من كلمة تَركش الفارسية . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين ، وما يليه من الإضافات الفقرة التالية ، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٦٩ ، وما بعدها) . (٣) فى س "وقد رحل السلطان فتبعه وسار الى الابلستين ... ..." .

(٤) عبارة س كالآتى : "وسار الى الابلستين حتى عاين القتـلى بالمعركة وليس فيهـم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل فشق ذلك عليه مع كثرة رمم التتار التى هناك ... ..." .

(٥) فوق هذا اللفظ إشارة الى سقطة أراد المقريزى إثباتها بهامش الصفحة فى س ، ثم أغفل ذلك أو نسيه .

(٦) فى س "فيها" .

ابن حنا، وكان بمكة غلاء عظيم . وتوفى[1] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن [عبد[2] الوهاب بن] منصور الحرّانى الحنفى بدمشق ، بعد ما أقام بالقاهرة حينا ؛ و[كان قد] ولى قضاء بعض الأعمال . وتوفى بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن القُوَيرة[3]، الحنفى الفقيه الأديب ، عن نحو أربعين سنة بدمشق . وتوفى فخر الدين أبو الوليد محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبد الحق الكنانى الشاطبى ، الحنفى النحوى الأديب ، عن ستين سنة بدمشق . وتوفى قطب الدين أبو المعالى أحمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبى سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن المطهر بن أبى عُصْرون[4] التميمى الموصلى الشافعى ، عن ثلاث وثمانين سنة بحلب . وتوفى الأديب شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى التَّلْعَفَرى[5] ، عن اثنتين وثمانين سنة بحماة . ومات الشيخ أبو العباس خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العَدَوى[6] الكردى ، فى محبسه بقلعة الجبل ، فى يوم الخميس سادس المحرم عن نيف وخمسين سنة ، ودفن بزاويته خارج باب الفتوح . ومات متملك تونس أبو عبد الله محمد المستنصر بن السعيد أبى زكريا يحى بن عبد الواحد بن

(١) الوفيات التالية واردة فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٢ ب ، ١٦٣ أ ، وهى واردة فى ب (١٩٢ ب) كما هنا ، ولا شك فى مناسبتها لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧٣) .

(٢) موضع ما بين القوسين ألفاظ ممحوة فى س ، وقد أضيفت من ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٨) .

(٣) مضبوط هكذا فى س .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

(٥) فى س "اللعفرى" ، والنسبة الى تل يعفر المعروف أيضا باسم تل أعفر ، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل . وتل أعفر أيضا بليدة بين حصن مسلمة بن عبد الملك والرقة ، من نواحى الجزيرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٣ — ٨٦٤ ، ٨٧٣) .

(٦) مضبوط هكذا فى س ، ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١ وما بعدها) تحت سنة ٦٧٦ هـ ، ترجمة طويلة لهذا الشيخ . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٩ — ١٢١) ، حيث ذكرت هذه الوفاة تحت سنة ٦٧٦ هـ أيضا .

أبى حفص، فى عاشر ذى الحجة، فكانت مدّته ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام؛ وبويع بعده ابنه أبو زكريا يحيى الواثق (١).

* * *

سنة ست وسبعين وستّمائة . فى خامس المحرّم دخل السلطان من أنطاكية إلى دمشق بعساكره، ونزل بالقصر الأبلق . فكثرت الأخبار بقدوم أبغا إلى الأبلستين وأنه يريد بلاد الشام، فضرب الدهليز على القصر ليخرج السلطان إلى لقائه، فورد الخبر برجوع أبغا إلى بلاده فردّ الدهليز إلى دمشق .

ولمـا كان فى يوم الخميس رابع عشره جلس السـلطان لشرب القمزّ ، وقد عظم سروره وفرحه وتناهى سـعده، فأكثر من الشرب . وانقضى المجلس فتوعّك بدنه، وأصبح يشكو فتقيّا، وركب بعد الصلاة إلى الميدان، ثم عاد إلى القصر الأبلق آخر النهار وبات فيه . فلما أصبح وهو يشكو حرارة فى باطنه، استعمل دواء [لم يكن عن رأى طبيب] (٢)، فلم ينجح وتزايد ألمه . فاستدعى الأطباء ، فأنكروا استعماله الدواء، واتفقوا على أخذ مسهل وسقَوْه فلم يفد، فحرّكوه بدواء آخر فأفرط به الإسهال ، وتضاعفت الحمى ورمى دما يقال (٣) إنه كبـده ، فعولج بجواهر ومات .

وقال الشـيخ قطب الدين (١٦٣ ب) اليونينى فى تاريخه : إن الظاهر كان مولعـا بعلم النجوم، فقيل له إنه يموت بدمشق فى سنة ست وسبعين هذه ملك بالسمّ، فاهتمّ من ذلك . ويقال إنه كان فيه حسد ، فلما دخل معه إلى بلاد الروم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، أبلى فى المصاف بلاء عظيما أنكى (٤) به العدوّ،

(١) أورد ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤٥ — ٣٤٦) تحت هذه السنة وفاة الشيخ السيد أحمد البدوى المشهور، صاحب المزار الكبير بمدينة طنطا الحالية .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٧٧) .

(٣) دال هذا اللفظ محجوبة بورقة ملصقة فوقها فى س، وهو كامل فى ب (١٩٣ أ) .

(٤) فى س "انكى" .

وتعجّب الناس لعظم شجاعته ؛ فأثّر ذلك عنــد السلطان . واتّفق أن السلطان كان منه ذلك اليوم فتور، وظهر عليه الخوف والندم على ما فعله من توريط نفسه وعساكره ببلاد الروم، فأنكر عليه الملك القاهر وقبّح فعله ، فأسرّ له [السلطان] ذلك الى أن قدم دمشق . فسمع [السلطان] الناس تلهج بمــا فعله الملك القاهر فى وقت المصاف ، فاشتدّ حنقــه وأخذ يتحيّل فى سمه، ليصحّ فيه ما دلّت عليه النجوم من موت ملك بالشام ، فإنه يطلق عليــه اسم ملك . فعمل دعوة لشرب القمزّ حضرها الملك القاهر، وقد أعدّ السلطان سمّا من غير أن يشعر به أحد . وكان له ثلاث هنّابات تختص به مع ثلاثة ســقاة لا يشرب فيها غيره ، أو من يكرمه فيناوله أحدها بيده . فلمــا قام الملك القاهر لقضاء حاجته ، جعــل السلطان السمّ الذى أعدّه فى هنّاب وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه، فقبّل الأرض وشرب جميع مافيه. وقام السلطان لقضاء الحاجة، فأخذ الساقى الهناب من يد الملك القاهر ، وملأه على العــادة من غير أن يشعر بما عمله السلطان من السم فيه ، وأمسكه بيده ووقف مع السقاة . فلما عاد السلطان من الخلاء تناول ذلك الهناب بعينه، وشرب مافيه وهو لايعلم أنه الهناب المسموم. فعندما شربه أحس بالتغيّر، وعلم أنه قــد شرب بقايا السم الذى كان فى الهناب ، فتقيّأ فلم يفد، وما زال به حتى مات .

وذكر [ركن الدين] بيبرس [المنصورى المؤرخ][1] إن القمــر خسف جميــع جرمه ، ودلّ على موت رجل جليل القدر . فلمــا بلغ الملك الظاهر هذا خاف، وقصــد صَرْف ذلك إلى غيره، فسمّ الملك القاهر فى كأس قمزّ . وأحسّ [الملك القــاهر] بالشر فقام ، وغلط الســاقى فملأ الكأس وسقاه السلطان، فأحسّ بالنيران وأقام أياما يشكو ولا يُعْلِم الأطباء، حتى تمكّن منه ومات .

وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشرى المحرم بعد الزوال، فكانت مدّة مرضه ثلاثة عشر يوما ؛ وقد تجاوز الخمسين ســنة ، ومدّة ملكه سبع عشرة ســنة وشهران[2] واثنا عشر يوما .

(١) أضيف ما بين الأقواس من (Enc. Isl. Art. Baibars al-Manṣūrī)، و بيبرس هذا مؤلف كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، وكتاب التحفة الملوكية أيضا . (٢) فى س " شهرين واثنى " .

وكان قفجاقى الأصــل، طويل القامة أسمر اللون، فى عينيه زرقة وبإحدى عينيه نقطة صغيرة، صوته جهوريا، وكان شجاعا عسوفا عجولا. [وكان قد] حضر من البلاد[1] مع تاجر إلى حماة ومعه مملوك آخر، فلما عرضا على الملك المنصور محمــد صاحب حماة لم يعجبه[2]. وأبيع بدمشق بثمانمــائة درهم، فردّه مشــتريه لبياض فى إحدى عينيه، فاشــتراه الأمير علاء الدين (١٦٤ ا) أيدكين البندقــدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو بحماة معتقل بهــا، وأقام فى خدمته مدّة. ثم أخذه منه الملك الصالح، فترقّى فى الخدم، وتنقّلت به الأحوال إلى ملك مصر والشام.

وكانت الأمراء تخافه مخافة شــديدة، حتى إنه لمــا مرض لم يدخل أحد منهم عليه إلا بإذن. وكان مقداما خفيف الركاب طول أيامه، يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر فى المســالك؛ فركب للعب الكرة فى الأســبوع يومين بمصر ويوما بدمشــق، وفى ذلك يقول سيف الدولة المَهْمَنْدار[3] من أبيات يمدحه بها:

---

(١) انظر ص ٥٧٤، سطر ٧، وحاشية ١.

(٢) أورد ابن واصل (مفرج الكروب، ص ٤٠٤ ب) فى هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس، وقد تلاها بما حدث لبيبرس بعد ذلك بتفصيل، ونصها مصححا: "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا، وكان [من] عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر وتراه (كذا) الصاحبة والدته، ومن أشارت بابتياعه أخذ. وكان الملك المنصور لمــا بلغه وصول الملك الظاهر وهو مع التاجر تقدّم بإحضاره، فأحضر ومعه خشداش له. وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة، فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما قالت له خذ المملوك الأبيض، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة — يعنى الملك الظاهر — فإن عينيه فيهما الشر لائح؛ فردّهما جميعا على التاجر، فسرّها ذلك. وبلغ الأمير علاء الدين البنــدقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا، فطلبهما الى عنده، فلما رآهما صلحا له، فاشــتراهما وهو فى الاعتقال الى أن أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب أستاذه عنــه، وتوجه بهما الى مصر فأخذهما الملك الصالح منه ...".

(٣) شرح القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩) هذه الوظيفة فقال، إن صاحبها "هو الذى يتصدّى لتلقى الرســل والعربان الواردين على السلطان، ويُنزلهم دار الضيافة ويتحــدّث فى القيام بأمرهم. وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف، والثانى دار ومعناه ممسك ...، ويكون معناه ممسك الضيف، والمراد المتصدّى لأمره".

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشّام* يوما ويوما فى قرى حلب[(١)]

وكانت عدّة عسكره اثنى عشر ألفا، ثلثها بمصر وثلثها بدمشق وثلثها بحلب . و[كان] هؤلاء خاصته، فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش الزحف، فإن احتاج استدعى أربعة أخرى، فإن اشتدّ به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة . وافتتح من البلاد قيسارية وأرسوف وهدمها ، وفتح صفد وعمرها ، وفتح طبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وخربها . و[استولى على] بغراس والقُصَير وحصن الأكراد والقُرين وحصن عكّار وصافيتا ومرقية وحلبا، وناصَفَ الفرنج على المرقب وبانياس وأنطرسوس ، وأخَذَ من متملك سيس دربساك ودركوش وتلميش[(٢)] وكفر دنين ورعبان ومرزبان . ومَلَكَ دمشق وعجلون وبصرى، وصرخد والصّلت وحمص ، وتدمر والرحبة وتل باشر، وصهيون وبلاطنس ، وقلعة الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابى والرصافة ومصياف ، والكرك والشوبك ، وبلاد حلب وشيزر والبيرة، وبلاد النوبة وبرقة، وسائر إقليم مصر والشام . ومَلَكَ قيسارية من بلاد الروم . وقد قال فيه بعض الأدباء :

تدبّر الملك من مصرٍ إلى يمنٍ * إلى العراق وأرض الروم والنوبى

وله عدة أوقاف بمصر : منها وقف الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم، وهو من أكثر الأوقاف نفعا . ومنها تربة الظاهر بالقرافة ، والمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين من القاهرة، والجامع الظاهرى خارج باب الفتوح من القاهرة . وعمر [السلطان بيبرس] الجسر[(٣)] الذى يسلك عليه إلى دمياط، وأنشأ عليه ست عشرة قنطرة، وعمر قنطرة بحر

(١) هذا البيت وارد فى س كالآتى ، بدون فاصلة : "يوما بمصر و يوما بالحجاز و يوما بالشام و يوما فى قرى حلب".

(٢) كذا فى س .

(٣) الجسر هنا الطريق المبنى على حافة النهر أو الترعة ، لحفظ المياه وضبطها لأغراض الرى ، ولوقاية البلاد المجاورة من الفيضان ، وفى (Quatremère : Op Cit. I. 2. p. 142. n. 187) أمثلة كثيرة للدلالة على هذا المعنى ، ومنها : "الجسور الممتدّة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج ، ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رىّ كل مكان الى الحدّ المحتاج اليه ..." . وكانت الجسور فى مصر زمن المماليك على نوعين ، سلطانية وبلدية : فالجسور السلطانية هى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة ، وكانت تعمر فى كل سنة من الديوان السلطانى =

أبى المنجا، وهى أجلّ قناطر أرض مصر . وعمل قناطر السباع بين القاهرة ومصر على الخليج الكبير؛ وحفر خليج الإسكندرية وبحر طناح وبحر الصماصم بالقليوبية؛ وحفر خليج سردوس[1]؛ وأصلح بحر دمياط وردم فمه بالصخور .

ومن غريب (١٦٤ ب) أمره أنه أوّل ما فتح من البلاد قيسارية من بلاد الساحل، وآخر ما فتح مدينـــة قيسارية من بلاد الروم . وأول جلوسه على مرتبة الملك يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة، وآخر جلوسه على تخت الملك بسلطنة آل سلجوق فى قيسارية الروم يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة . وأوّل من بنى مدينة أنطاكية اسمه بالعربية الملك الظاهر، والذى أخربهـا الملك الظاهر . وأوّل من قام بدولة الترك السلجوقية ركن الدين طغرلبك، والملك الظاهر ركن الدين بيبرس هو القائم فى الحقيقة بدولة الترك من يوم وقعة المنصورة . وركن الدين طغرلبك هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة البساسيرى، وركن الدين بيبرس هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة هولاكو . والخطبـة بديار مصر كانت بعد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى للظاهر لإعزاز دين الله، وكذا وقع [له، فقـد] كانت الخطبة بعد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى للملك الظاهر بيبرس .

وكان راتب مخابزه وعليقه، لخاصة نفسه ومماليكه، فى كل سنة مائة ألف وعشرين ألف[2] أردب . وكان يطعم فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان خمســة آلاف نفس، ويكسو[3] فى كل

= بالوجهين القبلى والبحرى . وكان للجسور السلطانية فى كل عمل من أعمال مصر كاشف يرسل لعمارتها كل ســنة، ويعبر عنه بكاشف الجسور، وفى خدمته خولة ومهندسون لذلك الغرض . أما الجسور البلدية فهى الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعاتهم . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٨ — ٤٥٠؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦٥ — ١٧٢) .

(١) بغير ضبط فى س، وهو أحد فروع النيــل، ومخرجه من سردوس بين باسوس وقليوب، وكان يروى كثيرا من أراضى الشرقية . (P. Omar Toussoun : Anc. Branches Du Nil. pp. 72-76, et Pl. III.) . انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٧) .

(٢) العبارة التالية الى حاشية رقم ٢ بالصفحة التالية واردة بهامش الصفحة فى س، وهى ليست فى ب (١٩٤ أ) أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 153) .

(٣) فى س "يسكو" .

سنة ستمائة كسوة خارجا عما يطلقه[1] من يده من الكساوى، وكان له من الخبز ألفا قنطار وخمسمائة فى كل [يوم][2]. إلا أنه كان كثير المصادرات للدواوين، كثير الجباية للأموال من الرعية. وأحدث وزيره ابن حنا فى أيامه حوادث جليلة، وقاس أملاك الناس بمصر والقاهرة، وصادر أرباب الأموال حتى هلك كثير منهم تحت العقوبة؛ وأخذ جوالى الذمة مضاعفة، وأمر بإحراقهم كلهم، وجمع لهم الأحطاب وحفر لهم حفرة عظيمة قدام دار النيابة بقلعة الجبل، ثم عَفى عنهم وقرر عليهم أموالا أخذت منهم بالمقارع، ومات أكثرهم فى العقوبة. ولما توجه [السلطان بيبرس] إلى بلاد الروم كلّف أهل دمشق جباية مال لإقامة الخيل، وفرض عليهم ألف ألف درهم نقرة تُجبى من المدينة ومن الضياع.

ولم يل الوزارة له سوى الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا[3]؛ وقضاته بمصر قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الى أن أحدث القضاة الأربعة، واستمر ذلك من بعده. ورؤى [السلطان بيبرس] بعد موته فى النوم، فقيل له: "ما فعل الله بك؟" فقال: "ما رأيت شيئا أشدّ علىّ من ولاة قضاة أربعة[4]، وقيل لى فَرّقْتَ الكلمة". و [كان] كل من ولاّه [بيبرس] فى مملكة أو عمل أبقاه، ولم يغيّر عليه ولا عزله. وتزوج [بيبرس] من النساء — وهو ببلاد غزة، قبل أن يلى الملك — امرأة من طائفة الشهرزورية؛ ثم طلّقها بالقاهرة. وتزوج ابنة حسام الدين بركه خان بن دولة خان التترى[5]، وابنة الأمير سيف الدين نوكلى التترى، وابنة الأمير سيف الدين كراى بن تماجى التترى، وابنة الأمير

(١) فى س "يطلمه".

(٢) انظر حاشية ٢ بالصفحة السابقة.

(٣) عبارة النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٦) فى هذا الصدد كالآتى: "ووزراؤه الصاحب زين الدين ابن الزبير مدة يسيرة، ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا ...".

(٤) فى س "اربع".

(٥) سيلاحظ القارئ أن المقريزى سمى هـذا الأمير فيما يلى بالصفحة التالية (سطر ٣) الخوارزمى بدل التترى، وهذه التسمية باسم الخوارزمى واردة أيضا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٩١؛ والنويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٦).

سيف الدين ... التترى[1] . وولد [له] من الأولاد (١٦٥ ا) عشرة : الذكور منهم ثلاثة — وهم الملك السعيد ناصر الدين محمـد بركه قان ، ووُلد فى صفر سنة ثمـان وخمسين وستمائة بمنزلة[2] العُشّ ، من بنت حسام الدين بركه خان الخوارزمى؛ والملك العـادل بدر الدين سلامش ؛ والملك المسعود نجم الدين خضر — ، والإناث سبع .

ولـمـا مات [السلطان بيبرس] كتم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة موته عن العساكر ، وحَمَله فى محفـة من القصر الأبلق خارج دمشق إلى القلعة[4] فى الليل ، وجعله فى تابوت وعلّقه فى بيت ، وأشـاع أنه مريض ورتّب الأطباء على العادة . ثم أخذ العساكر والخزائن ، ومعه محفة محمولة وأوهم أن السلطان فيهـا مريض ؛ وخرج من دمشق يريد مصر، فلم يجسر أحد أن يتفوّه بموت السلطان . واستمر الحال على ذلك حتى وصلت العساكر الى القاهرة ، وصعدت الخزائن والمحفة إلى قلعة الجبل ، فأشيع حينئذ موته . و بالجملة فلقد كان من خير ملوك الإسلام[5] .

السلطان الملك السعيد ناصر الدين

محمد بركه قان بن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لـمـا مات الملك الظاهر بدمشق ، كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد وهو

(١) بياض فى س ، واسم هـذا الأمير فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة) " الأمير سيف الدين مماجى (كذا) التارى " .

(٢) بغير ضبط فى س ، ومنزلة العش من ضواحى القاهرة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١) .

(٣) انظر ص ٦٤٠ ، سطر ١٥ ، وحاشية ٥ .

(٤) المقصود هنا قلعة دمشق . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) .

(٥) يوجد فى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٤٤٠ ا) جزء من وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه الملك السعيد ، ونصها : " ولـمـا أحس [الملك الظاهر] بالموت رحمـه الله كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد وهو بمصر ، ومن جملتها : إنك صبي ، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبيّ . فمن بلغك عنه ما يشوّش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقتـه ولا تعتقله ، ولا تستشر (فى الأصل تستشير) أحدا فى هذا ؛ وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك .

بقلعة الجبل كتابا بموت أبيه . فأظهر [الملك السعيد] عند ورود الكتاب فرحا كبيرا ، وأخلع على من أحضره ، وأشاع أن الكتاب يتضمّن البشارة بعـود الملك الظاهر إلى ديار مصر . وأصبح فركب الأمراء على العادة تحت القلعة ، من غير أن يظهر عليهم شيء من الحزن .

وسار الأمير بيليك بالمحفـة والأطلاب ، حتى قـدم إلى القـاهرة يوم الخميس سادس عشرى صفر وهو تحت السـناجق الظاهرية ، وصعد قلعـة الجبل . وجلس الملك السـعيد بالإيوان ، وسلّم إليـه الأمير بيليك الخزائن والعساكر ووقف بين يديه ، فصاح الحجـاب حينئذ : "يا أمراء ! ترحّموا على السلطان الملك الظاهر" . فارتفع الضجيج والعويل ، ووقع الأمراء إلى الأرض يقبّلونها للملك السعيد . فجدّدت الأيمان ، وحلف له سائر العسكر والقضاة والمدرسين والأعيان ، وتولى تحليفهم الأمير [بدر الدين] بيليك [الخازندار] بحضرة القضاة . فأقرّ الملك السعيد الأمير بدر الدين بيليك على نيابة السـلطنة(1) ، وأقرّ الصاحب بهاء الدين بن حنا على وزارته ، وخلع عليهما وعلى الأمراء والمقدمين والقضاة وأرباب الوظائف .

---

(1) يوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، وما بعدها) فى باب الوظائف السلطانية الكبرى ، وصف لاختصاص نيابة السلطنة ، ونصه : "ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية ... وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير ، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان ... ، (١٧) وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ، ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان . و[لنائب السلطنة] أن يستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقلّ ألا يجاب فيما يعينه . وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثانى ، وعادته أن يركب بالعسكر فى أيام المواكب ، وينزل الجميع فى خدمته . فإذا مثل فى حضرة السلطان وقف فى ركن الإيوان ، فإذا انقضت الخدمة خرج الى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويجلس جلوسا عاما للناس ، ويحضره أرباب الوظائف ، ويقف قدامه الحجاب ، وتقرأ عليـه القصص ؛ ثم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان ، فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدّى لقراءة القصص وسماع الشكاوى بنفسه ، ويأمر فى ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ؛ ولكنه لا يستبدّ بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه ، بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك . أما ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمة إلا عنـده ولا اجتماع إلا به ، ولا اجتماع لهم بالسلطان فى أمر من الأمور . و[أما] ما كان من الأمور المعضلة التى لا بدّ من إحاطة علم السلطان بها ، فإنه يعلمه بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله اليه . غير أن هذا النائب تارة ينصب ، وتارة يعطل جيد المملكة منه ... ، وإذا كان متصيا اختص بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له ، وناظر الجيش ملازم للسلطان" . انظر أيضا (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ ؛ G.-Demombynes : La Syrie. Introd. p. LV et seq) .

وفى يوم الجمعة سابع عشريه (١٦٥ ب) دعا الخطباء على منابر الجوامع بمصر والقاهرة للملك السعيد، وصُلّى بها على الملك الظاهر صــلاة الغائب . وخرج البريد إلى دمشق بموت الملك الظاهر، وتحليف العساكر للملك السعيد خلفوا .

وفى يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأوّل ركب الملك السعيد بالعصائب على عادة أبيه، ومعه الأمراء والأعيان وعليهم الخلع ، وسيّر إلى تحت الجبل الأحمر ، وعاد إلى القلعة من غير أن يشقّ القاهرة، وكان يوما مشهودا .

وفى سادس ربيع الآخر مات الأمير بدر الدين بيليك النائب، واتُّهِـم أن الملك السـعيد سمّه — وذلك أنه اختص بجماعة من المماليك الأحداث (١) ، فأوهموه من الأمير بيليـك، وكانت جنازته حفلة (٢) ؛ ومن بعده اضطربت أمور الملك السعيد . وأقام [الملك السـعيد] بعده فى نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى، وكان حازما ، فضمّ إليه جماعة : منهم شمس الدين أقوش، وقطليجا الرومى، وسيف الدين قلج البغـدادى، وسيف الدين بيجو (٣)

---

(١) وضع هــذا اللفظ يحتمل معنيين، وكلاهما فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، أحدهما حديثو العمر أو العهد بالخدمة (jeunes gens)، والآخر الأراذل والسفلة (la canaille)، والمعنى الأول هو المقصود هنا . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٩٩)، حيث يقول إن الأمور كانت مفسودة فى عهد الملك السعيد "بحكم الصبيان الجهلة من الخاسكية (كذا)" .

(٢) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) تفصيلات كثيرة عن وفاة الأمير بدر الدين، ونصها : "دخل [الأمير بدر الدين] الى الستارة عند والدة الملك السعيد، على أنه يعزيها بالسلطان ويهنئها بالملك السعيد، فشكرت له فعله ودعت له، وأخرجت له هنابا مملوءا سكرا وليمونا وحلفت عليه أن يشرب بعدها، وأوهمت أنها شربت منه . فشرب جرعتين لاغير، وفى الثالثة من كثرة ما لجوا عليــه تخيل ودفعه من يده، وكانت القاضية فيه . فتوجه إلى داره، فتوعك وحصــل له تقطع الماء (كذا)، وادّعى أنه قولنج . وكان طبيبه عماد الدين ابن النابلسى، فسيروا إليه ثلاثة آلاف دينار، وقالوا له خذ هذه وساعدنا فى هلاكه، ولا تعرّفه أنه مسقى . فأخذ الذهب (٢٩٠) وتغافل عنه، ووصف له ما يقوّى سقيته فات" . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٧ — ١١٨) حيث ذكرت هذه القصة، يتلوها ترجمة قصيرة لهذا الأمير .

(٣) فى س "بجوا" وهو مترجم الى (Nadgou) فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 158) .

البغدادى ، وعز الدين ميغان(١) أمير شكار(٢) ، وسيف الدين بكتمر السلاح دار . فثقل(٣) [الأمير آقسنقر] على خاصكية(٤) السلطان ، وحدّثوا السلطان فى أمره ، واستعانوا بالأمير سيف الدين كُونُدُك(٥) الساقى — وكان الملك السعيد قد قدّمه وعظّمه ، لأنه ربى معه فى المكتب . فقبض على آقسنقر وهو جالس فى باب القُلَّة(٦) ، وسجن وأهين ونتفت لحيته وضرب ، ثم أخرج بعد أيام يسيرة وهو ميت . فاستقر بعده فى النيابة الأمير شمس الدين سنقر الألفى المظفّرى ، فكرهه الخاصكية وقالوا : " هذا ما هو من الظاهرية " ، وخيّلوا الملك السعيد منه أنه يريد أن يثور بخشداشيته مماليك الملك المظفّر قطز ، فعزله سريعا . وولى

(١) كذا فى س ، وهو مترجم فى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 158) إلى (Igan) .

(٢) يتحدّث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها ، وعلى سائر أمور الصيد ؛ وشكار لفظ فارسى معناه الصيد ، فيكون المراد أمير الصيد . وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد وهى حوامة الطير ، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسة الطيور فى الأماكن والمزارع التى ينزل بها السلطان للصيد . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦١) .

(٣) فى س " فنقل " .

(٤) الخاصكية قسم من المماليك السلطانية ، يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ، ويجعلهم حرسه الخاص (G.- Demombynes : La Syrie. Introd. pp. XXXIII, L, XCIX) . هذا وقد أورد (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 158. n. 3) تعريفين للخاصكية ، وقد نقل أولها من (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ ، ومابعدها) ، ونصه : "الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة . و[هم] المتعينون للإمرة (١١٦) والمتقربون فى المملكة... ... ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة... ..." . أما النص الثانى فقد نقله (Quatremère) من كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى الى صناعة الانشا للخالدى ، ونصه : "وقد جعل ذلك [الاسم] علما عليهم ، لأنهم يحضرون على الملك فى أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك مالا يناله أكابر المقدّمين ، ويحضرون طرفى كل نهار فى خدمة القصر والإسطبل ، ويركبون لركوب الملك ليلا ونهارا ، ولا يتخلفون فى قرب ولا بعد . ويتميزون من غيرهم فى الخدمة بحملهم سيوفهم ، ولباسهم الطرز الزركش . ويدخلون على الملك فى خلوته بغير إذن ، ويتوجهون فى المهمات الشريفة ، ويتأنقون فى مركوبهم وملبوسهم " .

(٥) ضبط هذا الاسم من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) كان هذا الباب أحد أبواب الدور السلطانية بالقلعة ، وعرف بهذا الاسم "من أجل أنه كان هناك قلة (؟) بناها الملك الظاهر بيبرس" . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٢) .

الأمير سيف الدين كوندك الساقى نيابة السلطنة — وهو شاب ، فعضّده الأمير سيف الدين قلاون الألفى ومال اليه .

وكان من جمـلة المماليك السلطانية الخاصكية شخص يعرف بلاجين الزينى ، وقد غلب على الملك السعيد فى سائر أحواله ، وضمّ إليــه عدّة من الخاصكية . وأخذ [لاجين] لهم الإقطاعات والأموال الجـزيلة ، وصار كلمـا انحلّ خُبْز(1) أخذه لمن يختار . وتنافر النـائب [والمذكور](2)، فتوغّرت بينهما الصـدور ، ودبّت بينهما عقارب الشرور، وأعمل كل منهما مكره فى أذية الآخر . وضمّ النائب إليه جماعة من الأمراء الكبار ، وصار العسكر حزبين ، فآل الأمر إلى ما آل إليه من الفساد .

وتغيّر السلطان على الأمراء، وقبض فى سابع عشره على الأمير جودى القيمرى الكردى، فنفرت منه قلوب الأمراء لا سيما الصالحية : مثـل الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبى، والأمير بدر الدين بيسرى ، وأقرانهم . فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك (١٦٦ أ) السعيد يضع من أقدارهم ، ويقدّم عليهم مماليك الأصاغر، ويخلو(3) بهم وكانوا صباح الوجوه، ويعطيهم مع ذلك الأموال الكثيرة، ويسمع من رأيهم ويبعد الأمراء الكبار .

[واستمر الحال على هذا] إلى أن كان يوم الجمعة خامس عشريه ، [وفيه] قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسرى ، وسجنهما بالقلعة ثلاثة وعشرين يوما . فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء ، ودخل خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركه خان إلى أخته أم السلطان ، وقال لهـا : "قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثـل هؤلاء الأمراء الأكابر، والمصلحة أن تردّيه إلى الصواب، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه" . فلما بلغ الملك

(١) تقدّم شرح المعنى الاصطلاحى لهذا اللفظ فى ص ٦٥ ، حاشية ١ .

(٢) ليس لهذا اللفظ وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٩٥ ب) .

(٣) فى س "يخلوا" .

السعيد ذلك قبض عليه واعتقله ، فلم تزل به أمه تعنّفه وتتلطّف به ، حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه ؛ وقد تمكّنت عداوته من قلوبهم .

وتوهّم منه بقية الأمراء ، وخشوا أن يعاملهم كما عامل الأمير بيليك الخازندار ، مع حفظه له الملك وتسليم الخزائن والعساكر إليه ، فلم يكافئه إلا بأن قتله بالسم . فاجتمع الأمراء وهمّوا أن يخرجوا عنه إلى بلاد الشام ، ثم اتّفقوا وصعدوا كلهم إلى قلعة الجبل ، ومعهم مماليكهم وألزامهم وأجنادهم وأتباعهم ، ومن انضمّ إليهم من العساكر ؛ فامتلأ منهم الإيوان ورحبة القصر . وبعثوا إلى الملك السعيد : " بأنك قد أفسدت الخواطر ، وتعرّضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه ، وإلا كان لنا ولك شأن " . فلاطفهم فى الجواب ، وتنصّل مما كان منه ، وبعث إليهم التشاريف فلم يلبسوها . وتردّدت الأجوبة بينهم وبينه إلى أن تقرّر الصلح ، وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءا ، وتولى تحليفه الأمير بدر الدين الأيدمرى ، فرضوا وانصرفوا .

وكتب [السلطان الملك السعيد] إلى دمشق أن يدفن الملك الظاهر داخل المدينة ، فاشترى الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام دار العقيق (1) داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بستين ألف درهم ، وجعلها مدرسة وبنى بها قبة ، وابتدأ بالعمارة فى يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى ، وفرغ منها فى آخر جمادى الآخرة . وخرج من القاهرة الأمير علم الدين سنجر المعروف بأبى خرص ، والطواشى صفى الدين جوهر الهندى ؛ وسارا الى دمشق فدخلا[ها] فى ثالث رجب . فلما كان فى ليلة الجمعة خامسه ، حمل الملك الظاهر من قلعة دمشق ليلا على أعناق الرجال ، ووضع فى جامع بنى أمية وصُلّى عليه ، (١٦٦ ب) وحمل حتى دفن بالقبة من المدرسة التى بنيت له ، بحضور نائب الشام . وألحده قاضى القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر ابن عبد الخالق بن خليل بن مقلد أبو المفاخر المعروف بابن الصائغ ؛ وترتب القراء من ثانى يوم .

---

(١) كذا فى س ، وفى ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥٠) ، وهو وارد برسم "العقيق" فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) .

ثم وقف عز الدين بن شـداد وكيل الملك السعيد هـذه المدرسة ، ووقف عليهـا قرية من شعرا بانياس[1]، وغير ذلك .

وفى ثامن عشر ذى القعدة صرف قاضى القضاة محيى الدين عبـد الله بن عين الدولة عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأضيف الى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين؛ فكمل له قضاء القضاة بديار مصر. وأعيد قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان إلى قضاء دمشق فى سابع عشرى ذى الحجة ، فكانت مدة عزله سبع سنين .

وفيهـا ولى شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن شمس الدين أبى المعالى أحمد بن الخليل بن سعادة الخوىّ[2] قضاء القضاة الشافعية بحلب، بعد وفاة تقى الدين محمد بن حياة الرقى .

وفى هذه السنة عمّ ماء النيل أرض مصر كلها ، ورخص سـعر الغلة حتى أبيع الأردب القمح بخمسة دراهم، والأردب الشعير بثلاثة دراهم، والأردب من بقية الحبوب بدرهمين .

وفيها قتل الملك أبغـا البرواناه فى صفر، واسمـه معين الدين سليمان بن على بن محمـد بن حسن، ومعنى البرواناه الحاجب؛ وكان شجاعا حازما كريما عارفا، فيه دهاء ومكر[3] .

---

(١) كذا فى س .   (٢) بغير ضبط فى س، والخوى اسم لعدة أماكن ، ومنها بلد من أعمال آذربيجان ينسب اليه الثياب الخوية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢، ص ٥٠٠ — ٥٠٣) .

(٣) يوجد بين الصحفتين ١٦٦ ب، ١٦٧ أ فى س، ورقة عليها ترجمة للبرواناه، وقد جاء فى سياقها سبب قتل الملك أبغا له ، ونصها : " سليمان بن على بن محمد الصاحب معين الدين برواناه بن مهذب الدين . قدم أبوه من بلاد العجم الى الروم، وعلّم أولاد مستوفى الروم القرآن . ثم ناب عنه واستقر مكانه فى أيام السـلطان علاء الدين، فظهرت كفائته فاستوزره . ثم وزر من بعده لابنه غياث الدين حتى سـنة اثنتين وأربعين [وستمائة] ، فوثب من بعده ابنـه سليمان هذا فى وزارته، وعظم شأنه الى أن استولى على ممالك الروم، وصانع التتار . فعمرت البـلاد على يده ، وكاتب السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى؛ فلما دخل السلطان [بيبرس] بلاد الروم، وواقع التتار وعاد ، قدم الملك أبغـا فنسب البرواناه الى أنه هو الذى جسر السـلطان على ذلك . وبكت خواتين أبغـا وشققت ثيابهنّ بين يديه ، وقلن البرواناه هو الذى قتل رجالنا ولا بد من قتـله . فقتله أبغا أشنع قتلة، فإنه قطع يديه ورجليه وهو حىّ ، وألقاه فى قدو وصلقه (كذا) ، وأكل المغل لحمه غيظا وحنقا؛ وقتلوا معه من الروم عدّة خلائق ، وذلك فى سنة ست وسبعين وستمائة . وكان من دهاة العالم وشجعانهم، له إقدام على الأهوال وخبرة بجمع الأموال" . انظر (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٢٧٣، وما بعدها ؛ Enc. Isl. Art. Mu'in al-din Sulaimān Parwāna) .

وفيها عزل نفسه قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز الحنفى من القضاء فى سلخ المحرم، فشغر منصب قضاء الحنفية بعده .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة، فى سادس شهر ربيع الآخر؛ وكان جوادا عارفا بالتاريخ جيّد الكتابة . وتوفى قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن عماد الدين أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الحنبلى وهو مصروف، فى يوم السبت ثانى عشرى المحرم؛ ودفن بالقرافة، وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وتوفى قاضى القضاة بحلب تقىّ الدين أبو عبد الله محمد بن حياة ابن يحيى بن محمد الرّقى الشافعى بتبوك، وهو عائد من الحج . وتوفى الشيخ محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى[1] بن الحسن بن الحسين بن جمعة بن حزام النّووى[2] الشافعى، عن نيف وأربعين سنة، بقرية نَوَى . وتوفى الواعظ نجم الدين أبو الحسن على بن على بن أسفنديار البغدادى بدمشق، عن ستين سنة . وتوفى الشريف شهاب الدين أحمد بن أبى محمد الحسينى الواسطى العراقى، بالإسكندرية . وتوفى الشيخ نظام الدين أبو عمرو عثمان بن أبى القاسم عبد الرحمن بن رشيق المالكى . وتوفى أبو الحسن على بن عدلان بن حماد بن على الربعى الموصلى النحوى المترجم، بالقاهرة .

* * *

سنة سبع وسبعين وستمائة . فى سابع عشرى المحرم عمل عزاء الملك الظاهر، عند تمام سنة من وفاته، بالأندلس[3] من قرافة مصر . ومدّت هناك الأسمطة فى الخيام للقرّاء والفقهاء، وفرّقت الأطعمة على أهل الزوايا؛ وكان من الأوقات العظيمة، لكثرة من اجتمع فيه من

(١) فى س "مرا" . انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٤) .

(٢) بغير ضبط فى س، والنسبة الى نوى المذكورة بالسطر التالى . ونوى اسم لبلدتين، إحداهما من أعمال حوران وبينها وبين دمشق منزلتان؛ والأخرى قرية من قرى سمرقند على بعد ثلاثة فراسخ منها . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٨١٥) .

(٣) كذا فى س .

الناس على اختلاف طبقاتهم . وعُمِــل مجمع آخر بجامع ابن طولون ، وفى الجامع الظاهرى ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الصالحية ، ودار الحديث الكاملية ، والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، والجامع الحاكمى . وعمل للتكارِرة[1] والفقراء خوان حَضَره كثير من أهل الخير .

وفى عاشر جمادى الأولى ولى قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وهيب الحنفى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن العديم بحكم وفاته . فلما مات [صدر الدين] بعد أربعة أشهر ، ولى عوضا عنه فى تاسع عشرى رمضان حسام الدين حسن ابن أحمد بن حسن الرازى ، قاضى الروم الواصل من قيسارية .

وفى ... ...[2] شوال خرج الملك السعيد من قلعة الجبــل يريد التفرج فى دمشــق ، ومعه أخوه نجم الدين خضر ، وأمه وأمراؤه وعساكره ، فدخل إلى دمشق فى خامس ذى الحجة .

وفى سلخ ذى القعدة مات الصاحب بهاء الدين على بن محمــد بن سليم بن حنا ، فكُتب من دمشق بالحوطة على موجوده . وقبض الملك السعيد على الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين ، وأخذ خطّه بمــائة ألف دينار ، (١٦٧ أ) وسـيّره على البريد إلى مصر ، ليستخرج منه ومن أخيه تاج الدين محمــد وابن عمه عز الدين محمد بن أحمد بن على تكملة ثلاثمائة ألف دينار . واستقر فى الوزارة — عوضا [عن] الصاحب بهــاء الدين بن حنا — قاضى القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارى ، وكان بينــه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وحقود كامنة ، فبلغ من التمكّن فى أولاده وأمواله ما كان يؤمّله . وساعده على ذلك عدّة من الأمراء : منهم عز الدين الأفرم ، و بدر الدين بيسرى ، لمـا فى نفوسهم من بهاء الدين بن حنا . وولى وزارة الصحبة فخر الدين بن لقمان ، عوضا عن تاج الدين محمد بن حنا .

(١) التكاررة أهل بلاد التكرور ، وهى أحد الأقاليم الإفريقية الواقعــة فى الجهة الجنوبية الغربيــة من مصر ، وقاعدتهـا مدينة تكرور ، وأهلها أشبه الناس بالزنوج . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦١) .

(٢) بياض فى س ، يسع ثلاث كلمات تقريبا .

وفى سادس عشرى ذى الحجة جلس الملك السعيد بدار العـدل فى دمشق ، وأسقط عن أهل الشام ما كان قد قرّره الملك الظاهر عند سفره إلى بلاد الروم على البساتين فى كل سنة. وفيـه أشار خاصكية السلطان عليـه بإبعاد الأمراء الأكابر عنه ، فجهّز الأمير قلاون الألفى بعسكر ، وجهز الأمير بيسرى بعسكر ، وأنفق فيهـم الأموال . فساروا إلى جهـة سيس ، وفى نفوسهم من ذلك إحن .

وفيها ولى الأمير علاء الدين أيدغدى الكَبْكى (١) نيـابة حلب ، عوضا عن الأمير نور الدين على بن مجلى الهكارى (٢) . (٣) وفيها كثر الرخاء بمصر حتى أبيع ثلاثمائة أردب فولا بمبلغ تسعمائة درهم ، انصرف منها حولة ومكوس ، بحيث لم يتأخر منها غير خمسة وثمـانين درهما . وفيهـا مات عز الدين كيكاوس ملك الروم ، بعد ما جرت له خطوب . فملّك أبغا بن هولاكو من بعـده ابنـه مسعود بن كيكاوس سيواس وأرزن الروم وأَرْزَنْكَانْ (٤) . وفيهـا حصلت زحمة عظيمة بباب العمرة من المسجد الحرام بين الحجاج عنـد خروجهم إلى العمرة بعد صـلاة الصبح ، فمات منهم ستة وثلاثون إنسانا ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى نائب الشام ، فى خامس ربيع الأوّل بالقاهرة ، عن نحو سبعين سـنة (٥) . ومات الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى الصالحى نائب السلطنة ، عن نحو خمسين سـنة . ومات الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى نائب حلب ، وهو مصروف ، عن نحو خمسين سـنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة

(١) كذا فى س ، وهو مترجم الى (Kelbi) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 161) .

(٢) كذا فى س .

(٣) يلى هـذا فى س عبارة ذهب معظم كلماتها ، وأوّلها لفظ " وولى " وهو مشطوب ، وكأن المقريزى تعمّد إزالة العبارة كلها .

(٤) بغير ضـبط فى س ، واسم هـذا البلد أرزنجان بالجيم ، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف كما هنا ، وهى بلدة من أرمينية ، قريبة من أرزن الروم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥) .

(٥) تلى هذه الكلمة وفاة مشطوبة ، ونصها : " ومات الامير بدر الدين محمد بن بركه خان بن دوله خان الططرى الخوارزمى ، خال السلطان الملك السعيد" .

الحنفية بدمشـــق مجد الدين أبو محمد عبـــد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمـــد بن هبة الله بن محمد بن هبـــة الله بن أحمـــد بن يحيى بن العديم، عن أربع وستين ســـنة . ومات قاضى القضاة الحنفية بدمشق صدر الدين أبو الفضل سليمان بن أبى العز بن وهيب الأذرعى، بعد ثلاثة أشهر من ولايتـــه ، عن ثلاث وثمانين ســـنة . ومات الوزير الصاحب بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن سليم بن حنـا، سلخ ذى القعدة . وتوفى مجد الدين أبو عبـــد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبى شاكر بن الظهير الإربلى الحنفى، عن خمس وسبعين سنة بدمشق. وتوفى نجم الدين أبو المعالى محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل الشيبانى الدمشقى الصوفى الأديب، عن أربع وسبعين سنة بدمشق . وتوفى الأديب جمال الدين طه بن إبراهيم ابن أبى بكر الهذبانى الإربلى، بالقاهرة . وتوفى الأديب موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر ابن نصر الله الأنصارى البعلبكى، بالقاهرة (١) .

❖

سنة ثمـــان وسبعين وستمائة . فى المحرم قرر الخاصكية مع الملك الســـعيد القبض على الأمراء عنـــد عودهم من سيس، وعيّنوا إقطاعاتهم لأناس منهـــم ؛ وكان الأمير كوندك النائب مطّلع على ذلك (٢) . واســـتغرق السلطان فى لذّاته، و بسط يده بعطـــاء الأموال الكثيرة لخاصكيته، وخرج عن طريقة أبيه . وفى أثنـــاء ذلك حدث بين الأمير كوندك النائب و بين الخاصكية منافرة ، بسبب أن السلطان أطلق لبعض مماليكه ألف دينار فتوقّف النـــائب

---

(١) فى هذه السنة كان مولد النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب المتداول فى هذه الحواشى، وهو شهاب الدين أحمـــد بن عبـــد الوهاب بن محمد بن عبـــد الدائم بن منجا (كذا) بن على بن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل ابن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وكان مولده بأخميم من صعيد مصر . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٣) .

(٢) تقدمت الإشارة الى مكانة الأمير كوندك هذا عند السلطان الملك السعيد، بسبب صداقتهما منذ الصغر (انظر ص ٦٤٤ ســـطر ٣) ، وقد حفظ السلطان الملك السعيد للأمير كوندك هذه الصداقة أيام سلطنته ، فسمح له "أن يجلس بين يديه ، ولا يوقع لأحد إلا بقلمه وعلمه ، ومكنه تمكينا لم يكن لأحد قبله ؛ وكان [كوندك] ذكيا فطنا" . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٣٠٠) .

فى إطلاقها . فاجتمع الخاصكية عند النائب وفاوضوه فى أمر المبلغ ، وأسمعوه ما يكره وقاموا على حَرَد ، وتكلموا مع السلطان فى عزله عن النيابة فامتنع . وأخذ الخاصكية فى الإلحاح عليه بعزل كوندك ، وعجز عن تلافى أمرهم معه .

وأما الأمراء فإنهم غزوا سيس وقتلوا وسبوا ، وسار الأمير بيسرى إلى قلعة الروم ، وعاد هو والأمراء إلى دمشق ونزلوا بالمرج . فخرج الأمير كوندك إلى لقائهم على العادة ، وأخبرهم بما وقع من الخاصكية فى حقّهم وحقّه ، فحرّك قوله ما عندهم من كوامن الغضب . وتحالفوا على الاتفاق والتعاون ، و بعثوا من المرج إلى السلطان يعلمونه[1] أنهم مقيمون بالمرج ، وأن الأمير كوندك شكى إليهم من لاجين (١٦٧ ب) الزينى شكاوى كثيرة ، " ولابد لنا من الكشف عنها " ؛ وسألوا [السلطان] أن يحضر إليهم حتى يسمعوا كلامه وكلام كوندك .

فلما بلغ ذلك السلطان لم يعبأ بقولهم ، وكتب إلى من معهم من الأمراء الظاهرية يأمرهم بمفارقة الصالحية ودخول دمشق . فوقع القاصد الذى معه الكتب فى يد أصحاب كوندك ، فأحضر إلى الأمراء ووقفوا على الكتب التى معه ، فرحلوا من فورهم ونزلوا على الجسورة من جهة داريا . وأظهروا الخلاف ، ورموا الملك السعيد بأنه قد أسرف ، وأفرط فى سوء الرأى وأفسد التدبير .

فخاف [السلطان] عند ذلك سوء العاقبة ، و بعث إليهم الأمير سنقر الأشقر ، والأمير سنقر التكريتى الأستادار ، ليلطفا بهم و يعملا الحيلة فى إحضارهم ؛ فلم يوافقوا على ذلك . وعادا إلى السلطان فزاد قلقه ، وتردّدت الرسل بينه و بين الأمراء ، فاقترحوا عليه إبعاد الخاصكية ، فلم يوافق . و بعث [السلطان] بوالدته مع الأمير سنقر الأشقر لتسترضيهم ، فحدّثتهم وخضعت لهم فما أفاد فيهم ذلك شيئا ، وعادت بالخيبة .

فرحل الأمراء بمن معهم من العساكر إلى مصر ، وتبعهم الملك السعيد ليلحقهم و يتلافى أمرهم فلم يدركهم ، فعاد إلى دمشق و بات بها . وأصبح [الملك السعيد] يجهز أمه وخزائنه

(١) فى س " يعلموه " .

إلى الكرك، وجمع من بقى من عساكر مصر والشام ، واستدعى العربان وأنفق فيهم، وسار من دمشق بالعساكر يريد مصر، فنزل بلبيس فى نصف ربيع الأول . و[كان] قد سبقه الأمير قلاون بمن معه إلى القاهرة، ونزلوا تحت الجبل الأحمر .

فبلغ ذلك الأمراء الذين بقلعة الجبل، وهم الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، والأمير أقطوان الساقى، والأمير بلبان الزُّرَيْقى (١)؛ فامتنعوا بها وحصّنوها، وتقدّموا إلى متولى القاهرة فسدّ أبوابها . فراسلهم قلاون والأمراء فى فتح أبواب القاهرة ، ليدخل العسكر إلى بيوتهم ويُبْصِروا أولادهم ؛ فإن عهدهم بَعُد بهم . ونزل الأمير لاجين البركاى (٢) وأيبك الأفرم وأقطوان إلى الأمراء لمعرفة الخبر، فقبضوا عليهم وبعثوا إلى القاهرة ففتحت أبوابها، ودخل كل أحد الى داره . وسجن الثلاثة الأمراء فى دار الأمير قلاون بالقاهرة، وزحفوا إلى القلعة وحاصروها، وقد امتنع بها بلبان الزريقى (٣) .

وأما السلطان فإنه لما نزل بلبيس وبلغه خبر الأمراء، خامر عليه من كان معه من عسكر الشام وتركوه فى بلبيس ، وعادوا إلى دمشق وبها الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام ، فصاروا إليه . ولم يبق مع السلطان إلا مماليكه، ومنهم الأمير لاجين الزينى ، ومغلطاى الدمشقى، ومغلطاى الجاكى، وسنقر التكريتى، وأيدغدى الحرانى، والبكى الساقى، وبكتوت الحمصى، وصلاح الدين يوسف بن بركه خان، ومن يجرى مجراهم؛ ولم يبق معه من الأمراء الكبار إلا الأمير سنقر الأشقر فقط . فسار [السلطان] من بلبيس ، ففارقه سنقر الأشقر من المَطَرِيّة (٤)، وأقام بموضعه .

(١) فى س " الزريقى "، ولعل النسبة إلى قبيلة زريق إحدى قبائل الأنصار . انظر ياقوت (معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢٩) .

(٢) فى س "البركخاى"، وقد أثبت الرسم الوارد هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 169)، حيث هذا الاسم مترجم إلى (Berekekhai) .

(٣) فى س "الزريقى" .

(٤) بغير ضبط فى س، وهى قرية بقرب عين شمس القديمة بالشمال الشرقى من القاهرة ، وكانت مشهورة فى عالم القرون الوسطى بالشرق والغرب بشجر البلسان ، الذى يستخرج منه الدهن المعروف بذلك الاسم . انظر ياقوت (معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٥٦٤ — ٥٦٥) .

وبلغ الأمراء أن السلطان جاء من خلف الجبل الأحمر، فركبوا ليحولوا بينه وبين القلعة، وكان الضباب كثيرا فنجا منهم، واستتر عن رؤيتهم وطلع الى القلعة. فلما انكشف الضباب بلغ الأمراء أن السلطان بالقلعة، فعادوا الى حصارها. وعند ما استقر السلطان بالقلعة تشاجر لاجين الزيني مع الزريق[1]، فنزل [الزريق] الى الأمراء وصار معهم، وتبعه المماليك شيئا بعد شيء. وصار السلطان يشرف من برج الرفرف[2] المطلّ على الإسطبل، ويصيح بهم: "يا أمراء! أرجعُ الى رأيكم، ولا أعملُ إلا ما تقولونه"، فلم يجبه أحد منهم. وأظهروا كتبا عنه يطلب فيها جماعة من الفداوية لقتلهم، وأحاطوا بالقلعة وحصروه. وكان الأمير سنجر الحلبي معتقلا بالقلعة، فأخرجه السلطان وصار معه، فاستمر الحصار مدّة أسبوع.

وكان الذى قام فى خلع[4] [السلطان[5] جماعة كثيرة من الأمراء، وهم] الأمير بيسرى، والأمير قلاون، والأمير أيتمش السعدى، والأمير أيدكين البندقدار، والأمير بكاش الفخرى أمير سلاح، والأمير بيليك الأيدمرى، والأمير سنقر البكتوتى، والأمير سنجر طردج، والأمير بلبان الحبيشى، والأمير بكاش (١٦٨ أ) النجمى، والأمير كشتغدى الشمسى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير بجكا العلائى، والأمير بيبرس الرشيدى، والأمير كندغدى الوزيرى، والأمير يعقوبا الشهرزورى، والأمير أيتمش بن أطلس خان، والأمير بيدغان الركنى، والأمير بكتوت بن أتابك، والأمير كندغدى أمير مجلس، والأمير بكتوت جرمك، والأمير بيبرس طقصو، والأمير كوندك النائب، والأمير أيبك الحموى، والأمير سنقر الألفى، والأمير سنقر جاه.

---

(١) فى س "الزريق".

(٢) أورد المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٢ — ٢١٣) تاريخا لهذا البرج من عهد السلطان الملك الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ، ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م)، ونصه "عمره الملك الأشرف خليل بن قلاون (٢١٣) وجعله عاليا ليشرف على الجيزة كلها، وبيّضه وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها. وكان مجلسا يجلس فيه السلطان، واستمر جلوس الملوك به حتّى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وعمل بجواره برجا بجوار الإصطبل، [و]نقل اليه المماليك".

(٣) فى س "ما تقولوه". (٤) فى س "خلعه".

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٢٦).

الظاهرى، والأمير قانجق الظاهرى، والأمير ساطلمس[١]، والأمير بجقار الحموى؛ ومن انضاف اليهم من الأمراء الصغار ومقدمى الحلقة، وأعيان المفاردة والبحرية[٢].

ولما طال الحصار بعث [السلطانُ] الخليفةَ الحاكم بأمر الله أحمد، يقول: "يا أمراء! إيش غرضكم؟" فقالوا: "يخلع الملك السعيد نفسه من الملك، ونعطيه الكرك[٣]". فأذعن السعيد لذلك، وحلف له الأمراء، وحضر الخليفة والقضاة الأعيان، وأنزل بالملك السعيد، وأشهد عليه أنه لا يصلح للملك. وخلع [السعيد] نفسه، وحلف أنه لا يتطرّق الى غير الكرك، ولا يكاتب أحدا من النواب، ولا يستميل أحدا من الجند. وسُفِّر من وقته الى الكرك مع الأمير بيدغان الركنى، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر، فكانت مدّة ملكه من حين وفاة أبيه الى يوم خلعه سنتين وشهرين وثمانية أيام. فوصل الى الكرك وتسلّمها فى خامس عشرى جمادى الآخرة، واحتوى على ما فيها من الأموال وكانت شيئا كثيرا.

ولم يقتل فى هذه الحركة سوى سيف الدين بكتوت الحمصى، فإنه كان بينه وبين سنقرجاه الظاهرى مشاجرة، فلما طلع الملك السعيد إلى قلعة الجبل يوم وصوله من بلبيس صادفه سنقرجاه — وهو من حزب الأمير قلاون ومن معه —، فطعنه فى حلقه فحمل إلى قبة القَلَنْدَرِية[٤]، فمات من يومه ودفن بها. وكانت أيامه رخيّة الأسعار.

---

(١) كذا فى س.

(٢) البحرية هنا طائفة من الأجناد السلطانية، وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان فى السفر كالحرس. انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦)، حيث ورد أيضا أن أوّل من رتّب هذه الطائفة وسماها بهذا الأسم هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٦) فى هذا الصدد أن السلطان الملك السعيد أرسل الى الأمراء أثناء الحصار، "وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك. فالتمس من سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه قلعة الكرك فأجاباه الى ذلك، ونزل من القلعة ...".

(٤) يوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) مكان اسمه زاوية القلندرية، والراجح أنه المقصود هنا؛ وموضع هذه الزاوية خارج باب النصر من الجهة التى فيها الترب والمقابر بالقاهرة، وقد أنشأها الشيخ حسن القلندرى الجوالقى، أحد فقراء العجم القلندرية. أما لفظ القلندرية فنسبة الى مؤسس هذه الفرقة الصوفية، =

السلطان الملك العادل بدر الدين سُلَامِش (١)

[وهو] ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لما تمّ خلع الملك السعيد وسافر إلى الكرك ، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، فامتنع وقال : "أنا ما خلعتُ الملك السعيد طمعا فى السلطنة ، والأَولى ألا يخرج الأمر عن ذرّية الملك الظاهر" . فاستُحْسِن (٢) ذلك منه لأن الفتنة سكنت ، فإنّ الظاهرية كانوا معظم العسكر ، وكانت القلاع بيد نواب الملك السعيد ، وقصد قلاون بهذا القول أن يتحكّم حتى يغيّر النوّاب ويتمكّن مما يريد . فمال الجميع إلى قوله وصوّبوا رأيه ، واستدعوا سلامش ، واتّفقوا أن يكون الأمير قلاون أتابكه ، [وأن يكون] إليه أمر العساكر وتدبير الممالك . فحضر سلامش وله من العمر سبع سنين وأشهر ، وحلف العسكر جميعه على إقامته سلطانا ،

= وهو قلندر يوسف العربى الأصل الإسبانى الموطن ، (انظر Enc. Isl. Arts. Kalandar, Kalandari). وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) هذه الطائفة وصفا وافيا ، ونصه : "القلندرية طائفة تنتمى الى الصوفية ، وتارة تسمى أنفسها ملامتية . وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات (٤٣٣) المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، والتزموا ألا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك . وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد ، سوى ما هم عليه من طيب القلوب . والفرق بين الملامتى والقلندرى أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات . والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ، ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تسترا للحال حتى لا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع الى المزيد من العبادات . والقلندرى لا يتقيد بهيئة ، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا ينعطف إلا على طيب القلوب ، وهو رأس ماله" .

(١) ضبط اسم هذا السلطان على منطوقه فى الترجمة الفرنسية لابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٧).

(٢) لم يقصد الأمير قلاون بامتناعه وتفضيله المبدأ الوراثى أنه كان يحترم هذا المبدأ ، وقد وضح غرضه من هذه العبارة الداهية فيما بعد ، (انظر ما يلى ، سطر ٦) . والواقع أن مبدأ الوراثة لم يكن مقبولا أو معقولا لدى أمراء المماليك ، وقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون المؤهلات للسلطنة عندهم الأقدمية والمهارة الحربية والقدرة على الدس من وراء ستار ، وغير ذلك بما ليس له علاقة البتة بالمبدأ الوراثى ، وتطبيق هذه الضوابط فقط واضح فى تاريخ دولتى المماليك بمصر كله .

وإقامة الأمير قلاوون (١٦٨ ب) أتابك العساكر . ولقبوه الملك العادل بدر الدين ، فاستقر الأمر على ذلك . وأقيم الأمير عز الدين أيبك الأفرم فى نيابة السلطنة، واستقر قاضى القضاة برهان الدين خضر بن الحسن السنجارى فى الوزارة .

وأما عسكر الشام فإنه لما سار من بلبيس ودخل إلى دمشق، كان بحلب الأمير عز الدين إزدمر العلائى ، والأمير قراسنقر المعزى ، والأمير أقوش الشمسى، والأمير برلغوا(١) ، فى نحو ألفى فارس . فساروا إلى دمشق ولقوا العسكر القادم من بلبيس ، فاتفقوا [مع الأمراء الذين(٢) بدمشق] على إقامة الأمير أقوش الشمسى [مقدّما على الجيوش]، والقبض على الأمير عز الدين أيدمر نائب دمشق، [لأنه ترك ابن أستاذه وخامر عليه ورجع من بلبيس] . فأخذه الأمير أقوش إلى داره، فجاء الأمير أزدمر العلائى وركن الدين الجالق إلى دار أقوش، وأخذا الأمير أيدمر وصعدا به إلى قلعة دمشق، وسلّماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري نائب القلعة .

فلما تقرر الحال على إقامة الملك العادل سلامش والأمير قلاون كُتب إلى الشام بذلك، وسار الأمير جمال الدين أقوش الباخلى وشمس الدين سنقرجاه الكنجى بنسخة الأيمان ، فحلف الناس بدمشق كما وقع الحلف بمصر .

وفى النصف من جمادى الأولى، استقر قاضى القضاة صدر الدين عمر ابن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، فى قضاء القضاة بديار مصر، عوضا عن قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين بحكم عزله . وصُرف أيضا قاضى القضاة معز الدين النعمان بن الحسن ابن يوسف الخطيبى الحنفى، وقاضى القضاة نفيس الدين أبو البركات محمد بن مخلص الدين هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى ؛ ثم أعيدا . وولى عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدس الحنبلى ، قاضى القضاة الحنابلة . واستقر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى نيابة السلطنة بدمشق ، فدخلها فى ثامن جمادى الآخرة ومعه

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٧ وما بعدها).

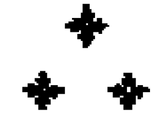
جماعة من الأمراء والعسكر، فعامله الناس معاملة الملوك . وأُنزل الأمير سنجر الدواداري من القلعة لمباشرة الشدّ، وقُرئ تقليد النيابة يوم الجمعة بمقصورة الخطابة، ولم يحضر النائب قراءته.

وفى تاسع رجب قُبض على فتح الدين عبدالله بن محمد بن القيسرانى، وزير دمشق. وفيه استقر الأمير جمال الدين أقوش الشمسى فى نيابة السلطنة بحلب، عوضا عن أيدغدى الكبكى.

وشرع الأمير قلاون فى القبض على الأمراء الظاهرية ، فقبض على أعيانهم وبعثهم إلى الثغور فسجنوا بها ، وأمسك [أيضا] كثيرا من الظاهرية وملأ الحبوس بهم . وأعطى [قلاون] ومنع وقطع ، ووصل واستخدم وعزل ، فكان صورة أتابك وتصرّفه تصرّف الملوك . واشتغل الأمير بسرى باللهو والشرب ، فانفرد الأتابك قلاون بالمملكة وأخذ فى تدبير أحواله . وفرّق [قلاون] الأموال على المماليك واستمالهم، وقرّب الصالحية وأعطاهم الإقطاعات (١٦٩ ا)، وكبّر منهم جماعة كانوا قد نُسوا وأُهملوا ، وسيّر عدّة منهم الى البلاد الشامية واستنابهم فى القلاع ، وتتبع ذراريهم وأخذ كثيرا منهم كانوا قد تعلّقوا بالصنائع والحرف، فرتّب طائفة منهم فى البحرية[1]، وقرّر لجماعة منهم جامكية . فعادت لهم السعادة، وقوى بهم جانبه وتمكّنت أسبابه . ثم جمع [قلاون] الأمراء فى العشرين من رجب، وتحدّث معهم فى صغر سنّ الملك العادل، وقال لهم : "قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل"، إلى أن اتفقوا على خلع سلامش فخلعوه ، وبعثوا به الى الكرك . وكانت مدّة ملكه مائة يوم ، ولم يكن حظه من الملك سوى الاسم فقط، وجميع الأمور الى الأتابك قلاون .

---

(١) لعل المقصود بهذه العبارة أن السلطان قلاون أدمج أفراد تلك الطائفة ، وهم ذرارى المماليك البحرية الصالحية ، ضمن فئة البحرية التى جدّدها فى أوائل سلطنته ، ويوضح ذلك ما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢١٧) فى هذا الصدد، ونصه : "واستجدّ السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سماها البحرية، وهى أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة، فعندما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية، وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف البحرية". غير أنه قد تقدّمت الإشارة إلى استعمال لفظ البحرية للدلالة على طائفة الأجناد المكلفين بالمبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان (انظر ص ٦٥٥)، فلعل المقصود هنا أن السلطان قلاون رتّب ذرارى الصالحية المذكورين فى تلك الطائفة .



كَمُلَ طبع القسم الثانى من الجـزء الأوّل من كتاب
" السـلوك للمقـريزى " بمطبعـة دار الكتب المصـرية
فى يوم الثلاثاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٥ (أوّل سبتمبر
سنة ١٩٣٦) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠/١٩٣٥/١٥٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0412595